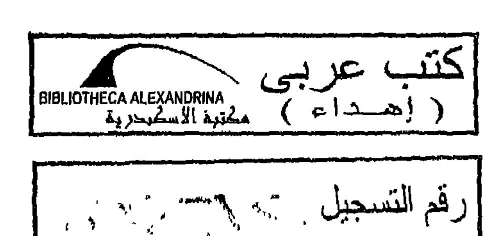
الامبراطورية البيزنطية وحضارتها

دكتور
محمود سعيد عمران
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية







رقم الكتاب : 19128
اسم الكتاب : الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها
المؤلف : د. محمود سعيد عمران
الموضوع : تاريخ
رقم الطبعة : الأولى
سنة الطبع : 2002 م. 1422 هـ
القياس : 17 × 24
عدد الصفحات : 400

منشورات : دار النهضة العربية
بيروت – لبنان

الزيدانية – بناية كريدية – الطابق الثاني
تلفون : 743166/743167/736093-1-961+
فاكس : 735295/736071-1-961+
ص ب : 0749-11 رياض الصلح
بيروت 072060 11 – لبنان
بريد الكتروني : e-mail:darnahda@cyberia.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى ولدي السعيد والمعتز
علامة حنان من أب لأبنائه
ورمز محبة من باحث يحاول وضع لبنة في صرح العلم، إلى
جيل يتمنى له حياة ارحب وأفضل.

محمود سعيد عمران

تقديم

عاشت الأمبراطورية البيزنطية ما يزيد عن إحدى عشر قرناً ونصف من الزمان ، كانت في المرحلة الأولى منها وريثة الامبراطورية الرومانية المقدسة. وكان لموقع الأمبراطورية المتميز ما جعلها على اتصال دائم بالشرق والغرب على السواء ، ثم ما لبثت أن أصبح لها حضارتها الخاصة المختلفة عن الحضارة الشرقية والغربية. وإن كان لموقع الامبراطورية مزية الاتصال بالشرق والغرب ، فإنه من جهة أخرى جعلها محط أطماع ما جاورها من دول. وظل الشرق من ناحية والغرب من ناحية أخرى يقطتع من أراضيها ما أمكنه حتى تقلصت أراضيها وقلت مواردها فعجزت عن صد الأخطار التي حاقت بها ، وسقطت في النهاية على يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م.

والخوض في تفاصيل تاريخ وحضارة الامبراطورية في كتاب واحد أمر يصعب تنفيذه ، لأن مثل هذا العمل يحتاج إلى عدة مجلدات. والحقيقة إن هناك مؤلفات قيمة قام بها المؤرخون الغربيون ، كما قام أيضاً بعض المؤرخين العرب بجهد ممتاز في هذا المضمار رغم قلة عددهم ، ويمكن متابعتهم في قائمة المراجع الملحقة في هذا الكتاب.

ولما كان الاهتمام بدراسة التاريخ البيزنطي يكاد يكون منعدماً في هذه المرحلة ، ولأهمية هذه الدراسة لاتصالها بتاريخ المسلمين في الشرق ، ودول أوروبا في العصور الوسطى ، وما خلفته لنا من حضارة في شتى المجالات ، هذا فضلاً عن تدريس تاريخ الامبراطورية في الجامعات العربية ، رأى الباحث أن يقدم هذا الكتاب في تاريخ الامبراطورية البيزنطية ليكون مدخلاً للتاريخ

السياسي والحربي ، حتى يمكن التعرف على تاريخ الامبراطورية في المجال الداخلي ، وفي مجال اتصال الامبراطورية بالمسلمين بصفة خاصة ، والعالم الذي أحاط بها بصفة عامة .

والله ولي التوفيق

بيروت في ٣٠ / ٩ / ٢٠٠١ محمود سعيد عمران

المقدمة

تعريف بمسمى الامبراطورية البيزنطية

يعتبر تاريخ الإمبراطورية البيزنطية كما يراه بعض المؤرخين مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ولعل ما دفع هؤلاء إلى الأخذ بهذه الفكرة، هو أن الحكام البيزنطيين كانوا يعتبرون ويسمون أنفسهم أباطرة الرومان، وأنهم خلفاء للقياصرة الرومان القدامى، كما أن علاقاتهم بالدول الأخرى كانت تقوم على هذا المفهوم.

ومن هنا نجد أن الإمبراطورية البيزنطية حاولت فرض سيطرتها على الأراضي التي كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية، ولقد كان هذا واضحا في بدايات العصور الوسطى في كل من الشرق والغرب الأوربي. كما أنه وإن كان هذا المفهوم قد إنحسر عن الغرب الأوربي إلى حد ما، فانه كان لا يزال يسيطر على الأباطرة في الجانب الشرقي من الناحية العملية. ومن ذلك ما طلبه الإمبراطور الكسيوس كومنيين Alexius Comnenus (١٠٨١ - ١١١٨ م) من قواد الحملة الصليبية الأولى بأن يقسموا له يمين الولاء والطاعة، وعليهم أن يردوا جميع الأراضي التي كانت تابعة للامبراطورية قبل أن يسمح لهم بالعبور إلى آسيا الصغرى في طريقهم الى الشام. كما أن الامبراطور مانويل Manuel (١١٤٣ - ١١٨٠ م) عندما تحالف مع الصليبيين لغزو مصر عام ١١٦٩ م كان يرى أن مصر كانت تابعة للامبراطورية الرومانية وعليها أن تعود مرة أخرى إلى حظيرة الامبراطورية. والملاحظ أن كتاب ومؤرخي الامبراطورية البيزنطية اعتادوا على استعمال لقب الامبراطور الروماني لكل من يجلس على

عرش القسطنطينية . من ذلك نخلص أن الاباطرة البيزنطيين تمسكوا باستعمال لقب الامبراطور الروماني وأن كتابهم ومؤرخيهم استعملوا هذا اللقب لحكام دولتهم .

أما فيما يتعلق بالمؤرخين الغربيين والباباوات فان من كتب منهم للفترة السابقة لعام ٨٠٠م ـ وهو العام الذي حصل فيه شارلمان Charles The Great (٧٦٨ ـ ٨١٤م) على اللقب الامبراطوري فانه يذكر اللقب الامبراطوري ويقرنه بالحكام الذين جلسوا على عرش القسطنطينية ، ومن ذلك ما كتبه المؤرخ جريجوري التوري Gregory of Tours وهو من مؤرخي العصور الوسطى المبكرة (ت ٥٩٤م) ، فقد كان يطلق لقب امبراطور الرومان على أباطرة الامبراطورية البيزنطية . كما أن المؤرخ الانجليزي بيده Bede (ت ٧٣٥م) عندما تحدث عن قسطنطين الخامس (٧٤١ ـ ٧٧٥م) يقرنه بلقب الإمبراطور الروماني . أما البابا هادريان الأول Hadrian I (٧٧٢ ـ ٧٩٥م) يضاف إلى ذلك : أن عندما كتب إلى شارلمان في عام ٧٨٨ م نجده يضفي اللقب الإمبراطوري الروماني في معرض حديثه على حكام الإمبراطورية البيزنطية .

واختلف الحال تماما في عام ٨٠٠م بعد ما توج شارلمان وحصل على اللقب الامبراطوري ، فنجد المؤرخ اينهارد Einhard (ت ٨٤٠م) ، عندما يتحدث عن الامبراطورة البيزنطية ايرين Irene (٨٩٧ ـ ٨٠٢م) نجده يقول المزعومة امبراطورة الرومان أو التي تُدعى إمبراطورة الرومان . ومن ذلك يتضح أنه أطلق لقب امبراطور على شارلمان ولقب المزعوم أو المدعى امبراطور على الحاكم الذي يجلس على عرش القسطنطينية . ثم تغير الحال تماما عند المؤرخ نفسه عندما تحدث عن الاباطرة اللاحقين للامبراطورة إيرين ، فنجده يستعمل لقب امبراطور القسطنطينية فقط عندما يتحدث عن نقفور الأول Nicephorus I (٨٠٢ ـ ٨١١م) وعن ليو الخامس Leo V (٨١٣ ـ ٨٢٠م) .

وسار على هذا المنهج معظم المؤرخين الغربيين إن لم يكن كلهم ، فنجد على سبيـل المثـال أن المؤرخ الصليـبي فوشيـه أف شارتر Fulcher of Charter

(ت ١١٢٧ م) يكتفي بذكر لقب الإمبراطور عند الحديث عن الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس ، أما المؤرخ الفرنسي أدو أف ديل Odo of Deuil الذي أرّخ للحملة الصليبية الثانية فإنه يتحدث عن الإمبراطور مانويل الأول ويقرنه بلقب إمبراطور اليونان أو إمبراطور القسطنطينية ، أو يكتفي بذكر لقب الإمبراطور . ونلاحظ الشيء نفسه في كتابات المؤرخ أوتو أف فريزنج Oto Of Freising (ت ١١٥٨ م) ، فأطلق على الإمبراطور البيزنطي لقب إمبراطور اليونان ، في الوقت عينه نجده يطلق على فريدريك بارباروسا Frederic Barbaroussa (١١٥٢ - ١١٩٠ م) لقب الإمبراطور الروماني بعد ما توجه البابا هادريان الرابع (١١٥٤ - ١١٥٩ م) في مدينة آخن Aachen عام ١١٥٥ م . ولا يختلف الحال عند المؤرخ الإنجليزي روجر أف وندوفر Roger of Wendover (ت ١٢٣٥ م) ، فانه عندما يتحدث عن الفترة المبكرة للإمبراطورية البيزنطية وفي عهد الإمبراطور هرقل Hercule (٦١٠ - ٦٤١ م) على سبيل المثال فإنه يصفه بالإمبراطور الروماني ، أما عندما يتحدث عن حكام الإمبراطورية البيزنطية في مطلع القرن الثاني عشر فانه يذكر لقب الإمبراطور مضافاً إلى إسم الحاكم ولم يذكر كلمة الروماني مثلما حدث مع الإمبراطور الكسيوس .

واقتفى أثر هؤلاء مؤرخو العصور الوسطى فانهم عندما يتكلمون عن الامبراطور البيزنطي قبل عام ٨٠٠م فانهم يستعملون لقب الامبراطور الروماني للجالسين على عرش القسطنطينية ، أما بعد عام ٨٠٠م فانهم يضفون اللقب على امبراطور الغرب الأوروبي مثل فريدريك الأول بارباروسا وفريدريك الثاني (١٢١٥ - ١٢٥٠ م) ، ومن هؤلاء المؤرخين المؤرخ الفلورنسي جيوفاني فيلاني Giovanni Villani ، كما أن المؤرخين القبارصة وكان الأحرى بهم أن يكونوا أكثر التصاقاً بالإمبراطورية البيزنطية فإنهم ساروا على الدرب نفسه ، فعندما يتحدث المؤرخ مخايراس Makhaeras عن مشروع زواج ابنة الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس باليولوجوس John V Palaeologus (١٣٧٩ - ١٣٩١ م) ، من بطرس الثاني Peter II ملك قبرص (١٣٦٩ -

١٣٨٢ م) فانه يتحدث عنه بلقب إمبراطور القسطنطينية.

أما المصادر العربية وعلى رأسها القرآن الكريم فقد ورد في الحديث عن حروب هرقل مع الفرس كلمة الروم «آلم، غلبت الروم، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون». والمتصفح لصفحات المصادر العربية يجد أن المؤرخين العرب درجوا على إطلاق كلمة الروم على الإمبراطورية البيزنطية ولقب إمبراطور الروم على حاكم هذه الإمبراطورية.

مما سبق نجد أن المصادر البيزنطية تستعمل بل يمكن القول أنها تمسكت بإستعمال لقب الإمبراطور الروماني على حاكم الدولة أو الإمبراطورية الرومانية على الدولة ذاتها طوال عهدها، وأن المصادر الغربية نجدها تستخدم لقب الامبراطورية الرومانية والامبراطور الروماني حتى عام ٨٠٠م، حيث حصل شارلمان على اللقب الإمبراطوري، ثم لقب امبراطور اليونان أو امبراطور القسطنطينية بعد هذا التاريخ. أما المؤرخون العرب فقد استعملوا كلمة الروم. ولا نجد بين سطور هذه المصادر جميعها من بيزنطية أم أوربية أم عربية من يطلق لقب الامبراطور البيزنطي أو يستخدم تعبير الامبراطورية البيزنطية. وعلى ذلك فان هذه التسمية هي من مسميات المؤرخين المحدثين. وهناك تسمية أخرى يفضل بعض المؤرخين المحدثين إستخدامها في الكتابة عن الامبراطورية البيزنطية وهذه التسمية هي الامبراطورية الرومانية الشرقية.

والمسميان المستحدثان لهما ما يبررهما، فعبارة الامبراطورية الرومانية الشرقية مرجعها إلى أن الامبراطورية الرومانية على عهد الرومان القدامى كانت مساحتها تشمل كل أنحاء أوربا والجزر البريطانية بالاضافة الى آسيا الصغرى والشام ومصر والساحل الافريقي حتى المحيط وكانت عاصمتها مدينة روما، وعندما اعترف الامبراطور قسطنطين Constantin (٣٠٦ - ٣٣٧م) بالديانة المسيحية كدين في الامبراطورية عام ٣١٢م ونقل العاصمة من روما الى المدينة الجديدة التي بناها وسميت باسمه وهي القسطنطينية عام ٣٣٠م. بدأت الامبراطورية تتأثر بالحضارة الشرقية، يضاف الى ذلك انه لما تعذر حكم

الامبراطورية مركزيا من القسطنطينية قسمت الامبراطورية اداريا الى قسمين، القسم الشرقي وعاصمته القسطنطينية والقسم الغربي وعاصمته روما، وعندما انهالت جحافل البرابرة على الجانب الغربي وسقطت روما في عام ٤٧٦م وتقطع أوصال هذا الجانب الغربي بقي الجانب الشرقي على حاله تقريبا حتى الفتح الإسلامي، حيث تم فتح الشام ومصر والساحل الافريقي وانضمت هذه الاقاليم للحكومة الاسلامية، وظلت القسطنطينية عاصمة كما هي لبقية الاقاليم الشرقية حتى سقطت على يد الاتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م. وهذا ما دفع بعض المؤرخين الى تسمية الامبراطورية البيزنطية بالامبراطورية الرومانية الشرقية.

ومسمى الامبراطورية البيزنطية هو الآخر من المسميات الحديثة وله ما يبرره، فكلمة بيزنطة مرجعها إلى أن الامبراطور قسطنطين عندما بنى عاصمته القسطنطينية، بناها على أنقاض مدينة قديمة تدعى بيزنطة أسسها بيزاس Byzas قائد المجموعة اليونانية التي هاجرت إلى هذا الموضع في القرن السابع قبل الميلاد، وعرفت المدينة باسم بيزنطة نسبة الى هذا القائد.

وحول هذه المسميات جميعها من قديمها وحديثها نقول ان اسم الدولة يجب ان يرتبط أساسا بعنصرين هما: المساحة الجغرافية التي تسيطر عليها والشعوب التي تعيش على سطح هذه المساحة وحضارتها.

واذا طبقنا هذه القاعدة على المسميات المختلفة نقول أن تسمية الامبراطورية الرومانية وهي التسمية التي تمسك بها الأباطرة البيزنطيون تسمية غير صحيحة، لأن الشعوب التي عاشت على المساحة الجديدة ليست رومانية، ولذا نترك هذه التسمية جانبا، أما فيما يتعلق بمسمى الامبراطورية الرومانية الشرقية فهو أيضا مسمى غير مقبول لأن كلمة رومانية غير صحيحة كما اسلفنا، كما أن استعمال كلمة الشرقية غير مقبولة لأنه لا يوجد امبراطورية رومانية غربية تشمل نصف أراضي الامبراطورية القديمة معاصرة للامبراطورية الشرقية. حقيقة أنه كان في بعض الأحيان إمبراطور في الغرب الأوربي،

ولكنه لم يكن يحكم الغرب كله بل كان يحكم اقاليم محدودة منه ولا يدين له كافة الحكام في الغرب بالولاء والطاعة.

وعن ما يسمى بالامبراطور اليوناني فهو مرفوض أيضاً لأن الشعب لم يكن يونانيا بل كان اليونان يمثلون جانبا محدودا منه. وبخصوص ما ورد من تسمية الامبراطور البيزنطي بامبراطور القسطنطينية فهو غير مقبول أيضاً من الناحية التاريخية، لأن مساحة الدولة لم تكن قاصرة على مدينة القسطنطينية، وأن المؤرخين الذين أضفوا هذه التسمية على الامبراطور البيزنطي أطلقوها عليه من قبيل التحقير والتقليل من شأنه، خاصة عندما إشتد العداء الديني بين الشرق والغرب، وزاده ا في استعماله إبان فترة الحروب الصليبية عندما كان الغرب الأوربي يُرجع أسباب فشل الحملات الصليبية إلى الامبراطورية البيزنطية.

والآن ونحن أمام تحديد مسمى معقول وواقعي لهذه الإمبراطورية، نقول إمبراطورية لانها تحكمت على الاقل في اقاليم شملت شعوبا متعددة منها اليونان والبلغار وسكان آسيا الصغرى وإمتد نفوذها إلى الزوسيا، أما عن إقران كلمة الرومانية بالامبراطورية فسبق أن فندنا هذه التسمية. حقيقة أن الامبراطورية تمسكت بالتراث الروماني، ولكن ذلك كان في أول عهدها، ولكنها ما لبثت ان ابتعدت عنه تدريجيا، ومع مرور الزمن أصبح لها خصائص جديدة وتغلبت عليها الحضارة الهلينستية كما انها استحدثت اللغة اليونانية بدلا من اللاتينية، هذا فضلا عن اعتناقها للديانة المسيحية على المذهب الارثوذكسي بعكس الغرب الأوربي الذي دان بالمذهب الكاثوليكي.

وعلى ذلك فان تسمية الامبراطورية البيزنطية هي أنسب التسميات لهذه الامبراطورية. ورغم أن هذه التسمية من المسميات الحديثة الا انها تحدد كيان امبراطورية لها مساحتها الجغرافية وتقاليدها وحضارتها على العكس من المسميات الاخرى التي يتداخل مفهومها مع مفاهيم أخرى.

وبعد ما تناولنا بالتحليل مسمى الامبراطورية البيزنطية نجد أن بدايتها

مرتبطة إلى حد كبير بعنصرين أساسيين هما: نقل العاصمة من روما الى القسطنطينية والاعتراف بالديانة المسيحية، وطالما أن الامبراطور قسطنطين هو الذي بنى العاصمة الجديدة وهو الذي اعترف بالديانة المسيحية ،فان بداية التاريخ البيزنطي تكون عصر قسطنطين المعروف باسم قسطنطين العظيم. ولما كان من المسلم به لدى المشتغلين بالعلوم التاريخية ان التحول من عصر إلى عصر لا يتم بين يوم وليلة أو في سنة معينة ،فانه أصبح من الضروري أن نعود الى الوراء قليلا ونتعرف على الاحوال التي كانت سائدة قبيل عصر قسطنطين، وليكن ذلك مقدمة لتاريخ الامبراطورية البيزنطية.

الفصل الاول

عصر دقلديانوس وقسطنطين الأول وخلفائه
٢٨٤ - ٣٧٨ م.

دقلديانوس Diocletian ٢٨٤ ـ ٣١٣م

ولد دقلديانوس بالقرب من مدينة سالونا Salona في إقليم دالماشيا عام ٢٤٥م، وقد أطلق إسمه على مدينة صغيرة تقع في هذا الإقليم، حيث كان مسقط رأس أمه. وكان والداه عبدان في بيت أنولينوس Anulinus أحد أعضاء مجلس السناتو. وعلى ما يبدو أن والده حصل على حرية الأسرة، وأن دقلديانوس قد حصل على وظيفة كاتب، وهي من الوظائف التي يمكن أن يشغلها أمثال دقلديانوس. وبفضل جهوده ونبوغه وصل إلى مرتبة القنصل، ثم تولى وظيفة قائد حرس القصر الإمبراطوري وهي من الوظائف الخطيرة، وتجلت كفاءته العسكرية في حرب فارس. وبعد موت نومريانوس Numerianus (٢٨٣ ـ ٢٨٤م) اعترف به بأنه أجدر شخص بعرش الإمبراطورية.

ويبدو ان أول ما قام به دقلديانوس هي تعيين مكسيميان Maximian زميلا له في الحكم، وبذلك حذا حذو ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٦١ ـ ١٨٠م) ومنحه لقب قيصر Caesar في بداية الأمر، ثم أضفى عليه لقب أوغسطس Augustus فيما بعد، والواقع أن مكسيميان كان صديقا لدقلديانوس ورفيقه في السلاح.

قام دقلديانوس ببعض الاصلاحات ليواجه بها الأزمة التي انتابت الامبراطورية،فأعاد النظر في نظم الامبراطورية والغى ما اعتبره فاسدا وابقى على ما رآه غير ذلك، واستحدث بعض التنظيمات التي رأى انه يستطيع بها حل

مشاكل الامبراطورية. واستهدفت اصلاحات دقلديانوس تقوية سلطة الامبراطور، واقامة جهاز اداري دقيق يمكنه من السيطرة على شئون الامبراطورية، والفصل بين السلطة العسكرية والمدنية. وقد رأى دقلديانوس أيضا ان الامبراطورية التي يهاجمها البرابرة من كل جانب تتطلب قوة عسكرية كبيرة في كل موضع من المواضع المعرضة لغاراتهم. لذلك كله قسم دقلديانوس الامبراطورية الى قسمين شرقي وغربي، حكم كل منهما حاكم يحمل لقب أوغسطس، وتولى دقلديانوس القسم الشرقي بينما تولى مكسيميان القسم الغربي. وتم تقسيم الامبراطورية الى أربعة أقسام ادارية عرفت باسم Préfecture، الاولى منها هي إيطاليا وعاصمتها ميلان Milan، والثانية غالة وعاصمتها تريف Triev الواقعة على نهر الراين، والثالثة إلليريا Illyricum وعاصمتها سرميوم Sirmium وهي بلغراد الحالية. أما الرابعة منها هي الجانب الشرقي وعاصمتها نيقوميديا الواقعة على الشاطىء الآسيوي للبسفور. هذا وتولى وظيفة القيصرين جاليروس Galerius الذي تبناه دقلديانوس وقسطنطيوس Constantius الذي تبناه مكسيميان. وألزما كل من القيصرين بطلاق زوجته والتزوج من ابنة متبنيه، واقتسم هؤلاء الأربعة الامبراطورية فيما بينهم، فتولى قسطنطيوس مهمة الدفاع عن غالة واسبانيا وبريطانيا واتخذ من تريف مقراً له، واعتبرت إيطاليا وشمال أفريقيا في نطاق حكم مكسيميان وإتخذ من ميلان مركزا لحكمه، أما دقلديانوس فاحتفظ بإقليم تراقية Thrace وآسيا الصغرى ومصر، وحكم جاليروس إلليريا وأقام في سرمبوم الواقعة على نهر الدانوب. وكان كل من الحكام الأربعة سيداً في نطاق اقليمه، ولكن سلطتهم المتحدة إمتدت على الإمبراطورية بأكملها، وكانت القرارات والأوامر تصدر باسمهم جميعاً. ويلاحظ أن هذا التقسيم لم يتم إلا بعد إشتراك مكسيميان في الحكم لست سنوات.

وكان النظام الرباعي يقضي بأنه عندما يعتزل الاوغسطس الحكم يخلفه القيصر الذي يرقى إلى أوغسطس ويعين لمساعدته قيصرا جديدا وهكذا تباعا. اما الجيش فكانت قواه موزعة بين شركاء الامبراطورية الأربعة. ورغم كل

هذه الاحتياطات ذابت الوحدة السياسية في العالم الروماني شيئا فشيئا وساد مبدأ التقسيم الذي كان سببا في الفصل الدائم بين اجزاء الامبراطورية في بضع سنين قليلة. وثمة عيب آخر الى جانب نزعة التقسيم وهو فداحة تكاليف الادارة الحكومية الجديدة مما أدى إلى زيادة الضرائب.

وعلى أية حال فان تجربة دقلديانوس لم تلق النجاح المرجو رغم فكرتها الرائعة، فالى جانب المشاكل المتأصلة ابتليت الامبراطورية بعدة نكبات، منها هجمات البرابرة المستمرة على الحدود، وقيام الحرب الأهلية. وهذا بدوره أدى الى تفشي الطاعون ونقص عدد السكان وضعف النجارة والصناعة. وترتب على ذلك أيضاً زيادة الأسعار بدرجة كبيرة أدت إلى نقص قيمة العملة مما دفع دقلديانوس الى إصدار القرارات الخاصة بتحديد أسعار السلع والمواد الغذائية، ووضع العقوبات لكل من يخالف ذلك ولكن دون جدوى. وكان من أكبر المشاكل التي سادت عهد دقلديانوس مشكلة المسيحية التي عارضها الامبراطور بعنف حتى أنه صادر أملاك الكنائس ومنع المسيحيين من إقامة شعائرهم والزمهم بعبادة الأوثان. وكان من تعسف دقلديانوس مع المسيحيين أن اطلق على عصره عصر الشهداء.

وفي عام ٣٠٥ م اعتزل دقلديانوس الحكم وعمره تسعة وخمسين عاما بعد ان اصيب بعلل الشبخوخةالمبكرة ،وقضى دقلديانوس اعوامه التسعة الاخيرة من عمره معتكفا عن الحياة العامة. وفي الوقت نفسه اعتزل مكسيميان الحكم في ميلان وفقا لاتفاق سابق مع دقلديانوس.

قسطنطين الكبير Constantin the Great
(٣٠٦ - ٣٣٧م)

تمثل العيب الأساسي في نظام الحكم الرباعي في أنه كان لمكسيميان ابنا هو مكسنتيوس Maxentius، وكان لقسطنطينوس ابنا هو قسطنطين، وتحكم في كلاهما العطف الأبوي على نظام الانتخاب، وحاول جاليروس أن يفرق بين

قسطنطينوس وابنه، ولكن هذه المحاولات لم تفلح ولحق قسطنطين بأبيه في الجزر البريطانية. وعندما مات الوالد في مدينة يورك York نادت الحامية الرومانية بقسطنطين أوغسطسا.

وفي الوقت عينه أقام مكسنتيوس نفسه حاكما على ايطاليا وافريقيا واتسم حكمه بالطغيان فنفرت منه الرعية، وكان في ذلك فرصة طيبة لقسطنطين الذي زحف بجيشه وتولى إدارة غاله، ثم ما لبث أن غزا إيطاليا وهزم مكسنتيوس وقتله عند جسر ميلفيان Milvian عام ٣١٢م خارج مدينة روما، وأعدم أبناءه ونكل بكل من ينتمي إليه، وتوقع أعوانه أنهم ملاقون نفس المصير. ولكن قسطنطين الذي إمتاز بخططه الدفاعية البارعة في الحرب إمتاز أيضاً بالمناورات السياسية في السلم فأصدر عفواً عاماً هدأت به الخواطر. وعندما زار مجلس السناتو أكد إحترامه لهذا المجلس ووعد بتدعيم مكانته وإمتيازاته القديمة، ورد المجلس على هذا بإصدار مرسوماً يقضي بتعيين قسطنطين في المكان الأول بين الأباطرة الذين يحملون لقب أوغسطس. وواقع الأمر لم يكن قسطنطين في حاجة إلى مثل هذا المرسوم لأن المجلس لم تعد له سلطة فعالة بل كانت السلطة الحقيقية في يد قسطنطين معتمداً على رجال الجيش وعلى النصر الذي أحرزه على منافسيه.

ويلاحظ أنه في الفترة الممتدة من ٣٠٥ - ٣١١ م وهي الفترة المضطربة التي تلت إعتزال دقلديانوس ومكسيميان، كان يحكم الإمبراطورية جاليروس بالاشتراك مع قسطنطيوس الأول وسيفريوس الثاني Severus II وليسينوس Licinius وقسطنطين الأول ومكسيميان في فترات مختلفة. ومنذ عام ٣٠٩ م كان هناك ستة حكام يحملون لقب أوغسطس، ثم إنفرد قسطنطين الأول وليسنيوس بالحكم من ٣١٢ - ٣٢٤ م، وساد هذه الفترة أيضاً الفوضى والاضطراب والحرب الأهلية نتيجة لمطامع كل منهما، ونشبت الحرب الأهلية من جديد وإنتصر قسطنطين على منافسه عام ٣٢٤ م وإنفرد بالسيادة على الإمبراطورية بعد معركتي ادرنة Adrianoph وكريسبوليس Chrysopolos ،

وانتهى الأمر بموت ليسينوس. وألغى قسطنطين النظام الرباعي وعين حكاماً يساعدونه في إدارة شؤون الإمبراطورية. ويلاحظ أنه قبيل وفاة قسطنطين تم إعادة تقسيم الإمبراطورية من جديد، وفي هذه المرة قسمها بين أولاده لكي يجنب البلاد النزاع الدموي، ولكن الخلافات ما لبثت أن قامت بين أولاده ونتج عنها ألفوضى والاضطراب، ورغم هذا فان مبدأ تقسيم الامبراطورية إلى أقاليم أصبح المبدأ السائد فيما بعد.

شخصية قسطنطين

أعطت الطبيعة شخص قسطنطين وعقله أثمن ما لديها، فكان فارع الطول مهيب الطلعة. محمود السيرة، واحتفظ منذ طفولته حتى آخر ايام حياته بقوته وصحته بفضل ما التزم به من العفة وضبط النفس، وكان بشوشا سمحا يمزح في تحفظ، ولم يكن لقلة تعليمه أثر على تقديره للعلم والتعليم، ولذلك حظت العلوم والفنون في عهده بالتشجيع والرعاية. وكان عندما يعمل فهو يعمل دون كلل أو ملل، وكانت له عزيمة ماضية. فكان يقرأ ويكتب ويفكر ويستقبل السفراء وينظر في شكاوى رعاياه. وكان عندما يتبنى مشروعا فانه يعمل فيه بكل حواسه ولا يعوقه عنه عائق. وفي ميدان المعركة فقد كان قائدا يقود رجاله في عزم. وكان طموحا إلى أبعد الحدود وعرف كيف يضع يده على نبض امبراطوريته وهي في محنتها. ويبدو أن ذلك قد ملك حواسه منذ اللحظة التي نادت به الحامية الرومانية في انجلتراأوغسطسا ،لانه كان مدركا لما تنطوي عليه نفسه من مواهب وتطلعه الى انه سوف ينجح في حروبه ضد منافسيه لتفهمه لروح شعب الإمبراطورية ،التي قارنت بين حكمته وعدالته وبين الرذائل المتأصلة في منافسيه مكسنتيوس وليستيوس. لذلك يمكن القول أن نجاحه ينسب إلى قدراته أكثر مما ينسب الى حظه.

وواقع الأمر أن الحديث عن الامبراطور قسطنطين وكيفية توليه العرش الامبراطوري وعن شخصيته وعهده تضيق بها هذه الصفحات، لذلك فاننا نكتفي بالقاء الضوء على عملين من أهم اعماله، وهما اللذان يعتبران بداية

للامبراطورية البيزنطية. أولهما: الاعتراف بالديانة المسيحية، وثانيهما بناء مدينة القسطنطينية لتكون عاصمة جديدة للامبراطورية.

ألاعتراف بالديانة المسيحية

المقصود بالاعتراف بالديانة المسيحية هو أن قسطنطين اعلن الاعتراف بالديانة المسيحية كدين داخل الامبراطورية وليس دينا رسميا، والأمر الأخير تم في وقت لاحق لعهد قسطنطين، أما مسألة إعتناق قسطنطين المسيحية فهو موضوع آخر وسوف نتناول كل موضوع منهما على حدة.

١ - الاعتراف بالمسيحية ديناً داخل الامبراطورية

عندما اعتلى قسطنطين العرش البيزنطي كانت الديانة المسيحية قد تغلغلت في كيان الامبراطورية منذ حوالى ثلاثة قرون، وقد حاول بعض الأباطرة القضاء على هذه الديانة بالعنف والدم مثل دقلديانوس وجالريوس. فقد كان جالريوس رجلا دمويا شديد البأس على المسيحيين ولم تجد قسوته نفعا بل انتشرت المسيحية أكثر من ذي قبل. وقد وجد جالريوس نفسه بعد سنوات من الاضطهاد أن سياسة العنف هذه سياسة فاشلة، واقتنع آخر الأمر بأن العنف والاستبداد لا يقضيان على شعب بأسره وعلى معتقداته الدينية. ولعل ذلك ناتج عن إعتلال ألم بصحته لفترة لبست بقصيرة، فأصدر عن طيب خاطر - لاصلاح ما أفسدته يداه - مرسوما عاما يحمل إسمه وإسم ليسينوس. ومن هذا المرسوم «... لقد اتجهت ارادتنا الى بسط مزايا رأفتنا المألوفة على هؤلاء الافراد المسيحيين التعساء، ولذلك نرخص لهم في إعلان آرائهم الخاصة في حرية تامة، وفي عقد اجتماعاتهم السرية دون خوف أو ازعاج شريطة أن يظهروا دوما الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة، وإنا لنأمل أن يكون تسامحنا دافعا الى الصلاة والتضرع الى الإله الذي يعبدوه من أجل سلامتنا ورخائنا وسلامتهم ورخائهم وسلامة الجمهورية ورخائها».

وعلى ما يبدو أن أعوان جالريوس لم ينشروا هذا المرسوم كما هو، وانما

نشروا تعليمات الى حكام الولايات تحدثوا فيها عن رفق الاباطرة بالمسيحيين وأشاروا فيه على رجالهم بوقف محاكمة المسيحيين وغض الطرف عن الاجتماعات السرية. واعقب ذلك إطلاق سراح المعتقلين منهم، ولكن ذلك لم يدم طويلا بسبب حكم جالريوس القصير ٣٠٥ - ٣٠٦ م وما تبع ذلك من اضطرابات داخل الامبراطورية.

مرسوم ميلان ٣١٢م

بعد ما انتصر قسطنطين على منافسيه في موقعة ميلفبان عام ٣١٢ م أعلن الامبراطور قسطنطين مرسوم ميلان الشهير الذي أعاد السلام والهدوء الى الكنيسة المسيحية. وواقع الأمر ان قسطنطين لم ينفرد باصدار هذا المرسوم، بل شاركه في مسئوليته شريكه في الحكم على النظام الدقلديانوسي الاغسطس لسينيوس، وقد استقبل هذا المرسوم على انه قانون أساسي من قوانين العالم الروماني، ومن هذا المرسوم:

«عندما تقابلنا نحن قسطنطين أوغسطس ولسينيوس أوغسطس في ميلان مكللين بالرعاية والعناية، أخذنا نبحث في جميع الوسائل الخاصة بالصالح العام لرعايانا. ومن هذه المسائل التي تهم الكثيرين وتعود بالنفع عليهم مسألة حرية العقيدة. لذلك قررنا إصدار مرسوم يضمن للمسيحيين وكافة الطوائف الاخرى حرية إختيار وممارسة العقيدة التي يرتضونها، وبذلك نضمن رضاء جميع الآلهة والقوى السماوية علينا، كما نضمن رضاء جميع رعايانا ممن يعيشون في كنف سلطاننا. وهكذا قررنا عن ثبات وتعقل ألا يحرم أي فرد كائنا من كان من إختيار المسيحية ديانة له. ولكل فرد الحرية في إختيار الدين الذي يناسبه. وبذلك نضمن استمرار تأييد الرب لنا بنفس الكرم والقوة اللذين تعودناهما منه... وهذا المرسوم الذي صدر من فيض كرمنا يجب ان يذاع على الجميع ويجب أن يحاط به الجميع علما وينشر في كل مكان حتى لا يفوت أحد الأخذ به.

والنص الخاص بالفقرة الاخيرة كما هو منشور باللغة الانجليزية كالآتي :

So that the form of this ordinance and of our benevolence may come to the attantion of all men. It will be convenient for you to promulgate these letters everywhere and bring them to the knowledge of all, so that ordinance of our benevolence may not be hidden.

وعلى ذلك فنحن أمام الحقائق التالية :

١ - ان المسيحية ظلت حركة سرية منذ بدايتها حتى اعلان مرسوم ميلان عام ٣١٢ م .

٢ - تتناول بعض الاباطرة المسيحيين بالاضطهاد والتعذيب وغالى بعضهم في ذلك .

٣ - لم يكن مرسوم ميلان اول مرسرم بالتسامح مع المسيحيين بل سبقه المرسوم الذي حمل إسم جالريوس ولسينيوس .

٤ - ان مرسوم جالريوس لم يعمل به لقصر مدة حكم الامبراطور .

٥ - لعل في العبارة الاخيرة الواردة في مرسوم ميلان ما يؤكد ذلك وان عبارة Not be hidden تشير إلى الخوف من سابقة حدثت تحوم حول ما تنطوي عليه هذه العبارة من معنى ويخشى تكرارها .

٦ - إن مرسوم ميلان لم يصدره قسطنطين منفرداً بل صدر منه ومن شريكه في الحكم لسينيوس .

واستكمالاً لمحتوى مرسوم ميلان نقول أن المرسوم قضى برد كل الحقوق الدينية إلى المسيحية التي كانوا حرموا منها ظلما وعدوانا ، ونص على أن تعاد للمسحيين كل أماكن عبادتهم والأراضي العامة المصادرة دون جدل أو ابطاء أو تكلفة . واقترن هذا الانذار الصارم بوعد كريم يقضي بأن يدفع - لمن اشتروا املاك الكنيسة ودفعوا مبالغ كبيرة - تعويض من خزانة الامبراطورية ..

ومع تتبع قضية الاعتراف بالمسيحية ندخل في قضية أخرى ، وهي متى أصبح قسطنطين مسيحيا؟ لعل النصوص التي تركها المؤرخون المعاصرون لعصر قسطنطين هي التي أوجدت جدلا حول هذا الموضوع . فنجد أحدهم يسجل ان الامبراطور اعتنق المسيحية منذ اللحظة الاولى من حكمه ، بينما يرى آخر ان ايمان قسطنطين مرجعه الى شارة الصليب التي ظهرت في السماء عام ٣١٢م . وموجز هذه الرواية ان قسطنطين عندما كان يعد العدة للقاء منافسه مكسنتيوس شهد في السماء راية الصليب وعليها طرة نصها «عز نصره» ، مكتوبة بأحرف من نور ، وان الامبراطور اتخذ تلك الطرة شعارا للوائه في حروبه . وهناك رواية ثالثة تختلف عن هذه وتلك ، ورابعة تقول ان قسطنطين لم يعمد الا على فراش الموت ، وانه تلقى في النزع الأخير التعاليم المسيحية حيث وضع الاسقف يده على رأسه وأتم اجراء الطقوس الدينية ،ثم ما لبث ان اسلم الامبراطور الروح . ولعل ما دفع المؤرخين الى هذا الخلط وتعدد رواياتهم سلوك قسطنطين نفسه .

والواقع أن هناك تدرج بطيء غير محسوس إنتهى باعلان قسطنطين نفسه حاميا للمسيحية . فلقد كان من الشاق على قسطنطين ان يمحو من ذهنه ما تلقنه من عادات ومعتقدات وثنية ، وأن يؤمن بالديانة المسيحية ويعلن ذلك بين يوم وليلة ، فلقد علمته ايضا التأملات التي يحتمل انها شغلت ذهنه أن يسير بخطى حذرة في تغيير الديانة الوطنية وهو تغيير له خطره وأهميته . والخلاصة ان تيار المسيحية تدفق طوال سني حياته في حركة هادئة وإن كانت سريعة الخطى . ولكن حذر قسطنطين عوق تارة وانحرف تارة اخرى بالاتجاه العام للمسيحية . فلقد وازن قسطنطين دائما بين آمال رعاياه وبين مخاوفهم ، ومن ذلك أنه كان يصدر مرسومين في وقت واحد ، الأول ينص على الاهتمام الشديد بيوم الأحد وفي ذلك نصرللمسيحيين ، والثاني يحض على استشارة العرافين وفي ذلك نصر للوثنية . ولا شك ان مثل هذه الأمور جعلت المواطنين من مسيحيين ووثنيين يرقبون سلوك إمبراطورهما بنفس القدر من القلق وإن اختلفت مشاعر كل منهما .

واستكمالا لهذه القضية نضع سؤالا نقول فيه، ما هي الدوافع التي دفعت قسطنطين الى الاعتراف بالمسيحية؟ اختلفت الآراء حول هذه الدوافع، فالبعض يرى أن قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية عن إقتناع وعن ايمان وحجتهم في ذلك منبثقة من خُلق قسطنطين وتصرفاته إزاء المسيحيين. ومن ذلك مثلا بناء العديد من الكنائس. والرأي المضاد يعتمد على تصرفات قسطنطين تجاه الوثنية التي لا تقل سخاء عن ما قدمه للمسيحيين. ويرى فريق ثالث أن إيمان قسطنطين بالمسيحية مرجعه الدوافع السياسية وعلى رأس هذه المجموعة المؤرخ هنري جريجوار Henry Gregoire، فيقول هنري في معرض حديثه عن فترة حكم قسطنطين من كان يريد الشرق فعليه أن يكون مسيحيا أو صديقا للمسيحيين. ولم يكن قسطنطين يستطع أن يسيطر على الشرق وهو الجزء الغني من الامبراطورية برجاله وموارده إلا بمهادنة المسيحيين، خاصة في الوقت الذي بدأت فيه العناصر الجرمانية تتحرك صوب غرب الامبراطورية.

وفي نهاية الأمر نستطيع القول ان قسطنطين كان رجلا على مستوى عال من الذكاء فلم يكن يستطيع أن يعلن أنه مسيحي فيغضب الوثنيين ولم يكن يستطيع ان يعلن انه باق على وثنيته وفي هذه الحالة يتطلب الأمر منه ان يتخذ موقفا من المسيحيين وهذا ما لم يحدث، بل انه عايش الاثنين معا وانه كان يميل الى المسيحية شيئا فشيئا حتى اصبح في آخر الأمر مسيحيا.

٢ - بناء القسطنطينية

دأب قسطنطين وتبعا لدواعي الحرب والسلم على التحرك في يقظة تامة على حدود مملكته الشاسعة. وكان دوما على أهبة الاستعداد لملاقاة أي عدو خارجي أو داخلي. وعندما تقدمت به الايام بدأ يتدبر مشروعا تستقر به قوة العرش الإمبراطوري في مكان أشد ثباتا من روما، وبدأ يفكر في بناء عاصمة جديدة للامبراطورية. ولم يكن موضع القسطينطينية هو الموضع الاول الذي اختاره قسطنطين في بداية الأمر، فقد طرأت على ذهنه عدة أماكن لتكون مقر حكمه الجديد، فنجد انه نظر الى مسقط رأسه مدينة نيش Nis الواقعة على

نهر مورافا Morava شمال شبه جزيرة البلقان، ومدينة سرديكا Sardica (صوفيا Sofia الحالية) ومدينة نيقوميديا التي اتخذها دقلديانوس من قبل. ولما كان قسطنطين يفضل منطقة الحدود بين أوربا وآسيا ليتمكن من ضرب البرابرة الذين كانوا يقطنون الدانوب، ويراقب بعين ساهرة تحركات الفرس، فلقد كانت نيقوميديا أنسب المدن لتكون عاصمة الامبراطورية. ولما كان قسطنطين لا يريد ان يربط مدينته الجديدة بذكرى دقلديانوس، لذلك آثر اختيار موضعا آخر يرقب منه تحركات الفرس والبرابرة، وكان هذا الموضع هو قرية بيزنطيوم التي بنى على انقاضها مدينة القسطنطينية.

وموقع المدينة الجديدة في شكل مثلث على خليج البسفور يلتقي طرفه المنفرج الذي يمتد شرقا الى شواطىء آسيا بأمواج البسفور، وتحد الميناء الجزء الشمالي من المدينة، أما الجنوب فتحفه مياه بحر مرمرة، ومن ناحية الغرب فتقع قاعدة المثلث التي تواجه قارة أوروبا. واكتسب ميناء القسطنطينية إسم القرن الذهبي لأن الانحناء الذي يرسمه يمكن تشبيهه بقرن الغزال، ولفظ ذهبي يعبر عن الثروة التي تدفقت على المدينة من أقصى الأرض الى ثغر المدينة الواسع الآمن، لأن الميناء كان واسعا ومناسبا جدا لعملية الشحن والتفريغ حيث يندر حدوث المد والجزر. وكان طول لسان البسفور من مصب نهر ليكوس Lycus ـ الذي يمد المدينة بالماء العذب ـ الى الميناء أكثر من سبعة أميال ويبلغ عرض المدخل نحو خمسمائة ياردة، ويمكن عند الضرورة وضع سلسلة متينة تحمي الثغر والمدينة من هجوم أي اسطول معاد كما كان الحال في مدن العصور الوسطى مثل مدينة دمياط في مصر.

والعاصمة الجديدة تقع على خط عرض ٤٣ وخط طول ٢٩ وتسيطر المدينة على تلولها السبعة وهي تتمتع بمناخ صحي معتدل وتربة خصبة ومدخلها الى القارة الاسيوية قصير المدى، والدفاع عنه ميسور. كما أن خليجي البسفور والدردنيل يعتبران بوابتين للقسطنطينية ويستطيع من يسيطر عليها أن يغلقهما في وجه أي اسطول معاد ويفتحهما في وجه السفن التجارية، وما يتبع

ذلك من تدفق الثروات الطبيعية والمصنوعات من الشمال والجنوب عبر البحر الاسود والبحر المتوسط.

لعل في كل ما سبق مبررا كافيا لاختيار قسطنطين لهذا الموقع، ولكن ثمة مزيج من المعجزة والخرافة كان يعكس في كل عصر قدراً من العظمة على نشأة المدن الكبرى. ولهذا نرى قسطنطين ينسب اختيار هذا المكان الى القوة الالهية،واهتم بأن يسجل في ايجاز بانه امتثالا لاوامر الله ،وضع الأساس الخالد لمدينة القسطنطينية، واستطرد خيال الكتاب اللاحقين لعصره وسجلوا ان شبحا تراءى ليلا لقسطنطين وهو نائم في رحاب بيزنطة ،وقالوا ،ان ربة المدينة وحارستها وهي سيدة عجوز تحولت فجأة الى شابة ظهرت في أزهى زينتها حين البسها الامبراطور بيديه شارات الإمبراطورية ،وافاق قسطنطين من نومه وفسر الفأل السعيد وامتثل لارادة السماء دون تردد. ووردت أسطورة اخرى تقول ان الامبراطور سار على قدميه تتبعه حاشيته كلها، ورسم بحربته الخط الذي يجب بناء التحصينات الجديدة بحذائه، ولما سار غربا على ساحل القرن الذهبي وابتعد عنه ميلين قال له رجاله، لقد تجاوزنا الحدود التي تتطلبها المدينة ولكن قسطنطين أجاب: «سأسير في طريقي حتى يرى الدليل الخفي الذي يسير أمامي انه من المناسب أن أتوقف».

على أية حال إختيرت قرية بيزنطة موقعا للمدينة الحديثة، ولما كان أساس الاختيار عسكريا، فانه رغم موقع المدينة الحصين فقد حصنت أيضا بالأسوار وأنفق قسطنطين على المدينة بسخاء لبناء الاسوار والاروقة وقناطر المياه، وعمل جمع غفير من العمال والصناع في بنائها الذي استمر من عام ٣٢٤ - ٣٣٠م. ولما حان موعد الاحتفال بذكرى مولد المدينة وهو الحادي عشر من مايو عام ٣٣٠م وضع على عربة من عربات القصر تمثال قسطنطين الذي صنع بأمر منه من الخشب المموه بالذهب، وسارت مواكب الحراس حاملة الشموع المضاءة مرتدية أثمن الثياب، وفي اليوم نفسه نقش على عامود من الرخام مرسوم إمبراطوري يخلع اسم «روما الجديدة» على المدينة ولكن إسم

القسطنطينية فاق هذه التسمية .

خلفاء قسطنطين ٣٣٧ - ٣٧٨م

توفي قسطنطين في عام ٣٣٧م بعد أن أمضى سنواته الأخيرة في سلام نسبي هيأ له الفرصة لمواصلة إعادة التنظيم الاداري المدني والعسكري للامبراطورية . وخلفه على العرش أبناؤه الثلاثة مجتمعين وهم قسطنطين الثاني وقسطنطيوس وقنستانز Constans ، وكان الأخوة الثلاثة ميالين بطبعهم إلى الشقاق والخلاف ، ولكن هذا الخلاف ما لبث ان انتهى عندما توفي كل من قسطنطيوس وقنستانز في عام ٣٥٠م فانفرد قسطنطين الثاني بالحكم بعد ما هزم منافسه ماجنينتيوس Magnentius في عام ٣٥١م واستمر في الحكم حتى وفاته عام ٣٦١م . وفي خلال هذه السنوات عادت الاخطار الخارجية تحدق بالامبراطورية ، فالخطر الفارسي قائم على حدود الامبراطورية من جهة الشرق ، كما ان خطر القبائل الجرمانية على نهر الدانوب والراين في الغرب أصبح أقوى وأشد . وكان ذلك بسبب ظهور قبائل الهون Hons . هذا الخطر الذي توقف لبعض الوقت عندما قضى القيصر جوليان Julian ابن عم الامبراطور على هذا الغزو . وقد أعلى هذا الانتصار من شأن جوليان فنادى به جنوده امبراطوراً عام ٣٦٠م ، ولكن قسطنطين توفي قبل أن تتفشى الثورة في البلاد فخلفه جوليان على العرش دون إراقة دماء .

جوليان Julian ٣٦١ - ٣٦٣م

كان الاهتمام بتوفير الأمن والرفاهية لرعياه هي شغل جوليان الشاغل ، وكان يخصص أوقات الفراغ الشتوية التي اعتاد قضاءها في باريس في أعمال الإدارة المدنية . ولقد وجد جوليان متعة في شخصية الحاكم والقاضي أكثر من شخصية القائد العسكري . وكان من عادته ايضا قبل ان يذهب للحرب إحالة معظم القضايا العامة والخاصة إلى حكام الولايات حتى إذا عاد راجع كل اعمالهم . كما أعاد جوليان معظم مدن غاله الى سابق عهدها بعد ان ظلت

ردحا طويلا من الزمن عرضة للاضطرابات الاهلية وحروب المتبربرين. وانتعشت روح الاقبال على العمل أملا في المتعة والتنعم، وازدهرت الصناعة والتجارة مرة اخرى تحت حماية القوانين. وزخرت الهيئات المدنية مرة أخرى بالأعضاء النابغين المرموقين، وتجلى الرخاء الوطني ورغد العيش في كثرة الاتصالات بين الأقاليم وبعضها.

ولم يكن كل هذا سببا في شهرة جوليان التاريخية، بل إكتسب شهرته بارتداده الى الوثنية. وقد كان معروفا بهذه الميول من قبل بسبب نشأته. وبعد ان اصبح امبراطورا أعلن عن ذلك صراحة وأصدر مرسوما يقضي بفتح المعابد الوثنية وتقديم القرابين على المذابح من اجل عبادة الالهة. ولا شك أن مثل هذا العمل قد انعش آمال الوثنيين بعدما عادت لهم الحقوق الدينية والسياسية. وحتى لا يُغضب جوليان رجال الدين المسيحي فانه دعاهم الى قصره كما دعا رجال الدين الوثنيين وأعلن لهم انه يريد ان تعيش الامبراطورية في تسامح، ولكل فرد الحرية في اختيار الدين الذي يراه. وبذلك نقول ان جوليان حذا حذو قسطنطين من الجانب المضاد، فان كان قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية ثم مال اليها في آخر الامر، فانه على العكس نجد جوليان اعاد للوثنية كيانها في أول الأمر ثم عاد اليها بعد ذلك. فقد أبعد جوليان المسيحيين من الوظائف العليا وأحل محلهم الوثنيين، كما رفع الرموز والصلبان المسيحية من بيارق الجيش واسلحة الجنود ووضع مكانها شارات وثنية، كما منع تعيين المدرسين المسيحيين في المدارس وجعل هذه الوظائف مقصورة على الوثنيين حتى يشب الجيل الجديد وهو متشرب بالديانة الوثنية. وكان في ذلك ضربة قاصمة للمسيحية لأن بعض المدرسين من المسيحيين تحولوا الى الوثنية حتى يحافظوا على وظيفتهم.

جوفيان Jovian ٣٦٣ - ٣٦٤م

ورغم كل هذا فان هذه الحركة انتهت بالاخفاق، فلم يعد العالم متقبلا للوثنية وكانت المسيحية أنسب له. وان كان جوليان قد فشل في هذا الجانب

فانه فشل ايضا في الجانب العسكري ، فلقد حاول غزو فارس وأمعن في تقدمه ولكنه مات أثناء عودته في عام ٣٦٣ م . فانتخب الجيش قائدا مسيحيا يدعى جوفيان الذي وقع معاهدة مهينة تقضي بهدنة لمدة ثلاثين عاما نظير تنازله عن أربع ولايات ، كما تنازل أيضاً عن سيادته الإمبراطورية على دولة أرمينيا ، ولكن هذا الامبراطور الجديد ما لبث أن مات في العام التالي ٣٦٤م .

فالنز Valens ٣٦٤ - ٣٧٨م

نادى الجيش بالقائد فالنتيان امبراطورا بعد وفاة جوفيان . وقد آثر فالنتيان أن يحكم الإمبراطورية من روما ، لذلك ترك أخاه فالنز إمبراطوراً شريكاً له في القسطنطينية . وكان فالنز هذا يعتنق المسيحية على المذهب الأريوسي فكرهه الناس واعتبروه مهرطقا ، ولذلك إتسم حكمه بالفتن المتواصلة . وكانت نهايته عندما دفع الهون بالقوط الغربيون الى حدود الامبراطورية حيث حصلوا على اذن من الامبراطور لعبور نهر الدانوب والاستقرار داخل الامبراطورية . ويلاحظ ان هذه الحادثة تعتبر بداية استقرار البرابرة داخل حدود الامبراطورية . وعلى اية حال لم يستقر السلام بين الجموع الدخيلة وبين موظفي الامبراطورية ، وعندما شجر النزاع بينهم زحف القوط الى القسطنطينية فخرج فالنز لملاقاتهم على عجل دون ان ينتظر المدد القادم من الغرب فلقى جيشه هزيمة قاسية في معركة أدرنة عام ٣٧٨ م وقتل فالنز في هذه المعركة وبموته تظهر أسرة جديدة على عرش الامبراطورية وهي أسرة ثيودوسيوس Theodosius

الفصل الثاني

أسرة ثيودوسيوس

٣٧٩-٥١٨م

ثيودوسيوس الأول ٣٧٩ ـ ٣٩٥م

هو إسباني الأصل عرف بإسم الأول أو الكبير، وفي عهده هدأت ثائرة القوط وذلك بفضل حسن معاملته لهم واستطاع ان يجعل منهم اتباعا للامبراطورية سواء في الجانب المدني أو العسكري. ولما كان ثيودوسيوس رجلا مسيحيا أرثوذكسيا متحمسا فقد أعاد للمسيحية كيانها وانزل بالوثنيين والهراطقة قرارات الحرمان من حقوق المواطنة. وفي عام ٣٨١م عقد مجمع ديني بالقسطنطينية عرف باسم مجمع القسطنطينية فرض فيه الوحدة الدينية بالقوة على العالم المسيحي. ولقد كان ثيودوسيوس ناجحا في سياسته الخارجية فقد تمكن في عام ٣٨٧م من عقد معاهدة جديدة مشرفة مع الفرس أعاد بها نصف أرمينية الى حظيرة الامبراطورية. اما في الجانب الغربي فانه استطاع في عام ٣٩٢م من ضم الغرب بأكمله الى الشرق تحت ادارته وذلك بعد وفاة فالنتيان، ولآخر مرة في التاريخ حكم رجل واحد المساحات المترامية الممتدة من الفرات إلى الجزر البريطانية. وعند موته في عام ٣٩٥م ترك الامبراطورية لولديه، فكان الشرق من نصيب ابنه أركاديوس Arcadius والغرب لابنه هونوريوس Honorius. وبموته إنفصل الشرق عن الغرب الى الأبد بعد ان ترك امبراطورية بيزنطيه أرثوذكسية. وما يهمنا الآن هو الامبراطور أركاديوس الذي تولى الجانب الشرقي من الامبراطورية خلفا لأبيه.

اركاديوس ٣٩٥ - ٤٠٨ م

لم يكن هذا التقسيم يعني أي تطور جديد في بادىء الأمر ، وكان المفروض ان الامبراطورية وحدة واحدة تصدر قراراتها وقوانينها باسم الامبراطورين معا ، وهما أركاديوس من الشرق وهونوريس من الغرب ، والتشريع الذي يصدر في الشرق يسري مفعوله على الغرب . وواقع الأمر أن كل هذا كان من الناحية النظرية فقط لأن الظروف أملت على كل قسم سلوكا خاصا به . كما أن الخلافات بين القسمين ما لبثت ان ظهرت على السطح .

وفي سياسة أركاديوس الخارجية نجد اخطار القوط هددت الجزء الجنوبي من شبه جزيرة البلقان في مرحلة وهددت أسوار القسطنطينية في مرحلة اخرى . ونظرا لعدم قيام شقى الامبراطورية بعمل موحد ضد الغزاة ، فقد إستطاع القوط ان يفرضوا شروطهم على الامبراطورية التي قبلت الأمر الواقع وقبلت تعيين بعضهم في الوظائف الهامة في الدولة . وفي عهده أيضا بدأت العناصر الجرمانية تتسلل الى الجيش على شكل أفراد ولكنها كانت تحت القيادة البيزنطية على العكس من الغرب . ويلاحظ أن ذلك ـ بالنسبة للشرق ـ كان من العوامل الهامة التي حافظت على وحدة الجانب الشرقي وهو الامبراطورية البيزنطية . وعند وفاته في عام ٤٠٨ م حكم من بعده ثيودوسيوس المعروف بالثاني .

ثيودوسيوس الثاني ٤٠٨ - ٤٥٠ م

يرجع طول عهد هذا الامبراطور إلى أنه تولى الحكم وهو صغير السن ، ونظرا لحداثة سنه فانه وقع تحت تأثير أخته بلخريا Pulcheria وزوجها مرقيان Marcian ، وهو الذي خلف ثيودوسيوس الثاني في العرش . ويبدو أن الاخت وزوجها هما اللذان توليا الحكم فعلاً أثناء حكمه الطويل . ويرى البعض أنه بعد زواجه وقع تحت تأثير زوجته يودوكيا Eudocia الأثينية . وما يعنينا في عهد هذا الامبراطور في هذا الموضع ، هو عملية المزج التي تمت بين الثقافة الكلاسيكية والديانة المسيحية . ولعل ذلك مرجعه في بعض الجوانب الى

زوجته التي كان والدها أستاذا لعلم البلاغة في أثينا حيث ترعرعت يودوكيا وتشربت بالثقافة اليونانية ،هذا فضلا عن تحمسها النديد للمسيحية . ولعل ما ساعد أيضا على هذا المزج هو ما تم في عهد ثيودوسيوس من إعادة تنظيم الدراسة في جامعة القسطنطينية التي وضع أساسها قسطنطين الاول ، حيث تم تدريس قواعد اللغة والبلاغة اليونانية واللاتينية فضلا عن الفلسفة والقانون .

ومن الأعمال الهامة أيضا في عهد ثيودوسيوس الثاني هو جمع التشريعات القانونية الخاصة بالامبراطورية منذ عهد قسطنطين الأول . ويعتبر هذا عمل عظيم بالنسبة للدولة ونظامها ، حيث أصبح هناك قانون ثابت ومدون يسهل الرجوع اليه . وتعرف هذه المجموعة باسم مجموعة قوانين ثيودوسيوس . وان كانت هذه المجموعة هي من عمل ثيودوسيوس فإنها صدرت لشقي الامبراطورية شرقها وغربها . ولكن الحقيقة الماثلة امامنا هي ان تطبيق هذه القوانين كان سائداً في الشرق اكثر منه في الغرب ، لأن هذه المجموعة كان للشرق تأثير عليها أكثر من تأثير الغرب . ولذلك نجد أن الامبراطور جستينيان Justinian عندما وضع قوانين الدولة البيزنطية في القرن السادس ، لجأ الى هذه المجموعة وأصبحت ضمن مجموعة جستينيان، في الوقت الذي لا نجد لمثل هذه القوانين أثر يذكر في الحياة الأوروبية ، بعد أن اجتاحتها غزوات البرابرة الذين طبقوا جانبا كبيرا من عاداتهم وتقاليدهم في المناطق التي استولوا عليها واتخذوا منها مستقرات لقبائلهم . ويضيق المقام هنا للحديث عن النشاط الثقافي في هذه المرحلة والجدل الديني الذي ثار حول طبيعة السيد المسيح والمجامع الدينية التي عقدت لهذا الغرض وموقف رجال الدين الغربيين منها ، هذا فضلا عن الاخطار الخارجية التي تعرضت لها الامبراطورية بسبب غارات الهون تحت زعامة قائدهم أتيلا Attila . والمهم انه في غمرة هذه الاحداث الجسام توفي الامبراطور دون أن يترك وريثا ليجلس على عرش الامبراطورية فخلفه على العرش زوج أخته مرقيان .

مرقيان ٤٥٠ ـ ٤٥٧م

تفاقمت المشكلة الدينية في عهده وزاد الخلاف بين القسطنطينية وروما ، هذا فضلا عن المشاكل التي خلفتها هجرات البرابرة ، وفي خضم هذه الاحداث يظهر أحد القادة الرومان من الآلان هو أسبار Aspar ليصبح صاحب الكلمة الاولى في العاصمة البيزنطية ،وذلك بفضل دفاعه عنها ضد العناصر البربرية . وعندما توفي مرقيان تطلعت الأنظار إلى أسبار ليجلس على العرش ولكن أصله الأجنبي واعتناقه المسيحية على المذهب الأريوسي حالا دون ذلك فخلفه على العرش ليو Leo .

ليو الأول ٤٥٧ ـ ٤٧٤م

خلف مرقيان على العرش ليو المعروف بالأول ، وكان أصله من إقليم داكيا Dacia وخدم كضابط في الجيش . ولكي يتخلص ليو من نفوذ القوط لجأ الى الجانب الاسيوي وبخاصة الايسوريين منهم في آسيا الصغرى وزوج ابنته من قائدهم الذي عرف باسم زينون Zino وأنجبا طفلا عرف باسم ليو الثاني . وعند وفاة مرقيان تولى ليو الثاني العرش لبضعة أشهر ثم مات تاركا عرش الامبراطورية لأبيه زينون .

زينون ٤٧٤ ـ ٤٩١م

لم يكن جلوس زينون على عرش الامبراطورية بالأمر الهين فقد كان سكان القسطنطينية يعتبرون الايسوريين غرباء عن جسم الامبراطورية رغم أنهم مواطنين بيزنطيين . ولذلك قامت ثورة ضده في العام التالي لتوليه العرش وانتهى الأمر بطرده من عرشه لمدة تزيد عن السنة والنصف ولكنه تمكن من العودة مرة اخرى عام ٧٤٦م إلى عرشه وقضى على المتمردين . وفي العام نفسه سقطت روما على يد ادواكر Odoacer زعيم الهيرول الذي إرتضى أن يكون تابعا للامبراطور البيزنطي . ولم يكن أمام زينون سوى قبول الأمر الواقع فأضفى على أدواكر لقبل نائب الامبراطور . ولم يكن ذلك خاتمة المطاف

بالنسبة للمشاكل الخارجية فقد ظهر ثيودريك Théoderic زعيم القوط الشرقين Ostrogoths الذي هدد الامبراطورية. ولكن دبلوماسية زينون نجحت في توجيهه إلى ايطاليا حيث أسس لنفسه دولة هناك. وبهذا تخلصت الامبراطورية البيزنطية من أخطار القوط وان كان ذلك على حساب الجانب الغربي.

لم يكن عهد زينون عهد سلام داخلي سواء على المستوى السياسي أم المستوى الديني، ففي المجال السياسي كانت المنافسة شديدة بين الزعماء الايسوريين على السلطة، أما عن الجانب الديني فان مذهب الطبيعتين كان يسود القسطنطينية والمقاطعات الشرقية فضلاً عن روما، إلا أن محاولة زينون للتوفيق باءت بالفشل. وخلقت عهداً جديداً للنزاع بين القسطنطينية وروما دامت لفترة من الزمن.

أناسطاسيوس Anastassius ٤٩١ - ٥١٨م

عندما توفي زينون عينت أرملته أريادن Ariadne نبيلا ثريا خلفا له يدعى أناسطاسيوس. وكان لميله الفطري الى الاقتصاد عاملا كبيرا في زيادة إيرادات الدولة،وان كان هذا قد أدى الى بعض الاضطرابات خاصة في القرى بسبب سياسته في رفع الضرائب. وفي المجال الداخلي ايضا تمكن أناسطاسيوس من القضاء على النفوذ الايسوري. أما عن المجال الديني فان عهده إتسم بالصراعات الدينية والحروب التي أدت الى إراقة الكثير من الدماء. وعلى اية حال فان هذا الامبراطور كان رجلا قديرا شجاعا محبا للخير تمكن من دعم مالية الدولة بإدارته الاقتصادية الحكيمة. وينسب إليه ايضا أنه ألغى صراع الانسان مع الوحوش في الحفلات والالعاب، كما أنشأ الاسوار العالية للعاصمة. ورغم أن ما أنفق على بناء هذه الأسوار وغيرها من الأعمال العامة كان كثيراً، الا ان ايرادات الدولة كانت أكثر، لذلك فانه ترك في خزانة الدولة الاموال الوفيرة التي ساعدت خلفاءه من بعده في كثير من المشروعات الداخلية والخارجية. وبموته تبدأ أسرة جديدة هي أسرة جستينيان.

الفصل الثالث

أسرة جستينيان
٥١٨ - ٦١٠م

مات الامبراطور أنسطاسيوس في التاسع من يوليو عام ٥١٨م عن عمر يقارب الثامنة والثمانون عاما، ولم يكن له ولد يخلفه، فانتقل عرش الامبراطورية الى جستين Justin I المعروف بالاول - الذي كان أحد قادة الحرس الإمبراطوري - بطريقة لا تزال غامضة. وحكم جستين الأول وخلفاؤه من بعده فترة تقارب قرنا من الزمان ٥١٨ - ٦١٠م لتبدأ أسرة جديدة هي أسرة هرقل ٦١٠ - ٧١٧م. واختلفت الآراء حول أصل أسرة جستين فالبعض يرى أنها ترجع الى أصل صقلبي، وهناك رأي آخر يرجعها الى أصل روماني، والذي يراه المتخصصون حول أصل هذه الاسرة فهو يرجع الى إقليم الليريا وأن جستين ولد في احدى قرى مقدونيا العليا.

جستين الأول ٥١٨ - ٥٢٧م

جاء جستين إلى القسطنطينية مغامراً، ثم ما لبث أن أصبح جندياً باسلاً، فألحق بالحرس الإمبراطوري، وظل يتقدم حتى أصبح قومس Comes أي قائد فصيلة. وكان جستين هذا أمياً لا يقرأ ولا يكتب كما أنه جاهلاً بأمور الدين التي كانت من سمة الرجال البارزين في ذلك العصر. ولذلك رأى فيه المؤرخون أنه كان دخيلاً على السياسة ورجالها. والحقيقة أنه بفضل مساندة جستينيان Justinian - نجح جستين في إدارة شؤون الدولة. والواقع أن جستين كان قد إستقدم جستينيان منذ فترة وعنى بتعليمه، فلما إعتلى جستين عرش الإمبراطورية كان جستينيان قد أنهى علومه وخبر الحياة السياسية.

وقد نجح جستين بمساندة جستينيان في إنهاء الشقاق الديني الذي وقع بين روما والقسطنطينية واعترف بقرارات المجامع المسكونية، وأبعد عن المراكز الهامة في الامبراطورية أصحاب الطبيعة الواحدة. ولما كان هؤلاء يمثلون سكان

الاقاليم الشرقية من الامبراطورية فقد إضطر فيا بعد الى معاملتهم معاملة حسنة حتى يلتئم شمل المسيحية دون إراقة الدماء .

أما عن سياسة جستين الخارجية فتظهر في علاقته باليمن ، فقد كان ذو نواس آخر ملوك حمير يهوديا وأنزل بالمسيحيين في اليمن ضربة في مذبحة نجران عام ٥٢٣ م ، ومن نجا منهم خيرهم بين اليهودية والقتل ، وحفر لهم أخدودا وألقى بهم فيه وأشعل فيهم النار . وهي الحادثة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم سورة البروج « قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود » ويوضح لنا المؤرخ الطبري طبيعة العلاقة بين الامبراطورية البيزنطية واليمن في هذه المرحلة . وقد ذكر الطبري هذه الاحداث بإفاضة ويمكن ان نوجزها بأن رجلا من سبأ هو د.س ذو ثعلبان قدم الى قيصر صاحب الروم ، واستنجد به على ذي نواس وجنوده ، فقال له قيصر : إن بلادك بعيدة عنا ولا نستطيع ان نرسل إليها قواتنا ولكنني سأكتب الى ملك الحبشة وهو مسيحي ايضا وأقرب الى بلادك منا « فينصرك ويمنعك ويطلب لك بثأرك ممن ظلمك وإستحل منك ومن أهل دينك ما إستحل » . وقد إستجاب ملك الحبشة لما أشار به جستين وأرسل جيشه لمحاربة ذي نواس . ويُروى أن جيش الحبشة إنتصر على ذي نواس مرتين الاولى في عام ٥٢٣ والثانية في عام ٥٢٥ م .

جستينيان الأول ٥٢٧ - ٥٦٥ م

إذا كان جستينيان قد تولى عرش الامبراطورية بصفة رسمية في عام ٥٢٧ م ، فواقع الأمر أنه كان حاكما للامبراطورية في الفترة الأخيرة على الأقل من حكم جستين ، وبتعبير آخر كان جستينيان وليا لعهد جستين وإنه كان الحاكم الفعلي للامبراطورية . ولا شك أن هذه الفترة قد أكسبته خبرة واسعة في شئون الحكم والإدارة . ويقول معاصرو جستنيان إنه كان يميل الى البساطة في العيش والتودد في معاملة الناس وانه كان يعمل ليل نهار حتى أطلق عليه لقب الامبراطور الساهر ، كما انه كان حريصا على أن يعلم بكل شيء وأن يناقش كل أمر ، وأن لا يكون هناك قرار إلا قراره ولا يعارضه أحد . ورغم أن

مظهر جستينيان كان يدل على العزم والحزم الا انه كان مترددا شديد التأثر بآراء حاشيته خاصة زوجته ثيودورا Theodora في موقفها من ثورة نيقا Nika .

ثورة نيقا (النصر) ٥٣٢م

واجه جستينبان في عام ٥٣٢ م أي بعد توليه بخمس سنوات ثورة داخلية كادت تقضي على عرشه ، وهذه الثورة عرفت باسم ثورة نيقا أي النصر في اللغة اليونانية . وحتى يمكن تتبع أحداث هذه الثورة يجدر بنا القاء الضوء على نشأة الأحزاب التي قامت بهذه الثورة .

يرجع منشأ هذه الأحزاب الى سباق الخيل الذي كان يقام في الهبدروم Hippodrome وهو المكان نفسه الذي كان يتم فيه تتويج الامبراطور حتى نهاية القرن السادس الميلادي . وفي الهبدروم اهتم سكان القسطنطينية بمتابعة هذا السباق وتحمسوا له . وكان سائقوا عربات السباق يرتدون أربعة الوان هي الأحمر والأزرق والأخضر والأبيض ، فانقسم المشجعون الى أربع فرق يشجع كل فريق منهم لوناً من الألوان ، وبذلك إنقسم سكان العاصمة الى أربعة أحزاب رياضية وأصبح شعار كل حزب اللون الذي يشجعه . وقام كل حزب بجمع التبرعات والاشتراكات للعناية بالسائقين وشراء الجياد والإهتمام بها . ومع مرور الوقت إنقلب التضامن الرياضي الى تضامن اجتماعي وإنضم البيض الى الخضر كما إنضم الحمر إلى الزرق ، وأصبح في العاصمة حزبان هما الخضر والزرق ، ثم انقلب هذا التضامن الى الناحية الدينية فساند حزب الزرق المذهب الأرثوذكسي ، كما ساند حزب الخضر القول بالطبيعة الواحدة . وفي عهد الامبراطور أناسطاسيوس حل بالزرق إضطهاد شديد لأن هذا الامبراطور كان يميل الى القول بالطبيعة الواحدة . وعند هذه المرحلة انقلب الوضع الى أحزاب سياسية ، واتجه حزب الزرق الى الهبدروم ونادو بسقوط الامبراطور أناسطاسيوس ، ولكن الامبراطور عالج الأمر بالحكمة والاتزان .

وبعدما إعتلى جستينيان عرش الامبراطورية عاود الزرق نشاطهم لأنهم لم يرتضوا بجستينيان امبراطورا ، وزادت المشكلة تعقيدا أن ثيودورا زوجة الامبراطور تعاطفت مع الخضر ، ولما كان الخضر من طبقات الشعب الدنيا والزرق من الطبقات العليا فقد أصبح الأمر صراعا طبقيا إمتد أثره الى البلاط الامبراطوري وأصبح الحال يهدد بالانفجار .

وعلى ذلك يتبين لنا أن اسباب ثورة نيقا متعددة ومتشابكة ؛ منها ما هو ديني ومنها ما هو طبقي ، يضاف الى ذلك ان البعض لم يكن راضيا عن إعتلاء جستينيان لعرش الامبراطورية وحرمان أقارب الامبراطور أناسطاسيوس من العرش .

وأخيرا يأتي العامل المباشر الذي أشعل نار الثورة . وموجز هذه الاسباب ان جستينيان اعتمد في بداية عهده على بعض الشخصيات في شئون الحكم والاردارة . ومن هؤلاء يوحنــا القبــادوقي John of Cappadocia كوزير للخزانة وتريبونيان Tribonian في القضاء . وتجاوز الاثنان حدهما في إبتزاز الأموال حتى أن خزائن الدولة كانت عامرة في اقصى أيام الحرب أو المجاعة . ولم يتحمل شعب القسطنطينية أكثر من ذلك فهب الزرق والخضر معا واتجهوا الى الهبدروم واندفعوا منه يدمرون ويخربون ويحرقون وهم ينطقون بكلمة نيقا أي النصر فسميت الثورة بهذا الإسم .

ولم تمض بضعة أيام حتى تطورت الحركة واتخذت شكلا بالغ الخطورة ، فقد أشعل الثوار النار في المباني ،وإنضم اليهم سكان الريف الذين أرهقتهم الضرائب الفادحة التي قررت عليهم واصبحت الثورة ثورة شعبية عامة ، وطالب الثوار بعزل الوزراء المستبدين . وجزع جستينيان لما حدث من اضطراب ولجأ الى مفاوضة الثوار في بداية الأمر ، وظهر بشخصه وأقسم أمام الثوار على رفع المظالم ، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان . فقد زاد من غليان الثوار إنضمام بعض النبلاء الذين يكرهون آل جستين إلى الثورة . وتطور الأمر وتوج الثوار هيباتيوس Hypatius ابن أخي الامبراطور أناسطاسيوس رغم

إرادته، أما الامبراطور جستينيان فصار محصورا في القصر الامبراطوري وأضحى مركزه في غاية السوء. وزاد من حرج الموقف أن العاصمة البيزنطية كانت خالية من الجند لأن الحامية كانت قد أرسلت للإشتراك في الحرب الفارسية، ولم يعد لدى الامبراطور سوى أربعة آلاف من الحرس الإمبراطوري وحوالى خمسمائة من الخيالة وقليل من الجرمان.

لم يعد أمام الامبراطور سوى الحرب أو الاستسلام فاختار الحرب ووضع قائده بلزاريوس Belsarius على رأس القوات الموجودة بالعاصمة من أجل القضاء على الثورة. ولكن الثوار أبدوا مقاومة شديدة، ودار قتال حول الميدان الكبير واشتعلت النار في مبنى مجلس الشيوخ وامتدت حتى قضت على كنيسة آيا صوفيا St. Sophia وانتشرت حتى أحرقت مستشفى سومبسون Sompson وكنيسة سانت إيرين St. Irene.

وأثناء ذلك خيم الفزع على القصر الامبراطوري وعقدت مجالس عديدة للتشاور وتدارك الأمر، وأخيرا اقتنع الامبراطور جستينيان بالفرار عن طريق البحر والاتجاه الى مدينة هرقلية Heraclea، ولكن الامبراطورة ثيودورا رفضت الفرار وحثت زوجها على مهاجمة الثوار مرة أخرى، وكان لكلماتها الشهيرة أثراً كبيراً في إنقاذ الموقف. وقد سجل المؤرخ بروكوبيوس القيصري Procopuis of Caesarea كلمات الامبراطورة ومنها «على الرغم من أن السلامة لن تتحقق إلا بالفرار فانني لن الجأ اليه، لأن من يلبسون التاج لا ينبغي أن يعيشوا بعد أن يفقدوه، وانني لا أود أن أعيش حتى أرى اليوم الذي لا يهتف فيه الناس باسمي إمبراطورة لهم». وأضافت: «إنج بنفسك إن شئت أيها الامبراطور فلديك المال والسفن في انتظارك، والبحر خال من الأعداء. أما انا فإني باقية هنا، وأن المثل القديم يقول: إن العباءة الأرجوانية هي خير الاكفان».

كان لكلمات ثيودورا أثراً كبيراً في نفس جستينيان فتحول إلى ثبات بدلاً من الفرار، والحرب بدلاً من المفاوضة، وأمر بهجوم كبير على السوار وتولى

بلزاريوس أمر القيادة مرة اخرى. وكان هجومه على الثوار في الوقت الذي تجمعوا فيه داخل الهبدروم ويستعدون للهجوم على القصر. ونجح بلزاريوس في حصار الثوار داخل الهبدروم، ودار قتال شديد انتهى بنجاح بلزاريوس في القضاء على الثوار وسقط آلاف منهم صرعى بسيوف الامبراطورية. ويقال أن خمسة وثلاثين ألف رجل قتلوا في الايام الستة التي اندلعت فيها الثورة.

الاصلاحات الداخلية

وبالإضافة الى ثورة نيقا كان قد ظهر في اجزاء الإمبراطورية، خاصة الشرقية منها مثل آسيا الصغرى ومصر، عدد من أصحاب الاملاك الكبيرة الذين استغلوا الظروف التي تمر بها الامبراطورية واغتصبوا جانبا من أراضي الامبراطورية،وسيطروا على أهاليها وتمكنوا من احتواء جباة الضرائب بالرشوة. وكان المالك يستولي على القرية بعد الأخرى ويقوم رجال الضرائب التابعين له بجمع الضرائب لحسابه دون أي إعتبار للسلطة المركزية، وعاش الملاك في قراهم عيشة الأمراء، وبالاضافة الى ذلك فقد اتسعت أملاك الكنيسة والاديرة وتمتع رجالها بنفوذ قوي.

وأمام كل هذا لم تقف الحكومة البيزنطية مكتوفة الأيدي فقاومت هذا العبث بطرق كثيرة ولفترة طويلة. وكان من وسائلها أنها تدخلت في حق الإرث أحيانا، أو أجبرت بعض كبار الملاك على وقف أملاكهم على الامبراطورية، كما لجأت أيضا الى مصادرة بعض الاملاك لعدم ثبوت ملكيتها. واذا كان هذا ما يتعلق بالأملاك الخاصة بالملاك الدنيويين، فكان الأمر صعبا في تطبيق هذا التصرف على أملاك الكنائس والأديرة، لذلك سلكت الدولة سبيلا آخر للمصادرة وهو إتهام دير بأكمله بالزندقة وتحويل موارده الى خزانة الدولة. ورغم الجهود الكبيرة التي قامت بها الدولة للقضاء على نفوذ الملاك فان الامبراطور جستينيان لم يتمكن من القضاء على طبقة الملاك.

ومما زاد في سوء الاحوال الداخلية وقوع بعض الزلازل وانتشار الأوبئة خاصة الطاعون الذي انتشر في الجانب الشرقي من الامبراطورية ، وجزء من الجانب الغربي وامتد الى العاصمة ، وقد أدى ذلك كله الى هجرة السكان وإهمال الزراعة فانتشرت المجاعة.

ومن أجل النهوض بالامبراطورية وجد جستينيان ان يبدأ بإصلاح عيوب إدارة الدولة. ولما كان الامبراطور ينادي بالحكم المطلق ، فقد رأى ان أفضل الطرق لإصلاح أحوال الدولة هي تقوية الحكومة المركزية واختيار أفضل الرجال للقيام بشئون الحكم. وعنى عناية خاصة بضبط موارد الدولة وطلب من الأهالي دفعها بانتظام لجباة الحكومة ، وفي الوقت نفسه طلب من الجباة معاملة الأهالي بالحسنى ، والتزام العدل.

لم يؤد هذا الى النتيجةالمرجوة ،لان الدولة كانت في حاجة الى المزيد من المال من أجل نفقات الحرب. ولما كان جستينيان لا يريد أن يرهق الأهالي بضرائب فوق طاقتهم ، لذلك لجأ الى طريقة أخرى لخفض النفقات وهي مهادنة بعض الدول المعادية وشراء رضاءهم بالأموال.

ولكي يقلل جستينيان أيضا من نفقات الدولة ويبسط من الأعمال الادارية داخل الامبراطورية ، قام بإدماج بعض الولايات مع بعضها ، فقلل عدد الموظفين وزاد من رواتبهم حتى يشجعهم على العمل ، كما وضع السلطة العسكرية والادارية في يد واحدة وأنعم على الحكام الجدد بالألقاب تشجيعاً لهم. ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الموضع ان الامبراطور قسطنطين كان قد جزأ الولايات الكبيرة إلى ولايتين أو أكثر ، وفصل بين السلطة العسكرية والمدنية ، تجنبا لحركات التمرد والعصيان وبذلك يكون جستينيان قد أعاد نظام الحكم المحلي الى ما كان عليه الحال قبل عهد قسطنطين.

وفوق هذا أنشأ جستينيان نظاما لربط المقاطعات الغنية بالفقيرة حتى تسدد الاولى بعض ما على الثانية. كما عاد الى سياسة الامبراطور دقلديانوس التي تقضي بربط الاولاد بمهنة آبائهم وبخاصة ما يتصل منها بالأرض. واعتنى

جستنيان عناية خاصة بالعاصمة، فعين عددا من الحكام هم الكويستور Quaestor،وكانت مهمتهم العمل على ألا يدخل القسطنطينية أي شخص من المقاطعات إلا وله عمل فيها حتى لا يعقدون الحياة بتصرفهم. وإن كان هناك عاطل من الاهالي يكلف بالعمل في مخابز الدولة أو مصانعها. كما عين عددا من الحكام للنظر في حوادث السرقات والاغتيالات والمخلة بالشرف داخل العاصمة. كما اهتمت ثيودورا بأمر الساقطات وجعلت من قصر قديم على الضفة الآسيوية لشاطىء البسفور ديرا للتائبات وأطلقت عليه دير التوبة. وحتى لا تتكرر أحداث ثورة (نيقا) منع جستينيان حفلات سباق الخيل في الهبدروم ووضع رقابة شديدة على التكتلات الرياضية والسياسية.

كما أصدر جستينيان تعليمات مشددة الى الحكام بالمحافظة على الطرق والجسور وخزانات المياة وأسوار المدن، وأمدهم بالأموال اللازمة، وترتب على ذلك إنشاء الطرق الجديدة والجسور وحفر الآبار وبناء الحمامات. كما قام جستينسان باعادة بناء كنيسة آيا صوفيا St. Sophia في عام ٥٣٢م بعد ما أصابها من دمار، وأنشأ القصر المقدس في عام ٥٣٨ م، فضلا عن العناية ببناء عدد من الكنائس والمستشفيات. كما وضع جستينيان نظاما جديدا للتأريخ وهو عام تولية الامبراطور، وهو نظام قديم، وربطه بسنة الضريبة أي دورة الخمسة عشر عاما. ومنذ تلك اللحظة صار التأريخ بمراسيم ربط الضرائب Indiction يستخدم في كل عصور تاريخ الامبراطورية. وأضيف الى ذلك فيما بعد السنة التقويمية العالمية Annus Mundi (التي تذهب الى ان خلق العالم قد تم في عام ٥٥٠٨ ق.م. وكانت هذه السنة تستخدم الى جانب حكم الامبراطور أو بدلا منها.

وكان لجستينيان موقف من التجارة الخارجية، وأراد ان يحرر تجار الامبراطورية من احتكار الفرس للتجارة. فواقع الأمر ان الفرس كانوا يحتكرون كل أنواع التجارة الآتية من الهند والصين مثل الحرير والبخور والأحجار الكريمة. وكان الفرس يتحكمون فيها ويبيعونها بأسعار باهظة ولا

يصدرون منها إلا القليل حتى تظل غالية الثمن. وسعى الامبراطور الى الوصول الى مركز هذه التجارة في مدينة بخارى عبر البحر الاسود وبحر قزوين ، كما اتصل جستينيان بملك الحبشة وزين له نقل تجارة الصين الى البحر الاحمر ، وشجع تجار مصر والشام على استيرادها وجعل من القلزم وإيله قاعدتين تجاريتين لهذا الغرض.

واستكمالا لعملية الاصلاح التي بدأها جستينيان رأى أن أفضل الوسائل لجمع المال من الاهالي هو حمايتهم من ظلم الحكام وضبط احوالهم ، فعني بجمع القوانين القديمة وتبويبها وتعديل ما وجب تعديله. وعهد الى تريبونيان Tribonian ولجنة تحت إدارته بهذا العمل ، وظهرت مجموعة القوانين Code ، كما تم في عهد جستنيان وضع قوانين للأحوال الشخصية. وفضلا عن ذلك فقد صدر في عام ٥٣٣ م المصنف الهائل المسمى بالموجز Digest الذي ظل المرجع الأول في جميع المسائل القانونية ، وفي عام ٥٣٤ م وضعت نسخة جديدة ومنقحة من مجموعة الامبراطور جستينيان. ولم يتوقف نشاط جستينيان التشريعي عند هذا الحد،فمنذ عام ٥٣٤ م حتى نهاية حكمه ظهرت سلسلة مطولة من القوانين التكميلية أطلق عليها إسم القوانين المستجدة Novellae. وعند نهاية حكم جستنيان كان القانون البيزنطي أصبح منقحاً تنقيحاً تاماً ومتمشياً مع مستلزمات عصره.

سياسة جستينيان الخارجية

كان جستينيان منذ بداية عهده يرى عودة الإمبراطورية إلى عظمتها القديمة ، وان يحقق ما كان لها من سيادة على غرب أوروبا والساحل الافريقي ولو ادى ذلك الى الحرب. ولكن هذه الفكرة لم تدخل مرحلة التنفيذ قبل عام ٥٣٣ م ، وذلك لإنشغالة بالحرب مع الدولة الفارسية. ولذلك يجدر بنا التعرف على ملامح هذه الحرب قبل الدخول في العمليات العسكرية التي قامت بها الامبراطورية في غرب أوربا والساحل الأفريقي.

حروب جستينيان مع الفرس

وقعت احداث الحرب الفارسية الأولى في الفترة من ٥٢٧ - ٥٣٢ م. وواقع الأمر أن الصراع بين الفرس والبيزنطيين له جذور عميقه، ولكن السبب المباشر في هذه المرحلة يرجع الى ان الملك الفارسي قُباذ كان قد بلغ الثانين من عمره واراد ان يضمن العرش لإبنه الأصغر كسرى أنو شروان، فلجأ قباذ الى الامبراطور جستينيان لكي يتبنى ابنه ويضمن عرشه. وفي الوقت ذاته كان الأمر يتطلب تسوية مشكلة الحدود عند مدينة لازيكا Lazica الغنية بالنفط الواقعة شرقي البحر الأسود. والواضح أن الشروط التي وضعها جستينيان لم ترض الملك قباذ فتوترت العلاقات مرة أخرى. والشرارة التي أشعلت نار الحرب جاءت من قبل قُباذ الذي أمر جرجان ملك إقليم إيبريا الواقع شرق الاناضول بالامتناع عن دفن الموتى طبقا للتعاليم المسيحية، لذلك لجأ جرجان الى الامبراطور جستينيان فسانده الأخير وأصبح الصدام وشيكا بين الامبراطورية البيزنطية والفارسية.

وضع جستينيان قواته تحت قيادة بلزاريوس الذي إتجه الى مدينة دارا في عام ٥٣٠ م ونجح في وقف تقدم القوات الفارسية. ولكن المنذر اللخمي حليف الفرس أتى في العام التالي وأغار على ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في الشام وهاجم مدينة قنسرين جنوب حلب ثم إتجه الى انطاكية وعاث في ضواحيها وأسر العديد وسلب من الأموال الكثير. فاتجه بلزاريوس الى المغيرين ونجح في انزال الهزيمة بالمنذر وقواته وتمكن من إجلائهم عن شمال الشام، ثم ما لبث ان توفي قباذ في العام ذاته، وتولى بعده كسرى أنو شروان الذي عرض الصلح على الامبراطور جستينيان. ولم يتردد جستينيان في قبول الصلح حتى يتفرغ لمشروعاته في الغرب وإعادة الامبراطورية الى سابق مجدها. ولكي يؤمن جستينيان الحدود الشرقية تحالف مع أمراء القوقاز في الشمال كما تحالف مع ملك الحبشة لاتقاء خطر الحرب المباشر مع الدولة الفارسية في هذه الاماكن.

وتجددت الحرب مرة أخرى مع الدولة الفارسية في عام ٥٤٠ م. وترجع

أسباب الحرب هذه المرة الى انتصارات جستينيان في الشمال الافريقي وفي ايطاليا، وهي الانتصارات التي أزعجت كسرى أنو شروان، وخشى أن تدور الدائرة عليه، هذا فضلا عن تشجيع القوط للملك الفارسي لمحاربة الامبراطورية البيزنطية. ولم يتردد كسرى في القتال فجهز جيشا كبيرا وسار الى الشام وأغار عليها كما استولى على بعض مدن الحدود في أعالي الفرات، وسلبت وأسرت القوات الفارسية الكثير، ثم سارت الى مدينة منبج Hierapolis التي إستسلمت بالأمان. واتجه كسرى بنفسه الى أنطاكية فانزعجت حاميتها ولازت بالفرار، ولكن نجدة بيزنطية وصلت اليها في الوقت المناسب فقاومت القوات الفارسية الى حين حتى سقطت في أيدي كسرى. واتجهت القوات الفارسية الى سلوقية Seleucia، ولم تكف القوات الفارسية عن القتال حتى عرض الامبراطور جستينيان الصلح على كسرى فقبله الأخير.

لم يدم الصلح طويلا بين الدولتين ففي العام التالي ٥٤١م هاجم كسرى أملاك الامبراطورية وكانت وجهته هذه المرة المناطق الأرمينية وشرقي البحر الاسود، فقد هاجم كسرى مدينة لازيكا وإقليم ايبريا وحدود الفرات الشمالية، واستمرت الحرب هذه المرة من عام ٥٤٢ حتى ٥٤٤م. وبعد طول القتال شعر الطرفان بصعوبة الحرب في المناطق الجبلية الوعرة فوقعت الهدنة بين الطرفين في عام ٥٤٤م. ونصت شروط الهدنة على عقد الصلح لمدة خمسين سنة وتعهد كسرى بمراعاة حقوق المسيحيين من رعاياه، وان يمنع جستينيان المبشرين المسيحيين من التبشير بالمسيحية في الأراضي الفارسية، وأن يدفع جستنيان جزية سنوية.

حروب جستينيان في الغرب

عندما إعتلى جستينيان العرش كان القسم الغربي من الإمبراطورية قد أصبح تحت سيطرة الجرمان، فقد كان القوط الشرقيون Ostrogoths يحكمون في ايطاليا والقوط الغربيون Visigoths في أسبانيا، وبين هؤلاء حكم الفرنجة في غالة. أما الساحل الافريقي فقد كان تحت حكم الوندال، وفي الجزر

البريطانية كان الانجلوساكسون. وفي محاولة جستينيان إستعادة أملاك الامبراطورية في الغرب فانه لم يوفق مع الفرنجة والانجلوساكسون، ولكنه صادف نجاحا ملحوظا في البلاد الاخرى. وكان مما ساعده في اعادة فتح هذه البلاد كون الجرمان غاصبين للبلاد التي دان سكانها بمذهب الدولة الرسمي وهو المذهب الأثناسيوسي، وأن الجرمان كانوا يدينون بالمذهب الآريوسي. ولذا كان الجرمان بمثابة سادة كفره، لا يستطيع سكان البلاد الأصليين الإخلاص لهم والوقوف الى جانبهم عندما يتعرضون للاخطار. وهذا ما حدث عند فتح افريقية وإيطاليا.

فتح إفريقية

بدأت احداث فتح افريقية في عام ٥٣٣ هـ عندما سار بليزاريوس Belisarius أبراز قواد الامبراطورية البيزنطية، على رأس خمسة عشر ألف محارب ثلثهم من الفرسان والباقي من المشاه. وكان السبب الذي اتخذ ذريعة للحرب هو أن الملك الوندالي هيلدريك Hilderic ٥٢٣ - ٥٣٠م الذي وصف بالضعف كان يميل الى الامبراطورية البيزنطية، وأن جليمر Gelimer ٥٣٠ - ٥٣٤م قد نحاه عن العرش، فقد كان يتزعم الجانب المعادي لبيزنطة. وخطط جستينيان لغزو إفريقية عندما أصبح الموقف في صالحه. ذلك أن الاسطول الوندالي وجانبا كبيرا من قوات الوندال قد توجهت قبل فترة قليلة الى جزيرة سردينية لقمع فتنة قامت بها. فنزلت الجيوش البيزنطية على الساحل الافريقي دون مقاومة وإتخذت طريقها الى العاصمة قرطاج Carthage فاستقبلهم السكان الرومان بالترحاب. والتحم الونداليون مع القوات البيزنطية في معركتين انتصر فيها القائد البيزنطي بليزاريوس سقطت بعدها قرطاج وسلم جليمر نفسه لبليزاريوس. وعلى هذه الصورة عاد الساحل الافريقي لحكم الامبراطورية الرومانية، وعاد بليزاريوس الى بلاده بعدما ترك جيشا صغيرا للسيطرة على البلاد، بعدما حمل معه حشداً من نبلاء الوندال.

عمل جستينيان على اعادة الاحوال الى ما كانت عليه من قبل الغزو

الوندالي ، فأصبغ على رجال الدين رعايته ، وأنزل الاضطهاد بالمسيحيين اتباع المذهب الأريوسي والدوناتي وبالوثنيين كذلك ، وأعاد الاراضي والمزارع إلى أصحابها الرومان . ولم يكن ذلك بالامر اليسير فقد اعترضته مصاعب كثيرة ، منها أن التذمر ما لبث ان انتشر بين الناس عندما اتضح لهم ان كل ما يؤدونه من الضرائب هو السبب الرئيسي في اهتمام جستينيان بهم . يضاف الى ذلك أنه في الوقت الذي كانت تحتفل فيه الامبراطورية البيزنطية بالنصر على الوندال ، هددت هجمات بربر أفريقيا قوات جستينيان ، وقد دأبت البربر على الخروج من حصونهم الجبلية في غارات للسلب والنهب ، وظلت هذه الغارات لفترة ليست بقصيرة . ومما ساعد البربر على إنزال الخسائر بقوات جستينيان أن خطط القتال لدى القوات البيزنطية الذين يحاربون وفق قواعد عسكرية منظمة ،لم تكن صالحة للبربر راكبو الإبل ، يضاف الى ذلك أن طول القتال أدى الى تذمر القوات البيزنطية . ولكنه بفضل القادة البيزنطيين الذي تعاقبوا على قيادة الجيش امثال سولومون Solomon وجرمانوس Germanus ويوحنا التروجلي John Troglita قد هيأ للامبراطورية البيزنطية أن تتغلب على تلك المصاعب ، يضاف الى ذلك ما هو معروف بين شيوخ قبائل البربر من الشقاق بسبب ما بينهم من عداوات قبلية قد جعل من العسير قيامهم بعد موحد ضد القوات البيزنطية . وأخيرا وفي عام ٥٤٨ م تمكنت القوات البيزنطية من السيطرة على الموقف واستتب الأمر بصورة دائمة تقريبا لقوات جستينيان .

فتح إيطاليا

جاء تدخل جستينيان بقواته في ايطاليا في الوقت المناسب ، فبعد وفاة ثيودريك ملك القوط الشرقيين في عام ٥٢٦ م بدأ الضعف يتسلل إلى كيان الدولة . فقد خلفه على العرش إبنته الارملة أمالاسونتا Amalasunta وصية على إبنها أثالريك Athalaric البالغ من العمر عشر سنوات . ولم يرض زعماء القوط عن هذا الوضع فاضطرت امالاسونتا الى إشراك ابن عمها ثيوداهاد Thoedahad في الحكم ، ولما كان زعماء القوط يتشككون في أمالاسونتا نظرا

لتربيتها الرومانية ، وأنها تميل الى بيزنطة فقد انتهى بها الامر الى نفيها بأمر ثيوداهاد في جزيرة وسط بحيرة بولسينا Bolsena وسط إيطاليا حيث أعدمت. وكان في إعدامها ساعة الصفر لتحرك القوات البيزنطية لمهاجمة ايطاليا.

وفي عام ٥٣٦ م - أي بعد وفاة ثيودريك بعشر سنوات - خطط جستينيان لغزو إيطاليا بحرا وبرا ، بحرا من شمال أفريقيا وبرا من نواحي دالماشيا التي سقطت عاصمتها سالونا Salona في أيدي القوات البيزنطية. كما سقطت جزيرة صقليه دون مقاومة على الاطلاق نظرا لقلة الحامية القوطية بالجزيرة ، واستقبل اصحاب الأراضي والعقارات القوات البيزنطية بالترحاب. وكان هدف بليزاريوس قائد الجيوش البيزنطية بعد ذلك هو الاستيلاء على نابولي العاصمة. ورغم إستبسال ثوداهاد في الدفاع عنها إلا أنه لجأ إلى التفاوض بعدما شاهد من ترحيب السكان بالقوات البيزنطية. ولكن بليزاريوس رفض عروض ثيوداهاد بعد النصر الذي أحرزته الجيوش البيزنطية في جبهات متعددة. وما لبث ان سقطت العاصمة في أيدي قوات بليزاريوس. وعلى أثر سقوط العاصمة نابولي خلع الجيش القوطي ثيوداهاد وعين مكانه قائدا من قواد ثيودريك يدعى ويتيجز Witiges. إنسحب ويتيجز الى رافنا لينظم قواته بعد سقوط نابولي فأعطى الفرصة للقوات البيزنطية بقيادة بليزاريوس للسيطرة على مدينة روما في شتاء عام ٥٣٦. وظل متحصنا بها حتى وصلته الامدادات ، فبدأ بالزحف على معاقل القوط في وسط إيطاليا. وأثناء هذه الاحداث شعر جستينيان باحتمال قيام الفرس بمهاجمة الامبراطورية البيزنطية ، لذلك أظهر استعداده للصلح مع القوط بأن يترك لهم الأراضي الواقعة شمال نهر البو Po ليستقروا فيها ، لكن بليزاريوس رفض التخلي عن انتصاراته. ولإرضاء بليزاريوس عرض القوط عليه أن يكون ملكا للقوط فوافق. ولكن بليزاريوس ما كاد يدخل رافنا ويسيطر على زمام الأمور حتى حنث بوعده وسحب موافقته وقبض على ويتيجز وحاشيته وأرسلهم أسرى الى القسطنطينية.

كان من الطبيعي ألا يخضع القوط للامبراطورية البيزنطية بهذه السهولة فثار القوط بزعامة توتيلا Totila الذي تمكن من السيطرة على سهول ايطاليا تاركا لبيزنطة السلطان في المدن الساحلية، وقد نجح توتيلا في عام ٥٤٩م من استعادة مدينة روما. ولم ييأس جستينيان فأرسل حملة ضخمة وعلى رأسها القائد البيزنطي نارسيس Narses الذي استولى على تحصينات توتيلا في اقليم دالماشيا وإتخذ طريقه إلى رافنا. وفي معركة كبرى حاسمة قرب بوسطا ـ جاللورم Busta Gallorum إنهزمت القوات القوطية في عام ٥٥٢م ولقى توتيلا مصرعه رغم إستماتة القوط في القتال. وبعد ثلاث سنوات أي في عام ٥٥٥م إستسلمت الحاميات القوطية في جنوب ايطاليا. أما فيرونا Verona، وبرسيكا Brescia فقد صمدت حتى عام ٥٦٣م وذلك بفضل مساعدات الفرنجة. وعلى هذه الصورة إنتهى حكم القوط الشرقيون في إيطاليا وعادت ولاية بيزنطية، واستمر هذا الحال حتى الغزو اللومباردي لايطاليا عام ٥٦٨، والذي استمر حتى عام ٧٧٤م حين خضعت إيطاليا للفرنجة بقيادة شارلمان.

سياسة جستينيان في أسبانيا

إستقر المقام بالقوط الغربيين Visigoths في أسبانيا على عهد ملكهم ثيودريك الأول Theodoric I (٤١٩ ـ ٤٥١م) بعدما أجبروا قبائل الوندال التي كانت قد استقرت من قبلهم في اسبانيا، على النزوح الى شمال افريقيا في عام ٤٢٩م، وخلال قرن من الزمان تمكن القوط الغربيون من تثبيت دعائم حكمهم. وفي عهد حكم ملكهم ثيودس Theodes ٥٣١ ـ ٥٥٤٨م تمكنوا من مد نفوذهم إلى مدينة سبتة الواقعة في الشمال الافريقي. ولكن هذا النفوذ ما لبث أن تلاشى على يد بلزاريوس الذي تمكن من إجلاء القوط الغربيين عن سبتة اثناء حروبه مع الوندال في الشمال الافريقي.

لم يستسلم القوط بعد ضياع مدينة سبتة، فعندما كانت قوات جستينيان تحارب القوط الشرقيين في إيطاليا حاول ثيودس إستعادة سبتة مرة أخرى لتقوية نفوذه من ناحية ولاشغال قوات جستينيان من ناحية اخرى حتى تخفف

من ضربها للقوط الشرقيين من ناحية اخرى ، لذلك قام ثيودس بمحاولة السيطرة على الساحل الافريقي ولكن هذه المحاولة فشلت تماما عندما هزمت قوات جستنيان القوط الغربيين عند قلعة سبتة في عام ٥٤٤ م ، وكانت هزيمة قاسية. ولم يتمكن ثيودس من العودة الى اسبانيا الا بعد جهد كبير ثم ما لبث ان قتله القوط بعد أربع سنوات.

إختار القوط بعد ثيودس القائد ثيوديجيزل Theodigisel (٥٤٨ - ٥٤٩ م) ، ملكا عليهم لما تمتع به من شهرة عسكرية عند تصديه للفرنجة في عام ٥٤٢ م ، ولكن حكمه لم يستمر طويلا ، فبعد عام ونصف لم يحتمل النبلاء عبثه ولهوه فثاروا عليه وقتلوه وهو جالس إلى جوارهم في إشبيليه على مائدة العشاء. واختار القوط من بعده أجيلا Agila (٥٤٩ - ٥٥٤ م). ولكن أجيلا لم يكن مقبولا لدى جميع القوط ، فقد كان أريوسي المذهب ، ولم يرضَ عنه أمراء جنوب أسبانيا الذين كان يميلون إلى الأثناسيوسيه وتزعم جبهة المعارضة أثاناجيلد Athanagild. ولم يقف أجيلا مكتوف الأيدي أمام هذه المعارضة فأعد جيشه ليخضع الثوار في الجنوب ، ولكنه لم ينجح في مهمته وهزم على أيدي الثوار هزيمة ساحقة أمام مدينة قرطبة فعاد إلى الشمال ليعد نفسه لجولة أخرى ، وفي الوقت نفسه كان الثوار يتطلعون إلى مساعدة قوات جستينيان لإنهاء حكم أجيلا في الشمال الاسباني.

وكان في تصدع دولة القوط الغربيين في اسبانيا فرصة ذهبية للامبراطور جستينيان عليه ان يستغلها للتدخل في أسبانيا لاتمام مشروعه الخاص باعادة الامبراطورية الرومانية الى سابق عهدها ، فأصدر جستينيان تعليماته الى ليبروس Liborus حاكم الشمال الافريقي بجمع قواته والعبور الى اسبانيا لأن هذه القوات هي أقرب قوات الإمبراطورية إلى القوط الغربيين. وقد أسرع ليبروس بالعبور وباغت القوط ونزل عند مدينة قادس Cadiz ونجح في الاستيلاء على الساحل الجنوبي. وكان من عوامل هذا النجاح مساعدة السكان الأصليين لقوات جستينيان، بالاضافة الى انضمام بعض الثوار لجيوش جستينيان ،كما ان

الحرب الأهلية بين القوط قد أنهكت قواهم وأصبح من السهل على قوات جستينيان السيطرة على ما وقع تحت أيديها من اراضي. واستعد أجيلا لملاقاة ليبروس والثوار بقيادة أثاناجيلد، وتقدمت القوات القوطية جنوبا حتى وصلت اشبيلية حيث دارت معركة طاحنة هزم فيها أجيلا واضطر الى الفرار من أرض المعركة عام ٥٥٤م.

وعقب هذه المعارك تنبه القوط الى خطورة الموقف وشعروا انهم دمروا انفسهم بأيديهم وسهلوا مهمة القوات البيزنطية في السيطرة على اسبانيا. وبدأوا يعملون على توحيد صفوفهم مرة اخرى فقاموا بقتل أجيلا وعينوا بدلا منه زعيم الثوار أثاناجيلد (٥٥٤ - ٥٦٧م). ولكن الوقت كان متأخرا الى حدما، فقد سيطرت القوات البيزنطية على عدد من المدن الساحلية والداخلية منها قادس وملقا وقرطاجة وقرطبة وغرناطة.

كانت سياسة القوط في هذه المرحلة تهدف الى اجلاء القوات البيزنطية عن أسبانيا فاستعد أثاناجيلد لملاقاة القوات البيزنطية ونجح فعلا في الحاق بعض الهزائم بها في عدة معارك، ولكنه لم ينتصر عليها إنتصارا حاسما يجبرها على الجلاء، وظلت الفوات البيزنطية مسيطرة على المدن التي استولت عليها. وفي النهاية تم عقد الصلح بين الطرفين احتفظ بموجبه كل من الطرفين بما تحت يده من أراضي. ولم تتمكن القوات البيزنطية بعد ذلك من التوسع في اسبانيا لعدة أسباب، نذكر منها طبيعة البلاد الاسبانية وجبالها الوعرة وانشغال قوات الامبراطورية البيزنطية بالحرب في جبهات اخرى، هذا بالاضافة الى انتهاء الحرب الاهلية ووقوف القوط صفا واحدا ضد قوات جستينيان.

ويرى بعض المؤرخين أن حملة جستينيان على أسبانيا كانت فاشلة لانها لم تتمكن من استعادة اسبانيا تماما الى حظيرة الامبراطورية البيزنطية، بينما يرى آخرون ان جستينيان قد حقق نجاحا بالسيطرة على جانب كبير من أسبانيا وانه استطاع أن يعيد الى الامبراطورية الساحل الافريقي من الوندال وايطاليا من القوط الشرقيين وجانبا كبيرا من اسبانيا من القوط الغربيين.

نهاية عصر جستينيان

لم تتناسب مشاريع جستينيان العظيمة مع طاقة الامبراطورية المالية ، فالعظمة والبذخ والانشاء والتعمير في طول البلاد وعرضها فضلا الحرب التي خاضتها الامبراطورية قد تطلبت مالا كثيرا عجزت عنه موارد الدولة . والحقيقة ان ما ساعد جستينيان على كل هذا هو الأموال الطائلة التي تركها الامبراطور جستين الأول . ومع نهاية عهد جستينيان عجزت الدولة عن القيام بالتزاماتها فتوقفت إصلاحاته وتناقص عدد قوات الجيش ، لذلك لجأجستينيان الى تغيير سياسته المالية وبدأ بزيادة الضرائب حتى أثقل كاهل الأهالي ، فعادت الأحزاب السياسية الى الظهور مرة اخرى وقاموا بالاضطرابات داخل العاصمة .

ورغم هذا كله فليس من الصواب ان نحكم على عهد جستينيان بالاحداث الأخيرة في حياته ، فواقع الأمر كانت أهدافه في الاصلاح الداخلي رائعة ، وأن محاولاته في اعادة مجد الامبراطورية في أوربا والساحل الافريقي كانت عظيمة ، وأن ما بذله في محاولة توحيد كلمة الدولة والكنيسة كانت في مصلحة الاثنين معا وأصبحت مثلا يحتذى على مر العصور ،وأن الجهود التي قام بها في تنظيم الإدارة والتشريع والقضاء كانت نابعة من رغبة أكيدة لنشر الأمن والعدل بين المواطنين .

خلفاء جستينيان

جستين الثاني ٥٦٥ - ٥٧٨ م

كان جستينيان يثق بابن أخته جستين ويستشيره في أمور الدولة ، وأحس مجلس الشيوخ بهذه الثقة لذلك رشحوه لتولي عرش الامبراطورية بعدجستينيان الذي لم يكن له ولدا يخلفه . والحقيقة ان الامبراطور جستين الثاني كان نشيطا مجتهدا شجاعا وأظهر الحزم في علاقته بالدول المجاورة خاصة البرابرة . وكان أول ما فعله هو الامتناع عن دفع الجزية للبرابرة التي كانت ترهق خزانة

الدولة، ثم بدأ في العناية بالجيش مرة أخرى واهتم بالناحية المالية من أجل رفاهية الشعب البيزنطي ورفع المعاناة عن كاهله. ولكن هذا الحال لم يستمر طويلا ففي عام ٥٧٣م أصيب بلوثه في عقله فقامت زوجته صوفيا بتصريف أمور الدولة يعاونها طيبريوس Tiberius قائد الحرس الامبراطوري وابن جستين الثاني بالتبني. وفي السنة التالية مُنح طيبريوس لقب قيصر، وصرف أمور الدولة حتى مات جستين الثاني فتولى عرش الامبراطورية.

طيبريوس ٥٧٨ - ٥٨٢م

لم يقل طيبريوس رغبة في إصلاح حال الامبراطورية عن أسلافه، وكانت خطته تنحصر في تخفيض الضرائب عن الأهالي معتمدا على الأموال التي جمعها سلفه. وقد أدى هذا بدوره الى أمرين؛ أولهما، تعلق الشعب به وحبه له، وثانيهما، أنه بدد ما جمعه سلفه من أموال في وقت قصير جدا. ولا شك أن ذلك سيكون له أثره الكبير على أحوال الامبراطورية في عصره وعصر خلفائه من بعده، خاصة وأن الأخطار الخارجية في الشرق والغرب بدأت تتزايد يوما بعد آخر.

موريس Maurice ٥٨٣ - ٦٠٢م

تولى عرش الامبراطورية في الثالثة والاربعين من عمره، وكان ذكيا قديرا مثقفا، وعمل لبعض الوقت في الإدارة القضائية ثم التحق بخدمة الجيش حتى أصبح قائد الحرس الامبراطوري. واسترعى الشاب انتباه الامبراطور طيبريوس فزوجه من ابنته في عام ٥٨٢م وبعد وفاته أصبح إمبراطورا. والمعروف عن موريس أنه كان عادلا بغير لين حازما دون قسوة، فأحبه الشعب والجيش واحترمه. ويبدو أن خبرات موريس في الأعمال الادارية ثم الجيش قد صقلته وأصبح خبيرا في شئون الدولة، فاهتم بعلاج الجيش والإدارة والنواحي المالية. ولكي يوازن بين إيرادات الدولة ومصروفاتها ويعالج الخلل الذي خلفه له سلفه الامبراطور طيبريوس نجده يعارض التبذير ويوجب

الاقتصاد في النفقات والغاء ما هو غير ضروري.

السياسة الخارجية لخلفاء جستينيان

لقد ورث خلفاء جستينيان مع العرش الامبراطوري امبراطورية مثقلة بالاعباء المالية وحكومة يتولى أمرها جمع من الموظفين الفاسدين الذين جبلوا على الرشوة وابتزاز الأموال، وفوق هذا كله الإنقسامات الدينية التي هددت كيان الامبراطورية، فضلا عن الأخطار الخارجية. ولم يكن الجيش بالعدد الكافي الذي يمكنه من صد هذه الأخطار. وأن ما فرضه الفرس والآفار من شروط لم يكن له سوى مخرجين، إما الاستسلام لهذه الشروط وإما الحرب. ورغم عدم وجود المال والقوات العسكرية فان أول خليفة للإمبراطور جستينيان وهو جستين الثاني قد فضل الحرب على الاستسلام. فأشعل الحرب مع الدولة الفارسية وأحرز نصراً مؤقتاً على الجيوش الفارسية عند مدينة دارا عام ٥٧٣ م، ولم يُعالج الموقف إلا في عهد طيبريوس وهو الجندي الكفء الذي بدأ عهداً جديداً في السياسة الخارجية أكثر تناسباً مع موقف الإمبراطورية.

أحس طيبريوس بالموقف الحرج للإمبراطورية في الشرق والغرب، فأعد نفسه للتنازل عن بعض أراضي الإمبراطورية للآفار النازلين بمنطقة الدانوب، ولم يهتم الا بالاحتفاظ بمدينة سرميوم Sirmium لموقعها الهام، ثم تنازل عنها في وقت لاحق. أما عن الحرب الفارسية فقد ظلت تسير سيرا بطيئا حتى عهد الامبراطور موريس عندما التمس كسرى الثاني (٥٩٠ - ٦٣٨م) في عام ٥٩١ م عون البيزنطيين لتثبيت أقدامه في عرش الفرس الذي ناله بالثورة، وكان السلم هو شرط موريس لإنهاء الحرب. واستراحت الامبراطورية البيزنطية من الخطر الفارسي في هذه المرحلة فحولت قواتها الى الغرب في محاولة لاسترداد أملاكها من الآفار. ويبدوا أن موريس أرهق جنوده في القتال لدرجة كبيرة ولم يسمح لهم بالعودة الى العاصمة لقضاء فصل الشتاء فتمردوا عليه ونادوا بأحد القادة العسكريين ويدعى فوقاس Phocas إمبراطوراً. ورحب اهالي القسطنطينية بالامبراطور الجديد لما عانوه من الاجراءات

الصارمة التي كان موريس قد فرضها .

فوقاس ٦٠٢ - ٦١٠م

لاح شبح الفوضى في عهد الامبراطور فوقاس ، واشتد النزاع بين الأحزاب داخل المدن الكبرى ، كما انزل فوقاس الاضطهاد بأتباع مذهب الطبيعة الواحدة ، وقد أدى هذا الى نفور الولايات الشرقية وإعلانها راية العصيان . وكان في ذلك كله فرصة سانحة للفرس للتقدم الى الاراضي البيزنطية التي لم يكن بها من يدافع عنها فاخترقت الحدود الأرمينية وتوغلت في آسيا الصغرى حتى مدينة خلقدونية فضلا عن تقدمها في منطقة الشام الجنوبية . وزاد المشكلة تعقيدا انتشار الوباء فقلت المؤن فضجر الأهالي حتى أن حزب الخضر الذي كان يساند الامبراطور رفع عليه راية العصيان وندد به . ولم ينقذ البلاد من هذه الفوضى إلا أهالي القسطنطينية الذين راسلوا هرقل Heraclius حاكم الشمال الافريقي لينقذ الامبراطورية مما حل بها .

الفصل الرابع

الأسرة الهرقلية

٦١٠ - ٧١٧م

ولاية هرقل ٦١٠ - ٦٤١م

كان الساحل الشمالي الافريقي هو الجزء الوحيد من الامبراطورية البيزنطية الذي لم يلحقه الأذى في عهد الامبراطور فوقاس، سواء من الناحية الداخلية أو الخارجية، فقد كان يتولى أمره حاكم صالح كبير السن هو هرقل. وقد توالت الالتماسات من جميع أهالي وأحزاب العاصمة البيزنطية تحرض هرقل على القضاء على فوقاس وتخليص الامبراطورية من ظلم العابثين بمقدراتها. وأخيرا إستجاب هرقل لرغباتهم وأعد اسطولا لهذا الغرض ووضعه تحت قيادة ابنه الذي يدعى هرقل ايضا. ومن الواضح أن تحركات هرقل كانت بطيئة، إذ مر أثناء سيره بجزر البحر المتوسط التابعة للامبراطورية لكي يضم إليه بعض القوات وبعض قطع من الاسطول. وقد لقي هرقل ترحيبا في تلك الجزر والمدن الساحلية التي مر بها. واخيرا إتجه هرقل الى سواحل بلاد اليونان حتى بلغ مدينة سالونيك Thessalonica التي جعلها مركزا لعملياته العسكرية. وقد أقام بها لفترة طويلة أتم فيها تجهيز جيشه وأسطوله، وفضلا عن ذلك كانت فرصة استغلها في توثيق علاقته بالكارهين لحكم الامبراطور فوقاس. وبذلك يكون قد استغل فترة بقائه في سالونيك في تجهيز قواته واعداد خطته وإزالة الصعاب التي يمكن مواجهتها.

وأخيرا إتجه هرقل باسطوله الى مضيق الدردنيل، وعند هذه المرحلة فر سرا معظم أهالي القسطنطينية البارزنين وانضموا اليه. وعند اقترابه من

العاصمة انتشرت الفتنة في الجند الموالين للإمبراطور فوقاس، ولم يصمد اسطوله طويلا أمام أسطول هرقل، فقد هزم فوقاس ومن معه بعد صدام إستمر لوقت قصير، وفتحت المدينة أبوابها وتم القبض على فوقاس وأقتيد مقيدا حتى وصل الى حضرة هرقل، فتليت عليه قائمة بالجرائم التي ارتكبها جريمة بعد اخرى. وأخيرا قال له هرقل: أهذا سبيل حكمك، وأجاب فوقاس: وهل انت من يحكم خيرا من هذا. وفي نهاية الأمر حكم على فوقاس بالموت وقطعه البحارة إربا. وفي الخامس عشر من اكتوبر عام ٦١٠م نودي بهرقل امبراطورا وتوج طبقا للتقاليد المتبعة.

حروب هرقل مع الفرس

كان على هرقل بمجرد أن تولى العرش أن يواجه المشاكل التي تحيق بالامبراطورية، فقد كانت الدولة تحتاج الى الاصلاح الداخلي فضلا عن الخطر الفارسي الذي يواجهها من الشرق، وأخطار السلاف والآفار في الغرب. وفيما يتعلق بالفرس فقد كان مقتل الامبراطور موريس على يد الامبراطور فوقاس سببا تذرع به كسرى الثاني لإعلان الحرب على بيزنطة، وعلى الرغم من أن فوقاس قاتل موريس قد قتل هو الآخر إلا أن الحرب استمرت بعد ذلك. وفي عام ٦١٣م عندما كانت جيوش الامبراطورية تدافع عن إقليم قبدوقية Cappadocia إتجهت القوات الفارسية جنوبا وهاجمت أنطاكية وحمص وقيسارية، وقد منيت حاميات الامبراطورية التي كانت موجودة، هناك بهزيمة كبيرة في موقعة قرب أنطاكية، مما ساعد على تقوية مركز القوات الفارسية في هذه المناطق، فاتجهت جنوبا واستولت على دمشق ثم اتجهت شمالا واستولت على مدينة طرسوس وقلعتها الحصينة وتمكنت من طرد القوات البيزنطية من أرمينيه. وقد زاد الموقف تعقيدا في هذه السنة تعرض البيزنطيين لمجاعة شديدة حتى اضطر الأهالي الى أكل جلود البهائم. ونظرا لقلة الأموال اللازمة لنفقات الحرب رأى هرقل جمع التحف الموجودة في كنائس العاصمة والأقاليم وأمر بصكلها عملة نقدية لمواجهة الموقف. ولعل في هذا ما يوضح مدى الخطورة التي

تعرضت لها الامبراطورية مع بدايات حكم هرقل. وقد حدث بعد ذلك ما هو أسوأ إذ ظهر الجيش الفارسي أمام اسوار بيت المقدس في عام ٦١٤ م، وأرسل القائد الفارس من مقر قيادته رسلا الى حاكم بيت المقدس يطالبه بتسليم المدينة، ويبدو أن حاكم المدينة لم يستطع المقاومة فسلم المدينة للقوات الفارسية.

وبعد شهور قليلة قام أهالي المدينة بثورة على الحامية الفارسية وقتلوا رجالها وأغلقوا أبواب المدينة. وترتب على ذلك قدوم جيش فارسي حاصر المدينة ثلاثة أسابيع نجح بعدها الفرس في اختراق أسوار المدينة ودخولها بحد السيف، وأنزلوا في الاهالي القتل وبالمدينة السلب والنهب. وبعدما استولى الفرس على الصليب المقدس الذي تعرفوا على مكانه بطرق التعذيب المختلفة، أضرموا النار في المدينة.

استيلاء الفرس على مصر

إن هجوم القوات الفارسية على الشام لم يكن غارات محدودة لان جزءا من الجيش الفارسي إتجه شمالا الى آسيا الصغرى واستولى على بعض أجزاء منها ومنها مدينة خلقدونيه. بينما إتجه الجزء الآخر الى مصر، وقد سقطت الاسكندرية على ما يبدو بين عامي ٦١٨ - ٦١٩ م. ولقد كان فقد مصر كارثة كبيرة على الامبراطورية البيزنطية حرمها من الغلال التي كانت مصر تمد بها القسطنطينية.

بعد هذه الأحداث أصبح سلطان هرقل لا يتعدى أسوار القسطنطينية، فقد تكاتفت الأعداء من فرس وسلاف وبعض قبائل البرابرة، وخيبت الآمال التي أشرقت على الامبراطورية عندما تولى الامبراطور هرقل عرش الامبراطورية. وكان لا بد من وقفة لاصلاح الاحوال لمواجهة الاخطار الخارجية. وبدأ هرقل بوضع حاميات قوية في العاصمة استعداداً للحرب، ولكنه رأى صعوبة مواجهة الأعداء دفعة واحدة، فرأى مهادنة الفرس للتفرغ الى الجانب الغربي. لذلك أرسل في أمر الصلح الى كسرى الثاني وأوفد سفارة

معها رسالة وهدايا قيمة. وإتجهت السفارة الى الملك الفارس فقبل الهدايا، وأجاب على كتاب هرقل بقوله لرئيس السفارة « قل لمولاك أن دولة الروم من أملاكي وما هو إلا عاصيا وعبدا آبقا، ولن أمنحه السلام حتى يترك عبادة الصليب ويعبد الشمس ».

كان في هذا الرد معنى الحرب فاستعد هرقل للقتال بعد قليل من التردد. وفي عام ٦٢٢ م أقيم حفل ديني كبير بهذه المناسبة وغادر هرقل العاصمة ونزل بجيوشه الى آسيا الصغرى، وقضى فصل الصيف في جمع الجنود وتدريبها والتفكير في وضع خطط جديدة للقتال. كما أعاد تشكيل قواته بأن أنشأ قوة من الفرسان الرماة. وبعد هذه الاستعدادات بدأت العمليات العسكرية في فصل الخريف وبدأ بمناورة عسكرية بارعة خلف خطوط القوات الفارسية وشق طريقه الى أرمينيا، ومن هناك هاجم القوات الفارسية الموجودة في شمال شرق آسيا الصغرى.

ترتب على ذلك تراجع الجيش الفارسي من آسيا الصغرى ليلحقوا بالجيش البيزنطي في أرمينيه حيث جرت معركة كبيرة انتهت بفوز القوات البيزنطية وتمكن هرقل من تخليص آسيا الصغرى من قبضة الفارسيين. ورغم هذه الهزيمة لم يقبل كسرى توقيع الهدنة مع البيزنطيين وأرسل رسالة مليئة بالإهانة للامبراطور هرقل والتطاول على الديانة المسيحية. لم يعد أمام هرقل سوى التقدم بقواته صوب الاراضي الفارسية فقطع قبدوقيه واتجه الى أرمينيا الكبرى واستولى على مدينة دفين Dvin وهدمها بكاملها كما هدم مدنا أخرى، ثم سار جنوبا الى مدينة جانزاك Ganzak المركز الديني الهام للفرس واستولى عليها وهدم معبد النار فيها، ثم انسحب منها بعدما نهبت المدينة واصطحب معه العديد من الاسرى وقضى الشتاء خلف نهر أراكس Araxes. وأثناء إقامته إتصل ببعض القبائل القوقازية المسيحية وتمكن من إقناع عدد كبير من أفرادها بالانضمام لقواته، ونجح ايضا في صد القوات الفارسية التي كانت تقوم بالاغارة عليه في هذا المكان. وبعد ما التقط الجيش البيزنطي أنفاسه حاول

مرة بعد اخرى اختراق الحدود الفارسية ولكنه فشل في بداية الأمر، وفي عام ٦٢٥ م حاول الوصول إلى الأراضي الفارسية عن طريق قيليقية، ورغم انتصاره على القوات الفارسية، إلا انه لم يحرز نصرا حاسما يمكنه من الوصول الى الاراضي الفارسية.

وتأزم الموقف مرة أخرى في العام التالي ٦٢٦ م، فقد واجهت العاصمة البيزنطية خطرا مزدوجا إذ هاجمها الفرس والآفار وبذل بطريق القسطنطينية سرجيوس الأول Sergius I ٦١٠ - ٦٣٨ م جهوداً كبيرة ليلهب حماس الشعب، فألقى الخطب والمواعظ وأقام المواكب والصلوات. وفي الوقت ذاته قامت حامية العاصمة بدور بطولي في الدفاع عنها وساعدها في هذه المحنة قوة أسطولها. وانتهت المعركة بقتل عدد كبير من جنود الآفار والفرس، وإضطرت القوات الفارسية للإنسحاب من خلقدونية وتراجع قسم كبير من قوات الجيش الفارسي الى الشام، وانتهت الأيام التي التزمت فيها بيزنطة بسياسة الدفاع وعادت مرة اخرى لسياسة الهجوم.

وفي عام ٦٢٧ م وضع كسرى الثاني في ميدان القتال كل ما لديه من قوات تحت قيادة رازات Rhazates وأمره بالقتال حتى النصر أو الموت. وبالقرب من مدينة نينوى Nineveh انقض هرقل على الجيش الفارسي وأنزل به هزيمة ساحقة عجز بعدها كسرى من تعبئة قواته مرة أخرى. وكان في ذلك فرصة استغلها هرقل في الاستيلاء على قصر كسرى في مدينة دستجرد Dastagerd ووزع على جنوده الغنائم. وبعد سقوط دستجرد تراجع كسرى الى المدائن عاصمة الفرس ولكنه إضطر الى الفرار منها عندما اقتربت منها القوات البيزنطية، وبعد أيام حلت النهاية بكسرى اذ قبض عليه ابنه شيرويه Siroes بمساعدة كبار رجال الدولة، ومات كسرى بعد أيام من الغضب واليأس وربما من الجوع على حد قول بعض الروايات.

أرسل الملك الفارسي الجديد رسالة استعطاف الى هرقل وناداه يا والدي، واعتذر عن افعال سلفه، واستقبل هرقل الرسالة بالترحاب وانتهى الامر بعقد

الصلح الذي وضع هرقل شروطه، ومنها جلاء القوات الفارسية عن جميع الأراضي البيزنطية في مصر والشام وآسيا الصغرى، واطلاق سراح جميع الاسرى، ودفع غرامة حربية. وتضمن الصلح شرطا عن بيت المقدس يقضي برد جميع أسلابها وخاصة الصليب المقدس وارتضى شيرويه بهذه الشروط، وانتهت ستة وعشرون عاما من الحروب الفارسية البيزنطية بصلح أعاد للامبراطورية عظمتها. وعاد هرقل الى عاصمته في احتفال بهيج، فهو البطل الذي فاقت أعماله بطولات تراجان Trajan وهو القائد الذي توغل في أرض الفرس في أيام عصيبه، وهو الامبراطور الذي حارب بعيدا وعاصمته محاصرة، وهو الفارس الذي ظل على ظهر جواده ست سنوات.

عاد هرقل وهو يأمل في السلام والطمأنينة ولكن الهدوء الذي ابتغاه حرم منه بعد قلبل وقدر له أن تكون نهاية حكمه مليئة بالأخطار مثل بدايته، وكان عليه مواجهة الفتوحات الاسلامية. وقبل أن نخوض في العلاقات البيزنطية الاسلامية، علينا ان نتتبع حروب هرقل مع الآفار والسلاف باعتبارها معاصرة للحروب الفارسية.

حروب هرقل مع الآفار والسلاف

ومع الأخطار التي تعرضت لها ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في الشرق بسبب الحروب الفارسية، ظهر لها تهديد آخر من الغرب متمثلا في الآفار والسلاف. ففي مطلع القرن السابع الميلادي بدأت السيطرة السلافية على البلقان، فقد أخذت أعداد كبيرة من العناصر السلافية والآفارية تزحف على شبه جزيرة البلقان وتنتشر على ساحل دالماشيا وبحر إيجه. وبعد الغارات العنيفة وعمليات السلب والنهب انتهى الأمر بانسحاب الآفار الى المنطقة الواقعة شمالي الدانوب، واستقر السلاف في البلقان وتملكوا أراضيه وأقصوا النفوذ البيزنطي عنه. وقاموا بعدة غارات على مدينة سالونيك، ووصلت تهديداتهم أسوار العاصمة البيزنطية. وعندما بدأ هرقل يعد العدة لمحاربة الفرس عام ٦١٥ م كان عليه توقيع معاهدة صلح مع الأفاريين فدافع لهم أتاوة

كبيرة حتى لا ينشغل بأمر جبهتين في وقت واحد . وبذلك تمكن من نقل جنوده من الميدان الأوربي الى الميدان الأسيوي لمواجهة الفرس .

وأثناء تواجد هرقل في ميدان الحرب الأسيوي حاول الآفاريون نقض الصلح ، فعاد هرقل بسرعة الى العاصمة وزاد من قيمة الجزية وأرسل بعض أمرائه كرهائن حتى يتمكن من متابعة حروبه ضد الفرس . ويبدوا أن كل هذا لم يعد كافيا لوقف أطماع الآفار ، فقد تحالفوا مع الفرس في عام ٦٢٦م وتم الاتفاق بينهما على مهاجمة القسطنطينية كما سبق أن أوضحنا . واستمر الحصار طوال أشهر الصيف من العام نفسه ، ويبدوا أن الهجوم كان عنيفا ، ففي شهر يوليو قام ثمانون ألف من الآفار والسلاف بحصار المدينة وقاموا بعدة هجمات في وقت واحد ، ولكن مناعة أسوار المدينة واستبسال الأسطول البيزنطي في الدفاع عنها أدى الى هزيمة أسطول السلاف وإصابة العديد من القوات المهاجمة وانتهى الأمر بهزيمتهم هزيمة منكرة وقتل العديد منهم وانسحابهم انسحابا فوضويا أدى الى المزيد من الخسائر في الأرواح والمعدات .

وإنحلت عزائم الآفاريين بعد فشلهم في اقتحام العاصمة البيزنطية وهزيمتهم هزيمة ساحقة. وكان لذلك أثراً كبيراً تعد حدود القسطنطينية نفسها، فقط تمردت القبائل التابعة لحكم الآفار ولا سيا السلاف الذين أسسوا لأنفسهم مملكة خاصة بهم تحت زعامة سامو Samo ، كما ثارت القبائل البلغارية ايضا بعد سنوات قليلة وسلموا أمر قيادتهم الى زعيم منهم يدعى كوفرات Kuvrat . وقد ساند البيزنطيون كوفرات في صراعه ضد الآفار وعقد هرقل معه تحالفا ومنحه لقب (بطريق) Patrician ، وما لبث كوفرات أن اعتنق المسيحية فانضوى تحت لواء الكنيسة البيزنطية .

حروب هرقل مع المسلمين

لم تكن الرسالة المحمدية مقصورة على بلاد العرب وحدها لأن الله سبحانه وتعالى أرسل محمدا خاتما للنبيين والرسل وشاهدا ومبشراً ونذيراً ليهدي كافة الناس لدين الحق . ومن ثم اصبحت مهمة الرسول بعد أن اتم نشر الاسلام في

الجزيرة العربية أن يدعو الامم المجاورة للاسلام . وتروى بعض المصادر العربية أن الرسول أوفد بعد صلح الحديبية رسلا الى الامبراطور البيزنطي هرقل وملك فارس والمقوقس حاكم مصر والحارث الغساني ملك تخوم الشام والحارث ملك اليمن والى غيرهم ، وان الرسول أوفد بكتابه دحية بن خليفة الكلبي الى هرقل ، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوفس ، وشجاع بن وهب إلى الحارث الغساني ، وعبدالله بن حذاقة إلى كسرى .

ويهمنا في هذا الموضع ما كان من شأن الرسل الذين أوفدوا الى هرقل والى عماله وحلفائه . وقد وصل دحيه الى حمص حيث كان هرقل في طريقه الى بيت المقدس لإعادة صليب الصلبوت الى مكانه بعد ان استرده من الفرس . وقد تليت الرسالة على هرقل فلم يغضب ، ورد على الرسالة ردا حسنا . وفي الوقت ذاته بعث الحارث الغساني الى هرقل يخبره بالكتاب الذي وصله مع مبعوث الرسول ، وقد وجد هرقل أنه مشابه للخطاب الذي تسلمه . وكان الحارث قد أرسل مع الخطاب يطلب الإذن من الامبراطور هرقل لإرسال بعض القوات لمحاربة الرسول ، ولكن هرقل لم يوافق وطلب منه أن الوجود في بيت المقدس عند مقدمة للاحتفال بعودة الصليب . أما المقوقس فقد أرسل الى الرسول بعض الهدايا ومارية القبطية التي تزوجها الرسول وأنجب منها ابراهيم .

وعلى أية حال ، ومهما يكن من أمر هذه الرسائل التي بعث بها الرسول الى هرقل وغيره ، فان الرسول أرسل في عام ٦٢٩ م/٨ هـ حملة مؤلفة من ثلاث آلاف مقاتل الى حدود الشام عند قرية تعرف باسم مشارف ، وكان على رأس الحملة زيد بن حارثة فان قتل يتولى امر الحملة جعفر بن ابي طالب ، وان قتل جعفر فتسند القيادة الى عبدالله بن رواحه . وعندما وصلت الحملة الى مشارف انحازت إلى مؤتة لتتحصن بها وقد دارت معركة حامية في مؤتة قتل فيها الثلاثة قواد فتولى أمر قيادتها خالد بن الوليد الذي انسحب بفلول الحملة إلى المدينة .

وتختلف الروايات حول أسباب هذه الحملة ، ولعل أقربها الى الصحة هو

الثأر لمقتل رسول النبي الحارث بن عمير الأزدى على يدي شرحبيل بن عمرو الغساني أمير مؤته، ومقتل فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم في معان عندما أعلن إسلامه. وقد فسرت هذه الحملة على انها إحدى الغارات التي اعتاد البدو ان يشنونها للسلب والنهب ولم يقدر البيزنطيون أهميتها، فقد كانت الشرارة الاولى ضد الدولة البيزنطية وقدر لها الا تنطفىء حتى تسقط العاصمة البيزنطية بعد ما يزيد عن ثمانية قرون.

وفي العام التالي ٦٣٠ م/٩ هـ، علم الرسول أن البيزنطيين تجمعوا في جنوب الشام لقتال المسلمين وقد انضمت إليهم بعض القبائل العربية، فدعا الرسول للجهاد، وخرج بنفسه على رأس الجيش في طريقه الى الشام حتى وصل الى تبوك فأقام فيها فصالحه أهلها. وما لبثت الوفود ان قدمت اليه من إيله وغيرها وصالحوه على دفع الجزية. ومن تبوك أوفد الرسول خالد بن الوليد الى دومة الجندل فاستولى عليها وأسر حاكم المدينة ثم عاد الرسول الى المدينة.

وفي عام ٦٣٢ م/١١ هـ أعد الرسول جيشا لقتال البيزنطيين وعين له أسامة ابن زيد بن حارثة الذي سقط في غزوة مؤتة، ولكن الرسول توفى قبل أن يتحرك الجيش، وواصل أبو بكر الجهاد ضد الدولة البيزنطية وأتم ما أعده الرسول وأوفد أسامة إلى حرب الروم في جنوب الشام، وعاد أسامة بعد أربعين يوماً منتصراً.

وبعد ما فرغ أبو بكر من حرب الرده أعد أربع فرق عسكرية وسيرها الى الشام وتولى أمر الاولى ابو عبيدة الجراح وكانت وجهته حمص، والثانية عمرو ابن العاص وأوكل اليه أمر فلسطين، وتكفل بالثالثة يزيد بن أبي سفيان وإتجه الى دمشق، اما الرابعة فعقد لوائها الى شرحبيل بن حسنة. وقد انتصر يزيد بن ابي سفيان في عام ٦٣٤ م على سرجيوس Sergios في وادي عربة جنوبي البحر الميت. وقد لقيت فلول الجيش البيزنطي أثناء تقهقرها تجاه مدينة غزة هزيمة ساحقة عند دائن. أما الفرق الاسلامية الاخرى فقد هزمها البيزنطيون وأوقفوا زحفها. وبعد هذه الاحداث أيقن هرقل أن الأمر لم يعد

غارة عابرة بل حرب منظمة فأسرع يعد الجيوش ودفع بها الى جنوب الشام تحت قيادة أخيه ثيودور Theodore .

تقدم ثيودور ببطء الى جنوب الشام للدفاع عن مدينة بيت المقدس ، واتخذ من أجنادين بين القدس وغزة مركزا لعملياته العسكرية . وفي الوقت نفسه طلب ابو بكر من خالد بن الوليد الإتجاه من العراق الى الشام لمساندة إخوته هناك . كما نجح عمر بن العاص في الإغارة على جنوب الشام والتوغل حتى غزة وقيصرية ونجح في قطع خطوط المواصلات بين بيت المقدس وساحل البحر المتوسط . وقام خالد بن الوليد بتجميع القوات في وادي عربة وإتجه لمواجهة القوات البيزنطية وعلى رأسها ثيودور . ونشبت معركة عنيفة بين المسلمين والبيزنطيين في عام ٦٢٤م/١٤ هـ في أجنادين كتب النصر فيها للمسلمين . وبعد معركة أجنادين توفي الخليفة أبو بكر وتولى أمر المسلمين عمر ابن الخطاب .

وحاول هرقل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بلاد الشام بعدما عمت الفوضى أرجاء المنطقة بعد معركة أجنادين ، وبدأ هرقل في تجميع قواته في دمشق وعين عليها قائدا آخر وإستدعى أخيه الى العاصمة . وحاولت القوات البيزنطية عرقلة تقدم الجيوش الاسلامية الى الشام ولكنها فشلت في هذه المهمة . وفي عام ٦٣٥م/١٥ هـ أنزل المسلمون هزيمة أخرى بالقوات البيزنطية عند مرج الصفر جنوب دمشق ، ثم ما لبثوا أن استولوا على دمشق نفسها بعد وقت قصير . وتلى ذلك سقوط مدن الشام الواحدة بعد الأخرى في العام ذاته .

حاول هرقل تجميع قواته بشمال الشام في أنطاكية والرها وتمكن من حشد جيش كبير ودفع به الى الجنوب في عام ٦٣٦م/١٦ هـ . ولما علم خالد بذلك إنسحب من حمص التي كان معسكراً بها لتفقد الجبهة الاسلامية ، كما أمر قواته بالانسحاب من دمشق وسائر المدن المجاورة وجمع كل ما لديه من الرجال لمواجهة الجيش البيزنطي الكبير الذي وصل تعداده الى ما يزيد عن ثلاثة

أضعاف الجيش الإسلامي ، وكان اللقاء عند اليرموك حيث قام خالد ببعض المناوشات العسكرية حتى تصل اليه الإمدادات . وأخيرا قام خالد بتطويق القوات البيزنطية ومنع إتصالهم بدمشق . وفي الوقت المناسب انقضت القوات الاسلامية على القوات البيزنطية وأنزلت بها هزيمة كبيرة ، فضاع أملها في إسترداد الشام ، وسيطر المسلمون على الموقف فدخلوا مدينة دمشق . تولى قيادة المسلمين بعد هذه الأحداث ابو عبيدة الجراح وبقي خالد في الميدان يسانده ، وتقدمت القوات الإسلامية الى الشمال فدخلت قنسرين وبعلبك وحمص وحلب وأنطاكية دون مقاومة تذكر . وقام هرقل بعدها بمحاولات يائسة لانقاذ الشام ولكن جهوده باءت بالفشل وخضع الشام للحكم الاسلامي .

إنتقل ميدان القتال بعد ضياع الشام الى مصر ، فلقد رأى القادة البيزنطيون أن مصر منطقة آمنة تصلح لتكون منطقة تجمع للقوات البيزنطية خاصة أن الاسطول البيزنطي القوي لم يدخل المعركة ويمكن استغلاله في نقل الجنود ، ومن مصر يمكن شن الهجوم على الشام ومساندة المدن التي لم تسقط بعد مثل قيصرية التي لم تسقط حتى عام ٦٤٠ م ومصر أيضاً قريبة من الحجاز وربما خطط البيزنطيون لضرب الجزيرة العربية مركز الدعوة لقربها من مصر .

وفي الوقت نفسه كان العرب متحمسين لفتح مصر لتأمين الشام ولأسباب أخرى ، لذلك سار عمرو بن العاص الى مصر في أواخر عام ٦٣٩ م/١٨ هـ ، ونجح في الاستيلاء على مدينة الفرما بعد شهر من حصارها أوائل عام ٦٤٠ م/١٩ هـ ، ومنها تقدم الى بلبيس ، وتحصن البيزنطيون في حصن بابليون ، وعسكرت القوات الاسلامية في عين شمس حتى وصلت الإمدادات الاسلامية . ومع وصول الامدادات تقدم المسلمون وحاصروا حصن بابليون حتى أحس البيزنطيون بعدم جدوى المقاومة ، فلجأ المقوقس حاكم مصر الى المفاوضات . ولكن هرقل رفض شروط الصلح وما لبث أن مات في أوائل عام ٦٤١ م .

ولعدم جدوى المفاوضات وعدم وصول إمدادات الى القوات البيزنطية نجح المسلمون في دخول حصن بابليون ، وانسحب البيزنطيون الى الاسكندرية

وسيطر المسلمون على جنوب مصر، ثم رأى عمرو بن العاص تعقب القوات البيزنطية الى الاسكندرية فحاصرها وطال أمد الحصار لمناعة المدينة ووصول الامدادات اليها عن طريق البحر. ولم يستمر الحصالا طويلا، فقد دبت الفوضى في العاصمة البيزنطية بعد موت هرقل بسبب الوراثة على العرش، هذا بالاضافة إلى إزدياد خطر اللمبارديين في إيطاليا. لذلك إضطرت الإمبراطورية البيزنطية إلى فتح باب المفاوضات مع المسلمين مرة أخرى، وانتهى الأمر بصلح الأسكندرية. وأهم هذه الشروط ضمان سلامة من يرحل عن مصر والجزية لمن يبقى فيها. وعقدت الهدنة لمدة إحدى عشر شهراً حتى يتيسر للقوات البيزنطية وللمدنيين الراغبين في ترك مصر الرحيل عنها.

خلفاء هرقل

تزوج هرقل مرتين، وكانت زوجته الاولى يودوكيا التي أنجب منها ولدا هو قسطنطين، أما زوجته الثانية فهي ابنة عمه وتدعى مارتينا Martina، ولها إبن هو هرقلون Heraclonas. وطبقا لتقاليد الامبراطورية كان قسطنطين هو صاحب الحق في وراثة العرش، ولكن مارتينا أقنعت زوجها هرقل بإشراك إبنها هرقلون في ولاية العهد. وعندما توفي هرقل، والقوات الاسلامية كانت تستكمل فتح مصر، دار صراع بين البلاط ورجال الجيش حول مسألة الوراثة. وأثناء هذا الصراع مات قسطنطين بعد أشهر قليلة ويقال أن مارتينا هي التي قتلته بأن دست له السم حتى يخلو الطريق الى العرش لابنها هرقلون. وكان الواجب ان يتولى قنسطانز بن قسطنطين العرش، ونظرا لحداثة سنه أغتصب حقه في الوراثة. غضب شعب القسطنطينية لهذا التصرف وطالبوا بإشراك قنسطانز في الحكم. وخاف هرقلون من عاقبة الأمور فأشرك قنسطانز معه في إدارة الدولة. وبعد عام واحد قرر السناتو عزل هرقلون وتقرر نفيه ومعه والدته وبدأ حكم قنسطانز.

قنسطانز الثاني ٦٤٢ - ٦٦٨م

وفي بداية عهده تسلم المسلمون مدينة الاسكندرية وتمكنوا من فتح جزيرة أرواد. ولم يتمكن المسلمون من التقدم أبعد مما وصلوا اليه في هذه المرحلة. وكان في الصراع بين علي ومعاوية فرصة مكنت الامبراطورية من إصلاح أحوالها، وسعى معاويه لعقد الصلح مع الامبراطورية البيزنطية ليتفرغ لقتال علي بن أبي طالب.

ولما اطمأن قنسطانز الى الجانب الإسلامي بدأ يوجه إهتمامه الى المسائل الداخلية. فبدأ في اعادة تنظيم الولايات بعد إنسلاخ الشام ومصر، وكان إهتمامه بصفة خاصة منصباً على ولايات الحدود، فأقام على هذه الولايات قوادا لهم شهرتهم العسكرية، وكان عليهم تصريف الشؤون المدنية أيضاً.

وإنشغل قنسطانز بأمور الغرب لفترة ليست بقصيرة، فبدأ بالضغط على العناصر السلافية واجبرهم على الخضوع ودفع الجزية. وحاول طرد اللمبارديين من إيطاليا فاستولى على العديد من مدنها ونجح في دخول العاصمة روما. وفي عام ٦٦٨ م قتل قنسطانز على يدي خادمه في حمامات دافن Daphne.

قسطنطين الرابع بوجوناتوس Pogonatus ٦٦٨ - ٦٨٥م

حكم قسطنطين بوجاناتوس أي ذو اللحية الحمراء سبعة عشر عاما قضى معظمها في صراع طويل مع الدولة الأموية. فقد فرغ معاوية من الحرب الأهلية، وعادت القوات الاسلامية لشن الهجوم على الأراضي البيزنطية في صقلية وإفريقية وآسيا الصغرى. وفي عام ٦٧٣ م/٤٨ هـ جهز معاوية جيشا لفتح القسطنطينية من البر والبحر. وقد نجح الأسطول الإسلامي في الوصول الى مدينة قيزيقوس Cyzicus وجعلها مقراً لعملياته العسكرية.

دام الحصار طويلا وبذلت الحامية البيزنطية في القسطنطينية جهودا كبيرة لصد المهاجمين، واخيرا نجحت القوات البيزنطية بفضل النار الارغريقية في التفوق على الاسطول الإسلامي، كما أحرز البيزنطيون تفوقا على القوات البرية

الاسلامية. وأخيرا اضطر المسلمون للعودة الى الشام بعد ان فقدوا الكثير من الجند والسفن بعد حرب دامت أربع سنوات. وفي الوقت الذي كان قسطنطين يدافع عن العاصمة البيزنطية ضد الهجمات الاسلامية، انتهزت العناصر السلافية فرصة انسحاب القوات البيزنطية لمواجهة القوات الاسلامية وحاصرت مدينة سالونيك، ولم يتمكن قسطنطين من ردهم إلا بعد انتهاء الخطر الإسلامي على القسطنطينية. ولم ينته الأمر عند ذلك، فقد ظهر خطر آخر وهو الخطر البلغاري. والبلغار قبائل من والبرابرة كانوا يسكنون منطقة نهري البروت Pruth والدنيستر Daniester وتمكنوا من إخضاع السلاف في إقليم مواشيا Moesia واستقروا بين الدانوب ومنطقة البلقان الشرقية. وحكم اسباروخ Asparuch كأول ملك للدولة البلغارية في عام ٦٨٠م وظل حتى ٧٠١م. ولما كان قسطنطين متعبا من الحروب الطويلة مع الدولة الأموية، لم يتمكن من أن يبذل أي محاولة لرد البلغار الى ما وراء الدانوب، فبقي البلغار في المناطق التي سيطروا عليها وسببوا إزعاجا شديدا للإمبراطورية البيزنطية لفترة طويلة من الزمن.

ومن الأحداث الهامة التي وقعت في أواخر عهد قسطنطين هو اجتماع المجمع المسكوني في القسطنطينية عام ٦٨٠ - ٦٨١م وهو المجمع الذي أنكرت فيه الكنائس الشرقية والغربية مذهب المشيئة الواحدة، وصدر قرار الحرمان على كل أتباع هذا المذهب ومات قسطنطين عام ٦٨٥م قبل ان يبلغ السادسة والثلاثين من عمره وترك العرش لابنه جستينيان المعروف بالثاني.

جستينيان الثاني ٦٨٥ - ٦٩٥م، المرة الأولى

تولى عرش الامبراطورية بعد والده وكان لا يزال في السادسة عشر من عمره، وكان ذكيا يحب العظمة تواقا للمجد ذا عزيمة قوية ساعدته على إثبات شخصيته ونهج السبيل الذي يحلو له. ففي عام ٦٨٩ نقض المعاهدة التي عقدها والده مع خان البلغار أسبروخ وقام بجولة حربية ضد البلغار وكانت جولة

موفقة ، وأعقبها بحملة اخرى ضد الصقالبة في البلقان ونقل الكثير منهم وأسكنهم منطقة الدردنيل ليكونوا خطا دفاعيا أمام هجمات المسلمين ، لأنهم كانوا يستخدمون هذه المنطقة نقطة إرتكاز في هجومهم على العاصمة.

وبدأ جستينيان يختلق الأسباب لتجديد الحرب مع المسلمين وكانت الجزية التي تدفعها الدولة الأموية طبقا لمعاهدة ٦٧٩م تدفع بالعملة البيزنطية الذهبية وهي الصلدى Solidi ، وفي عام ٦٩٢م كان عبدالملك بن مروان قد صك نقودا إسلامية فرفض جستينيان إستلام الجزية بالعملة الاسلامية وأعلن الحرب على المسلمين. ولما كان عبدالملك مشغولا في بعض الصراعات الداخلية ، لذلك اشترى الصلح من الدولة البيزنطية. وذكر لنا المؤرخ البيزنطي ثيوفانيس Theophanes شروط هذا الصلح ، وذكر ان عبدالملك بن مروان أرسل الى جستينيان الثاني لإقرار السلام بينهما ، وتم الإتفاق على ان يقوم الامبراطور بسحب المردة من لبنان ويوقف غاراتهم وأن يدفع عبدالملك للإمبراطورية البيزنطية الف نوميسماتا (٧ ونصف من الرطل ذهباً) كل يوم ، وحصانا أصيلا وعبدا حبشيا ، وأن يقتسم الطرفان ضرائب قبرص وأرمينيه وايبريا (اقليم في أرمينيه). وأرسل الامبراطور الى عبدالملك المندوب الامبراطوري بولس Paul لإثبات بنود المعاهدة التي تم الاتفاق عليها ، وعاد المبعوث البيزنطي محملا بالهدايا. وسحب الامبراطور جماعة المردة وكان عددهم اثني عشر الفا ، وقد أدى ذلك الى اضعاف القوة البيزنطية على الجبهة الشرقية بعد ما تهدم السور النحاس الذي كان يحمي الامبراطورية. أما عن المصادر العربية فقد روى الطبري أن عبدالملك صالح ملك الروم ، على أن يؤدي إليه في كل جمعه ألف دينار خوفا منه على المسلمين.

وجرت الحروب التي خاضها جستينيان الثاني الخراب على الامبراطورية ونفاذ مواردها ، فبدأ الامبراطور بجمع الضرائب بالقوة وغالى فيها وعذب من إمتنع عن دفعها ، فجر على نفسه كراهية رجال الدين والجيش. وتطاول طغيانه وبدأ يسجن ضباطه ويقتلهم ، وساعده في ذلك وزيرين هما ثيودوتس

Theodotus وستيفانوس Stephanus ، وكان كل منهما عنيفا قاسيا . ويقال ان ثيودوتس كان يعلق من يمتنع عن دفع الضرائب بالحبال فوق النيران وان ستيفانوس كان يجلد كل من خالفه ، وأنه أمر بضرب أم جستينيان نفسه بالسياط اثناء غياب ولدها ، ولم يحاسبه الامبراطور على ذلك بعد عودته .

وخشي ليونتيوس Leontius قائد الجيش سوء العاقبة واعتقد أن الدائرة ستدور عليه . واستغل كره الجيش والشعب للامبراطور ونجح في القبض عليه ومعه وزيراه ، وقد تم نفي جستينيان الى شبه جزيرة خرسون وتسلم الثائرون الوزيرين فألقوا بهما في النار .

ليونتيوس ٦٩٥ - ٦٩٨م

وفي بداية عهده أعد الخليفة عبدالملك بن مروان جيشا كبيرا تولى قيادته حسان بن النعمان الذي اتجه الى القيروان ثم الى قرطاج أعظم المدن البيزنطية في الساحل الأفريقي الشمالي . وفي عام ٦٩٧ استولى المسلمون عليها فانسحبت القوات البيزنطية الى صقلية . وحاولت بيزنطة استرداد قرطاج في العام نفسه فانطلقت من قواعدها في صقليه ونجحت في استردادها ، ولكن القوات الاسلامية تمكنت من استردادها في العام التالي ٦٩٨م . وعلى إثر هذه الهزيمة فرت القوات البيزنطية التي نجت من الموت وإتجه القادة الى العاصمة البيزنطية بطريق البحر ، واثناء رحلتهم دبروا مؤامرة لخلع ليونتيوس وتمكنوا من ضم طيبريوس Tiberius - نائب "القائد البحري للبحرية البيزنطية - الى صفوفهم ، فنادوا به امبراطورا ونجحوا في دخول العاصمة وقبضوا على ليونتيوس وأجبروه على قبول الرهبانية بعدما جدعوا أنفه .

طيبريوس الثاني ٦٩٨ - ٧٠٥م

تناسى طيبريوس ما حل بقرطاج ولم يفكر في العمل على إستعادتها ، وقد سهل ذلك للمسلمين فرصة التقدم في الشمال الافريقي غربا حتى مدينة سبته التي قاومت لبعض الوقت ثم ما لبثت ان استسلمت لموسى بن نصير عام

٧١١ م/٩٤ هـ وتطلع المسلمون إلى أسبانيا. ولم يتقبل الشعب البيزنطي حكم طيبريوس بالرضى التام فقاموا بالثورة. وكان جستينيان يخطط منذ نفيه لاسترداد عرشه، وأخيراً نجح في الهرب ولجأ إلى قبائل الخزر واستقبل استقبالاً رائعاً وتزوج من أخت خان الخزر التي إعتنقت المسيحية. وعلم طيبريوس بهروب جستينيان فأرسل إلى خان الخزر يطالب بتسليمه إليه. وخشي الخان توتر العلاقات مع بيزنطة وما يترتب على ذلك، فأعد العدة لتسليم جستينيان. ولما أحس حستينيان بما يدبر ضده هرب ولجأ إلى خان البلغار ترفل Trevel (٧٠١ - ٧١٨ م) الذي وعده بالحماية والمساعدة. ونجح جستينيان في تجنيد بعض العناصر البلغارية والسلافية واتجه في عام ٧٠٥ م الى القسطنطينية بصاحبة خان البلغار. وتعذر عليه إقتحام المدينة لحصانتها، ولكنه نجح في التسلل إليها بمساعدة بعض أعوانه الذين كانوا داخل العاصمة. ولما علم طيبريوس بما حدث فرّ هارباً من العاصمة تاركاً العرش لجستينيان الثاني ليحكم مرة أخرى.

جستينيان الثاني ٧٠٥ - ٧١١م مرة ثانية

بعدما عاد جستينيان الى عرشه كافأ أصدقاءه ونكل بأعدائه وكان متطرفاً في الاثنين، ومنح ترفل لقب قيصر لما أداه له من مساعدة وأعاد الجزية التي كانت تدفع للبلغار من قبل. كما تم القبض على الامبراطورين السابقين طيبريوس وليونتيوس، وطيف بهما في شوارع العاصمة وسط سخرية العامة وفي النهاية تم إعدامهما، كما أعدم عددا من القادة البيزنطيين. الذين ساندوا الامبراطورين السابقين. وكانت هذه الاعمال فاتحة عهد من الاعمال الإرهابية شملت كل من تخلوا عنه. والحقيقة ان جستينيان منذ عودته للحكم مرة أخرى شغل نفسه بمثل هذه الاعمال ولم يقم بأي عمل في الداخل أو الخارج لاصلاح حال الامبراطورية.

واستغل المسلمون هذه الفرصة وحاصروا قلعة الطوانة Tyana في عام ٧٠٩ م/٩٢ هـ، وهي القلعة الهامة القريبة من المصيصة، ومفتاح الطريق الهام

بين الشام وآسيا الصغرى ومن اهم معاقل إقليم قبدوقيه، وقد ظل الحصار تسعة أشهر خسر خلالها البيزنطيون خسائر فادحة. ويرجع ذلك الى أن أمر قلعة الطوانه كان في أيدي قواد لا يتمتعون بالكفاءة العسكرية اللازمة. وأخيرا سقطت القلعة في أيدي المسلمين، ومنها توغل المسلمون في آسيا الصغرى وعادوا محملين بالغنائم والأسلاب.

وفي عام ٧١١ م أرسل جستينيان حملة لتأديب سكان شبه جزيره خرسون، وكانت الأعمال الارهابية التي قام بها رجال جستينيان سببا في اندلاع الثورة هناك، وانتقلت عدواها الى الجيش والأسطول، وأعلن الثائرون باردانس فيليبكوس Bardanes Philippicus الأرميني الأصل امبراطورا. ولما وصل الامبراطور الجديد الى القسطنطينية فتحت له أبوابها، وانتهى الأمر بمقتل جستينيان على يدي أحد ضباطه، كما قتل ولي عهده ووريثه ابنه المسمى طيبريوس، وانتهى حكم الاسرة الهرقلية وسط ثورة دموية عارمة، بعد أن حكمت قرنا من الزمان تقريبا.

فيليبكوس ٧١١ - ٧١٣م

كان فيليبكوس رجل مسرات، فانصرف الى المتع وقضى وقته في اللهو ولم يعبأ بشئون الحكم، وكان لذلك كله اسوأ الأثر على أحوال الامبراطورية في الداخل والخارج. وفيما يتعلق بالداخل فقد كان الامبراطور من أتباع المشيئة الواحدة، لذلك قام بعزل بطريق الامبراطورية قيروس Cyrus (٧٠٦ - ٧١٢ م) ونفاه الى أحد الأديرة وأقام مكانه يوحنا السادس John VI (٧١٢ - ٧١٥ م). وفي العام نفسه الذي عزل فيه البطريق وهو عام ٧١٢م عقد مجمعا دينيا محليا للنظر في قرارات المجمع الديني السادس (٦٨٠ - ٦٨١ م) الذي أنكر عقيدة المشيئة الواحدة. وفي هذا المجلس وتحت ضغط الامبراطور ألغيت جميع قرارات المجمع السادس وأحرقت قراراته.

وواقع الأمر أن فيليبكوس كان قد تسلم العرش وتسلم ايضا رصيدا من الإنحلال داخل الامبراطورية مرجعه الى سياسة سلفه القاسية، وكان كل شيء

في الامبراطورية سواء في الادارة الحكومية أو الجيش قد أصابه الاضطراب وزاده فيليبكوس إضطرابا على اضطرابه.

ومع تفاقم الفوضى إتفق قواد الجيش على عزل الامبراطور ووضعوا على العرش أحد الوزراء السكرتيرين الامبراطوريين وهو أرتيميوس أناسطاسيوس Artemius Anastasius المعروف بأناسطاسيوس الثاني (٧١٣ - ٧١٥م)، وقام أناسطاسيوس بعزل البطريك يوحنا وأقام على كرسي البطريركية جرمانوس الأول Germanus I (٧١٥ - ٧٣٠م). وعقد مجمعا دينيا محليا في عام ٧١٥م، الغى بموجبه قرارات مجمع عام ٧١٢م وأعاد قرارات المجمع السادس الذي ينكر عقيدة المشيئة الواحدة، وبعد عام واحد تمرد الجند وخلعواأناسطاسيوس وسملوا عينيه، ونصبوا على عرش الامبراطورية ثيودوسيوس الثالث ٧١٥ - ٧١٧م.

وإنتهز المسلمون والبلغار حالة الفوضى التي تمر بها الامبراطورية فاندفع المسلمون إلى غرب آسيا الصغرى وإندفع البلغار إلى شرق أوروبا وكل منهما يستولي على ما يقع تحت يديه من أراضي. وقد نجح المسلمون عام ٧١٢م في الاستيلاء على مدينة أماسيه Amaseia الواقعة في الشمال الشرقي من آسيا وأعقبوها في العام التالي ٧١٣م بضربة أخرى في العمق واستولوا على مدينة انطاكية بسيديا الواقعة على نهر المياندر Meander جنوب غرب آسيا الصغرى. وفي عام ٧١٦م استولى المسلمون على مدينة عمورية الواقعة في منتصف آسيا الصغرى. وهذا يوضح لنا أن القوات الاسلامية كانت تسير في آسيا الصغرى كما يحلوا لها وبات المسلمون يتطلعون لغزو القسطنطينية. وبدأت الخلافة الأموية تعد العدة لهذا الغرض. فأعد سليمان بن عبد الملك ٩٦ - ٩٩ هـ/٧١٥ - ٧١٧م أسطولا كبيراً وجيشا عظيماً، ولكن ليو الثالث الأيسوري Leo III The Isaurian (٧١٧ - ٧٤١م)، ظهر في الوقت المناسب لينقد الامبراطورية ويؤسس أسرة حاكمة جديدة هي الاسرة الايسورية (٧١٧ - ٨٠٢م).

الفصل الخامس

الأسرة الأيسورية
٧١٧ - ٨٠٢ م

يبدأ حكم الأسرة الايسورية بالامبراطور ليو الايسوري الذي تمكن من الوصول للعرش على إثر مؤامرة ناجحة ضد الامبراطور ثيودوسيوس الثالث الذي لم يجلس على عرش الامبراطورية سوى فترة قصيرة . فقد كان ثيودوسيوس كارها للعرش ومنغمسا في ملذاته. وقد استطاع ليو ان يصد الكثير من الاخطار الخارجية التي كان من أهمها الخطر الاسلامي والبلغاري ، وتمكن أيضا أن ينجز الكثير من القوانين والعديد من الاصلاحات الداخلية ، وان يوقف الى حد ما الصراع الأيقوني بشيء من الحكمة رغم عدائه السافر للأيقونيين ، إلا انه عاداهم دون تصلب أو عناد . أما خليفته وهو قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥ م) فقد أكمل المحافظة على صرح الامبراطورية ضد نفس الأخطار الاسلامية والبلغارية وان كان سلبيا في موقفه من اللمبارديين ، ولكنه كان سفاكاً للدماء في معالجته لمشكلة الأيقونات، فقد انتقم بعنف من الأيقونيين . اما ليو (٧٧٥ - ٧٨٠ م) المعروف باسم ليو الخزري ، نسبة الى أمه الخزرية ، فلم يكن حكمه طويلا ولذلك لم تظهر آثار سياسته الداخلية او الخارجية وان التصق به أنه كان ميالا للأيقونيين بحكم تأثير أمه والتي حكمت كوصية عليه لفترة من الوقت . اما الإمبراطورة ايرين Iren (٧٨٠ - ٨٠٢ م) فقد كانت امرأة طموحة لدرجة جردتها من مشاعر الامومة وطغى عليها حبها للحكم لدرجة جعلها تتخلص من إبنها فسملت عينيه ليخلوا لها العرش الامبراطوري ، واصيبت الامبراطورية في عهدها بكثير من الاضطراب

الداخلي والخارجي حيث اشتدت هجمات المسلمين، ولم تجد الامبراطورية بديلا لوقف هذه الهجمات سوى دفع الجزية للمسلمين. وانتهى حكم إيرين بثورة خُلعت على إثرها من العرش، وتولى أمر الأمبراطورية قائد الثورة وهو نقفور الأول Nicephorus I، وينهى عهد دولة الأيسورية.

ليو الايسوري ٧١٧ - ٧٤١م

يستمد ليو الثالث لقبه من إقليم إيسورياIsauria في إقليم قيليقية بآسيا الصغرى، ويذكر المؤرخ البيزنطي ثيوفانيس Theophanes أنه ولد في هذا الإقليم من أبوين أرمنيين، ثم انتقل والده من هناك إلى تراقية طبقاً للسياسة البيزنطية في نقل السكان إلى المقاطعات المعرضة للغزو العسكري. وفي تراقية قام والده بأعمال الرعي وتربية الضأن، وأرسل منها خمسمائة رأس مصحوبة بابنه ليو هدية منه إلى الإمبراطور جستينيان الثاني. وانخرط ليو في سلك الجندية ثم ما لبث أن أصبح جندياً في حرس القصر الإمبراطوري، ثم قائداً لفيلق الأناضول. ثم إختاره الجيش إمبراطوراً، وإختيار الجيش كان أمر واجب التنفيذ. كان ليو رجلاً طموحاً، قوي الإرادة، مثابراً، صبوراً، وكان قبل إختياره إمبراطوراً قد هزم جيشاً إسلامياً يفوق جيشه، ولعل ذلك كان السبب في تمسك الجيش باختياره ليجلس على عرش الإمبراطورية. كما كان ليو سياسياً محنكاً، وهب الإمبراطورية الاستقرار الناشيء من التطبيق العادل للقوانين العادلة، وأصلح نظام الضرائب وخفض من أعباء رقيق الأرض ووسع نظام الملكية الزراعية، ووزع الأراضي على الفلاحين، وعمر الأقاليم المهجورة، وأعاد النظر في القوانين ووضعها على أساس إنساني حكيم، ولم يكن يعيبه إلا سلطانه الأتوقراطي.

ويبدو أن نفسه تشبعت وهو في صباه بآسيا بالأفكار الدينية التي كانت سائدة في هذه المنطقة وكلها تذم عكوف المسيحيين على عبادة الصور والتماثيل وكانت الكنيسة في أول عهدها تكره الصور والتماثيل وتعدها من بقايا الوثنية، وتنظر إلى فن النحت الوثني الذي يهدف الى تمثيل الآلهة بغير ارتياح. ولكن

إنتصار المسيحية في عهد قسطنطين، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر في القسطنطينية والشرق الهلنستي، كل هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الافكار الوثنية. وعندما تضاعف عدد القديسين نشأت الحاجة الى معرفتهم وتذكرهم، فظهرت لهم وللسيدة مريم العذراء الكثير من الصور، وأطلق الشعب العنان لفطرته فحول الآثار والصور والتماثيل المقدسة الى معبودات يسجد لها الناس ويقبلونها ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها، ويتوجونها بالأزهار ويطلبون منها أن تأتي بالمعجزات بفضل تأثيرها الخفي. وفي البلاد التي إتبعت مذهب الكنيسة البيزنطية بنوع خاص، كانت الصور المقدسة في كل مكان، في الكنائس والأديرة والمنازل والحوانيت، وحتى أثاث المنازل والحلي والملابس نفسها لم تخل منها. وأخذت المدن التي تتهددها أخطار الوباء أو المجاعة أو الحرب تعتمد على قوة ما لديها من الآثار الدينية أو على من فيها من القديسين، بدلا من الإعتماد على الجهود البشرية للنجاة من هذه الكوارث، وكم من مرة نادى آباء الكنيسة ونادت مجالسها بأن الصور ليست آلهة بل هي للذكرى فحسب، ولكن الشعب لم يكن يأبه بهذه التفرقة.

وفي خضم هذا الصراع الفكري الديني يتولى ليو عرش الامبراطورية وسط خضم آخر من الإضطرابات السياسية حول الصراع على العرش بين كل من فيليبكوس Philippicus وجستينيان الثاني، إنتهى بانتصار الأول لفترة قصيرة (٧١١ - ٧١٣م) ثم حكم أناسطاسيوس الثاني Anastasius II (٧١٣ - ٧١٦م) الذي بدأ عهده بالاستعداد لصد الهجوم الإسلامي المرتقب على حدود البلاد، إلا ان فرقة من الجيش أعلنت الثورة وعزلته وأحلت محله الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث ٧١٦ - ٧١٧م الذي كان يعمل جابياً للضرائب. وقد أُجلس على عرشه بالقوة فقد كان كارهاً له. وعلى أثر ذلك وقعت البلاد في حرب أهلية لمدة ستة أشهر تقريباً شغلتها عن الإستعداد لصد الخطر الإسلامي. وفي هذه الاثناء لاحت في الأفق شخصية ليو الذي كان مقدراً له إنقاذ القسطنطينية من الخطر الاسلامي.

الدفاع عن القسطنطينية ٧١٧م

كانت القسطنطبنة أمل المسلمين منذ ظهور الإسلام وكثيراً ما حاولوا الاستيلاء عليها ودبروا الخطط العسكرية لتحقيق هذا الهدف. ومن ذلك انه منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب وهم يعملون على إمتلاك جزيرة قبرص المحط القريب في البحر المتوسط الذي يطل على بلاد الشام وآسيا الصغرى لأنه بالاستيلاء عليها يصبح من الممكن مهاجمة العاصمة البيزنطية. وعندما سيطروا عليها في عهد معاوية سنة ٦٤٩م إنقضوا منها على جزيرة رودس عام ٦٥٤م وإمتلكوها كما إمتلكوا أيضاً جزيرة كوس Cos، وبدأت غاراتهم على جزيرة كريت. وعندما سيطروا على جزيرة قبرص فرضوا على أهلها ضرورة تنبيه المسلمين بأي محاولة هجومية يعدها البيزنطيون ضد المسلمين كما فرضوا عليهم أيضاً أن تكون قبرص قاعدة عسكرية إسلامية إذا أراد المسلمون غزو الإمبراطورية البيزنطية. ولعل من أشد الضربات التي وجهت للقسطنطينية كان حصار عام ٧١٧م على عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك.

والواقع ان هذا الهجوم كان من أهم ما وجه الى شرق أوربا في ذاك الوقت الذي كان مليئاً بالعناصر البلغارية والآفارية والسلافية الوثنية الديانة، وان سقوط القسطنطينية كان يعني إنتشار الديانة الإسلامية في هذه المنطقة وتغيير وجه شرق أوربا بأكمله.

بدأت الحملة على القسطنطينية باعداد جيش ضخم بقيادة مسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة سليمان بن عبد الملك، الذي اعتبر نفسه الشخص المعني بالقول الشائع في ذاك الوقت الذي يقول بأن خليفة يحمل إسم نبي سيفتح القسطنطينية. وكان هذا الجيش قد بلغ تعداده حسب أقوال بعض المؤرخين حوالي ثمانين ألف رجل، وإتجه من طرطوس وإخترق آسيا الصغرى حتى وصل الى الدردنيل، وفي الوقت نفسه أبحر من الشام أسطول ضخم قاصداً بحر ايجه وتقابل الجيش والأسطول عند مدينة ابيروس Epiros الواقعة على الشاطىء الآسيوي للدردنيل. وواقع الأمر أن مسيرة الجيش ورحلة الأسطول كانت

موفقة ولم يلحق بهما أذى يذكر، وذلك بسبب قيام الأمبراطور بسحب جميع قواته البحرية والبرية بهدف حماية العاصمة. ويذكر المؤرخ الطبري حول هذه الأحداث في عام ٩٨ هـ « فمن ذلك ما كان من توجيه سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك الى القسطنطينية، وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه، فشتا[قضى الشتاء] وصاف [قضى الصيف] .فذكر محمد بن عمر أن نور ابن زبد حدثه عن سليمان بن موسى قال: لما دنا مسلمة من قسطنطينة أمر كل فارس ان يحمل على عجز مديين[مكيال ضخم لأهل الشام ومصر] من طعام حتى يأتى به القسطنطينية. فأمر بالطعام فألقى من ناحية مثل الجبال ثم قال للمسلمين: لا تأكلوا منه شيئاً، أغيروا في أرضهم وازدرعوا [ازرعوا] . وعمل ببوتا من خشب فشتا فيها وررع الناس، ومكث ذلك الطعام في الصحراء لا يصبه شيء، والناس يأكلون مما أصابوا من الغارات، ثم أكلوا من الزرع، فأقام مسلمة بالقسطنطينية قاهراً لأهلها معه وجوه أهل الشام: خالد بن معدان وعبدالله بن أبي زكريا الخزاعي، ومجاهد بن جبر... ».

أما عن موقف الامبراطور ليو، فكان عليه أن يتصرف لإنقاذ البلاد من هذا الخطر الذي هدد القسطنطينية التي كانت تعتبر البوابة الشرقية لأوربا. وقد ساعدت ليو بعض العوامل، وهيأت له الصمود أمام ضربات المسلمين، فلقد كان ليو بحكم نشأته في الأناضول على علم بالفنون العسكرية الإسلامية في القتال، كما كان على علم بعادات ولغة المسلمين، وكان يعلم أيضاً بخطط المسلمين التي تهدف لإسقاط القسطنطينية، وذلك بحكم قيامه لفترة غير قصيرة حاكماً لإقليم الأناضول. كما كانت هناك أيضاً معوقات حالت دون الإعداد السريع للقضاء على هذا الهجوم. فان فترة الاضطراب التي سبقت عهده كانت كفيلة بإضعاف الجيش، وما كان موجود سوى جيش مفكك تعوّد على الثورة من وقت لآخر. لذلك رأى ليو أن الاعتماد على القوة البيزنطية غير كافٍ لوقف زحف المسلمين، وتطلع إلى الاستعانة بقوة خارجية في هذه المحنة. ومن هنا كان إتصاله السريع بخان الخزر الذي كان هو الآخر على عداء مع المسلمين. وجمعت بين خان الخزر وليو صداقة سريعة كللت بزواج سياسي

سريع بين ابنه قسطنطين ـ الذي أصبح إمبراطوراً فيما بعد ولقب بالخامس ـ وبين ابنة خان الخزر ، وتوحدت جهودهما ضد المسلمين وهم العدو المشترك بينهما . ولم يكتف ليو بذلك فإتصل أيضاً بزعيم البلغار ترفل Trevel لإمداده بقوة من عنده ، وقد لبّى ترفل نداء ليو وأمده بقوة من رجاله .

ورغم هذه الاستعدادات من جانب ليو فيبدو أن الموقف كان لصالح المسلمين في أول الأمر بفضل قيادتهم الموحدة وحماسهم الديني تحت راية الجهاد . ولكن الحال تغير عن ذي قبل لعدة عوامل منها ، ان القيادة الاسلامية لم تضع في اعتبارها عامل الوقت لأن ما يفهم من النصوص الواردة أن المسلمين قضوا وقتاً طويلا في حصار المدينة ، وكان في ذلك فرصة للإمبراطور ليو للتحالف مع خان الخزر وزعيم البلغار . ويمكن القول ان طول الفترة الزمنية لم تكن في حسبان القيادة الاسلامية ، وان مناعة المدينة هو الذي أدى الى طول الحصار . ومع طول مدة الحصار تأتي مشكلة أخرى وهي أن شتاء عام الحصار كان قارص البرودة بدرجة شديدة على غير ما هو مألوف ، وقد أدى هذا إلى إيذاء الجند الذين لم يتعودوا مثل هذه الأجواء .

وهناك قصة أخرى يرويها الطبري حول فشل المسلمين في إسقاط القسطنطينية، وملخص هذه الرواية ان البطاركة قالت للامبراطور ليو أن صرفت عنها مسلمة ملكناك علينا ، فكتب ليو إلى مسلمة « يخبره بالذي كان ويسأله أن يدخل من الطعام ما يعيش به القوم ، ويصدقونه بأن أمره وأمر مسلمة واحد ، وأنهم في أمان من السباء والخروج من بلادهم ، وأن يأذن ليلة في حمل الطعام ، وقد هيأ إليون [ليو] السفن والرجال ، فأذن له ، فما بقي في تلك الحظائر إلا ما يذكر حمل في ليلة وأصبح إليون [ليو] محارباً ، وقد خدعه خديعة لو كان إمرأة لعيب بها ، فلقى الجند ما لم يلق جيشه ، حتى أن كل الرجل ليخاف أن يخرج من العسكر وحده ، وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب ، سليمان مميم بدابق ، ونزل الشتاء فلم يقدر بمدهم حتى هلك سليمان . » ولعلّ في هذه الرواية بعض الجوانب التي نصدقها وبعض الجوانب التي تبدو غير مقبولة مثل مسألة خداع ليو لمسلمة .

وحول مناقشة أسباب فشل الحملة وعلى ضوء ما درس في هذا الموضوع يذكر بعض المؤرخين انه عندما تحركت سفن سليان قائد البحرية الاسلامية تم التنسيق بينها وبين الجنود المشاة والفرسان بقيادة مسلمة، وحين قامت القوات البرية بمحاصرة أسوار المدينة حاولت القوات البحرية سد المسالك البحرية التي تسهل على أهل المدينة الحصول على الإمدادات من الخارج عند مدخل البسفور. ولكن ليو نجح في عدم إعطاء الفرصة للبحرية الإسلامية لتحقيق هدفها والعمل على إجاعة المدينة فيسهل الاستيلاء عليها.

وعلى أية حال فالحقيقة الماثلة أمامنا الآن هو ان المسلمين فشلوا في الاستيلاء على المدينة، وان الحملة لم تحقق أهدافها. ويمكن حصر الأسباب التي أدت الى ذلك ونقول إن حلول فصل الشتاء البارد الذي لم يحسب له المسلمون حساباً، وطول مدة الحصار أدت إلى إنهاك الجنود في مناخ لم يألفوه مع حلول فصل الشتاء بشكل غير متوقع. ومع طول مدة الحصار تنفذ المؤن. وإن كان المسلمون قاموا بزراعة الأرض فان الصقيع كان كافياً باتلاف ما زرعوه. يضاف الى ذلك صمود المدينة أمام هجمات المسلمين وقيام سكان المدينة بتخزين المؤن التي تكفيهم لمدة طويلة ذكر البعض أنها كانت تكفي لمدة عامين هذا علاوة على تحالف ليو مع الخزر والبلغار فعوض بذلك ضعف جيشه. ولا ننسى أن القوات البيزنطية والقوات المتحالفة معها قوات تعودت القتال في مثل هذه الاجواء فلا يضريها طول مدة الحرب على عكس القوات الاسلامية. كما أن تغيير المناخ المفاجيء قد أدى أيضاً الى عدم استغلال البحرية الاسلامية لسفنها إستخداماً أمثل في القتال. وفوق هذا كله قيام القوات البيزنطية باستخدام النار الاغريقية في القتال وهو أمر كان سره خافياً على المسلمين.وفي تقديري أن استخدام النار الإغريقية يعتبر من الأسباب الرئيسية في هزيمة الحملة وان بقية الاسباب تعتبر أسباباً مساعدة في هزيمة القوات الإسلامية.

هذا ما كان من أهم الأسباب التي أدت الى فشل الحملة من الناحية

العسكرية،ولكن بعض المؤرخين يرون أسباباً أخرى تتعلق بالدولة الاسلامية التي بلغت آنذاك إتساعاً كبيراً ، وشملت العديد من الأقطار وإمتدت من حدود الصين شرقاً الى الأندلس غرباً ، ومن بحر آرال الى أسوان في مصر جنوباً . وكان الأمر يتطلب العمل على تنظيم هذه الأقطار والإهتمام بأمورها الداخلية أولا ثم النظر في مزيد من الفتوحات بعد ذلك.

وعلى أية حال فانه مهما كانت الاسباب فقد كانت خسائر الحملة فادحة وزاد من فداحتها أنه أثناء عودة البقية الباقية من الأسطول الإسلامي هبت عاصفة أكملت الدمار الذي لحق بالسفن الاسلامية من جراء النار الاغريقية ، ولم يصل منها سالماً إلا حوالي خمس سفن من حوالي مائة وثمانين سفينة على أقل تقدير . ومع فشل هذه الحملة تبدأ عظمة ليو كرجل وقف ضد الزحف الاسلامي إلى أوربا ، حتى إنه ليقال ،أنه لولا ليو الأيسوري لإنتشر الإسلام في أوربا كما تنتشر النار في البراري .

ورغم كل ما حاق بالمسلمين من خسارة ، فإن أحداً لا يمكنه إتهام المسلمين بالجبن ، فقد تعرضوا للنار الإغريقية وغدر الطبيعة ، وأن ذلك كله لم يعمل على إنخفاض روحهم المعنوية ، فلقد وصلت اليهم الإمدادات والنجدات من مصر بقيادة سفيان ومن شمال افريقيا بقيادة يزيد وغير ذلك من النجدات التي تصدت للبحرية البيزنطية التي حاولت قطع خطوط التموين على المسلمين والعمل على تقوية العاصمة . ومن أشهر الشخصيات التي سجلتها المصادر العربية في هذه الأحداث رجل يدعى عبدالله البطال وهو أحد حراس مسلمة ، حتى أنه إكتسب لقب بطل الأبطال .

على أية حال فانه رغم هذه الهزيمة لم تتوقف آمال المسلمين في السيطرة على القسطنطينية ، وسوف يستمرون في توجيه الضربات إليها وأن كانت أقل من ذي قبل ، ففي عام ٧٢٦ م قام المسلمون بهجمة أخرى على العاصمة البيزنطية ، ولكن ليو الذي كان الأمر قد استقر له واعاد تنظيم قواته بعد حملة ٧١٧ م تمكن من صد هذا الهجوم ، كما تمكن أيضاً من صد المسلمين عند مدينة

أكروانون Acroinon عام ٧٣٩ م.

تشريعات ليو

تمثلت السياسة الداخلية للامبراطور ليو في موضوعين رئيسيين؛ أولهما الإصلاحات الداخلية التي تمثلت في إصدار القوانين التشريعية، وثانيهما الصراع اللاأيقوني. وما يهمنا في هذا الموضع ما يتعلق بالمجال الأول. ولقد إرتبط إسم ليو بمجموعة التشريعات المعروفة باسم إيكلوجا Ecloga أي المختارات القانونية، وهذه المختارات مستوحاة من قوانين جستينيان، وإن كانت قد إختلفت عنها بعض الشيء، فنجد تشريعات ليو إستبدلت عقوبة الإعدام إلى الإقتصاص العضوي مثل قطع اللسان وبتر الذراع وسمل الأعين وصلم الأذن وما إلى ذلك. والإيكلوجا مقسمة الى ثمانية عشر فصلا، فمنها القوانين الجزئية والمدنية، وكانت تعتبر أفضل مرجع للقضاء يمكن الرجوع اليه. ومن العوامل التي سهلت إستخدامها وتطبيقها بسهولة فهمها من ناحية اللغة والصياغة، كما أنها في مجموعها لم تكن جديدة عليهم، فهي تعتمد على قوانين جستينيان. وقوانين جستينيان مرتكزة على قوانين ثيودوسيوس، أي أن فحوى هذه القوانين كان معروفاً منذ أكثر من قرنين. ولم تشذ قوانين ليو عن ما هو مألوف لدى البيزنطيين فيما يختص بالأسرة والزواج والميراث والوصاية على الأطفال. ورغم هذا كله فقد لقيت قوانين ليو معارضة وكراهية من الشعب البيزنطي لأنها صادرة من إمبراطور اعتبروه مهرطقاً، لمعارضته عبادة الأيقونات.

وإذا ألقينا نظرة سريعة على الإيكلوجا نجد أنها تمثل نظرة متقدمة عن المألوف في مجتمع العصور الوسطى المبكر. فلم يكن الزواج فيها مجرد خضوع الزوجة لسلطان الزوج بل كانت الحقوق والممتلكات شركة بين الزوجين، كما وضعت الأم فيما يتعلق بالأطفال في موضع مساو للرجل، وأصبح لها حق الوصاية على أطفالها بعد وفاة زوجها، وفي حالة وفاة الوالدين تكون الوصاية للدولة ويخسر الطفل ميراث والديه لوساء السلوك. واذا كان هذا ما يتعلق

بالأسرة فان القوانين أيضاً تناولت المجتمع ككل وتضمنت النص في مستهل نصوصها بالقضاء على الرشوة والفساد وضرورة دفع المرتبات للموظفين من أكبرهم حتى أصغرهم.

وصدرت بقية القوانين في ثلاث مجموعات الأولى وتعرف بالقانون الزراعي Rural Code والثانية تختص بالقانون البحري Nautical Code والثالثة تتعلق بالقانون العسكري Military Code. والقوانين الزراعية خاصة بالأرض الزراعية والماشية وملكيات الأراضي الصغيرة لصغار الفلاحين. وكان الهدف من إصدار هذا القانون حماية صغار الملاك والحد من إستعمال السخرة والحد أيضاً من التوسع في الأراضي على حساب صغار الفلاحين. كما تضمن هذا القانون العقوبات المتعلقة بسرقة الماشية والحاصلات الزراعية والإعتداء على المراعي ومشارب المياه وسرقة الغابات. وعلى ذلك يمكن القول أن أحوال صغار الفلاحين قد تحسنت على عهد ليو. أما عن القانون البحري فقد تضمنت نصوصه بعض المواد التي شجعت على إنشاء الأساطيل التجارية لإنعاش التجارة البحرية. والقانون العسكري مرجعه إلى أن ليو عندما تولى حكم البلاد وجد جيشه إعتاد على الثورة والتمرد، فنص في هذا القانون على الطاعة وإستقرار الجيوش حتى يضمن قوة عسكرية ثابتة تدين للعرش بالولاء والطاعة.

ولعل في مجموع هذه القوانين ما عمل على إستقرار الدولة عن ذي قبل، والى إنتعاش خزانتها ودعم أركانها داخلياً وخارجياً، وإزدهار المصنوعات الداخلية مثل العاج والطرز والحرير وتمكنت الامبراطورية البيزنطية من السيطرة على التجارة الآتية من الشمال الى الجنوب عبر منافذها، الأمر الذي عاد عليها بالربح الوفير. وأصبحت مدينة طرابيزون Trebizond والبحر الاسود منفذين رئيسيين للتجارة الآتية من الشرق الاقصى ومن ناحية الغرب، ولم تعد التجارة حكراً على تجار الشام أو المصريين أو اليونانيين أو غيرهم من سكان حوض البحر المتوسط كالبندقية Venice وأمالفي Amalfi.

ولما كان الهدف الرئيسي من إصدار هذه القوانين هو العمل على إستقرار أحوال الدولة ، فإنه استكمالاً لذلك قام ليو بتقسيم الأمبراطورية إلى أقسام أقل إتساعاً من ذي قبل واسماها ولايات بعد أن كانت تعرف باسم ثيمات ومفردها ثيـم Théme . والغرض من هذا التقسيم هو إضعاف نفوذ الحكام القائمين عليها حتى لا يكون لديهم القوة للثورة أو التمرد ، كما فعل هو مع الأمبراطور السابق حين قام بثورة ضده واغتصب منه العرش ، لذلك نجد ليو يعين على هذه الأقاليم أعوانه المقربين إليه ليضمن ولائهم والمهم أن ليو كان يهدف أيضاً من وراء هذا التقسيم إلى تسهيل أمور الدولة والمواطنين لأنها تساعد على إنجاز الكثير من الأعمال ، وتُمكن حاكم الولاية الذي يتولى إقليم صغير أن يتصرف أموره بطريقة أسرع من الذي يتولى حكم ولاية كبيرة .

موقف ليو من عبادة الأيقونات

غضب ليو من إفراط الشعب في التدين وعبادته الايقونات ، وخيل إليه أن الوثنية أخذت تغزو المسيحية وتتغلب عليها من جديد بهذه الوسيلة ، وحز في نفسه ما كان يوجهه المسلمون واليهود والشيع الاخرى من المطاعن للخرافات السائدة عند جماهير المسيحيين الذين يعبدون الأيقونات . كما أراد أن يضعف من سلطـان الأساقفـة عـلى الشعـب والحكومـة ، ويضمن تـأييـد النساطرة واليعاقبة ، فعقد مجلساً من الأساقفة وأعضاء مجلس الشيوخ وأذاع بموافقتهم في عام ٧٢٦ مرسوماً يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس وحرم تصوير السيد المسيح والعذراء ، وأمر بأن يغطى بالجص ما على جدران الكنائس من صور . وأيد بعض كبار رجال الدين هذا المرسوم ، ولكن الرهبان وصغار القساوسة إحتجوا عليه وثار عليه الشعب ، وهاجم المصلون الجنود الذين حاولوا تنفيذ المرسوم بالقوة . وعلى إثر ذلك نادت قوات الثوار في بلاد اليونان وغيرها بإمبراطور آخر ، وسيرت اسطولا ليستولي على العاصمة . ولكن ليو تصدى للثوار ودمر أسطولهم وزج بالزعماء المعارضين في السجون . أما في إيطاليا فقد أجمع شعبها على معارضة ليو ، وقامت مدن البندقية ورافنا

Ravenne وروما بطرد عمال الإمبراطور . وإجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا اليه البابا جريجوري الثاني Gregory II (٧١٥ - ٧٣١م) وصب المجلس اللعنة على محطمي الصور والتماثيل المقدسة دون ان يرد في المرسوم ذكر إسم الامبراطور . وزاد في تعقيد المشكلة أن إنضم بطريق القسطنطينية الى الثائرين ، وحاول بفعلته هذه أن تصبح الكنيسة الشرقية مستقلة عن الدولة . ولكن ليو تصدى للبطريق وعزله من منصبه في عام ٧٣٠م ولكنه لم يصبه بأذى . وإنتهى عصر ليو في عام ٧٤١م ، ومشكلة الايقونات باقية ليتصدى لها ابنه من بعده بصورة أشد قسوة من أبيه .

قسطنطين الخامس ٧٤١ - ٧٧٥

تُوج قسطنطين إمبراطوراً شريكاً في حياة أبيه عندما كان طفلا في العام الثاني من عمره ، وكان هذا الإجراء قد تم باعتراف وموافقة جميع القادة دون معارضة . ويعتبر قسطنطين من أشهر الأباطرة الأيسوريين ، ولعل في ملازمته لوالدة في جميع الحملات التي وجهت ضد المسلمين أو البلغار ما صقله وجعله غير غريب على الحكم وأطلعه عن قرب بكل دقائق الدولة . وتتضارب الآراء حول شخصية قسطنطين ، فقد ذكره البعض أنه كان قائداً عسكرياً محنكاً . أصلب عوداً في عدائه للأيقونات من أبيه ، ولكنه كان حاد المزاج وإنه إنسان غير طبيعي ذو شخصية متعددة الأهواء . وفسر بعض المؤرخين موقفه المتشدد من الأيقونيين بأنه كان مريضاً نفسياً . ورغم هذا كله فان إنتصاره في الخارج على أعدائه خاصة البلغار جعلته معبود جنوده وإقترن إسمه بشخصية شجاعة لا نظير لها . وينسب إليه أيضاً أنه كان أقل قدرة على العمل من أبيه ، وأنه كان ميالا لسفك الدماء لا يقتل من يتمرد عليه فحسب بل يقتل معه جميع البارزين المقربين اليه . وعلى أية حال فانه يمكن القول أن عهد قسطنطين إتسم بطابع الاستقرار الداخلي إلى حد مكنه من التفرغ للأخطار الخارجية والنجاح الى حد كبير .

ورغم تتويج قسطنطين في عهد أبيه إلا أنه عندما جلس على العرش بعد

وفاة والده واجه ثورة كان مصدرها زوج أخته أرتاباسدوس Artabasdus الذي ساعد ليو في الوصول الى العرش وأكرمه ليو بتزويج إبنته له . وكان مصدر قوة أرتاباسدوس انه حكم مقاطعة أرمينيه ثم ولاية أوبسكيون Opsikion ، وكان تحت قيادته جيشاً قوياً مكنه من الثورة على صهره . وقد إستغل أرتاباسدوس فرصة إنشغال قسطنطين بحروبه إما ضد البلغار أو المسلمين ، وفي احد الحملات التي قادها قسطنطين ضد المسلمين في مطلع عهده وأثناء مروره عبر ولاية أوبسكيون فوجىء بهجوم قوات أرتاباسدوس عليه وأنزلت به الهزيمة ، واتخذ ارتاباسدوس طريقه نحو القسطنطينية حيث تفاوض مع ثيوفانس Theophanes نائب الامبراطور في العاصمة . وقد أسفرت هذه المفاوضات عن إنضمام ثيوفانس إليه كما إنضم إليه الرجال البارزين في العاصمة . ولعل ذلك مرجعه الى موقف قسطنطين المعادي للأيقونات . وإنتهى الأمر بدخول أرتاباسدوس العاصمة مع جيشه حيث توجه بطريق القسطنطينية أناسطاسيوس ٧٣٠ - ٧٥٤م .

ولم يقف قسطنطين مكتوف الأيدي أمام هذه الثورة وعالج الموقف بسرعة ، فإتجه الى عمورية Amorium التي إستقبلته بحفاوة بالغة باعتبارها مركز قيادة أبيه العسكرية ضد المسلمين ، ثم انضمت إليه أيضاً جميع ولايات الإمبراطورية عدا أوبسكيون وأرمينيه . وعلى إثر ذلك تشجع قسطنطين وأعد العدة لملاقاة أرتاباسدوس . وزحف بجيشه وكان اللقاء عند مدينة سارديس Sardes عام ٧٤٣م في معركة إنتصر فيها قسطنطين على خصمه إنتصاراً ساحقاً ثم إتجه لمواجهة نيقتاس Nicetas ابن أرتاباسدوس وانتصر عليه أيضاً ، ثم سار إلى العاصمة ليسترد عرشه وينكل بالمنشقين وعلى رأسهم البطريق نفسه، وأنزل بهم السخرية عندما أركب البطريق حماراً وطيف به حول الهبدروم ولكنه عاد واحتفظ له بمنصبه .

لم يسر عهد قسطنطين على هذا المنوال ، فقد كان قسطنطين أكثر توفيقاً من ابيه في الداخل والخارج ، ولعل ذلك مرجعه إلى أنه ورث عن والده

إمبراطورية وقد امتلأت خزانتها بالأموال ، وفي حاله من الاستقرار الاجتماعي أصبح بموجبها قسطنطين قادراً على تيسير دفة الحكم دون قلاقل ، باستثناء الثورة التي واجهها في بداية عهده.

وان كان ذلك ما هيأ له الفرصة في الداخل فان ما ساعده في الخارج خاصة من جهة الشرق توقف الفتوحات الاسلامية وإنشغال المسلمين بأمورهم الداخلية نتيجة إنتقال الخلافة الأموية من دمشق الى بغداد مقر الخلافة العباسية.

السياسة الخارجية للامبراطور قسطنطين

أولاً : ضد الخطر الاسلامي

مع بدايات حكم قسطنطين كانت السياسة الاسلامية تجاه الإمبراطورية قد تغيرت الى حد ما ، فقد خفت ضرباتهم وذلك بسبب إنشغال المسلمين بأمر الاضطرابات الداخلية حتى سقطت الخلافة الاموية عام ٧٥٠ م وحلت محلها الخلافة العباسية وما تبع ذلك من بعد العاصمة الجديدة بغداد عن الحدود البيزنطية ، فعندما كانت دمشق عاصمة الخلافة كان من السهل عليهم توجيه الضربات للامبراطورية بسبب الموقع المناسب للعاصمة طوال العصر الاموي ٦٦١ - ٧٥٠ م ، والدليل على ذلك أنه طوال عهد قسطنطين الخامس نجد ان السياسة الخارجية للدولة العباسية التزمت سياسة الدفاع في الوقت الذي سارت فيه بيزنطة على سياسة الهجوم. ومن الملاحظ ان ذلك لم يستمر ، فعندما إنتظم أمر الدولة العباسية في بغداد عادت الخلافة لتتولى أمر الهجوم مرة أخرى.

وعلى أية حال فإنه على أثر هذه الأحوال التي طرأت على الأوضاع الاسلامية بدأ قسطنطين في إنتهاز هذه الفرصة واختطف لامبراطوريته نصراً بدا كبيراً في هذه المرحلة ،وقام بشن الهجوم على شمال الشام في عام ٧٤٦ م ،

أواخر عهد الدولة الأموية واحتل مدينة مرعش. وطبقاً للسياسة التقليدية للإمبراطورية فقد قام الإمبراطور بنقل بعض السكان وهم الأسرى الذين وقعوا في قبضة قواته، الى ولاية تراقية لينضموا الى جالية أخرى من أهل بلادهم كانت قد سبقتهم إليها في وقت سابق.

ورغم ما كانت تعانيه الدولة الأموية في أواخر أيامها فقد أعدت أسطولها للقيام بغزو جزيرة قبرص، واستعدت الحملة البحرية من الاسكندرية للاغارة على الجزيرة عام ٧٤٧م ونجحت في الاستيلاء على جزء منها، وأقامت به مدة لإعداد العدة لفتح الجزيرة بأكملها. ولكن أسطولا بيزنطياً أفسد عليها مشروع الفتح إذ بغتها وسد عليها مدخل الميناء وقطع بينها وبين قواعدها في الشام ومصر ثم التحم معها في معركة انتهت بتحطيم معظم سفن الأسطول الإسلامي، ولم يستطع النجاة سوى ثلاث سفن فقط. وعاود قسطنطين الكرة مرة أخرى على الجانب البري وهاجم الأقاليم الشمالية لأعالي الفرات وإستطاع الاستيلاء على مدينة مليطة في عام ٧٥٢ - ٧٥٣م وفعل بأسراها مثلما فعل بأهل مرعش. وقد نجح المسلمون بعد ذلك في استرداد الأراضي التي إستولى عليها قسطنطين ولم يعد موقف الدولة العباسية موقف الدفاع او مناوشات على الحدود، بل إتسم بطابع الهجوم وأصبحت الحرب سجالا بين الطرفين.

وحول دخول قسطنطين مدينة مليطة تروى لنا المصادر في احداث عام ١٣٣هـ أن قسطنطين أرسل الى أهل ملطية يقول «يا أهل ملطية إني لم آتكم إلا على علم بأمركم وتشاغل سلطانكم عنكم إنزلوا على الأمان وإخلوا المدينة وأضربها وأمضي عنكم فأبوا عليه، فوضع عليهم المجانيق فلما جهدهم البلاء وإشتد عليهم الحصار سألوه أويوثق لهم ففعل، ثم استعدوا للرحيل وحملوا ما استدق لهم وألقوا كثيراً مما ثقل عليهم في الآبار والمخابىء ثم خرجوا. وأقام لهم الروم صفين عند باب المدينة الى منقطع آخرهم مخترطي السيوف طرف سيف كل واحد منهم مع طرف سيف الذي يقابله حتى كأنها عقد قنطرة ثم شيعوهم حتى بلغوا فأمنهم وتوجهوا نحو الجزيرة فتفرقوا وفيها (أي في السنة

نفسها) هدم الروم ملطية فلم يبقوا منها إلا هرياً فإنهم شعثوا شيئاً يسيراً وهزموا حصن قلوذية ».

وبالاضافة إلى ملطية ومرعش فقد وجه الروم حملات أخرى في عام ١٣٩ هـ هوجمت فيها « مدينة قالقيلا وحدث مثل ذلك في مدينة الحدث فلما كان زمن فتنة مروان خرجت الروم فهدمت مدينة الحدث وأجلت عنها أهلها كما فعلوا بملطية وشاع الاضطراب في اقليم العواصم التي تلي الثغور وغلب أهل انطاكية وقنسرين على كثير من الجواميس التي كانت قد وجهت إلى المصيصة واختاروا لأنفسهم أيام فتنة مروان بن محمد واستولى الروم على المصيصة بعد قليل ».

واذا كان هذا هو موقف المشرق العربي الدفاعي فان المغرب العربي إختلف عن ذلك، واتسمت سياسته بسياسة الهجوم على الإمبراطورية البيزنطية، ولعل ذلك مرجعه الى تخفيف الضغط عن المشرق. فقد ذكرت المصادر العربية أن المسلمين حاولوا غزو جزيرتي سردينيا وصقلية، حين قرر عبيدالله قثم بن عوانه آن يغزو جزيرة سردينيا ،ولكن الاسطول تحطم اثناء العودة ولكن المحاولة تجددت مرة أخرى عام ١٣٥ هـ - ٧٥٢/٧٥٣م عندما قام عبد الرحمن بن حبيب والى افريقية بإعدادات هائلة لفتح كل من صقلية وسردينيا، وقد أثارت الحملات على الجزيرتين مضايقة قسطنطين الخامس ودفعته لاتخاذ خطوات للدفاع عنهما، فخصص إسطولا لهذا الغرض ولكن الإضطرابات داخل الخلافة الاسلامية أوقفت هذه العمليات البحرية وجعلت الجزر تتمتع بالسلام حوالي نصف قرن.

ثانياً: موقف قسطنطين من الخطر البلغاري

اذا تناولنا موقف قسطنطين من الخطر البلغاري فسوف نجده امتداداً لموقف اسلافه من قبل. فمنذ عهد جستنيان والبلغار يمثلون شوكة في ظهر الإمبراطورية البيزنطية. ولقد بدأ الصراع في عهد قسطنطين عندما قام بتأمين الحصون والقلاع الموجودة على الحدود البلغارية، فقام البلغار بشن الهجوم على

حدود الامبراطورية عام ٧٥٦ م ، ولكن مدينة سالونيك تصدت لهذا الغزو بعناد حتى تمكن قسطنطين من تجميع قواته وملاقاتهم ونجح في إنزال الهزيمة بالبلغار في ستريمون Strimon ، وعندئذ قام بإسكان بضعة آلاف منهم في ولاية بثينا Bithynia في آسيا الصغرى .

لقد تمتع قسطنطين بذكاء كبير مكنه من الإنتصار على البلغار ، وهذا ما جعله محبوب جنوده ، فقد كان هذا الإمبراطور بعيد النظر في التخطيط العسكري ، كما كان حوله مساعدون عسكريون على درجة كبيرة من الشجاعة ، لذلك تمكن قسطنطين من توجيه الضربات المتلاحقة التي إستطاع بها تأديب البلغار ، وشن عليهم عدة حملات من ٧٥٩ - ٧٧٥ وأوغل داخل أراضيهم بمساعدة جيش قوي . وبدأ الصراع على أشده عندما تولى أمر البلغار تلتز Teletz ٧٦٢ - ٧٦٤ م ، وهو رجل عنيد قوي جدد الهجوم على الامبراطورية حين اعد جيشاً قوياً واجتاز به حدود مقاطعة تراقية ، ولم يقف قسطنطين مكتوف الأيدي ازاء هذا الإعتداء الصارخ على دولته ، فأعد جيشه في عام ٧٦٢ واجتاز هو الآخر حدود هذه المقاطعة ودارت معركة بين الطرفين في العام التالي ٧٦٣ م ، إنتهت بهزيمة البلغار هزيمة ساحقة . وعاد قسطنطين بعد هذا النصر الى القسطنطينية حيث أقيمت له الإحتفالات ابتهاجاً بهذا النصر . أما تلتز فلم تلبث أن قامت عليه ثورة في بلاده إنتهت بمقتله ، وأضحت البلاد من بعده مسرحاً للقلاقل والثورات والاضطرابات التي تهدأ حيناً لتعود من جديد . وتمخض عن هذه الفترة المضطربة ظهور بعض الاحزاب إشتهر منهما حزبان أحدهما ضد بيزنطة والآخر معها . ولقد كان النصر لأحدهما تباعاً وكانت الكلمة الأخيرة بينهما للإمبراطورية البيزنطية . ولكن هذا الحال لم يدم طويلاً ، فعندما تولى أمر البلغار تلريج Telerig ٧٧٠ - ٧٧٧ م ، تمكن من إعادة وحدة البلاد وعمل على تقويتها ثم بدأ في مناوشة الامبراطورية البيزنطية الأمر الذي دفع قسطنطين إلى تجديد عملياته العسكرية ضد البلغار .

وفي عام ٧٧٣ التحمت الجيوش البيزنطية والبلغارية في معارك طاحنة

انتهت بهزيمة البلغار، ولكن هذه الهزيمة لم تعط النصر الحاسم للإمبراطورية البيزنطية وظل قسطنطين حتى أواخر أيام حياته وهو يقوم بالغارات المتلاحقة على البلغار إلى أن مات في إحدى هذه الحملات في عام ٧٧٥م. والواقع ان موقف قسطنطين من البلغار وضع حداً لتحركاتهم، كما إنتاب البلغار في هذه الاوقات ونتيجة للضربات المتلاحقة التي وجهها قسطنطين اليهم الاضطراب الداخلي، وخسروا الكثير من قواتهم وشلت أجهزتهم الادارية لدرجة كبيرة، وهذا ما جعل قسطنطين يحظى باحترام جنوده بعد ما نجح أيضاً على الجبهة الشرقية الإسلامية.

واذا كان قسطنطين قد تمكن من صد الخطر البلغاري بأقصى ما لديه من قوة وسفك الكثير من الدماء البلغارية، فان ذلك لم يقضِ عليهم إذ سرعان ما قامت الدولة البلغارية مرة أخرى، وقبل نهاية القرن الثامن إضطر الامبراطور قسطنطين السادس ٧٨٠ - ٧٩٧م وأمه أيرين Irene من بعده ٨٧٠ - ٨٠٢م الى دفع الجزية والاتاوات. وفي مطلع القرن التاسع إشتدت هجمات البلغار على الإمبراطورية، وعندما أصبحت بيزنطة تئن تحت وطأة الانتصارات البلغارية تجمع الناس حول قبر قسطنطين ورجوه ان يخرج من قبره ليساعدهم على الخلاص من البلغار.

ثالثاً: موقف قسطنطين من الخطر اللمباردي

لقد كان من نتيجة السياسة المعادية للاباطرة اللاأيقونيين ان فتحت صفحة جديدة طيبة من العلاقات بين البابوية في روما والفرنجة في أوربا. وكان ذلك في عام ٧٣٩م عندما ارسل البابا جريجوري الثالث Gregory III ٧٣١ - ٧٤١م الى شارل مارتل Charles Martel رئيس بلاط الفرنجة وصاحب النفوذ الفعلي في الدولة يطالبه بمساعدته ضد اللومبارديين، ولكن شارل مارتل إعتذر في هذه المرحلة عن المساعدة لأنه كان مشغولا بأمر المسلمين في اسبانيا، ولم تساعد الامبراطورية البيزنطية الباباوية أيضاً، وظلت الباباوية في عدائها مع الامبراطور البيزنطي، كما ظل اللومبارديون يزيدون من ضرباتهم على

ممتلكات الإمبراطورية نفسها، حتى وصلت مملكة اللومبارديين في عهد إستولف Aistolf ٧٤٩ - ٧٥٦م الى أقصى درجات الإتساع بعد أن نجح في الاستيلاء على رافنا عام ٧٥١م.

وكانت الامبراطورية في هذه المرحلة مشغولة وغير قادرة على اتخاذ موقف ما تجاه هذا الخطر، الأمر الذي أزعج البابوية وجعلها تبحث عن نصير لها ضد اللمبارديين ووجدته في حليفتها دولة الفرنجة على عهد ببين Pepin المعروف باسم ببين القصير ابن شارل مارتل الذي أعلن نفسه ملكاً في عام ٧٥٢م، بعدما عزل آخر ملوك البيت الميروفنجي. وقد لبى ببين دعوة البابا ستيفن الثاني Stephen II ٧٥٢ - ٧٥٧م، وتم إتفاق بينهما ترتب عليه فرار البابا إلى غالة في عام ٧٥٣م، وفي العام التالي أعاد البابا تتويج ببين وأضفى عليه لقب البطريق من باب التشريف.

كان هذا التحالف مزعجاً لكل من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين وإستولف ملك اللومبارديين، ولكن قسطنطين كان مشغولا بحروبه ضد العرب والبلغار فلم يقم بعمل ما. ويبدو أن ببين كان يعلم بأمر إنشغال الإمبراطورية بحروبها فاندفع بجيوشه الى شمال إيطاليا عام ٧٥٤م وحاول إستولف التصدي له ولكن الهزيمة التي حلت بإستولف كانت فادحة. وبعد أن وجد استولف نفسه محاصراً طالب بعقد الصلح الذي وافق عليه ببين، وبموجبه سلمت للبابوية أراضيها وحقوقها. ولكن استولف نقض الصلح فعاد له ببين مرة أخرى في العام التالي وألحق به هزيمة منكرة وشرط عليه دفع جزية سنوية تساوي ثلث إيراداته، والجلاء عن رافنا وعدد من المدن الأخرى ولم تلبث القوة اللمباردية أن وهنت بعد وفاة إستولف.

لم يدرك قسطنطين طبيعة تلك العلاقة والآثار التي تترتب عليها إلا عندما صرح ببين لسفراء الإمبراطورية إنه عندما قام بحملاته ضد اللمبارديين لم يكن يعمل لصالح الإمبراطور البيزنطي ولكن لصالحه الخاص، وبناء على هذا التصريح أدرك قسطنطين أن ايطاليا قد سلخت من الإمبراطورية. لذلك

حاول قسطنطين إفساد التحالف بين البابا وببين و بدأ بمحاولة إقناع ببين للتخلي عن مساعدة البابا، ثم بدأ بمحاولة إثارة القلاقل ضد البابا في إيطاليا عن طريق إرسال بعثات لتأليب الأهالي ضد البابوية، وكانت المحاولة الاخيرة تحالفه مع اللومبارديين لإبعاد نفوذ ببين، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل.

هكذا ضاعت إيطاليا رسمياً من الامبراطورية بعد أن كانت قد ضاعت فعلياً من قبل، وذلك باستثناء البندقية وبعض المراكز في جنوب إيطاليا. وزاد من شقة الإنفصال بين البابوية والإمبراطورية البيزنطية حين قام البابا هادريان الأول Hadrian I ٧٧٢ ـ ٧٩٥ م بقطع تأريخ أعماله الرسمية بسني حكم الامبراطور لتختفي آخر الروابط الشكلية التي كانت تربط إيطاليا بالإمبراطورية البيزنطية.

وهكذا أصبحت أملاك البابوية وحده مترابطة في إيطاليا تمتد من البحر الإدرياتي ورافنا شرقاً حتى روما غرباً بعد فشل اللمبارديين في توحيد إيطاليا. وواقع الأمر ان الامبراطورية البيزنطية لم تهتم كثيراً بضياع بعض ممتلكاتها في إيطاليا تلك الاماكن التي كانت آخذة في الابتعاد عن القسطنطينية، خاصة وأن الامبراطور قسطنطين الخامس كان مشغولا وإلى حد كبير بالصراع العربي والبلغاري. ومما لا شك فيه ان النزاع الايقوني رغم طابعه الديني، إلا أن تأثيره السياسي كان واضحاً إلىحد كبير، وأدى الى زيادة الشقاق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، وفي نهاية الأمر إلى إنفصال تام بين الكنيستين والقطيعة الدينية في عام ١٠٥٤ م.

لقد إستطاع قسطنطين خلال فترة حكمه أن يجعل من الامبراطورية التي كانت تنتابها الكثير من المتاعب الداخلية كالصراع الأيقوني والثورات التي كانت تستهدف العرش الى جانب الصراع العربي والبلغاري، أن يجعلها تقوم بدور ايجابي في المجال الداخلي وذلك بإجراء العديد من الإصلاحات التي تعتبر مكملة لإصلاحات أبيه، ولعل ما ساعده على ذلك الإنتصارات الخارجية. وقد

أدت إصلاحاته الداخلية المتشعبة الجوانب إلى إنعاش أحوال البلاد وذلك عندما قام بإقامة عدد من المستقرات في الأراضي البور في الجانب الغربي من الامبراطورية، وأنزل بها بعض من أهالي أرمينيه وتراقية وذلك لطبع هذه الأماكن بالطابع البيزنطي. هذا الى جانب إهتمامه بالزراعة والعمل على تنشيط التجارة بتأمين الطرق والقضاء على قطاعها. كما إهتم بالعاصمة نفسها وعمل على تعميرها بقدر كاف بعد ان أدى إنتشار الوباء فيها الى هلاك بضعة آلاف من سكانها وتوسع في تزويدها بالماء العذب.

من كل ما سبق يمكن القول أن قسطنطين نجح في التصدي للخطر العربي وقلل كثيراً من الخطر البلغاري وعمل على انعاش دولاب الحياة الاقتصادية في الداخل. ومما يؤخذ عليه انه لم يقم بدور ايجابي في ايطاليا مما ترتب عليه فقدان بعض ممتلكاته هناك، هذا بالاضافة الى موقفه من عبادة الايقونات الأمر الذي أثر في الداخل والخارج. ولكنه عندما مات في عام ٧٧٥ ترك وراءه عرشاً متماسكاً ودولة قوية وخزانة عامرة بالأموال.

ليو الرابع ٧٧٥ - ٧٨٠م

عندما توفي قسطنطين كان عرش الامبراطورية في حاجة الى شخصية قوية لتستطيع ان تواصل العمل لاستمرار بقاء هذا الصرح عالياً. لذلك عندما إعتلى ليو الرابع العرش تطلعت الأنظار إليه أملاً في زيادة التقدم للامبراطورية في الداخل والخارج. وأهم ما يعرف عن حكم ليو الذي لم يستمر سوى خمس سنوات، أن بداية حكمه إتسمت بتخفيف حدة الصراع ضد الأيقونيين، لأن ليو لم يكن شديد العداء لهم مثل أبيه، وانه كان معتدلا الى حد بعيد مثل جده. ولعل هذا مرجعه الى زوجته إيرين Irene إبنة خان الخزر، وهذا هو السبب في تسمية هذا الامبراطور ليو الخزري Leo Chazar. غير أن ليو لم يستمر على موقفه هذا مع الايقونيين طويلا إذ سرعان ما تحول إلى سياسة أبيه عندما رفعوا رؤوسهم وتمردوا على الامبراطورية من جديد.

لقد كانت معاملة ليو لكبار رجال دولته تميل الى الأخذ برأيهم وبالتأييد الشعبي في بعض الأمور، ولم تسيطر عليه فكرة الاستبداد المطلق كما كان حال والده قسطنطين. ومن ذلك أنه رضخ لطلب رجاله بأن يجعل من إبنه قسطنطين السادس امبراطوراً ليؤكد تلك النزعة الديمقراطية التي ظهرت في عهده، والتي لم تكن واضحة في عهد جده ليو. وعندما كان ليو يريد أن يصدر مرسوماً أو يعين إبنه كممثل لإحدى الهيئات كان يقوم بأخذ رأي الهيئات المعنية بذلك كمجلس الشيوخ وممثلي الشعب، بل إنه عندما أراد تتويج إبنه خلفاً له اخذ رأي المؤسسات الصناعية والتجارية في العاصمة أيضاً، ومن هنا يمكن القول ان المبدأ الذي ينادي بأن يكون الحكم في يد شخص واحد تدين له كافة المؤسسات بالولاء والطاعة قد ظهر في عهد ليو الرابع أمكن تحقيقه في المستقبل.

سياسته الخارجية

تمثلت في هجوم قام به ليو ضد المسلمين شرقي الأناضول عام ٧٧٨ م، فرد عليه الخليفة المهدي العباسي بمهاجمة الأراضي البيزنطية في العام التالي. وفي عصر ليو أيضاً إنتشرت القبائل السلافية في البلقان بصورة واضحة وإن كانت الإمبراطورية هي التي ساعدت من قبل على ذلك الانتشار بصورة غير مباشرة، عندما قام الأباطرة بإسكانهم في أقاليم الامبراطورية. وما أن وصل ليو إلى العرش حتى كان عليه أن يدفع ثمن سياسة أسلافه ويقف في وجه هجمات القبائل، ولكن مدة حكم ليو القصيرة لم يكن لها التأثير الكافي عندما أصبح السلاف بمختلف فروعهم مصدر قلق للإمبراطورية البيزنطية في العصور اللاحقة.

الامبراطورة إيرين

بعد وفاة ليو الرابع كان مقدراً للامبراطورية البيزنطيةان تحكمها امرأة لم تكن مثل باقي نساء العالم الشهيرات، فقد انفردت عنهن بصفات متعددة.

ولكن اسوا ما التصق بهذه المرأة من صفات هو تجردها السافر من كل معاني الأمومة والانسانية، من أجل الشهرة والعرش، ولقد قيل عنها انه قدر للإمبراطورية ان تحكمها امرأة من أمهر وأذكى النساء الشهيرات في التاريخ وأكثرهن تمتعاً وميلا للشر.

ولدت ايرين في اقليم دان بمبدأ عبادة الايقونات لذلك كانت من أقوى أنصاره. وبعد وفاة زوجها ترك العرش لابن صغير قاصر هو قسطنطين السادس وأعطى ذلك الفرصة للأم لتكون وصية عليه. وما ان تولت هذا المنصب حتى بلغ حبها للمنصب إستعدادها لأن تقوم بأي عمل مشرف أو غير مشرف مقابل إستمرارها في الحكم. ومن هناك كان لا بد من تعارض وجهة النظر مع ابنها عندما بلغ سن الرشد. إن ايرين رغم نجاحها في كسب حب الجماهير على أثر مناصرتها لقضية الايقونات قد وجدت الكثير من الأعداء من رجال الدولة البارزين ومنهم القياصرة أخوة زوجها، ورجال القصر الامبراطوري وطبقة المثقفين الكارهين لعبادة الأيقونات وبعض عناصر الجيش وكبار الموظفين في الدولة. ولما كانت تعتمد على حب الشعب فقد أمكنها التخلص من هؤلاء المعارضين وأحلت محلهم عناصر مؤيدة لها. وكان من جراء هذا ان تعرضت الإمبراطورية للصراعات والأهواء في الداخل في الوقت الذي كان عليها أيضاً أن تواجه الخطر الاسلامي والخطر البلغاري وآمال شارلمان بشيء من الحكمة والتعقل، وهذا لم يكن متوفراً للإمبراطورية في هذه المرحلة.

الخطر الاسلامي

بدأ المسلمون بعد إستقرارهم في بغداد وهدوء أحوالهم الداخلية بتجديد هجماتهم على الإمبراطورية من جديد، وبصفة خاصة في عهد هارون الرشيد. ورغم ان هذه الهجمات لم يكن لها طابع الآمال الكبار السابقة في الاستيلاء على القسطنطينية وإنها كانت معارك دورية تتكرر كل سنة تقريباً ويتبعها تبادل الأسرى، فقد شكلت إزعاجاً كبيراً للامبراطورية. ولحسن حظ المسلمين أنه كان يجلس على العرش امرأة ليست على دراية كافية بالسياسة العربية، وعلى

أية حال فان هارون الرشيد وجد الفرصة لتوجيه قواته الى الإمبراطورية .وفي عام ٧٨١م ، قام بتشديد هجماته وتمكن من التوغل داخل آسيا الصغرى غرباً حتى وصل الى مدينة كريزبوليس Chrysopolis التي تواجه القسطنطينية. ولكي تتخلص إيرين من هذا الخطر الداهم قامت بعقد صلح مشين بالنسبة للامبراطورية مع الخليفة العباسي عام ٧٨٣ م ،وبموجب هذا الصلح كان على بيزنطة أن تدفع جزية سنوية كبيرة كل عام. وواقع الأمر ان هارون الرشيد لم يعتبر ذلك مجرد حصيلة سنوية بل إعتبرها سلطة واسعة إمتدت على أنحاء الامبراطورية .

ولكي يؤكد هارون سلطانه على الامبراطورية كان يقوم بشن الغارات المستمرة على أراضيها ، ولذا قامت هجمة أخرى وصلت الى البسفور . ونتيجة لضعف الامبراطورية فانها جددت الهدنة ودفع الجزية. ورغم هذا إستأنف هارون القتال مرة أخرى عام ٧٨٦ ووصل الى إفسوس ، ولم تستطع الامبراطورة التخلص من الخطر العباسي الا عن طريق دفع جزية ضخمة للمسلمين عام ٧٩٨ م .

وفي العام التالي أعد هارون هجوماً على جزيرة قبرص إذ نقل الجنود بحراً من مصر الى سواحل الشام ،ولكن البيزنطيين أفسدوا هذا المشروع بأسر هؤلاء الجنود ، وكان رد الخليفة على هذا أن أبحر أسطول اسلامي الى جزيرة قبرص ومنها الى السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى . فأسرعت الامبراطورة إيرين باعطاء أوامرها للبحرية البيزنطية لملاقاة الاسطول العباسي ، وتم اللقاء في الخليج المقابل لمدينة أضاليا حيث دارت معركة بين الاسطولين انتهت بهزيمة الاسطول البيزنطي . ويبدو أن الهزيمة كانت ساحقة حتى أسر فيها القائد البيزنطي ثيوفيلوس Theopilus وأرسل الى الخليفة العباسي في بغداد .

الخطر البلغاري

ويبدو أن الانتصارات التي أحرزها المسلمون على الامبراطورية البيزنطية قد شجعت البلغار على توجيه حملاتهم ضد الامبراطورية وتمكنوا من الانتصار

على جيوش الامبراطورية دون أن تستطع الامبراطورية القيام بعمل ايجابي ضدهم. فلقد كانت إيرين الى جانب الخطر الاسلامي تعاني من الإضطرابات الداخلية، فقد بدأ ابنها بعد أن بلغ سن الرشد يطالب بالعرش ودخل معها في صراع رهيب وساندته بعض العناصر الكارهة لأمه. كما كان عليها أيضاً أن تواجه أطماع شارلمان في الغرب.

قسطنطين السادس ٧٨٠ - ٧٩٧م

وبينما كانت إيرين تعاني من المشاكل الخارجية كان عليها مواجهة إبنها قسطنطين الذي بلغ سن الرشد واخذ يطالب بالعرش ولم يكن لديه النية في التخلي عن هذه الفكرة. ومن المهم أن نذكر في هذاالموضوع، انه رغم توليه قسطنطين العرش، فإن فترة حكمه لم تكن خالصة له وأن والدته ضالعة فيها، وعلينا أن نشرك إيرين في مسؤولية هذه المرحلة من الحكم، ولعل الأحداث السابقة والتالية توضح لنا هذه الفكرة.

والمهم أنه عندما بدأ قسطنطين يطالب بالعرش بدأت أمه تفكر في تزويجه من أميرة بيزنطية قليلة النفوذ حتى يصبح تحت سلطانها، ولكن العوامل التي ساعدت قسطنطين في الجلوس على عرش الامبراطورية كانت متعددة؛ منها أن إيرين نفسها قد وصلت الى مرحلة كانت فيها مكروهة من العديدمن العناصر، خاصة من بعض رجال الدولة البارزين. وكانت كل هذه العناصر تتمنى ان يصل قسطنطين الى الحكم، مما دفع قسطنطين الى تدبير مؤامرة لخلعها عن العرش. ولكن إيرين كشفت المؤامرة وعاقبت إبنها بالضرب. ولم تكتف بذلك بل حددت إقامته وأرغمت الجيش على ان يقسم لها يميناً يقضي بعدم الاعتراف بابنها إمبراطوراً طوال حياتها، وبدأت في وضع إسمها قبل إسم ابنها في الأعمال الرسمية.

ولكن الحال لم يدم على هذا المنوال للامبراطورة فقد كانت الظروف المحيطة بها أقوى من رغباتها، فرضخت وتولى ابنها الحكم ولم تعد لها من صفة

غير والدة الامبراطور ، ولكن إبنها استجاب لرغبتها وتوسلاتها وأعاد إليها لقب إمبراطورة . وإن كان في ذلك ولاء من الابن لأمه إلا أنه أعتبر خطأ من الناحية الرسمية بل والفعلية أيضاً . فبدأت الأم من هذا المنطلق في الإطاحة بابنها حتى تظل إمبراطورة من الناحية الرسمية والعملية . وهداها تفكيرها الى العمل على الحط من قيمة ابنها من الناحية الخلقية حتى تقلل من شأنه الى أقصى درجة ممكنة ،فيخلو لها كرسي العرش . ودبرت بنفسها علاقة غرامية بين ابنها وبين احدى وصيفات القصر تدعى ثيودوت Theodot، وانساق الابن وراء عاطفته ونسي زوجته الشرعية التي سبق أن زوجته منها أمه أيضاً . واستكمالا لحلقات المؤامرة شجعت إيرين ابنها على ترك زوجته والزواج من ثيودوت وهي تعلم مسبقاً ان مثل هذا العمل سوف يثير رجال الدين ضده ، وما ان تم زواج قسطنطين من ثيودوت حتى قامت ثورة كبيرة ولكنه لم يهتم وقام بوضع زوجته الأولى في أحد الأديرة وأصبح في مواجهة رجال الدين الذين اعتبروا مثل هذا الزواج علاقة غير شرعية .

هب رجال الدين في ثورة ضد الامبراطور ولكنه ضبط نفسه إلى حد كبير وقام بزيارة رهبان دير سكاديون Sukadion، ولكن رهبان الدير لم يحسنوا إستقباله وأهانوه وبالغوا في الاهانة ولكنه قابل الاهانة بكل هدوء . ولكن صبر الإمبراطور ما لبث ان نفذ عندما تمادى رجال الدين في المعارضة فأمر بالقبض عليهم وأنزل بهم العذاب ، وأمر بنفيهم ، وقد أدى هذا الى إثارة الشعب ضده . ولا شك ان إيرين كانت تعمل على إذكاء نار الفتنة حتى تصل الى هدفها .

وفي هذه المرحلة التي إهتز فيها كرسي العرش الإمبراطوري من تحت قسطنطين ، بدأت أمه تضرب ضربتها الأخيرة في حلقات هذه المؤامرة ، وشجعته على سمل عيني القائد الأرميني لمعارضته ، فثار جيش أرمينيه كله ضد الامبراطور . وفي الوقت نفسه كانت إيرين قد شجعت إبنها أيضاً على سمل عيني أكبر أعمامه وهو الذي ساعده في الوصول إلى العرش مما أثار الأعمام

وجميع الرجال البارزين. ولم يبق أمام إيرين من شيء سوى إلقاء القبض على إبنها في عام ٧٩٧م بعدما إنفض الجميع من حوله. وما أن ألقي القبض على الامبراطور حتى أمرت الام بسمل عينيه ليبقى بقية عمره على هامش الحياة التي لم يكن له من عزاء فيها سوى بقاء ثيودوت الى جواره. وباركت الكنيسة هذا العمل الذي إعتبرته قصاص عادل من السماء لإمبراطور آثم.

إمتلكت ايرين كرسي العرش على أنقاض حياة ابنها بمفردها حتى عام ٨٠٢م وهي فترة قصيرة، وجاءت نهايتها هي الأخرى على يد نقفور الأول وزير خزانتها الذي تمكن بمساعدة رجال البلاط من القاء القبض عليها دون ضوضاء، حيث أرسلت الى أحد الأديرة في جزيرة الأمراء ثم الى جزيرة لسبوس، ولم يرفع أحد سيفه من أجل الإمبراطورة الآثمة؛ واعتلى نقفور العرش في هدوء. وعرف العصر الذي يلي حكم إيرين باسم عصر خلفاء الأسرة الايسورية.

نقفور الأول Nicephorus I ٨٠٢ - ٨١١م

جاء في أعقاب الأسرة الأيسورية فترة قصيرة أعقبها قيام الاسرة العمورية ٨٢٠ - ٨٦٧م. وتميزت هذه الفترة بقيام أباطرة من أسر مختلفة وانهم تولوا العرش لفترات قصيرة. وبداية هذه الفترة كانت تحت حكم الامبراطور نقفور الأول الذي قضى على إيرين وإستولى على عرش الإمبراطورية بكل سهولة. ومع قيام نقفور على العرش يمكن القول ان الهيئة العسكرية إستردت قوتها، ومن هنا نجد ان معاداة الأيقونيين عادت الى الظهور مرة أخرى. وثمة ملاحظة أخرى، هو أن البعض يرى انه بنهاية عهد الأسرة الايسورية تكون فترة عداء الايقونيين قد إنتهت، ولكن لفترة تزيد عن نصف قرن نرى ان من تولى عرش الإمبراطورية كان من أصل شرقي لذلك كانوا من اللاأيقونيين.

كان نقفور الأول من أصل شرقي ويقال ان جده كان أميراً عربياً من سكان آسيا الصغرى. ومن هنا نجد أنه كان لا يقف في صف الأيقونيين، وواقع الأمر أنه لم يضطهدهم ولكنه لم يمنحهم تأييده. ولعل هذا كان مصدر

ثورة قامت ضده أشعلها بعض القواد الساخطون عليه، ولكنها كانت ثورة هشة تمكن من القضاء عليها بسهولة. وسوف نلاحظ انه حتى قيام الأسرة العمورية تعدد قيام الثورات، ولعل ما يوضح ذلك إنتاء أباطرة هذه الفترة إلى أسر مختلفة كما أوضحنا. وإن كان نقفور نجح داخلياً في البقاء على كرسي العرش فترة تسع سنوات إلا أنه كان فاشلا في سياسته الخارجية على الجبهة العربية والجبهة البلغارية. ففي الجبهة العربية تمكن هارون الرشيد من إحراز عديد من الانتصارات في عهده، بسبب رفض نقفور دفع الجزية التي كانت مقررة منذ عهد الإمبراطورة إيرين. ويسجل لنا المؤرخ الطبري بداية هذه الاحداث وموجزها أن نقفور كتب إلى هارون الرشيد يقول «من نقفور ملك الروم، إلى هارون ملك العرب، أما بعد؛ فإن الملكة التي كانت قبلي، أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، ولكن ذاك ضعف النساء وحمقهن؛ فإذا قرأت كتابي فإردد ما حصل قبلك من أموالها، وإفتد نفسك بما يقع من المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك.» وعندما تسلم هارون هذا الخطاب تملكه الغضب وأرسل إلى نقفور يقول حسب رواية الطبري أيضاً «بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك... والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام».

وإستعد هارون للهجوم على الإمبراطورية وتقدمت القوات الإسلامية حتى وصلت الى هرقلة وغنم المسلمون غنائم كبيرة. وشعر نقفور بعجزه عن صد الجيوش الاسلامية فطلب الهدنة ودفع الجزية، وتمت الموافقة على ذلك، ولكن نقفور ما لبث ان نقض الهدنة بمجرد عودة المسلمين. ولكن القوات الاسلامية عادت وأنزلت الهزائم بالجيوش البيزنطية، فلم يكن أمام نقفور إلا الإذعان وعاد الى دفع الجزية مرة أخرى.

والى جانب فشل نقفور في الساحة الإسلامية، فيبدو انه قام بحملة على البلغار بقصد العمل على رفع شأن الامبراطورية في الجانب الغربي، وقاد في عام

٨١١م جيوشه لتـأديـب كروم Krum ٨٠٣ - ٨١٤م ملـك البلغـار لقيـامـه بتخريب تراقية. ونجح نقفور في الإنتصار على البلغار ولكنه كان إنتصاراً مؤقتاً، فما لبث ان قام البلغار بهجوم مضاد ومباغت على معسكر نقفور واشتد القتال بين الطرفين انتهى بمقتل الامبراطور وقاد ستوراكيوس Stauracius ابن نقفور فلول الجيش وعاد بسرعة حتى وصل الى مدينة ادرنة ليكتشف أن جثة والده تركت في أرض المعركة ليمثل بها البلغار.

ستوراكيوس ٨١١م

نودي به إمبراطوراً فور موت أبيه، ولكنه كان قد جرح في المعركة الأخيرة جرحاً مميتاً فما أن جلس على العرش حتى مات، وفي خلال هذه الفترة القصيرة زوج ستوراكيوس أختـه من ميخـائيـل رانجـاب Rhangabe المعروف بـاسم ميخائيل الأول.

ميخائيل الأول ٨١١-٨١٣م

كان ميخائيل الأول رجل دين أكثر منه رجل دولة ولم يكن يربطه بالعرش سوى زواجه من ابنة نقفور، ولتدينه كان مقرباً من الرهبان ومعجباً بهم، وما أن تولى العرش حتى إنتقد نقفور ومساندته الأيقونيين، ولذلك حمل عليهم وأبعدهم من الوظائف. وقد أدى ذلك إلى غضبهم وإلى تدبير مؤامرات ضد الأمبراطور،وزاد من الثورة عليه عدم قيامه بعمل إيجابي ضد البلغار، مما سمح للبلغار التقدم داخل الحدود الأمبراطورية حتى وصلوا إلى القسطنطينية. ومن هنا كان التمرد على أشده ضد مخائيل فعزل ونودي بليو الخامس الأرمني أمبراطوراً ولجأ الأمبراطور المعزول إلى أحد الأديرة.

ليو الخامس ٨١٣ - ٨٢٠م

هو أحد الضباط الاكفاء في ميدان القتال لذلك استحق ثقة الجيش. ولما كان الخطر البلغاري هو السبب في قتل نقفور وفي موت ابنه ستوراكيوس فقد كانت مشكلة البلغار هي القضية الكبرى التي واجهت ليو، ومن خلالها يتقرر

الفصل السادس

الأسرة العمورية
٨٢٠ - ٨٦٧م

وكان ليو الخامس قد أشرك ابنه معه في الحكم وهو تقليد بيزنطي بهدف تأسيس أسرة حاكمة في سلالته من بعده. ولما كان ليو يعتمد على جنود آسيويين لا يحترمون الايقونات، فلما إستتب الأمر له وتخلص من خطر البلغار، عاد إلى تكريم الأيقونات، الأمر الذي أغضب رفاقه في السلاح الذين ساعدوه في الوصول إلى كرسي العرش. وكان في مقدمة هؤلاء القادة ميخائيل العموري - نسبة إلى مسقط رأسه مدينة عمورية - الذي بدأ يتآمر عليه. وقد أحس ليو بما يدبره له ميخائيل فقبض عليه وألقى به في السجن وترك عقابه لوقت لاحق. وأحس رفاق ميخائيل أن الدائرة ستدور عليهم، وعليهم أن يتصرفوا قبل فوات الأوان فخططوا للقضاء على ليو يوم عيد الميلاد عام ٨٢٠ م، فقد اعتاد ليو أن يؤدي الصلاة بدون سلاح. وإشترك المتآمرون مع الأمبراطور في القداس، وهاجموه في الوقت المناسب. وحاول ليو الدفاع عن نفسه بأن ضرب بعضهم بالصليب المعدني، ولكن كثرة المتآمرين أفشلت محاولته وذبح داخل الكنيسة على مقربة من المذبح. وقام المتآمرون بإخراج ميخائيل من سجنه وتوجوه إمبراطوراً في اليوم نفسه، قبل أن تفك القيود الحديدية عن قدميه.

ميخائيل الثاني (العموري) ٨٢٠ - ٨٢٩م

لم يكن ميخائيل سوى فلاح وصل إلى أرفع المناصب في الجيش بفضل شجاعته وكفاءته، وشهد له المؤرخون بذلك. ولكي يثبت ميخائيل نفسه في عرش الإمبراطورية تزوج من آخر وريثه في البيت الأيسوري. وقد ساعده

ذلك في إقامة أسرة حاكمة تولت عرش الامبراطورية حوالي نصف قرن من الزمان ٨٢٠ - ٨٦٧م. ومن الملاحظ في تاريخ الدولة البيزنطية أن يأتي في نهاية عصر الأسرة سلسلة من الأباطرة الضعاف تضطرب الأمور خلال حكمهم في الداخل والخارج. وينطبق هذا الحال على نهاية الأسرة الأيسورية، فلما تولى ميخائيل العموري عرش الامبراطورية، كان عليه مداواة الجراح التي تركها سلفه ليو الخامس خاصة ما يتعلق بمشكلة الايقونات. وبدأ ميخائيل بإشراك ابنه معه في الحكم ليثبت دعائم الأسرة في الحكم، ثم أصدر أوامره بمنع الجدل حول موضوع الايقونات، والسماح لجميع المنفيين بسبب الايقونات بالعودة إلى ديارهم. ولعله كان يقصد من ذلك ترك الحرية للمواطنين في إتباع ما يرونه بهدف تهدئة النفوس بعد سنوات طويلة من الجدل والشقاق. ولكن عُباد الأيقونات لم يقنعوا بذلك وطالبوا الإمبراطور بعودة الأيقونات إلى أماكنها القديمة، ولم يقبل ميخائيل طلبهم.. وعلى ذلك يمكن القول أن عُباد الأيقونات لم يرضوا عن حكم ميخائيل كل الرضى.

ويميز عهد ميخائيل العموري قيام بعض الثورات في الشرق والغرب واستيلاء العرب على جزيرتي كريت وصقلية، وفيما يتعلق بالثورات فكان منها ثورة توماس Thomas المعروف باسم توماس الصقلي. وواقع الأمر أن أسباب ثورة توماس ترجع الى مسألة شخصية بهدف الوصول إلى العرش، ولكن نتائجها كانت كبيرة ومتعددة شملت عدة نواحي، وهذا ما جعلنا نطلق عليها كلمة ثورة وليس تمرداً. فمن الناحية السياسية نلاحظ تحالفاً حقيقياً بين توماس والمسلمين. ومن الجوانب الدينية فإن توماس كان يدافع عن قضية عُباد الأيقونات. ومن الزاوية الاجتماعية فقد رأى سكان آسيا الصغرى المجهدين بالضرائب في شخص توماس محررا لهم من الظلم والطغيان. وفوق ذلك فإن توماس يرجع إلى أصل صقلي، والمعروف أن الأباطرة السابقين نقلوا من العناصر الصقلبية عشرات الآلاف إلى آسيا. ومن هنا يتضح لنا الإقبال الشديد لمساندة الثورة. وإن كان البعض يرى أن توماس أرميني الأصل،

فالنتيجة لا تختلف كثيراً لآن مساندة الأرمن لا تقل أهمية عن مساندة الصقالبة. كما أن الصقالبة الذين استقروا في الشرق وأرهقتهم الضرائب، تعاطفوا مع الثورة.

كان توماس رفيق ميخائيل في السلاح وإنه التحق بخدمة أحد الحكام، وقامت علاقة مشينة بين زوجة الحاكم وتوماس، فخاف على نفسه وهرب إلى الشام في عهد الأمبراطورة إيرين، وعاد مرة أخرى في عام ٨٠٣م واشترك في ثورة باردانس Bardanes أيام حكم الامبراطور نقفور الأول، وعاد مرة أخرى الى الشرق ولكنه اتجه إلى الخليفة هارون الرشيد وظل في بغداد حتى عصر المأمون ١٩٨ - ٢١٨ هـ/٨١٣ - ٨٣٣م.

وبعدما وجد توماس إغتصاب القادة العسكريين للعرش وأن ليو الخامس أصبح أمبراطوراً، بدأ يخطط للوصول إلى عرش الامبراطورية. وفي أواخر عهد ليو إمتد نشاطه الى أرمينيا وإقليم بنطس في شمال آسيا الصغرى وبعد مصرع ليو وإعتلاء ميخائيل العرش إمتد بصره إلى القسطنطينية ذاتها ونجح في ضم معظم آسيا الصغرى إلى جانبه وإدعى أنه قسطنطين السادس ابن الأمبراطورة السابقة ايرين فإلتف حوله عُباد الايقونات والمغلوبين على أمرهم، فاضطربت أحول الامبراطورية وانفراط عقدها وتمرد المحكومون على حكامهم.

وكانت روابط الصداقة قد وطدت بين الخليفة المأمون وتوماس فأمده الخليفة بجيش كبير. كما نجح توماس في ضم جباة ضرائب آسيا الصغرى الى جانبه فأسلموه المال الذي جمعوه، وأنظم جانب من الاسطول البيزنطي الى ثورة توماس فتعزز موقفه، وزاد طموح توماس بعد هذه الاحداث وتوج أمبراطوراً على يدي أيوب بطريق مدينة أنطاكية.

إندفع توماس بقواته الى آسيا الصغرى، في الوقت الذي هاجمت فيه بعض القوات الاسلامية شواطىء آسيا الصغرى وجزيرة كريت. وإستخف ميخائيل بجيش توماس وأرسل اليه قوات قليلة إنهزمت في أول معركة، فأحس ميخائيل

بفداحة الخطر وبدأ في العمل على إسترضاء الأيقونيين، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل. وإتجه توماس بجيشه ووصل الى مضيق الدردنيل وعبر بجيشه الى إقليم تراقية وبدأ في حصار القسطنطينية براً وبحراً عام ٨٢١م، وتوقع أن تفتح له العاصمة أبوابها ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. وإستبسل ميخائيل وابنه ثيوفيلوس Theophilus في الدفاع عن العاصمة. وظل الحصار لعدة أشهر ساء فيها موقف توماس لعدة أسباب. ومن هذه الأسباب ان بعض أقاليم آسيا الصغرى وهي إقليمي أرمينياكوي Armeniakoi وأبسكيون لم تنضم إلى توماس، فأصبحت قواتهما شوكة في ظهره. كما أن الأمبراطور ميخائيل لجأ إلى خان البلغار وتحالف معه لمساندته ضد توماس. وفضلاً عن ذلك فإن عُباد الأيقونات الذين تعاطفوا مع ثورة توماس، قد تخلوا عنها بعدما تحالف مع المسلمين. يضاف إلى ذلك شدة حصانة القسطنطينية. وأخيراً تمرد عدد كبير من جيش توماس عليه بعدما ضجروا من شدة الحصار والتجائهم إلى الأمبراطور ميخائيل. وإنتهى الأمر بحصار توماس في مدينة أركاديوبوليس Arcadiopolis في تراقية طيلة خمسة أشهر، وانتهت الثورة بقيام مؤامرة ضد توماس وألقي القبض عليه وسُلم إلى الإمبراطور في نهاية العام ٨٢٣م. فأمر بقتله. ورغم مقتل توماس فقد ظلت مدينتين في تراقية تقاومان الحصار، فعرض الإمبراطور عليهما التسليم والأمان فرفضا وصمما على المقاومة، ولكن زلزال حدث في هذه الفترة وهدم الأسوار فدخلت قوات ميخائيل المدينة.

كان لثورة توماس أضرار جسيمة على الأمبراطورية، ولم يقف أمرها عند تخريب بعض أقاليم الإمبراطورية، بل تعداها الى أبعد من ذلك، لأن عرب الأندلس وأفريقية استغلوا المشاكل البيزنطية وفتحوا جزيرتي كريت وصقلية.

ويرجع أمر الإستيلاء على جزيرة كريت الى أحداث ثورة قامت في مدينة قرطبة بالاندلس تعرف بثورة الربضيين، ولما فشلت هذه الثورة غادر فريق من الربضيين بلادهم ووصلوا الى شواطىء الأسكندرية ونزلوا في ضواحيها. ولما نشب الصراع بين الأمين والمأمون، إستغل هؤلاء المهاجرين الفرصة واستولوا

على مدينة الأسكندرية وأقاموا بها إمارة أندلسية مستقلة عن الخلافة العباسية. وعندما إستقرت الخلافة للمأمون أرسل إليهم يخيرهم بين الطاعة والحرب، فوافقوا على شرط خروجهم من الأسكندرية ونزلوهم في أرض غير تابعة للمسلمين واختاروا جزيرة كريت التي سبق إغارة المسلمين عليها عدة مرات.

وفي عام ٨٢٦م/٢١٢ هـ أو العام التالي أغار هؤلاء المهاجرين الأندلسيين على جزيرة كريت لاستطلاع الأحوال وعادوا محملين بالغنائم والأسلاب. وفي عام ٨٢٧م/٢١٣ م أو العام الذي يليه نزلوا في جزيرة كريت وإستولوا عليها دون مقاومة تذكر. وفي الجزيرة شيد المسلمون حصناً وأحاطوه بخندق وجعلوه عاصمة لهم وعرف هذا المكان بإسم كانديا Candia أو كندية. وحاول ميخائيل العموري إستعادة الجزيرة من يد المسلمين، فأرسل حملة بحرية عام ٨٢٨م وحملة أخرى في العام التالي، ولكن البحرية البيزنطية فشلت في إستعادها. وظل المسلمون هناك تحت قيادة زعيمهم أبي حفص عمر البلوطي ثم سلالته من بعده، يقلقون البيزنطيين بالاغارة على الجزر المجاورة حتى عام ٩٦١م/٣٥٠ هـ عندما استعادها البيزنطيون.

واذا كانت ثورة توماس قد سببت إضطراباً داخل الامبراطورية البيزنطية سهلت للمسلمين السيطرة على جزيرة كريت، فقد كانت ثورة يوفيميوس Euphemius في صقلية سبباً في ضياعها. ففي حوالي عام ٨٢٧م اشتد الخلاف بين قائدي جزيرة صقلية وهما يوفيميوس وقسطنطين، وإنتهى الأمر بأن أعلن يوفيميوس نفسه امبراطوراً، ولعلّ ثورة توماس كان لها أثرها على هذه الأحداث. ولكن يثبت يوفيميوس أقدامه في الجزيرة إتصل بالأغالبة في شمال افريقية وعرض على زياد الله ٢٠٢ - ٢٢٥ هـ/ ٨١٧ - ٨٣٨م الاعتراف به امبراطوراً على الجزيرة، وأن يمده بجيش للقضاء على معارضيه، وأن يدفع له جزية سنوية. وعرض زياد الله الأمر على أعيان القيروان، ورأى بعضهم أنه لا يجوز نقض الصلح المعقود مع الامبراطورية، ورأى الآخرون وهم الغالبية أن الامبراطورية سبق لها نقض الصلح مع المسلمين وأن سجون صقلية مليئة

بأسرى المسلمين. وتغلب الرأي المناصر لنقض الصلح فأعد زياد الله جيشاً بقيادة عبد الله أسد بن الفرات. وركبت القوات الاسلامية التي بلغ عددها عشرة آلاف السفن وسارت الى جوار سفن يوفيميوس، ونزلـــت القوات الاسلامية بشواطىء صقلية المألوفة لديهم، فقد سبق الإغارة على الجزيرة منذ عهد معاوية بن أبي سفيان. وكان نزول القوات الإسلامية على شواطىء الجزيرة بداية للسيطرة عليها لأمد طويل. وواقع الأمر أن السيطرة على الجزيرة استغرق أعواماً طويلة ولم تسقط تماماً إلا بعد الاستيلاء على مدينة سرقوسة Syracuse عام ٨٧٨م، ومدينة تاورمينا Taormina عام ٩٠٢م أي بعد خمسة وسبعين عاماً. وظلت الجزيرة تحت حكم المسلمين حتى إستولى عليها النورمان عام ١٠٩١م/٤٨٤هـ. ومات ميخائيل في عام ٨٢٩م وترك الحكم لابنه ثيوفيلوس والخطر الإسلامي يحيق بجزيرة صقلية يوشك أن يقضي عليها وتخرج من تحت سلطان الأمبراطورية كما خرجت جزيرة كريت من قبل.

ثيوفيلوس الأول ٨٢٩ - ٨٤٢م:

كان ثيوفيلوس شاباً نشيطاً مثقفاً تلقى علومه تحت إشراف أشهر علماء عصره يوحنـــا جرامـــاتيكوس John Grrammaticus الـــذي تولى عرش البطريقية - في عصر ثيوفيلوس - ٨٣٧ - ٨٤٣م. وكان ثيوفيلوس مهيأ لقيادة الحروب فقاد عدة حملات، كما كان شديد الإهتمام بالمسائل الدينية فخاض الجدل فيها، وكان رجل إقتصاد فملأ خزانة الدولة بالأموال، كما إعتنى بالبناء وشيد لنفسه قصراً بالعاصمة البيزنطية. وإهتم أيضاً بالتعليم ومدارس الدولة التي تمد الامبراطورية برجال الدين والادارة. ويرى البعض أن ثيوفيلوس كان عدواً شديداً لعباد الأيقونات، بينما يرى البعض الآخر أن عدائه لم يتعد العاصمة. كان ثيوفيلوس ذا مواهب شعرية بارعة فأمد الأدب الكنسي ببعض الأناشيد، وأنه كثيراً ما كان يقود المنشدين حينما كانوا ينشدون مؤلفاته داخل الكنيسة.

وإنشغل ثيوفيلوس في حروب مع الدولة العباسية لبعض الوقت، ومرجع

ذلك أن بابك الخرمي الذي ثار على الخلافة العباسية ودامت ثورته حتى عصر الخليفة المعتصم ٢١٨ - ٢٢٧ هـ/٨٣٣ - ٨٤٢ م، إتصل بالامبراطور ثيوفيلوس لمساندته ضد الخليفة. وقد وجد ثيوفيلوس في مساندة بابك الخرمي فرصة للرد على مساندة الخليفة المأمون لثورة توماس فأعد جيوشه وانطلق شرقاً الى منطقة الثغور حتى وصل زبطرة عام ٨٣٧م، فأشعل فيها النار وسبى النساء والأطفال ثم تقدم إلى سميساط وملطية ودخلهما. ثم عاد إلى عاصمته حيث أستقبل إستقبال الفاتحين. ونجح المعتصم في العام ذاته من القضاء على ثورة بابك وبدأ يستعد لملاقاة الروم. فأعد جيشاً كبيراً وقاد بنفسه الجزء الأكبر منه وقاد الجزء الباقي الإفشين الذي قضى على بابك الخرمي.

تقابلت القوات الاسلامية مع القوات البيزنطية عند نهر الهاليس شمال آسيا الصغرى وصمد ثيوفيلوس لبعض الوقت ثم تراجع، فدارت الدائرة عليه وهزمت قواته وعاد ادراجه الى القسطنطينية. وتقدم المعتصم بقواته الى عمورية مسقط رأس الأسرة العمورية ودخلها عنوة، وأنزلت قواته بالمدينة الحرق والقتل والأسر، وصار الطريق إلى القسطنطينية مفتوحاً بعد سقوط عمورية ولكن المعتصم عاد لبلاده. وفي عام ٨٤٠ - ٨٤١م نجح البيزنطيون في الاستيلاء على مدينة الحدث ومرعش وأرض ملطية وقت إنشغال المعتصم ببعض الفتن الداخلية. وأعقب ذلك تبادل الأسرى بين الطرفين وهو المعروف بالفداء. ورغب المعتصم في السلم ولكنه عاد وأعد اسطولاً بهدف غزو القسطنطينية. وإنزعج الأمبراطور البيزنطي لهذه الأخبار فبدأ يبحث عن حلفاء له في غرب أوروبا. ولكن الوفاة عاجلت بالعاهلين الإسلامي والبيزنطي في العام التالي ٨٤٢ م.

ميخائيل الثالث (السكير) ٨٤٢ - ٨٦٧م.

كان ميخائيل الثالث هو الابن الوحيد للامبراطور ثيوفيلوس بالاضافة الى خمس بنات. واستحق ميخائيل التاج بعد والده، ولكنه كان لا يزال قاصراً في السادسة عشر من عمره، فتولت أمه ثيودورا أمر الوصاية عليه يعاونها مجلس

كـان أقوى شخصيـة بـه عم ثيودورا ووزير الخزانـة في الامـبراطوريـة وهو ثيوكتيستوس Theoctistus . وكـانـت الأم من الأيقونيـين عـلى العكس من زوجها،فدعت رجال الدين الى عقد مجمع لتبرئة زوجها مما أنزله بالأيقونيين. ورفض بطريق الإمبراطورية يوحنا جراماتيكوس الإذعان للأمر فعزله مجلس الوصاية ونصب مكانه مثوديوس الأولMethodius I (٨٤٣ - ٨٤٧م)، وكان قبول مثوديوس منصب البطريقية بهذه الطريقة يعني قبوله لطلبات الأمبراطورة، فتم التصديق على قرارات المجمع في السنة الأولى من توليه البطريق (٨٤٣م)، وعادت الأيقونات تظهر مرة أخرى على جدران الكنائس، وانتهى إضطهاد عُباد الأيقونات وعادوا من منفاهم. وأذهلت المفاجأة اللاأيقونيين فشلت حركتهم. وساعد على ذلك أن الامبراطورة ثيودورا لم تتخذ أية عمل من شأنه إثارتهم، ويعني ذلك أن اللاأيقونيين قد فقدوا نفوذهم ولكنهم إطمـأنوا عـلى حياتهم وترتـب عـلى ذلـك هـدوء نسبي في الامبراطورية بعد الصراع الطويل حول الأيقونات، وسرى نوع من التساهل في هذا العهد. ولم تعد التماثيل توضع داخل الكنائس واكتفى برسم الصور وعلى الرغم من ذلك فان تبجيل البيزنطيين للأيقونات بلغ حد المغالاة بعد ذلك حتى أصبح مثل عبادة الاصنام وأدى الى كثير من الخرافات والأساطير

إنشغلت ثيودورا بأمور الحكم حيناً وبالمسائل الدينية حيناً آخر وتركت أمر تعليم ابنها الى أخيها برداس Bardas الذي أساء تعليم الامبراطور الصغير فعلمه الرذائل وشرب الخمر حتى أصبح مدمناً وأطلق المؤرخون عليه لقب السكير. وخلال هذه المرحلة حكمت ثيودورا، وطرأ تعديل على مجلس الوصاية وإنضم إليه شقيقها بارداس الذي تصادم مع ثيوكتيستوس بسبب الصراع على السلطة، وإنتهى الأمر بقتل الأخير عام ٨٥٤م. ثم تسلط بارداس على السلطة فاصطدم بالأمبراطورة، وانتهى الحال بطردها وبناتها من القصر، وأصبح بارداس الرجل الأول في الامبراطورية. ولما بلغ ميخائيل الثالث سن الرشد كانت كراهيته لخاله بارداس قد نمت وزادت فقتله حتى ينفرد بالسلطة

وهو أبعد ما يكون عن الاهتمام بالحكم. لذلك ضاق بأمر تصريف الحكم وعز عليه أن يمضي وقته في بحث أمور الدولة بعيداً عن الشراب والعربدة، فوقع اختياره على صديق ونديم له هو بازيل Basil، ليصرف أمور الدولة ومنحه لقب قيصر.

وخلال هذه المرحلة كان إندفاع ثيودورا في النواحي الدينية قد أدى إلى إضطهاد أتباع المذهب البوليصي Paulicians وهم جماعة مسيحية تنسب الى بولص السميساطي. وكانت لها طقوسها وعقيدتها التي تختلف عن نظام كنيسة الامبراطورية. وإشطت الامبراطورة في معاملتهم حتى أنها خيرتهم بين الأرثوذكسية والموت، فلم يقبلوا الأرثوذكسية وهربوا الى مدينة تفليس Tephrice الواقعة شمال ملطية شرق آسيا الصغرى.

أما عن العلاقات بين الأمبراطورية والخلافة العباسية في بغداد، فإن المشاكل الداخلية لدى طرفي الصراع قد أخر الصدام لبعض الوقت، وكان فداء عام ٨٤٥م/٢٣١هـ، وتبادل الأسرى على نهر اللامس. وفي العام التالي أرسلت الأمبراطورية البيزنطية قواتها الى صقلية لمحاولة استردادها ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل.

وكانت كريت مركزاً إسلامياً متقدماً يهدد شواطىء الامبراطورية ويتحكم في طرق التجارة، وكانت مصر هي السند الأول لحكام كريت وتمدها بالسلاح والرجال، فأمرت الامبراطورة ثيودورا في عام ٨٥٣م/٢٣٨هـ بالإغارة على مدينة دمياط، وأعد لهذا الغرض أسطول كبير هاجم المدينة يوم عيد الأضحى والمدينة خالية من الجند فاقتحموا المدينة وأنزلوا بها القتل والأسر والنهب دون مقاومة تذكر، وكان من بين ما أحرقوه مسجد المدينة والسفن الراسية في الميناء، والمعدات التي كانت معدة لإمداد كريت بها. ثم إتجهوا من دمياط الى تنيس ونالها ما نالته دمياط من الخراب والتدمير، وعاد الاسطول الى بلاده.

وهاجم علي بن يحيى الأرميني حدود الامبراطورية مرتين الأولى عام ٨٥٤م/٢٣٩هـ، والثانية في عام ٨٥٦م/٢٤١هـ. فأعدت الامبراطورية بعد شهور قليلة حملة لمهاجمة المسلمين، وكانت وجهة الجيش البيزنطي هذه المرة

مدينة سميساط ثم نواحي مدينة امد حيث هاجمت البولصيين الذين يمدون يد العون للقوات الاسلامية. وقد هدمت القوات البيزنطية عدة قرى وأسرت حوالي عشرة آلاف من مدينة تفليس المركز الديني للبولصيين. وأعقب هذه الحروب فداء للأسرى وهو المعروف بفداء عام ٦٨٠م/٢٤٥هـ.

وتجددت الحرب بين الطرفين، وشن أمير ملطية وغيره من القواد المسلمين القارات على البلاد البيزنطية، وعادوا محملين بالأسلاب والأسرى. وامتدت الغارات البرية الى الغارات البحرية وأسرت البحرية الاسلامية عشرين سفينة بيزنطية. ثم عادت الحملات البرية مرة أخرى في عام ٨٦٣م/٢٤٨هـ وتوغل المسلمون حتى شواطىء البحر الأسود، ولكن القوات البيزنطية أدركتهم في اقليم بفلاجونيا فقتلت وأسرت الكثير من القوات الإسلامية.

وكان لهذا النصر الذي أحرزه البيزنطيون أثراً كبيراً في تقوية مركزهم في الغرب أمام السلاف والروس. وكان للروس صلات قديمة مع البيزنطيين الذين تعاملوا معهم بالهدايا لاتقاء خطرهم. ولكن الروس هاجموا القسطنطينية ولأول مرة في التاريخ عام ٨٦٠م وأنزلوا بالمدينة الخراب. وقد ساعدهم على ذلك أن الامبراطور كان قد خرج بجيش لمحاربة المسلمين. ويمدنا فوتيوس Photius بطريق الإمبراطورية ٨٥٨ - ٨٧٦م، ثم ٨٧٧ - ٨٨٦م بجانب من المادة التاريخية حول هذه الاحداث في الموعظة الأولى التي ألقاها في هذه المناسبة. فقد ذكر أن الغارة لم تكن متوقعة وأن ضواحي المدينة خربت ونهبت وانتشر الذعر بين السكان. ويضيف أن الهجوم الروسي البربري لم يكن حملة منظمة وأن المهاجين كانوا مسلحين بطرق بدائية. وبعدما إنسحبت القوات الروسية ألقى فوتيوس الموعظة الرابعة وذكر أن الهجوم كان سريعاً وكاسحاً ووحشياً لم نسمع بمثله من قبل، وأن الروس الذين أطلق عليهم كلمة البرابرة ظهروا فجأة في ضواحي القسطنطينية وساورهم الأمل في الاستيلاء على العاصمة، وأنهم هاجموا المدينة من ناحية الشمال بعد ما وصلوا اليها بالقوارب. وأضاف أنه حدثت مجزرة مروعة فضلاً عن الدمار. وأن الروس قد انسحبوا عندما التمس أهل المدينة مساعدة الرب.

وقد نتج عن الهجوم الروسي قيام بيزنطة بتجديد تحالفها مع الخزر. وبدأت بيزنطة تنهج نهجاً جديداً في علاقاتها بالعناصر المحيطة بها، ورأت أن سياسة التبشير سياسة هامة لأن شعباً يدين بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسي سيكون حليفاً للامبراطورية. وامتدت أعمال التبشير ووصلت الى عناصر الماجيار في إقليم مورافيا Moravia حيث كان التنافس بين الارثوذكسية والكاثوليكية. وفي النهاية إنضم المورافيون كما إنضم البلغار الى الكنيسة البيزنطية. ولكن ما جمعه الدين فرقته السياسة وأصبح المورافيون حلفاء لبيزنطة في الوقت الذي أصبح فيه البلغار حلفاء للفرنجة، ولكن بيزنطة نجحت في إجبار الحاكم البلغاري بوريس الأول Boris I ٨٥٢ - ٨٨٩م على إعلان ولاءه الديني والسياسي للامبراطورية البيزنطية، وأبعدت نفوذ روما الديني عن البلغاريين. وسيكون لذلك كله أثره على القطيعة الدينية التي بدأها فوتيوس وانتهت بالقطيعة الكبرى عام ١٠٥٤م.

وفي خضم هذه الأحداث خطط القيصر بازيل للسيطرة على عرش الامبراطورية، فدبر مؤامرة لقتل الامبراطور صديقه وولي نعمته، فطعنه وهو غائباً عن وعيه بتأثير الخمر، وفرض سلطانه على القصر وأعلن نفسه أمبراطوراً. وأسس بازيل عهداً لأسرة حاكمة عرفت باسم الأسرة المقدونية دام حكمها من ٨٦٧ - ١٠٥٧ م. وهي فترة طويلة أطول من المدة التي اعتلتها أية أسرة عرش الأمبراطورية.

الفصل السابع

الأسرة المقدونية

٨٦٧-١٠٥٧م

١- عصر بازيل الأول وليو السادس ٨٦٧-٩١٢م

بازيل الأول ٨٦٧ - ٨٨٦م

كانت الطريقة التي وصل بها بازيل الأول - مؤسس الاسرة المقدونية - إلى العرش، طريقه ملتوية في الحقيقة. وكانت تقف بجانبه يودوكيا إنجرينا Eudocia Ingerina، محظية ميخائيل الثالث القتيل. ولكي يؤمن وصوله الى العرش توج إبنه الأكبر قسطنطين امبراطور شريكا في السادس من يناير ٨٦٩م، وبعد مرور عام، توج ابنه الثاني ليو، وبعده توجه ابنه الثالث الكسندر (حوالي ٨٧٩، بعد وفاة ابنه قسطنطين)، هذا بينما تحدد مستقبل ابنه الاصغر ستيفن كرجل دين، وأصبح يحتل منصب البطريك اثناء فترة حكم أخيه ليو السادس. وكان ابنه البكر قسطنطين، والذي يؤثره عن بقية أولاده، قد أنجبه في شبابه من زواجه بماريا المقدونية. وكان ليو والكسندر ستيفن أبناء يودوكيا إنجرينا، وقد أنجب الأخيرين بعد أن أصبح إمبراطوراً.

ومثل كل حاكم بيزنطي آخر، كان بازيل متدخلا في شؤون الكنيسة بدرجة كبيرة، وفي البداية إتبع طريقة مختلفة عن الطريقة الذي انتهجها كل من برداس وميخائيل الثالث في سياستهما الدينية. وبعد وصوله الى العرش مباشرة، عزل فوتيوس Photius بطريك الدولة (٨٥٨ - ٨٦٧، ٨٧٧ - ٨٦٨م) ونفاه في أحد الاديرة، وبذلك طعن البطريك العظيم من الظهر في أحرج لحظات نضاله التاريخي. ثم نصب اجناتيوس Ignatius على عرش البطريكية، ٨٦٧ - ٨٧٧م، واستأنف العلاقات مع روما. وفي سنة ٨٦٩ - ٨٧٠م عقد مجمع

كنسي في القسطنطينية حضره مبعوثو البابا هادريان الثاني Hadrain II (٨٦٧ ـ ٨٧٢ م)، وأعلن هذا المجلس حرمان فوتيوس من الكنيسة. ومع ذلك لم يتفق رأي بازيل الأول ومبعوثي البابوية على مبادىء معينة لأن كلا من الطرفين يعتنق وجهات نظر متعارضة على طول الخط بشأن الحقوق والاختصاصات القضائية لكرسي البابوية. وحيثما أن مسألة فوتيوس قد تم الفصل فيها بمعرفة البابا، فان الامبراطور كان مهتماً بإعادة بحث هذه المسألة مع مجمع كنسي يعقد تحت إشرافه، وأن القرار بحرمان فوتيوس يجب أن يصدر من الإمبراطور.

وبالإضافة إلى ذلك، ظهرت أمام المجلس مسألة أخرى لم تحسب لها روما حساباً، فبعد ثلاثة أعوام من نهاية إنعقاده وصلت سفارة بلغارية إلى القسطنطينية، وانعقد المجلس من جديد للبحث في مسألة إنتماء الكنيسة البلغارية إلى كنيسة روما أو كنيسة القسطنطينية. ذلك أن الآمال التي عقدها بوريس Boris، أمير بلغاريا، على تحالفه مع روما لم يتحقق منها شيء من الواقع، وإرتباطه مع روما لم يحركه خطوة واحدة تجاه هدفه الأصيل، الا وهو تأسيس كنيسة مستقلة في المملكة البلغارية، فقد رفضت روما الشخصين اللذين رشحهما بوريس لرئاسة الأبرشية التي سينشئها في بلغاريا، ولهذا تحول مرة أخرى إلى القسطنطينية. وبالرغم من الإعتراضات العنيفة التي أبداها، مبعوثاً روما في المجلس، فقد جاء القرار لصالح بيزنطة بسبب إجماع ممثلي الكنائس الشرقية الثلاثة. وقد تعلمت بيزنطة درساً من السنوات السابقة، وبدأت تظهر أكثر تسامحاً. وأذن الإمبراطور للبطريك إجناتيوس بتدشين رئيساً للأساقفة وعدداً من الأساقفة البلغار. واعترفت الكنيسة البلغارية بسيادة بطريكية القسطنطينية ولكنها إحتفظت بقدر من الإستقلال الذاتي.

وهكذا حقق الأمير البلغاري هدفه عندما استخدم بمهارة وحذق، التنافس بين روما وبيزنطة، ولكن بيزنطة استعادت البلغار الى جانبها. ومن ذلك الحين ظلت المملكة البلغارية ـ وبرغم الاحتجاجات المتكررة من روما ـ في كنف الكنيسة البيزنطية، كما ظلت تدور في فلك الحضارة البيزنطية. ولكن بلغاريا

حصلت على ذلك مقابل تقويض صداقتها مع روما ،وهي الصداقة التي كان بازيل الاول يعرف قيمتها ويقدرها تقديراً عظيماً. ومن أجل هذه الصداقة ضحى بفوتيوس وراح فوتيوس ضحية هذه الصداقة. وفي الواقع كان تصور بازيل للدور الذي يجب على بيزنطة أن تقوم به في العالم السلافي مطابقاً لرأي فوتيوس الذي عزله، وبرداس الذي قتله. كما كانت متابعة النضال ضد البلغار، والذي قاده في النهاية الى النصر، كان مطابقاً تماماً لآرائهما ووجهة نظرهما. وتوسع بازيل أيضاً في عمليات التبشير في روسيا، كما كسب للمسيحية السلاف في القسم الغربي من شبه جزيرة البلقان، وبعمله هذا جعلهم يخضعون لنفوذ بيزنطة.

وفي فترة الصراع على عبادة الايقونات، بعُد الجزء الغربي للبلقان إلى حد بعيد عن نفوذ بيزنطة. وفي النصف الأول من القرن التاسع، ظهر أن مدن دالماشيا والقبائل السلافية من الساحل ومن الداخل كانت تعاني من ارتباطها ببيزنطة. وفي ذلك الوقت أيضاً ظهرت مملكة قوية مستقلة في أراضي الصرب، بزعامة فلاستيمير Vlastimir، رغم أنها لم تعمر طويلا.

وفي تلك الأثناء أيضاً هدد الساحل الأدرياتيكي خطر جديد، وكان هذا الخطر آتٍ من المسلمين في جنوب ايطاليا، وقامت البحرية البيزنطية بمساعدة فعالة في هذه الحرب. وبعد عدة هجمات للأسطول الإسلامي على بودوا Budua وكوتور Kotor، ضرب الحصار على دوبرفنيك dubrovnik (راجوزه Ragusa) في سنة ٨٦٧ م، وجاءت الإستغاثة من المدينة المحاصرة إلى القسطنطينية تطلب النجدة، وأجبر المسلمون على فك الحصار حين وصل قسم من الأسطول البيزنطي وإنسحب العرب إلى جنوب إيطاليا بعد حصار دام خمسة عشر شهراً. وبهذا تأكد سلطان الإمبراطورية البيزنطية وعادت تبسط سيادتها على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي. ويمكن القول بأن إنشاء (ثيم) ولاية دالماشيا، الذي ضم المدن والجزر البيزنطية في دالماشيا يرجع إلى ذلك الوقت.

والواقع أن مدن وجزر دالماشيا كانت تعتمد على المناطق السلافية

الداخلية أكثر من القسطنطينية. وكانوا يؤدون الجزية للقبائل السلافية، أما ما كانوا يدفعونه من مبالغ ضئيلة للحاكم البيزنطي، فقد كانت رمزية فقط. ومن ناحية أخرى، لم تعترف المدن الدالماشية فقط بإمتيازات بيزنطية، بل إعترفت بها أيضاً القبائل السلافية في الساحل وفي الداخل، وأرغموا على تقديم المساندة العسكرية للإمبراطورية.

وقوي التأثير البيزنطي في البلقان بدرجة كبيرة، وكان من نتيجة ذلك الانتشار السريع للمسيحيين هناك. وفي ذلك الوقت تحول الصرب والقبائل السلافية في مناطق السواحل الجنوبية إلى المسيحية الأرثوذكسية وحقق النفوذ البيزنطي نصراً على نفوذ مملكة الفرنجة وكنيسة روما في كرواتيا. وعلاوة على ذلك وجدت الجهود التبشيرية البيزنطية في البلقان وخاصة في مقدونيا وبلغاريا، باعثاً قوياً بوصول تلاميذ ميثوديوس الذين كانوا قد نفوا من مورافيا وأصبحوا الآن ينشرون العقيدة المسيحية والحضارة البيزنطية بين الشعوب السلافية عن طريق الوعظ وقراءة الانجيل المترجم إلى اللغة السلافية. وكانت النتيجة التاريخية الطبيعية لذلك أن مورافيا صارت واقعة تحت تأثير روما، بينما ظلت بلغاريا ومقدونيا وصربيا تدور في فلك بيزنطة.

وعندما تمكن الأسطول الامبراطوري من صد هجمات العرب على ساحل دالماشيا ورفع الحصار عند دوبروفنيك، بدأ التدخل البيزنطي في جنوب ايطاليا، ووضع بازيل الأول خطة عمل مشتركة بينه وبين الأمبراطور الألماني لويس الثاني Louis II ٨٥٠ - ٨٧٥م وروما ضد تقدم القوات الاسلامية، وكان ذلك هو السبب الخفي لسياسة الصداقة التي بدأها تجاه روما. ومع ذلك لم يتحقق شيئاً في صقلية. وعلى العكس فقد حدث في سنة ٨٧٠م أن إستولى العرب على جزيرة مالطة، وبذلك كسبوا دعماً جديداً لموقفهم في البحر المتوسط. والحق يقال أن لويس الثاني استعاد مدينة باري سنة ٨٧١ من المسلمين ولكنه لم يعدها إلى البيزنطيين. فساءت العلاقات بين العاهلين. أما بازيل الذي كان قد وافق منذ وقت قصير على زواج إبنه الأكبر بابنه لويس، أخذ الابن يلقي اللّوم على حليفه السابق وأنكر حقه في أن يكون امبراطوراً

رومانياً (Roman Emperor).

وركزت الإمبراطورية البيزنطية جهودها في السنوات القليلة التالية على الحرب في الشرق وفي آسيا الصغرى على وجه التحديد حيث ساد أتباع المذهب البوليصي. وفي عـام ٨٧٢ م حقـق كريستوفر Christopher شقيـق زوجـة الإمبراطور ـ وقائد قوات الشرق ـ نصراً على البوليصيين وخرب معقلهم في مدينة تفليس وغيرها من الحصون العديدة ومزق قواتهم في معركة دامية إنتهت بمقتل زعيمهم كريسوخيروس Chrysocheirus. وساعد هذا النصر القوات البيزنطية على التقدم في الشرق. وفي ٨٧٣م دفع بازيل بجيوشه إلى منطقة الفرات واستولى على زبطرة وسميساط. ومع ذلك، لم يحقق الإمبراطور هدفه الأساسي، ففي محاولة أخذ قلعة ملطية الهامة، عانى من هزيمة مريرة. وكان على بازيل أن يقنع بالنجاح الجزئي الذي حققه في منطقة الفرات وفي ممرات طوروس، فهذا النصر حدد بداية عصر من التقدم المستمر المنظم للإمبراطورية البيزنطية على حدودها الشرقية. وبالإضافة إلى ذلك فإن ضعف الدولة الإسلامية في هذه المرحلة جعل من السهل إزدهار أرمينيه. وكان الإعتراف بآشواط الأول Ashut I كملك لأرمينيه من جانب الخليفة العباسي المعتمد (٨٨٥ م) والإمبراطور البيزنطي (٨٨٧ م) يعني عصراً من التوسع بزعامة أسرة البغري الأرمبنية.

وقوي أيضاً وضع بيزنطة في إيطاليا، فقد ثار أمير بنفنتو Benevento ضد لويس الثاني ووضع نفسه تحت الحماية البيزنطية (سنة ٨٧٣ م). وبعد موت لويس الثاني، ٨٧٥م، فتحت مدينة باري أبوابها للحاكم العسكري البيزنطي في نهـايـة سنـة ٨٧٦م. وتمكنـت بـيزنطـة من صد هجمات العرب عـلى المنـاطـق الساحلية في دالماشيا واليونان وشبه جزيرة المورة، كما تمكنت بيزنطة من السيطرة على قبرص لمدة سبع سنوات. ولكن ذلك لم يغير من حقيقة هامة وهي أن العرب كانوا لا يزالون سادة البحر المتوسط. ولم تلبث الامبراطورية البـيزنطيـة أن تلقـت الضربـة القـاصمـة في صقليـة. ذلـك أن سرقوسة الـتي ظلـت تتحـدى المسلمـين بشجـاعـة لفـترة طويلـة، سقطـت في أيـديهم ٨٧٨ م.

ورغم ذلك كسبت بيزنطة موطىء قدم لها على أراضي جنوب ايطاليا، وبعد وصول القائد المشهور نقفور فوقاس إلى هناك في الأعوام الأخيرة من حكم بازيل الأول، بدأت الأعمال الحربية الناجحة البيزنطية. وعاد جنوب إيطاليا مرة أخرى تحت الحكم البيزنطي.

ووقفت بيزنطة وسط الدويلات الإيطالية الصغيرة المتعادية كعامل قوي من عوامل الاستقرار، وحتى روما التي وجدت نفسها مهددة بهجمات العرب المستمرة على سواحل ايطاليا، كان عليها أن تطلب المساعدة من الامبراطور البيزنطي. وهذه الظروف تفسر سبب سياسة التسامح في الأمور الدينية التي إنتهجتها البابوية تجاه بيزنطة في هذه المرحلة.

وقد أجبر الامبراطور بازيل على الاعتراف بأنه في نقضه لسياسة الكنيسة بعد وصوله إلى العرش بأنه كان يضرب في الهواء. فقد حاول بازيل إيقاف الصراع الكنسي في بيزنطة بعزل فوتيوس ولكنه لم يتمكن من إخضاع أتباعه ومريديه بسهولة، وإستمر التصارع الحزبي دائراً كما كان. وكان الصراع مع روما أمراً محتوماً، بوجود فوتيوس أو بدونه، وبسبب المسألة البلغارية، وبعد زوال الوهم الذي صحب تحالفه مع القوى الغربية في جنوب ايطاليا، تأكد الامبراطور أنه كان مخدوعاً بما سيجنيه من كسب سياسي بعد عزل البطريق. ولهذا السبب، وحوالي ٨٧٥ م سمح لفوتيوس بالعودة إلى القسطنطينية وجعله أميناً على تعليم أبنائه. وبعد مرور ثلاثة أيام على وفاة البطريك إجناتيوس العجوز في أكتوبر ٨٧٧ م، عاد فوتيوس إلى عرش البطريكية للمرة الثانية ٨٧٧ - ٨٨٦ م وتلقى في هذه المرة أيضاً إعتراف روما به. والشروط التي ربط بها البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢ م) إعترافه به لا يتحمل إلا معاني قليلة. ففي نوفمبر ٨٧٩ م، عقد فوتيوس مجلساً دينياً حضره ٣٨٣ أسقف بحضور ممثلي البابوية، وكان في ذلك رداً لإعتباره عن إدانته بواسطة المجمع المنعقد في (٨٦٩ - ٨٧٠)، ونصراً حقيقياً للبطريك العائد إلى عرشه.

وبالرغم من أن الامبراطور بازيل الأول كان في الاصل فقيراً وضيع

النسب، فقد كان يحمل في نفسه إعجاباً حاراً للحضارة اليونانية وفكرة الامبراطورية الرومانية والقانون الروماني. وفي أثناء عهده إستمرت الموجة الثقافية الكبيرة التي بدأت في عهد ثيوكتيستوس Theoctistus وظهر نشاطه بشكل قوي كرجل دولة مؤمناً بفكرة الامبراطورية الرومانية: فهو أول حاكم بيزنطي منذ زوال أسرة هرقل، ينتهج سياسة نشطة في إيطاليا. ولكن شهرته العظيمة تكمن في إنجازاته التشريعية وفي مراجعة القانون الروماني. فهو الذي خطط لوضع مجموعة شاملة، ومراجعة لكتب جستينيان في القانون التي نشرت باليونانية، وكانت تحتوي بالاضافة الى ذلك ملاحق من القانون الجديد.

وهذا العمل العظيم، وصفه الامبراطور بعنوان « تصحيح وتنقية القانون القديم » يبدو أنه لم يكتمل، ولكنه شكل القاعدة التي إعتمد عليها ليو السادس بعد ذلك، وأعتبر الحجر الأساس للباسيلكا Basilica. وقد وصلنا كتابان صغيران للقانون واعتبرها بازيل الأول مقدمة للعمل الكبير الذي أراد انجازه. والأول هو القانون الميسر Procheiron Momos، وقد نشر بإسم الأباطرة بازيل وقسطنطين وليو، وعلى هذا فهو يرجع إلى الفترة ما بين ٨٧٠ - ٨٧٩م. وهو يحتوي على مختارات مأخوذة من المجموعة الكبيرة للقوانين السائدة، والاكثر استعمالاً سواء في القانون المدني أو القانون العام، مرتبه تحت أربعين عنوان حتى يكون في أيدي الناس كتاباً عاماً في القانون. والغرض من القانون الميسر كان مماثلا للغرض من إيكلوجا ليو الثالث، التي كانت أيضاً كتاباً عملياً في القانون للاستخدام العام يلبي حاجة القضايا التي تقابلهم كل يوم.

والواقع أن الامبراطور بازيل الأول، الذي حاول إحياء القانون الروماني، عمل على تبرئة نفسه من الامبراطور ليو الثالث الللاأيقوني، الذي وصفه بأنه « محطم القوانين الجيدة ». وبالرغم من الهجوم القاسي على الايكلوجا، فقد أخذ عنها القانون الميسر خاصة في الجزء الثاني منها الذي يختص بقوانين المواريث والقانون العام. وإنتشر القانون الميسر إنتشاراً واسعاً

في بيزنطة وظل محتفظاً بقيمته حتى إنهيار الامبراطورية. وعلاوة على ذلك فقد ترجم ـ مثل الايكلوجا ـ إلى اللغة السلافية في وقت مبكر، وكان له قيمة عظيمة في أعين البلغار والصرب والروس. وبالاضافة الى هذا يوجد الإباناجوجه Epanogoge، وهو كتاب مختصر تم جمعه باسم الاباطرة بازيل وليو والكسندر، وقد وضع كمقدمة لمشروع مجموعة القوانين الكبيرة وهو ينتمي إلى الفترة ما بعد ٨٧٩م.

وتعد الإباناجوجه الى حد كبير إعادة للقانون الميسر ولكن بتنظيم جديد وبعض التغييرات الهامة. وتعتمد الإباناجوجة بشكل أكبر على الأيكلوجا، حيث أنها تأخذ منها قانون الزواج، بينما القانون الميسر يعتمد على قوانين جستينيان في هذه الناحية، ولم تعتمد على الايكلوجا إلا في فصولها الأخيرة. ولكن الإباناجوجة علاوة على ذلك تحتوي على فصول مبتكرة تستحق الاهتمام، وذلك فيما يختص بحقوق وواجبات الامبراطور، والبطريك وغيرهما من المناصب العلمانية والدينية الكبيرة. وفُسر نظام الحكم في الدولة والكنيسة على أنه وحدة تتكون من وحدات وأعضاء كثيرين، يرأسها الامبراطور والبطريك كأعلى سلطتين في العالم، وواجبهما أن يعملا معاً في التحام تام وإنسجام من أجل خير الانسانية. ووضعت وظيفة السلطتين بمساواة تامة: فالعاهل المدني عليه أن يعمل على رخاء رعاياه ورفع مستواهم المادي، والعاهل الديني مهمته تحقيق سعادتهم الروحية. ومما لا شك فيه أن صاحب هذه النظرية في الحكم الثنائي هو البطريك فوتيوس، الذي عاد إلى منصبه. وهذا يفسر حقيقة أن الاباناجوجة تنتهج علاقة مثالية بين السلطتين الدينية والدنيوية متمشية مع الأفكار السائدة في دوائر الكنيسة الارثوذكسية.

ولم يكن فوتيوس يعرف جيداً، أن الحياة العملية تخالف هذه النظرية، وهذا ما أجبر على معرفته بتجربته الشخصية بعد وقت قصير. ذلك أن تغيير الحاكم العلماني اسقطه مرة ثانية عن عرش البطريكية. وبعد وفاة قسطنطين (ابن بازيل الأول) عام ٨٧٩، أصبحت ولاية العهد محصورة في ليو، بالرغم من

النفور وعدم الثقة التي شعر بها أبوه نحوه .

ولم يستطع بازيل الأول أن يكيف نفسه مع الحياة بعد وفاة ابنه الأثير عنده ، وأمضى السنوات الأخيرة من حياته في حالة من الحزن العميق . وفي أغسطس عام ٨٨٦ م حدثت له حادثة أثناء رحلة صيد أودت بحياته . وبعد أعتلاء ليو السادس العرش عزل فوتيوس ، ونصب أخاه الشاب ستيفن بطريكاً . وهنا اختفى فوتيوس من مسرح التاريخ ، وتوفي في منفاه في أرمينيه .

وشارك الكسندر أخاه ليو السادس في العرش ولكن بصورة رسمية فقط ، ذلك أن الكسندر عاش حياة لاهية ، ولم يشغل نفسه بأمور الحكم والسياسة . وأثناء الفترة الأولى المزدهرة من حكم ليو كان أهم مستشاريه هو الأرميني ستيليانوس زوتزس Stylianus Zautzes والد زوي Zoe خليلة ليو في البداية وزوجته فيما بعد ، واحتل كذلك منصب والد الملك Basileopator ، الذي أنشأ خصيصاً من أجله .

ليو السادس ٨٨٦ - ٩١٢ م

أهم ما يميز فترة حكم ليو السادس المعروف باسم ليو الحكيم هو التناقض التام بين الانجازات العظيمة التي تمت داخل الامبراطورية ، والفشل التام في السياسة الخارجية . ذلك أن ليو كان يفضل القلم على السيف . وكتلميذ لفوتيوس - الذي أظهر له نكران الجميل - كان متعلماً تعليماً عالياً ، وكانت دراساته ذات جوانب متعددة ، فكان كاتباً غزير الانتاج . وفوق كل ذلك كان موهوباً في الفصاحة والبيان . وكان الاعتزاز بالماضي عنده أقوى مما كان عند والده ، وفاقه من تحصيل العلم والثقافة . ولكنه كان ، عكس بازيل ، يظهر ميله للماضي في الثقافة والكتابة أكثر من السياسة والحكم ، مع التركيز الشديد على علم الاهوت . وكان ليو حاكماً وناسكاً ورعاً ، له اهتمامات دينية ولاهوتية واضحة ولكنها تميل إلى الخيال . وقد خط بقلمه عدداً من القصائد في خدمة القداس الكنائسي ، وعدداً كبيراً من المواعظ والخطب التي كان يلقيها بنفسه

في أعياد الكنيسة، مازجاً بين العادات السائدة والذكريات القديمة. وألف أيضاً خطبة في تأبين والده، وعدداً من الأشعار الدنيوية المؤثرة، وأخيراً مجموعة من التنبؤات حول مصير الإمبراطورية، والتي كان لها تقديراً كبيراً في العالم البيزنطي. ويبدو أن كتاباته هذه هي التي أكسبته لقبه الموقر أو الحكيم أو الفيلسوف.

أما العمل الذي له أهمية تاريخية كبيرة فهو التشريعات العظيمة التي تمت في عهد ليو السادس، وهي التي أظهرته من أعظم واضعي القوانين وأغزرهم انتاجاً منذ عهد جستينيان. ومع ذلك فمن الخطأ المبالغة في تقدير مشاركة ليو بنفسه في هذا العمل، رغم أنه مما لا شك فيه أن ثقافته واجتهاده كمؤلف كانت من عوامل إتمامه. وكما ذكرنا آنفاً، فان الإعداد لهذا العمل يرجع إلى عهد والده، كذلك يجب أيضاً ملاحظة أن أعظم فترة من النشاط التشريعي تقع في العشر سنوات الأولى من عهده، أي من الفترة التي كان فيها ستليانوس بجانبه كمستشار له. وبمقارنة هذه الفترة من حكمه فان الجزء الثاني كان أقل في انجازاته. وبالرغم من النفور العميق الذي ساد بين الأب وابنه - بازيل وليو - وبالرغم من التفاوت الكبير في طبيعة كل منهما، فان أهداف ليو السادس كانت مماثلة تماماً لاهداف بازيل. ومراجعة بازيل لقوانين جستينيان أكملها ليو السادس في الأوامر الامبراطورية Basilica.

والقوانين الإمبراطورية للإمبراطور ليو الحكيم - والمقسمة إلى ستين فصلاً تمثل ستة أجزاء، تشكل أكبر مجموعة للقوانين في الإمبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى. وقد عهد باعدادها إلى مجموعة من المحامين برئاسة سيمباتيوس Symbatius ونشرت في السنوات الأولى من حكم ليو السادس، وهي نفسها برهان على أنها تنقية للعمل الأول الذي قام به ليو السادس؛ ووضع في صورته النهائية في العمل الذي قام به ليو السادس؛

والأوامر الإمبراطورية عبارة عن مجموعة لقوانين الكنيسة كما هي للقانون المدني والعام. وتعتمد الباسيليكا على قوانين جستينيان والمختارات، وهي أقل

اعتماداً على متجددات Novels جستينيان ، وأخيراً تعتمد على الأوامر الإمبراطورية بشكل ملحوظ وعلى القانون الميسر. ولم يشر علماء القانون في عهد ليو السادس - كما في عهد بازيل ، إلى المصادر اللاتينية ، إلا بالقدر اليسير ، مستعملين بدلاً منها الترجمات اليونانية والتعليقات التي ترجع إلى القرنين السادس والسابع.

وبالمقارنة بمجموعة القوانين المدنية لجستينيان Corpus Juris بالباسيليكا ميزة كبيرة لصالح البيزنطيين حيث أنها مكتوبة باليونانية ، كما أنها كانت عملية وسهلة التطبيق. ذلك أن كل مواد القانون جمعت في عمل واحد ونظمت تنظيماً دقيقاً منهجياً ، بينما تناولت مجموعة جستينيان الموضوع الواحد في أكثر من موضع ، وأوضحت الباسيليكا في تعليقها أن ذلك هو أكبر أخطاء مجموعة جستينيان. ولهذا فإننا لا نعجب إذا كانت الباسيليكا قد أبعدت مجموعة جستينيان عن الاستعمال وأصبحت منذ ذلك الحين المرجع في دراسة القانون في الإمبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى. وسرعان ما أضيف إلى النص العديد من الشروح ، أهمها ما يسمى الشروح القديمة (Old Commentaries) التي ترجع إلى القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر. وفي القرن الثالث عشر وضع فهرس للباسيليكا يسمى Tipoukeitos. وقيمتها الأساسية ترجع إلى أنها تعطينا معلومات عن محتويات الأجزاء كلها التي لم تصل إلى أيدينا.

وبالاضافة إلى الباسيليكا هناك مجموعة (لائحة) من ١١٣ مادة تنسب إلى ليو السادس تسمى المتجددات Novels. وفي الواقع أن متجددات ليو السادس تعتمد إعتماداً تاماً على متجددات جستينيان ، حتى في الشكل والتنظيم. ومهما كان الأمر فان الترجمة الحرفية لعنوان المجموعة هي: تنقيح وتنقية القوانين القديمة، وهو ما يلفت النظر مرة أخرى إلى الارتباط القوي بين العمل التشريعي لليو السادس والعمل التشريعي لأبيه بازيل الأول. وتتناول متجددات ليو السادس عدداً كبيراً ومختلفاً من الموضوعات ، والتي يبدو أنها

تأتي متتابعة دون منهج معين، وتلغى لأسباب مقنعة، القوانين القديمة مع التأكيد على قوة القانون الملزمة.

ومما يستحق الذكر بشكل خاص متجددات ليو السادس التي ألغيت فيها الحقوق القديمة لمجلس البلاط ومجلس الشيوخ. وعلى أية حال فقد سقطت حقوق مجلس البلاط منذ وقت طويل وصارت لا توجد إلا على الورق فقط. على أن إلغاءها نهائياً بقانون بشكل أهمية كبيرة خاصة بعد أن تقرر أمرها في المتجددات الثلاثة، على أساس أن السلطة المطلقة أصبحت في يد الحاكم.

وتشير تشريعات ليو السادس إلى مسألة تاريخية هامة بلغت ذروتها في هذه المرحلة فقد وُضعت السلطة المطلقة في الدولة في أيدي الحاكم والبيروقراطية الأمبراطورية. إن سلطة الامبراطور المطلقة ونقل حكم الدولة الى البيروقراطية بلغ أوج اكتماله تحت حكم الاسرة المقدونية، أما السناتو الذي كان يتكوّن من كبار موظفي الامبراطورية أصبح وجوده الآن صورياً، فهو لم يفقد وظائفه التشريعية والادارية فقط، بل فقد أيضاً الأهمية التي إكتسبها في القرنين السابع والثامن الميلاديين.

ووضعت السلطة العليا في الدولة في يد الإمبراطور وجهازه الحربي والإداري. والإمبراطور مختار من الرب وهو في حماية العناية الالّهية المقدسة. فهو السيد الأعلى لحكومة الإمبراطورية، وهو القائد الأعلى للجيش، وهو القاضي الأعلى والمشرع الوحيد، وهو حامي الكنيسة وحارس العقيدة المسيحية. وهو صاحب قرار الحرب والسلام، وكلمته هي الأولى والأخيرة التي لا يمكن إلغاؤها، وتشريعاته تعتبر وحياً من الرب. والواقع، كان على الإمبراطور مراعاة القوانين الموجودة فعلاً، ولكن كان من سلطته إلغاء القوانين القديمة وإصدار قوانين جديدة، وهو لا يراعي في ذلك، إلا مطالب العدالة. وكرئيس أعلى للدولة كانت سلطة مطلقة ولا يحدها سوى مبادىء الأخلاق والتقاليد. ولم تُحد سلطته المطلقة إلا في الشؤون الدينية فقط. ومهما كان نفوذه قوياً في الهيئات الكنسية، فهو ليس إلا رجل علماني، وعلى هذا فهو

ليس إلا حام للكنيسة وليس رئيساً لها .

وكان للكنيسة رئيسها الخاص ، وهو بطريك القسطنطينية ، وكانت سلطته ونفوذه مستمدة من السلف . وعلى كل حال ، فقد كان الإمبراطور في الواقع هو الذي كان يعين البطريك، وبسبب سلطته كمشرع للقوانين كان شريكاً في حكم الكنيسة . وله حق تعيين وعزل أصحاب المناصب العلمانية ، ولكن عزل رؤساء الكنيسة ، كان يتطلب موافقة رجال الدين .

وبرغم أنه كان من حق الإمبراطور تغيير القوانين التي وضعها سلفه ، فان الامبراطور لم يكن يستطيع إلغاء أو تغيير قرارات المجامع الدينية . ومجلس الكنيسة هو أكبر محكمة للاستئناف في الكنيسة ، وهو فقط المختص بحق إصدار القرارات المتصلة بالعقيدة . وكل ما يستطيع الإمبراطور عمله هو حماية العقيدة الموجودة فعلاً . وبينما فقدت السلطات العلمانية ـ التي كانت في يوم ما رقيباً على سلطة الإمبراطور المطلقة ـ أهميتها السابقة ، فإن سلطة الكنيسة كانت تتقدم وتقوى جنباً إلى جنب مع سلطة الإمبراطور .

وعصر الأسرة المقدونية يشكل مرحلة جديدة في التطور الإداري والبيروقراطي في الإمبراطورية البيزنطية . وكان الإتجاه الذي بدأ منذ القرن السابع الميلادي لا يزال متبعاً ، ونتيجة ذلك ظهرت صورة مختلفة تماماً عن النظام السياسي الروماني ، وذلك يعني ذهابه بلا عودة .

وقد استكمل التنظيم الإداري للإمبراطورية مع بداية القرن العاشر الميلادي . ولتبسيط التنظيم الإداري المدني للولايات تم بالتدريج تقسيم الولايات الكبرى إلى ولايات أصغر حجماً . ومنذ أن صارت الولايات في القرن التاسع أصغر حجماً من الويات القديمة ، أسندت القيادة العسكرية بالولاية إلى حاكمها . وأثناء النصف الثاني من القرن التاسع ألغي منصب الحاكم العسكري واختفت معه بقايا تنظيمات دقلديانوس وقسطنطين . كما حلّ محل رؤساء المجالس القضائية في الولايات رؤساء الادارة المدنية ، ووضع نظاماً موحداً في تنظيم الثيات (الولايات) بدلاً من الاختلافات التي كانت سائدة من قبل . أما

المناطق العسكرية الأقل مرتبة أصبحت ثيمات مستقلة. وتعرض نظام الثيمات إلى تغيرات أخرى كنتيجة لانشاء ثيمات جديدة في المناطق التي ضُمت للامبراطورية حديثاً عن طريق الحرب، كما أن انشاء ولايات جديدة في الاراضي القديمة أصبح شيئاً نادر الحدوث. ولم يحدث تقسيم للولايات القديمة إلا منذ نهاية القرن الحادي عشر مع ضعف الحكومة المركزية.

وفيما يتعلق بالجهاز البيروقراطي البيزنطي، فان المعلومات التي يمدنا بها فيلوثيوس Philotheus والقوائم الخاصة بالوظائف في القرنين التاسع والعاشر هي مصادرنا لهذا العصر، ويجب أن نميز بعناية بين الوظائف وألقاب التشريف. وهذا التمييز سهل إذا عرفنا أن الوظائف كانت تصحبها أعباء وأعمال وكانت بالتعيين، أما الالقاب فكانت تمنح مع تقليد صاحبها شارة يعرف بها لقبه. ومعظم الالقاب لم تكن الا وظائف فقدت أهميتها مع مرور الوقت واحتفظت فقط بالالقاب المجردة. وعلى هذا يجب أن نضع في الاذهان دائماً أن قوائم المناصب التي ترجع إلى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين تبين لنا الجهاز البيروقراطي البيزنطي كما كان في ذاك العصر.

سياسة ليو الخارجية

وعلى عكس بازيل الأول، لم يكن لدى ليو السادس برنامج واضح للسياسة الخارجية. ولذلك تميزت فترة حكمه عن عهد والده بحقيقة هامة، هي أنه لم يعد في الإمكان توجيه كل الجهود العسكرية ضد الغرب، وهذا الاختلاف كان في غير صالح الامبراطورية. فبعد فترة طويلة من السلام ظهرت أزمة في العلاقات بين بيزنطة وبلغاريا. فعندما إعتزل أول حاكم مسيحي بلغاري، بوريس الأول عام ٨٨٩م، وبعد أن ذهب ابنه فلاديمير Vladimir ضحية محاولة العودة إلى الوثنية عام ٨٩٣م، آلت السلطة الى الابن الاصغر لبوريس وهو سيمون (٨٩٣ - ٩٢٧م)، الذي أصبح أعظم حاكم لمملكة بلغاريا في العصر الوسيط.

وبعد إعتلاء سيمون العرش مباشرة حدث خلاف بين بيزنطة وبلغاريا، وكان ذلك بسبب السياسة التجارية. فقد مُنح تاجران بيزنطيان إحتكار تجارة

بلغاريا . وبموافقة ستليانوس زوتزيس نقل السوق البلغاري من القسطنطينية إلى سالونيك وزادت الرسوم الجمركية على التجارة بطريقة كبيرة . وكان ذلك مضراً بمصالح بلغاريا التجارية .

وحيث أن احتجاجات بلغاريا لم يكن لها أي تأثير ، فقد غزا سيمون أراضي الامبراطورية وهاجم جيشاً امبراطورياً سنة ٨٩٤ م . ولما كانت موارد بيزنطة العسكرية في البلقان غير كافية ، فقد حاولت مواجهة الحظر بحيلة دبلوماسية . وأرسلت الإمبراطورية إلى الماجيار Magyars ، الذين كانوا في ذلك الوقت يعيشون في المنطقة الواقعة بين نهري الدنيبر والدانوب تطلب منهم المساعدة . وهذا الالتماس من جانب بيزنطة سمح لهم ولأول مرة أن يتدخلوا بفاعلية في سياسة الدول الأوروبية . وأطاع الماجيار طلب بيزنطة ، وهاجموا سيمون من الخلف وهزموه عدة هزائم وخرّبوا أراضي بلغاريا الشمالية .

وفي تلك الأثناء دخل نقفور فوقاس ، القائد البيزنطي ، الحدود الجنوبية لبلغاريا ، وأغلق قائد الأسطول الإمبراطوري فم الدانوب . وعقد سيمون هدنة مع بيزنطة كسباً للوقت ، وكما لجأ الإمبراطور الى الماجيار لجأ سيمون الى البجناكية Patzinak الذين عاشوا في سهول روسيا الجنوبية . وتمكن بمساعدتهم من هزيمة الماجيار ، ثم تحول مرة أخرى ضد البيزنطيين ، حيث انتصر عليهم انتصاراً حاسماً في موقعة بلجاروفيجون Bulgarophygon سنة ٨٩٦ م . وهنا تم إقرار الصلح وأرغمت بيزنطة على أن تدفع جزية سنوية لدولة البلغار . وتحت ضغط البجناكية تحرك الماجيار جهة الغرب واستقروا في موطنهم الجديد عند الدانوب ، وبذلك دقوا إسفيناً في وسط أراضي السلاف الجنوبيين عن قبائلهم في الشمال والشرق .

وضعفت قوة بيزنطة في مواجهة المسلمين في الشرق والغرب على السواء ، نتيجة للحرب مع بلغاريا . وكان على نقفور فوقاس أن يوقف حملاته الناجحة في جنوب ايطاليا ليتولى قيادة الحرب من البلقان ضد سيمون .

وفي الشرق فتح المسلمون أرمينية ، وبدأ تقدمهم داخل ممرات قيليقية ،

وكان ذلك مصحوباً بعمليات بحرية على نطاق واسع على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية. وفي الغرب ومن البحر واجهت الأمبراطورية الكارثة تلو الأخرى. وسقطت تورمينا Taormina آخر المعاقل البيزنطية في صقلية في أغسطس ٩٠٢ م، وبسقوطها فقدت بيزنطة صقلية تماماً، بعد خمسة وسبعين عاماً من القتال المرير ضحوا فيها بالكثير. كما إمتدت سطوة المسلمين ليس فقط إلى البحر المتوسط بل إلى بحر إيجه المحاط بالاراضي البيزنطية. وعلى فترات متقطعة نهب العرب وخربوا أرخبيل وساحل شبه جزيرة المورة وتساليا Thessaly. وفي عام ٩٠٢م دمرت مدينة ديمترياس Demetrias الغنية على ساحل تساليا.

وأخطر من كل هذا كانت الحملة البحرية على سالونيك سنة ٩٠٤ م، التي قادها اليوناني المرتد ليو الطرابلسي. وفي البداية كانت وجهة ليو الطرابلسي مدينة القسطنطينية، وبعد أن إستولى على أبيدوس Abydus، ورغم أنها فتحت أمامه الطريق الى العاصمة البيزنطية، إلا أنه غيَّر خططه فجأة ونزل في سالونيك. وهي المدينة التي كانت مركزاً حضارياً وتجارياً، وكانتَ أهم وأغنى مدينة بعد القسطنطينية، وقد سقطت في أيدي العرب في آخر يوليو عام ٩٠٤م، بعد حصار دام ثلاثة أيام. وبعد أن أنزل المنتصرون بالأهالي القتل، إنسحبوا من المدينة بعد أن أخذوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى وكميات هائلة من الغنائم. واستغل سيمون هزيمة بيزنطة لصالحه، وأجبرت بيزنطة على الموافقة على إعادة تخطيط الحدود، ونتيجة لذلك وصلت حدود بلغاريا حتى سالونيك.

وهذه الضربات العنيفة التي تلقتها بيزنطة جعلتها أكثر حكمة وتعقلا، وقامت الحكومة البيزنطية بإقامة استحكامات قوية في سالونيك وأضاليا Attaleia، واتخذت اجراءات نشطة لتقوية الاسطول. وسرعان ما ظهرت نتيجة ذلك، ففي أكتوبر ٩٠٨ م إنتصر هيمريوس Himerius إنتصاراً باهراً على الاسطول الإسلامي في بحر ايجة. وبعد عامين نزل في قبرص ومنها إتجه الى

الساحل الشامي وخرّب اللاذقية Laodicea. وفي عام ٩١١ م، جُهزَ أسطول قوي كان يقوده هيمريوس نفسه لمهاجة جزيرة كريت. وبعد قتال طويل فاشل أضطر الاسطول الامبراطوري إلى الانسحاب. وفي طريق العودة هاجمته في ربيع سنة ٩١٢ م - قطع من الاسطول الاسلامي بقيادة ليو الطرابلسي ودميان، وهو مرتد يوناني آخر، عند جزيرة خيوس Chios، حيث هزم البيزنطيون وتحطم أسطولهم. وهكذا ذهبت الجهود الحربية الجبارة والأموال الطائلة التي أنفقت في الاعداد للحملة بلاطائل.

الفصل الثامن

الأسرة المقدونية

٢- عصر قسطنطين السابع ورومانوس ليكابينوس

٩١٣ - ٩٥٩م

حكم الأمبراطور ليو السادس Leo VI الملقب بالحكيم الامبراطورية البيزنطية ما يزيد عن ربع قرن من الزمان ٨٨٦ ـ ٩١٢ م ، وانشغل لفترة طويلة من عهده تكاد تصل إلى حوالي عشرين عاماً بأن يكون لو وريث ذكر يخلفه على عرش الأمبراطورية.

وقد تزوج ليو للمرة الأولى في عام ٨٨٥ م ، من إحدى قريباته وهي ثيوفانو Theophano وأنجب طفلة هي يودوكيا Eudocia ولكنها ماتت في عام ٨٩٢ م ، ولحقت الأم بالابنة بعد خمس سنوات ، فقد توفيت ثيوفانو في العاشر من نوفمبر عام ٨٩٧م بعد زواج غير موفق.

وكان ليو قد أقام علاقة غير شرعية مع سيدة تدعى زوي Zoe ابنة الوزير ستليانوس زوتزس Stylianus Zautzes ، وعندما أراد ليو أن يتزوجها زواجاً شرعياً في عام ٨٩٨م اعترض بطريق القسطنطينية أنطوني كولياس Antony Kauleas (٨٩٣ ـ ٩٠١ م) على هذا الزواج ، ولكن كاهن البلاط رضخ للأمر وأقر زواج ليو ، وما لبثت زوي ستليانوس أن توفيت هي الأخرى في عام ٨٩٩ م ، تاركة طفلة تدعى أنا Anna ، كانت قد أنجبتها قبل زواجها الشرعي.

وشرع ليو في الزواج للمرة الثالثة ، وكانت زوجته هذه المرة هي يودوكيا بايانا Eudocia Baiana ، وهي فتاة من اقليم فريجيا Phrygia . ورغم أن

الزواج الثالث كان خرقاً لنظم الكنيسة والدولة ، وهي النظم التي أقرها ليو بنفسه ، إلا أنه أتم هذا الزواج بغية أن يكون له وريثاً ، ولكنه لم يوفق هذه المرة أيضاً ، فقد ماتت يودوكيا عقيب أول ولادة لها ومات طفلها بازيل Basil في الثاني عشر من ابريل عام ٩٠١ م .

وإذا كان ليو قد أقدم على الزواج بثالثة متحدياً قوانين الكنيسة والدولة ، فإنه تردد في الزواج برابعة حتى لا يزداد سخط رجال الدين عليه ، فأقام مع محظية هي زوي كاربونسينا Carbonsina أي زوي ذات العيون السوداء ، فأنجبت له في عام ٩٠٥م ولداً هو قسطنطين السابع الملقب بورفيروجنيتوس Constantine VII Porphyrogenitus ، أي المولود في الغرفة الأرجوانية . وهنا كان لزاماً على ليو أن يتزوجها زواجاً رسمياً ليصبح إبنه وريثاً للعرش ، واعترض البطريق نيقولا مستيقوس Nicholas Mysticus (٩٠١-٩٠٧ ، ٩١٢ - ٩٢٥م) على هذا الزواج ، وتأزم الأمر بين الكنيسة والقصر . وانتهت هذه الأزمة إلى حل وسط يقضي بأن يقوم البطريق بتعميد الطفل وأن يطرد ليو زوي من القصر .

وافق ليو على هذا الحل وتم تعميد قسطنطين في السادس من يناير عام ٩٠٦م في كنيسة آيا صوفيا St. Sophia في احتفال مهيب رغم معارضة بعض الشخصيات ، وخرجت زوي من القصر . ولكن ليو ما لبث أن أعاد زوي بعد ثلاثة أيام وتزوجها على يد الأسقف توماس Thomas ، ثم توّجها ليو بنفسه إمبراطورة ، وترتب على ذلك صراع عنيف بين ليو والكنيسة ، انتهى لصالح ليو بعدما عزل نيقولا مستيقوس .

وكلل ليو انتصاراته بتتويج ابنه قسطنطين أمبراطوراً في التاسع من يونيه عام ٩١١م ، وبذلك أصبح للدولة ثلاثة أباطرة هم ليو السادس وأخوه الكسندر Alexander (٩١٢ - ٩١٣م) وقسطنطين السابع ، وفي العام التالي مات ليو فتسلم الكسندر مقاليد الوصاية على قسطنطين الذي كان يبلغ من العمر سبع سنوات .

الكسندر ٩١٢ - ٩١٣ م

وما أن تسلم العم مقاليد السلطة حتى أحاط نفسه بحاشية هيأت له طرد الأمبراطورة زوي من القصر، وعزل البطريق يوثيموس Euthymius (٩٠٧ - ٩١٢ م)، وإعادة نيقولا مستيقوس إلى كرسي البطريكية، وترتب على الحادثة الأخيرة إدخال الكنيسة في صراع دام لبعض الوقت. كما أن الكسندر الذي ترك العنان لأهوائه ومجونه رفض دفع الجزية للبلغار طبقاً للمعاهدة التي أبرمها ليو السادس مع سيمون البلغاري Symeon (٨٩٣ - ٩٢٧ م) وكان لكل هذه الحوادث أسوأ الأثر على أحوال الأمبراطورية في الفترة اللاحقة.

ولم يعمر الكسندر طويلاً فقد مات بعد عام واحد في السادس من يونيه عام ٩١٣ م، بعد أن عين مجلس وصاية على الامبراطور القاصر قسطنطين السابع برئاسة البطريق نيقولا مستيقوس. واستمر البطريق في منصبه هذا طوال ست سنوات ٩١٣ - ٩١٩ م، نشب خلالها صراع شديد بين البطريق والامبراطورة زوي. واستغل هذا الصراع كل طامع في العرش، فقد حاول قسطنطين دوكاس Constantine Ducas في عام ٩١٣م ولكنه فشل، كما حاول ليو فوقاس Leo Phocas في أواخر فترة الوصاية ٩١٨ - ٩١٩م ولكنه فشل هو الآخر. وكانت المحاولة الثالثة بقيادة قائد البحرية رومانوس ليكابينوس Romanus Lecapenus (٩١٩ - ٩٤٤م) الذي احتل القصر الامبراطوري في مارس ٩١٩م، وسيطر على الموقف.

رومانوس ليكابينوس ٩١٩ - ٩٤٤م

ويعرف عن رومانوس بأنه كان رجل دولة وسياسياً من الطراز الأول، ولهذا تميز عهده بالاعتدال، كما أنه كان نشيطاً صبوراً يعمل على تنفيذ خططه بحرص ولا يحيد عن تحقيق أهدافه. وفوق هذا كله فقد كان رومانوس يمتلك صفات الحاكم الناجح وهي القدرة على اختيار أعوانه ومساعديه بحكمة

وتروي. وقد اكتشف في يوحنا كركواس John Curcuas، وهو أحد أبناء وطنه قائداً ممتازاً، كما وجد في ثيوفانيس Theophanes وزيراً لا نظير له.

وعرف رومانوس قدر نفسه فهو مغتصب للعرش، والامبراطور الشرعي لا زال موجوداً في القصر، وأنه ابن فلاح ومن عامة الشعب، وأنه غير مقبول لدى الطبقة الارستقراطية ذات التأثير القوي داخل الامبراطورية، وقد يعرضه كل هذا لمشاكل لا طائل له بها. وكان عليه أن يتصرف تصرفاً مقبولاً ومعقولاً لكي يضمن بقاءه على العرش ويقطع خط الرجعة على كل طامع في عرش الامبراطورية.

ولكي يدعم رومانوس مركزه داخل القصر بادر بتزويج الامبراطور قسطنطين السابع في مايو ٩١٩م من ابنته هلينا Helena وأصبح أب الامبراطور Basi-leopator، وفي الرابع والعشرين من سبتمبر عام ٩٢٠م رفعه الامبراطور قسطنطين إلى مرتبة قيصر Caesar، وفي السابع عشر من ديسمبر من العام نفسه أصبح الامبراطور الشريك Co-Emperor، ثم تزوج من الامبراطورة زوي بعد وفاة زوجته تيودورا Theodoar عام ٩٢٢م. وعلى هذه الصورة أصبح رومـانوس جزء من اسم الأسرة الحـاكمـة. ولقصور الأمـبراطور الشرعي قسطنطين أصبح رومانوس على رأس الامبراطورية.

ومما قوي من مركز رومانوس أن المجمع الديني الذي عقد في يوليو عام ٩٢٠م بحضور مندوبين عن بابا روما يوحنا العاشر John X ٩١٤ - ٩٢٨م لمناقشة موضوع زوجات ليو السادس الأربع كطلب البطريق نيقولا مستيقوس، أن هذا المجمع أعلن عدم شرعية الزواج الرابع، ولعل البطريق ارتاح كثيراً لهذا القرار الذي رد إليه اعتباره، ولكن رومانوس كان أكثر ارتياحاً لهذا القرار الذي يحط من هيبة الأسرة المقدونية ومن شرعية الامبراطور قسطنطين إلى حد ما. وظهر رومانوس من خلال هذا المجلس بأنه الرجل الذي أعاد للكنيسة قوتها بعد حوالي خمس عشرة سنة من المناقشات.

ولعل هذا كله ما دفع الكنيسة إلى الإعتراف برومانوس أمبراطوراً شرعياً، فعاد الوئام بين الكنيسة والأمبراطورية، وأعاد إلى الأذهان الصورة المثالية

التي يجب أن تسير عليها الامبراطورية ، وما دام الأمبراطور يساعد البطريق في رد اعتباره واستعادة حقوقه فعلى البطريق من جانبه أن يقف بدوره إلى جانب الأمبراطور في صراعه ضد أعدائه في الداخل والخارج . ومن الواضح أن تقوية مركز رومانوس يعود بالضرر على الأمبراطور الشرعي الذي توارى في الظل وأصبح إمبراطوراً ثانياً بعد رومانوس .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بالنسبة لقسطنطين السابع فقد أصبح ترتيبه الثالث في الأباطرة المشتركين في الحكم عندما توج رومانوس ابنه كريستوفر Christopher من زوجته الأولى تيودورا ، امبراطورياً مشاركاً ، وذلك في العشرين من مايو عام ٩٢١ م . وليس ذلك فحسب ، فقد تباعد ترتيب قسطنطين تدريجياً عندما توج رومانوس ولديه من زوجته الأولى أيضاً ، ستيفن Stephen وقسطنطين في الخامس والعشرين من عام ٩٢٤ م . أما الشقيق الرابع ثيوفلاكت Theophlact فقد انخرط في السلك السكني منذ طفولته وتولى عرش البطريكية (٩٣٣ - ٩٥٦ م) ، رغم حداثة سنه إذ كان يبلغ من العمر ستة عشر عاماً ، وتم تعيينه في الثاني من فبراير عام ٩٣٣ م ، بحضور مندوبين عن البابا يوحنا الحادي عشر .(٩٣١ - ٩٣٥ م)، وكان قصد رومانوس من وراء ذلك يتلخص في هدفين : الأول ، هو إضفاء الشرعية على ابنه ، والثاني أن تكون البطريكية أداة طيعة في يده . فقد كان البطريق الابن ينفذ رغبات والده الامبراطور دون مناقشة . وهكذا سيطر رومانوس على الامبراطورة زوي باعتباره زوجها ، وعلى الامبراطور قسطنطين السابع باعتباره حماه ، وعلى البطريك باعتباره والده .

ظل رومانوس يحكم الامبراطورية حتى السادس عشر من ديسمبر عام ٩٤٤ م ، وكانت نهايته غريبة مؤلمة ، فلقد تمتع رومانوس بمركز قوي داخل الإمبراطورية . ولكنه كان ضحية أولاده ، فقد مات كريستوفر في عام ٩٤١ م ، وعندما شعر ستيفن وقسطنطين أن السن قد تقدمت بوالديهما قلقا على مستقبلهما وأدركا أن بوفاته يؤول العرش الى قسطنطين السابع ، فقبض ستيفن

وقسطنطين ولدا رومانوس على أبيهما ونفياه إلى جزيرة بروت Prote ، وظل هناك حتى مات كراهب في الخامس عشر من يونيه عام ٩٤٨م ، كأحد الأباطرة العظام في التاريخ البيزنطي.

والحقيقة أن ولدي رومانوس لم يُحسنا التقدير ، فقد انتهز الإمبراطور قسطنطين الفرصة ووجد العون من البيزنطيين الذين وقفوا بجانبه وإعترفوا بحقه الشرعي في وراثة العرش ، في الوقت الذي لم يقف أحد بجوار ولدي رومانوس بعد موقفهما من أبيهما ، وفي السابع والعشرين من يناير عام ٩٤٥م تم اعتقال ستيفن وقسطنطين بأمر الإمبراطور قسطنطين السابع ، وأرسلا إلى المنفى حيث ماتا هناك ، وتسلم قسطنطين عرش الإمبراطورية ليحكم منفرداً حتى مماته عام ٩٥٩ .

إصلاحات رومانوس وقسطنطين

وإذا كان الأمبراطور رومانوس قد خطط على مستوى القصر والكنيسة ليكوّن أسرة حاكمة ، فإنه قد خطط أيضاً على المستوى الاجتماعي لدعم نفوذه ونفوذ أولاده من بعده ، وبدأ يعمل على حماية الأمبراطورية من خلال القوانين التي سنها لحماية صغار ملاك الأراضي الزراعية وضرب الارستقراطية الزراعية التي تشكل قوة بالغة الخطورة على مركزه وعلى مركز أولاده من بعده ، ومن جانب آخر فقد كان رومانوس ابن فلاح بسيط ، ولعل ما تعرضت له أسرته وأمثالها من جور الإقطاعيين الزراعيين هو الذي جعله يقاوم نفوذ هذه الطبقة، ويعمل على إضعافها . هذا بالإضافة الى أن الامبراطورية كانت تواجه في هذه المرحلة مشكلة بالغة الخطورة امتد أثرها إلى مركز الامبراطور فيا بعد ، وهي مشكلة شراء الاغنياء لأراضي الفقراء الذين ينزلون الى مرتبة الاتباع للارستقراطية الاقطاعية . ولم يقتصر أثر هذه المشكلة على زيادة نفوذ الاقطاعيين فحسب بل إلى موارد الدولة وقوتها العسكرية ، لأن الدولة كانت تعتمد اقتصادياً وعسكرياً على الملاك الصغار وعلى الأراضي التي تمنح للجنود ،

فالملاك الصغار يؤدون الضريبة للدولة، كما تمنح الأراضي للجنود في مقابل الخدمة العسكرية، ومعنى ذلك أن امتصاص الأغنياء للملكيات الصغيرة يؤدي بالتالي الى ضعف الدولة اقتصادياً وعسكرياً وسيطرة الارستقراطية الزراعية.

والتفت رومانوس الى هذا الخطر الذي يهدد مركزه ومركز أولاده من بعده، وكانت خطوته في هذا السبيل إصداره لمجموعة قوانين جديدة Novels في عام ٩٢٢م، ونصت هذه المجموعة على إعادة حق الجيران في التملك بالشفعة، وهي قوانين كان ليو السادس قد أرسى قواعدها. وحول موضوع انتقال أراضي صغار الملاك سواء بالبيع أو الايجار فإن القانون الجديد جعلها خمس طبقات يكون لها الحق بالترتيب في التملك أو الإيجار ليصعب انتقالها إلى أيدي كبار الملاك. فالطبقة الاولى هي الأقارب الذين يمتلكون أراضٍ مجاورة للأرض المراد بيعها أو تأجيرها، والثانية هي الملاك المجاورون من غير الأقارب، والثالثة هي أصحاب الأراضي التي تتداخل مع الأراضي المراد بيعها أو ايجارها. أما الرابعة فهي ملاك الاراضي الذين يدفعون ضرائب مماثلة. أما الخامسة والأخيرة فهي طبقة الملاك الآخرين من أصحاب الأراضي المجاورة، واشترط القانون عدم انتقال الأرض بالبيع أو الايجار إلا بعد عرضها على الطبقات الخمس أولاً حسب ترتيبها.

والواضح أن الغرض من هذا القانون هو حماية صغار الملاك ومنع استمرار ذوبان الملكيات الصغيرة، لذلك كان الخارج على هذا القانون يرغم على إعادة الاراضي غير التابعة للجند إلى أصحابها دون تعويض، فضلاً عن تقديم غرامة مالية إلى خزانة الدولة. أما الملكيات التابعة للجند فكان على من اشتراها إعادتها إلى اصحابها دون تعويض ولا يدفع غرامة مالية.

ورغم وجاهة هذا القانون من الناحية النظرية، إلا أنه لم ينفذ كما ينبغي لعدة عوامل، منها ان شتاء عام ٩٢٧ ـ ٩٢٨م كان قاسي البرودة وطويلاً على غير العادة، وتسبب ذلك في انتشار الجاعة والوباء لقلة المحصول، وترتب على

ذلك أن قدم الفلاحون الجائعون أراضيهم بثمن بخس لكبار الملاك، يضاف الى ذلك أن الطبقات الخمس التي أصبح لها الحق في الشراء قبل طبقة الاقطاعيين، كانت طبقات فقيرة وليس بوسعها الإيجار أو الشراء، ومعنى ذلك أن القانون كان تجميداً للبيع أو الايجار ولكنه اهتز أمام أول أزمة اقتصادية حلت بالبلاد.

ويبدو أن كل هذه الأسباب لم تكن خافية على الامبراطور رومانوس، لذلك اكتفى بتوجيه اللوم إلى الاغنياء لأنانيتهم وإن كان في اللوم قسوة ومرارة، وأصدر متجددات أخرى في عام ٩٣٤م، أي بعد المجاعة بست سنوات وزوال أثرها. وأعلن في المتجددات الأخيرة عدم شرعية كل ما أخذه الأغنياء من صغار الملاك، وخفف من صرامة قانون عام ٩٢٢م وأمر برد جميع الأراضي التي دُفع في شرائها مبلغاً يقل عن نصف ثمنها الحقيقي إلى أصحابها دون تعويض، أما إذا كان ما دفع للأرض ثمناً عادلاً، فتعاد الأرض إلى صاحبها الذي عليه رد ما دفع فيها خلال ثلاث سنوات. وورد في المتجددات عدم جواز امتلاك الأغنياء لأراضي صغار الفلاحين مستقبلاً وإلا الزموا بإعادتها مع دفع غرامة لخزانة الدولة.

ورغم هذا كله فإن الفلاحين الصغار لم يتجاوبوا مع حكومة الامبراطورية لوقوعهم تحت وطأة الضرائب الباهظة، واختاروا التبعية لكبار الملاك بمحض إرادتهم ليهربوا من تعسف جامعي الضرائب ويكونوا في أمن وحماية الملاك الكبار. وقد سبب ذلك إزعاجاً شديداً للامبراطور رومانوس وعمل بكل قوة على تنفيذ القانون، حتى لا تتأثر إيرادات الدولة التي كانت في أشد الحاجة إليها لمواجهة الأخطار الخارجية التي أحاطت بالجبهات الغربية والشرقية والشمالية.

وإن كانت هذه هي السياسة التي سار عليها الامبراطور رومانوس، فإن الامبراطور قسطنطين السابع عندما سيطر على مقاليد السلطة وعاد اليه حقه الشرعي عام ٩٤٥م، سار على نفس سياسة رومانوس، وأصدر في عام ٩٤٧م

قانوناً يقضي بعودة الأراضي التي انتقلت إلى كبار الملاك منذ توليته دون تعويض. ويبدو أن الأمر لم ينفذ كما ينبغي لذلك أصدر سلسلة من القوانين تلا بعضها البعض، وكلها تعمل على الحد من نفوذ كبار الملاك والاحتفاظ بالملكيات الصغيرة لأصحابها سواء من الفلاحين أم الجند، حتى لا تتأثر خزانة الدولة وتتمكن من تعبئة الجند لمواجهة مشاكلها الخارجية.

الصراع مع البلغار

وأخطر المشاكل الخارجية التي واجهت بيزنطة في هذه المرحلة كانت على الجبهة الغربية حيث البلغار. والصراع بين بيزنطة والبلغار صراع قديم تجسد في معركة بلجاروفيجون عام ٨٩٧ في عهد ليو السادس، وإنتهى مؤقتاً بشروط تقضي بأن تدفع بيزنطة جزية سنوية للبلغار. وتجدد الصراع مرة أخرى عام ٩٠٤ م وخمد بعقد صلح بين الطرفين، شرط دفع الجزية، وعاد مرة أخرى إلى الظهور عندما توفي ليو السادس عام ٩١٢م وتولى أمر الدولة الكسندر. وفي عهد الأخير وصلت سفارة بلغارية إلى القسطنطينية لتهنئة الإمبراطور وتطلب تجديد المعاهدة، ولكن الكسندر لم يحسن استقبال السفارة البلغارية ورفض بعناد أن تدفع الإمبراطورية أية مبالغ للبلغار. وكان ذلك سبباً في تجدد الصراع بين بيزنطة والبلغار.

وفي الرابع من يونيه عام ٩١٣م مات الكسندر تاركاً وراءه المشكلة البلغارية وخطورتها ليواجهها امبراطور قاصر هو قسطنطين السابع ومجلس وصاية، وهي مشكلة عجزت الأسرة المقدونية عن حلها حتى ذاك العهد، وقد تعرضنا لجانب منها أوجزناه في عهد ليو السادس. وواقع الأمر أن المشكلة البلغارية مرجعها أن جغرافية القسطنطينية كانت قد جعلتها ميناء عظيماً وأهم سوق في عالم العصور الوسطى، ولكن الطبيعة لم تعط مثل هذه الميزات للوادي الداخلي المنعزل بين الجبال المنخفضة حيث تقع بريسلاف Preslav عاصمة البلغار. واليوم لم يبق من هذه المدينة العظيمة التي كانت تحتل مساحة أكبر من أي مدينة أخرى من مدن البلقان سوى أطلال. وقد كشف عن القليل

من قصر سيمون الكبير، وبظهر منه فقط الأساس وعدد قليل من الأعمدة الرخام. وكانت تجارة بلغاريا مزدهرة بطبيعتها. والحرفة الرئيسية للبلاد هي الزراعة، وربما كان قمح بلغاريا وإنتاجها الحيواني هو الذي يغطي حاجة المدن البيزنطية وخاصة المدن الساحلية والعاصمة نفسها.

وكانت المناجم تعمل وكان إنتاجها يزيد من دخل المملكة ويرفعه كثيراً. وعلاوة على ذلك، فإن الأراضي التابعة لبلغاريا كانت تقع عبر طرق التجارة الرئيسية. وكانت التجارة النشطة التي تمر بين مناطق الاستبس الروسية والقسطنطينية تبحر على طول الشاطىء الغربي للبحر الأسود، ولكن بعضها كان يتخذ الطريق عبر بريسلاف وأدرنة أو بطريق الساحل، وبعضها يمر عبر دريسترا Dristra إلى سالونيك. وكان هناك طريق آخر للتجارة له نفس الأهمية تقريباً، وهو طريق بلغاريا، الذي يمر من وسط أوروبا ويدخل في شبه جزيرة البلقان عند بلغراد Belgrade.

ومنذ أيام ترفل Tervel ٧٠١ - ٧١٨م نظمت التجارة بين بلغاريا والامبراطورية بعناية فائقة، وأصبح للبلغار مصارف خاصة بهم في القسطنطينية وعلى الأرجح في حي القديس ماماس St. Mamas الذي يضم أيضاً المصارف الروسية حيث يأخذون بضائعهم كي يوزعوها على تجار الأمبراطورية. وفي عام ٨٩٤م دبرت مؤامرة في البلاط الامبراطوري من إثنين من التجار اليونانيين من أجل ضمان إحتكار تجارة بلغاريا. ونتيجة لذلك فرضت رسوم باهظة على البضائع، وتم نقل المصارف البلغارية إلى سالونيك حيث يمكنهما التلاعب بعيداً عن العاصمة. وكان من الطبيعي أن يؤدي كل ذلك الى غضب البلغار الذين تقدموا بالشكوى إلى سيمون الذي أرسل على الفور نوابه إلى الامبراطورية، ولكن التجار اليونانيين المتلاعبين كانوا تحت حماية ستليانوس - والد زوجة الإمبراطور ليو - ذو النفوذ القوي. ولهذا السبب تجاهل ليو السادس سفارة سيمون وظلت المشكلة قائمة. وعلى ذلك قرر سيمون اللجوء إلى السلاح، وأعد العدة لغزو تراقيه.

وكانت الجيوش الامبراطورية الرئيسية بقيادة نقفور فوقاس - بطل الحروب الايطالية - بعيدة في الشرق تحارب المسلمين. ولم يكن أمام ليو إلا ارسال قوات غير مدربة لمواجهة الغزاة. وبالرغم من كثرة عددهم فقد سحقهم سيمون وجدع أنوف الأسرى. وعند ذلك تقدم البلغار عبر تراقيه متوجهين إلى العاصمة ذاتها.

لجأ ليو بعد ذلك إلى الدبلوماسية، فأرسل سفارة الى العاصمة الألمانية في راتسبون Ratisbon حيث الملك أرنولف Arnulf ٨٨٧ - ٨٩٩ م، ولكن مبعوثيه لم يستقبلوا إستقبالا حسناً، لذلك لجأ الى خطة أخرى. فمنذ أيام أمورتاج Omartag ٨١٤ - ٨٣١م، إستقر الماجيار البدائيون في الإستبس Steppes على الحدود البلغارية على نهر الدنيستر Dniester، أحد فروع الدانوب بالقرب من البحر الأسود. وفي ٨٩٥م أرسل الإمبراطور ليو البطريك نيقتاس سكليروس Nicetas Sclerus إلى مواطن إستقرار الماجيار. وطلب من رؤساء الماجيار وعلى رأسهم أرباد Arpad وكورسون Korson غزو بلغاريا، ووعد بارسال السفن التي تنقلهم عبر الدانوب. ووافق الماجيار على ذلك لأنهم كانوا يشعرون بضغط على حدودهم الشرقية من قِبل شعب أكثر قوة وهم البجناكية. وهنا استدعي ليو قائده نقفور فوقاس من آسيا، ووضع الاسطول الامبراطوري تحت قيادة الأدميرال يوستاسيوس Eustathius. وكان القصد من هذه الاستعدادات الأخيرة هو إرهاب البلغار. وبينما كان سيمون على وشك اللقاء بالماجبار، كان ليو يفضل السلام وعدم الحرب، لأن نزعته الدينية الشديدة جعلته يكره محاربة إخوته في الدين. لذلك أرسل وزير خزانته قسطنطنياكوس Constantinacius لتحذير سيمون من مغبة الغزو الذي يوشك الماجيار القيام به ويعرض عليه معاهدة سلام. ولكن سيمون كان متشككاً، فقد تعلم في القسطنطينية مكر ودهاء الدبلوماسبة الامبراطورية، وربما لم يقتنع بما قيل له حول غزو الماجيار لبلاده، فألقى سيمون القبض على قسطنطيناكوس رسول الامبراطور.

وسرعان ما أحاط الخطر بسيمون، بينما كان يعد العدة للقاء نقفور فوقاس في تراقية، جاءت الأنباء بأن الماجيار قد وصلوا فعلا فأسرع شمالاً للقائهم، ولكنه هزم. وفي حالة من اليأس وفقدان الأمل بالنصر تقهقر إلى قلعة دريسترا Dristra المنيعة، وواصل الماجيار تقدمهم وهم ينهبون ويدمرون. وعند أبواب العاصمة بريسلاف إلتقوا بنقفور فوقاس وباعوا له الأسرى البلغار بالآلاف، ويئس البلغار من النجاة. وأنقذتهم من هذه الحالة حيل سيمون الدبلوماسية الخادعة. فعندما تأكد من خطورة موقفه أرسل الأدميرال يوستاثيوس يطلب الصلح من الإمبراطور، واستجاب ليو مسروراً. وأمر فوقاس ويوستاثيوس بالانسحاب، وأرسل الإمبراطور الماجستر ليو للمفاوضة بشأن شروط الصلح، وكان هذا ما أراده سيمون. وعند وصول الماجستر ليو اعتقله في قلعة موندراجا Mundraga، ثم تحرك لمهاجمة الماجيار. ونجح في هزيمتهم في معركة كبرى وأرغمهم على الإنسحاب الى الخلف عبر الدانوب. وكان القتال دامياً حتى أن البلغار فقدوا عشرين ألف جندي، وبعد انتصاره على الماجيار أخبر سيمون الماجستر ليو أن شروطه هي إطلاق سراح الأسرى البلغار الذين باعهم الماجيار مؤخراً إلى نقفور فوقاس. أما السفير البائس الذي لم يكن في مقدوره الاتصال بحكومته فقد عاد الى القسطنطينية مصطحباً معه صديقاً مقرباً لسيمون هو ثيودور Theodore ليرى ما يمكن عمله بهذا الشأن.

ورغب ليو في السلام، وأعد العدة لإطلاق سراح الأسرى، فهو لم يتحمس أبداً للحرب بعدما خسر خدمات نقفور فوقاس الذي كان ضحية جديدة من ضحايا حماه ستليانوس. وإنتظر سيمون حتى يعود إليه جميع الأسرى، ثم أعلن أن بعض الأسرى لم يعودوا، وظهر مرة أخرى في كامل عدته وعتاده على حدود تراقية. وكان القائد الامبراطوري الجديد كاتاكالون Catacalon تنقصه مواهب فوقاس القتالية، وقاد الجيش الامبراطوري الرئيسي للقاء سيمون قرب بلجاروفيجون عام ٨٩٧م وهزم الجيش البيزنطي هزيمة ساحقة وقتل القائد الثاني ثيودوسيوس Theoudosius، وفر كاتاكالون بصعوبة بعدد قليل من رجاله، وكانت المعركة قاسية حتى أن أحد أفراد

الجيش الامبراطوري قرر إعتزال العالم لتلقي الغبطة والسعادة تحت اسم لوقا العمودي Luke Sylite ، ومرة أخرى أصبح سيمون سيد الموقف.

وكان سيمون خبيثاً ماكراً متعجرفاً متشككاً ، ويبدو أن خصومه كانوا متفوقين عليه في الدهاء والمراوغة ، ولذلك كان يرتاب في كل بادرة تبدو له خوفاً من أن تحمل في طياتها معاني سيئة قد لا يراها لأول وهلة. وكانت رسائله تحتوي على عبارات تسيء الى الامبراطور. وفي نهاية الأمر وافق ليو السادس على أن يدفع جزية سنوية لسيمون ربما لم تكن كبيرة ، لكننا لا نعرف مقدارها ، الى البلاط البلغاري.

وكانت السنوات التي أعقبت الحرب قد مرت في سلام يكفي لأن يوجه سيمون إهتمامه إلى تزيين بريسلاف العاصمة. وفي ازدهار الأدب البلغاري الذي لقي الحماية والتشجيع. ولكن العلاقات بين بلغاريا والامبراطورية ظلت يشوبها التوتر ، وكان ذلك يرجع في الأساس الى الأعمال العدائية التي قامت بها بلغاريا في مقدونيا. فقد أرغم البلغار المدن اليونانية في سهل مقدونيا على آداء الجزية ، واعتادوا على تخريب مزروعاتهم إذ لم يمتثلوا إلى دفع الجزية.

وفي عام ٩٠٤م إنقض القائد العربي ليو الطرابلسي فجأة على مدينة سالونيك. وكان مشهوراً من قبل بغاراته المدمرة على سواحل بحر إيجه. ولم يكن هناك وقت لتنظيم الدفاع المناسب عن المدينة التي دخلها المسلمون ونهبوها ، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها أو أخذوهم أسرى. وقد تصادف في ذلك الوقت وجود إثنين سن كبار رجال الدولة البيزنطية الرسميين يرون في طريقهم بسالونيك: الأول كان يحمل ذهباً الى القوات الموجودة في صقلية ، والثاني يحمل هو الآخر ذهباً الى بلغاريا وهو عبارة عن الجزية المفروضة على المدن المقدونية ، وفي أثناء الكارثة التي حلّت بسالونيك أخفيا ما معهما من ذهب. وقد وقع أحدهما أسيراً في يد المسلمين الذين أرغموه على الاعتراف والكشف عن المكان الذي أخفى فيه الذهب؛ ولكنه رفض أن يخون الأمانة فقتلوه. أما الثاني فكان أقل بطولة ، ولكنه كان حكيماً فقدم الكنز بأكمله إلى

ليو الطرابلسي بشرط أن يتوقف عن تدمير المدينة ، وأن يبحر عن المدينة . ونفذت هذه الشروط بنجاح ، ولكن البلغار فقدوا الجزية . وإنتقاماً لذلك دخل البلغار في السهول وبدأوا في الاستقرار هناك . وكان السكان اليونانيون قد ضعفوا وقلّ عددهم بسبب ما عانوه من الكارثة المروعة التي حلّت بهم فأرسلوا بشكواهم إلى القسطنطينية .

ومرة أخرى وصلت سفارة إلى البلاط البلغاري للاحتجاج على ما فعل البلغار في مقدونيا . ولم يكن سيمون راغباً في الحرب في هذا الوقت بالذات ، ولذلك وافق على إجلاء أتباعه عن مقدونبا ولكنه أصر على تحديد حديد للحدود ؛ وكان خط الحدود الجديد داخلا في سالونيك نفسها لمسافة خمسة عشرة ميلا . وكان ضبط النفس من جانب سيمون يرجع بالدرجة الأولى إلى تأثير أبيه ، ولكنه لم يلبث أن فقد هذا التأثير والنصيحة إلى الأبد ، ففي عام ٩٠٧ م توفي بوريس ولم يعرف بوفاته أحد خارج حدود بلغاريا .

وفي تلك الأثناء كان سيمون يرقب بفضول الأحداث التي تجري في بلاط القسطنطينية . ذلك أن ليو الحكيم لم يكن موفقاً أبداً في زيجاته . وظلّ الحال متوتراً بين الامبراطور والبطريك حتى وفاة الأول في الحادي عشر من مايو عام ٩١٢ م .

وبعد وفاة الامبراطور ليو خلفه أخوه الكسندر على عرش الامبراطورية ، وفي الحال إنقلب كل شيء رأساً على عقب ، وتبدلت الأحوال داخل الدولة . فقد عاد نيقولا من المنفى وأرسل يوثيميوس الى المنفى بدلاً منه ؛ وخلف الشهيد الجديد الشهيد القديم مما جعل الصراع أشد مرارة وقسوة واحتداماً . وانسحبت الامبراطورة زوي من القصر بعد أن أنقذت إبنها الوحيد بصعوبة من الخصي بواسطة بعض الأصدقاء الذين تعللوا بضعف صحته . وإستغنت الحكومة الجديدة عن كل وزراء الحكم السابق ومات بعضهم في السجن . وفي أثناء ذلك كان الكسندر غارقاً في اللهو والشراب والحياة الفاسدة التي كان يحياها مع المقربين اليه . وبعد أشهر قليلة من اعتلاء الكسندر العرش وصلت

سفارة بلغارية الى القسطنطينية لتهنىء الامبراطور الجديد وتسال عن تجديد المعاهدة التي تم عقدها مع ليو. وأمر الكسندر بمثول السفراء بين يديه فور خروجه من مجلس للسكر والعربدة، وفي غمرة سكره، وباستخفاف من لعبت الخمر برأسه طرد السفراء ورفض باقتضاب وجفاء أن يؤدي أي جزية، وعاد السفراء الى سيمون ليخبروه عن الطريقة التي استقبلهم بها الامبراطور فتضايق سيمون أشد الضيق، وأصبح لديه سبباً وجيهاً لنقض الصلح

ولم تكن الامبراطورية تستطيع مقاومته والوقوف في وجهه وعلى رأسها ذلك السكير. وبدأ سيمون يعد العدة للحرب ولم تكن هناك حاجة إلى الاسراع؛ ذلك أن الامبراطورية كانت تسير من سيء إلى أسوأ وتوفي الكسندر في الرابع من يونيه ٩١٣م تاركاً الحكومة البيزنطية بين يدي مجلس الوصاية برئاسة البطريق نيقولا، وكان ذلك كله في صالح سيمون فقد كان نيقولا عنيداً لا يخاف حتى الامبراطور، ولكنه كان دائماً يتطلع بشوق إلى عقد الصلح مع سيمون. فهو لم ينس أبداً أنه بطريك وأنه الأب الروحي للكنيسة البلغارية، ولهذا كان عليه أن يعمل على مسالمة الملك البلغاري وأن يبعده عن فكرة الاستقلال وعن روما أو كنيسة روما.

وفي أغسطس عام ٩١٣م، تقدم سيمون بكل جيشه وبكامل عدته وغزا الامبراطورية، وحاول نيقولا بلا جدوى أن يقنعه بالعدول عن مهاجمة القسطنطينية. وسار سيمون بسرعة كبيرة خلال تراقيه ثم ظهر أمام القسطنطينية وإنتشر جيشه الكبير محاصراً العاصمة على طول خط الأسوار من البر، ومن القرن الذهبي إلى مرمرة ولكن منظر التحصينات الهائلة للمدينة أفزعه، وتحقق من مناعتها وحصانتها. وهنا قرر الدخول في مفاوضات الصلح. وكانت سعادة نيقولا بذلك لا حد لها، وتبع ذلك سلسلة من اللقاءات الودية. وفي البداية أرسل سيمون السفير ثيودور إلى المدينة لمقابلة نواب الامبراطور. وبعد ذلك التقى النواب والإمبراطور الصغير بأبناء سيمون في قصر بلاخرناي Blachernae للترفيه عنهم وتسليتهم. وأخيراً ذهب نيقولا بنفسه إلى

خارج العاصمة لزيارة سيمون وقوبل بجفاوة وإحترام بالغين. وفي تلك الأثناء نوقشت شروط الصلح وكان سيمون معتدلا في مطالبه. وقد تسلم المتأخرات من الجزية بالاضافة الى هدايا كثيرة عظيمة، كما أخذ وعداً من الامبراطور الصغير بأن يتزوج إحدى بناته، ثم كرّ عائداً الى بلغاريا.

وتحتاج هذه الشروط الى قليل من التوضيح، فان المفتاح لفهمها يكمن في حقيقة واحدة، وهي أن سيمون كان يهدف إلى أن يصبح امبراطوراً. ومن خلال هذا الزواج الذي إقترحه كان سيوجد لنفسه موطىء قدم في القصر. ولم تكن الفكرة خيالية جداً كما يبدو، فقد كانت الامبراطورية لا تزال حلماً عالمياً. فبعد أن إنتهت الأسرة الامبراطورية إلى غلام معتل الصحة كان المستقبل مرهون بأقوى شخص يظهر بالقرب منه، ولا يوجد شخص أقوى من سيمون من خلال إبنته التي ستكون سيدة القصر وبمساعدة صديقه البطريك نيقولا، وجيوشه الجرارة المستعدة دائماً للانقضاض على تراقية في أية لحظة؛ فاذا ما أصبحت القسطنطينية ملكه، امتلك الامبراطورية، لأن القسطنطينية هي الامبراطورية.

ولكن هذه الأحلام كانت عقيمة، ذلك أن سيمون أخطأ التقدير؛ فهو لم يعرف مدى ثبات حكومة البطريك، وكان نيقولا وصياً على طفل لا يكاد يعرف حقه الشرعي كامبراطور، ولم يكن البطريك إلا زعيماً لحزب الأمبراطور. أما الحزب الآخر فكان يأمل في وصي على الأمبراطور الطفل أكثر قوة وهو ما كان منطقياً. فالامبراطورة زوي والدة الامبراطور قد اعتزلت في الدير ضد رغبتها، ولكن أنصارها كثيرون، ولم يلبث أعضاء مجلس الوصاية زملاء نيقولا أن ضاقوا ذرعاً به بسبب تسلطه، فانضموا إلى زوي. ولم يكد سيمون يصل إلى بلغاريا حتى كانت زوي قد تخلت عن عزلتها وتولت بنفسها السلطة، ولم تهتم زوي بشيء مما كان يشغل بال نيقولا فلم يعد يهمها أن يفقد نيقولا زعامته الاسمية على كنيسة بلغاريا. وأصرت على ألا يتزوج ولدها الوحيد من فتاة بربرية. وظل نيقولا محتفظاً بكرسي البطريكية، ولكنه لم يعد

له أي نفوذ أو صوت في الحكومة. وضاعت كل آمال سيمون، والتجأ إلى السلاح مرة أخرى، وكتب إليه نيقولا يذكره بوعده بالمحافظة على السلام ولكن سيمون اعتبر نفسه في حل من تعهداته، وتناست الحكومة الامبراطورية عن قصد موضوع زواج الامبراطور من ابنه سيمون.

وفي سبتمبر عام ٩١٤م ظهرت القوات البلغارية أمام أدرنة وإضطر قائد القلعة الأرمني إلى تسليمها لهم. ولكن الامبراطورة كانت شديد المراس، وفي الحال أرسلت الرجال والمال لاستردادها. ووجد البلغار أن من الصواب أن ينسحبوا من القلعة. وبعد هذا التصرف من جانب الإمبراطورة، إنتظر سيمون لفترة وجيزة. والتاريخ غامض فيما يختص بالعامين التاليين؛ ولم يقم سيمون خلالها بأي عمل عدائي ضد القسطنطينية. ولكن في عام ٩١٦م إن لم يكن في ٩١٥م، نشطت قواته في الإغارة على الولايات الغربية القريبة من ديراكيوم وسالونيك،وفي ٩١٦م توغلوا في الأراضي البيزنطية - حتى خليج كورنثه - وتوقفوا مؤقتاً في الضواحي المجاورة لمدة تقرب من العشر سنوات، وكان وجودهم مقلقاً لراحة بيزنطة.

وبحلول عام ٩١٧م عاد سيمون مرة أخرى إلى حشد جيشه على حدود تراقية، وحاول الحصول على مساعدة البجناكية، ولكن سفراؤه فشلوا في مهمتهم بسبب الزيادة التي دفعها المندوب الإمبراطوري يوحنا بوجاس Bogas للجناكية، وتحت هذه الظروف قررت الإمبراطورية أن تبدأ بالضربة الأولى. ويبدو أنها اختارت الوقت الملائم لذلك، فقد كانت منتشية بانتصارات قواتها في أرمينيه وإيطاليا، وجاءت الأنباء بأن البجناكية يستعدون لغزو بلغاريا من الشمال، وأبحر أسطول بيزنطي إلى الدانوب لنقل انبجناكية، وتقدم الجيش الإمبراطوري بكامله خلال تراقية إلى الحدود وأخذ سيمون على غرة، وكان البجناكية أشد من الماجيار. وفقد سيمون الأمل في استعمال سياسة المراوغة التي إستخدمها لعشرين عاماً مضت، ولكن الحظ حالفه بطريقة غير متوقعة، فقد وصل يوخنا بوجاس إلى الدانوب وهو يقود قبائل البجناكية، ولكنه

تشاجر هناك مع الأدميرال الإمبراطوري رومانوس ليكابينوس، ورفض رومانوس نقل البجناكية، وعندما أقلقهم التأخير؛ عادوا إلى موطنهم. وإرتاب الرأي المعاصر في أن رومانوس كان خائناً.

وبعد أن إستراح سيمون من خطر البجناكية كان بوسعه أن يواجه المستقبل بثقة أكبر، وربما كان قد فقد أراضيه عبر الدانوب ولكن ذلك كانت له نتائج تافهة؛ ذلك أن الدانوب نفسه كان يشكل حداً أكثر أماناً. وما زال جيش الإمبراطورية بأكمله قوة لا يمكن إهمالها أو التغاضي عن خطرها. ولكن الحظ كان حليفاً لسيمون مرة أخرى، ولم تعرف الامبراطورة أن تختار قائداً موهوباً للجيش. وكان قائد جيشها هذه المرة ليو فوقاس، ابن الجندي الهمام نقفور، ولكنه لم يحمل قدرات ومواهب والده الحربية. وقد وضعت الخطة الحربية لحملته بعناية. وبعد مأساة الهزيمة في الدانوب أبحر الاسطول الامبراطوري الى مسمبريا Mesembria التي كانت لا تزال تحت سلطان الامبراطورية. وقاد ليو فوقاس جيشه إلى هناك آملا في أن يتلقى المدد والعون قبل أن يتحرك إلى بريسلاف.

وانتظر سيمون على التلال، حتى تسنح له فرصة مواتية. وجاءت هذه الفرصة عندما حاصرت الجيوش الامبراطورية رأس خليج بورجاس Gulf of Burgas، وتوجهت إلى الشمال الغربي تجاه مسمبريا. وهناك يجري نهر صغير يسمى أخيليوس Achelous بالقرب من مدينة أنخيالوس Anchialus. وفي العشرين من أغسطس توقف فوقاس هناك تاركاً قواته تنتشر بدون نظام، وفجأة إنقض سيمون من التلال على الجيش الذي لم يتوقع الهجوم من هذه الناحية. أما ما حدث بالضبط بعد ذلك فلا أحد يعرف سوى أنه كان هناك هلع عظيم، وقتل معظم أفراد الجيش الإمبراطوري. وظلت عظام الموتى على أرض المعركة شاهداً على ذلك لمدة نصف قرن. ولم يصل إلى مسمبريا سوى القائد فوقاس وعدد قليل من الذين نجوا من هذه المذبحة. وفرّ عدد كبير من الجنود إلى الشاطىء، ولكن الأسطول الذي كان يجب أن يكون في إنتظارهم

كان قد أبحر إلى البسفور. وأيقظ هذا النصر كل طموح سيمون، فجاء بالبر عبر تراقية متجهاً إلى العاصمة.

وجمعت زوي جيشاً آخر، ولكنها وضعته مرة أخرى تحت قيادة ليو فوقاس، وقادة فوقاس الى كارثة ثانية. فبينما كان الجيش معسكراً في في ضواحي مدينة كاتاسيرتاي Catasyrtae هاجمه البلغار وسحقوه سحقاً تاماً. وبعد هذا النصر الثاني كان سيمون يستطيع أن يتقدم لمهاجمة القسطنطينية، لكنه لم يجرؤ على ذلك. وكان البيزنطيون يثقون ثقة عمياء في مناعة أسوار مدينتهم، وكانت المفاوضات بين الطرفين مستحيلة، فقد طلب سيمون ما لا يمكن أن توافق زوي عليه وهو زواج الامبراطور من إبنته. وبالرغم من أن نيقولا لم يكن راضياً عن سياسة زوي، فقد اعتبر شروط سيمون غير معقولة. وعاد سيمون ليقضي فصل الشتاء في بلغاريا.

ومر عام ٩١٨م حزيناً موحشاً في القسطنطينية، وأبعدت زوي عن السلطة. وكان لزوي بصفة دائمة أعداء كثيرون، كما أن الكوارث التي حلت بها أفقدتها حب الجماهير. وكان هناك محاولات لإقصائها عن عرشها، وكانت تلك فرصة ذهبية لكي يظهر سيمون أمام القسطنطينية. وفي وسط هذا الجو من الخيانة والمؤامرات كان بوسعه أن يجد ثغرة يدخل بها إلى المدينة، ولكن سيمون لم يأت.

وبالرغم من فشل زوي المتكرر فقد حققت إنتصاراً واحداً كبيراً، وهو أنها شغلت سيمون بمشكلة في مكان آخر. فمنذ نصف قرن عاشت بلغاريا مع جيرانها من الصرب. وخلال هذه السنوات إعتنقت صربيا الديانة المسيحية ونظرت إلى بلغاريا كمصدر أصيل لثقافتها وحضارتها. وفي عهد الأمير الصربي بطرس Peter ٨٩٢ - ٩١٧م تمكنت صربيا من زيادة رقعة أراضيها ووصلت إلى قدر معقول من الرخاء. وفي عام ٩١٧م بعد معركة أنخيالوس مباشرة، وصلت سفارة الإمبراطورة زوي إلى بلاط بطرس وأوضحت له أن بلغاريا تشكل خطراً عظيماً عليهم. واقتنع بطرس بوجهة نظر السفراء. وأخذ يعد

العدة لمهاجمة سيمون هجوماً غير متوقع من الخلف.

ولكن بطرس كان له منافسوه، فقد أقلق نمو صربيا وتقدمها الامارات البحرية التي كانت في ذلك الوقت تحت زعامة ميخائيل أمير زاكلوميا Zachlumia،وهو قرصان قوى الشكيمة وقاطع طريق. وكانت مملكته تمتد على طول شاطىء البحر الادرياتي الى شمال راجوزة Ragusa.. وكان ميخائيل قد أظهر بالفعل عداوته للامبراطورية بأن أسر ابن دوق البندقية أثناء عودته من زيارة رسمية للقسطنطينية، وأرسله إلى سيمون الذي أخذ من البنادقة الفدية لاطلاق سراحه،وجاءت أنباء الحلف بين بيزنطة وبطرس أمير صربيا الى ميخائيل فأبلغها بدوره الى سيمون. وقرر سيمون أن يبدأ بالضربة الأولى، وبناء على ذلك وفي سنة ٩١٨م غزا قائداه مارمايم Marmaem وسيجرتيز Sigritze صربيا ونجحا في التغلب عليها. وعندما جاء بطرس لطلب الصلح منهم قبضوا عليه وحملوه إلى بلغاريا، ثم نَصبوا مكانه ابن عمه بولس Paul ٩١٧ - ٩٢٠م الذي كان ضيفاً على بلاط بلغاريا لوقت طويل.

أما عن المدة التي إستغرقتها حرب الصرب هذه فلا نستطيع تحديدها بالضبط ولكن يبدو أنها إحتلت كل موسم الغزو في سنة ٩١٨م. ولما كان سيمون مشغولاً في حرب الصرب فلم يستطع أن يفعل شيئاً ضد القسطنطينية. وربما كان أيضاً يَلقى المتاعب من جانب البجناكية، ومن المحتمل أن أحداً لم يخبره بحقيقة الحالة السيئة التي وصلت إليها الأمور في البلاط الإمبراطوري. ومن المؤكد أنه لم يتقدم بجيوشه إلى القسطنطينية إلا في العام التالي. وإستولى رومانوس ليكابنوس على السلطة، وفي مارس ٩١٩م أحكم قبضته على القصر، وفي أبريل تزوجت ابنته هيلينا من الإمبراطور الشاب، وحمل رومانوس لقب أبي الملك Basileopator. وفي سبتمبر اتخذ لقب قيصر، وقبل نهاية هذا العام أصبح إمبراطوراً. ولم يغنم سيمون شيئاً من إنتصاراته كلها. أما رومانوس ليكابيوس، فقد وصل إلى العرش متبعاً نفس الخطوات التي كان سيمون يحلم بأن يسلكها.

وكان من الأفضل لبلغاريا أن يعترف سيمون بفشله ويسعى إلى عقد الصلح وإقرار السلام بأفضل شروط ممكنة، وكان يسعد رومانوس أن يتقدم بأفضل الشروط. فكان تواقاً إلى إقرار السلام من أجل أن يتفرغ لتقوية مركزه في الامبراطورية. ولكن سيمون لم يعد يُظهر الإعتدال الذي إمتاز به في شبابه. فقد تسلط عليه الطموح الذي غذته الانتصارات، وأفسد عليه رأيه كسياسي ورجل دولة، واشتد غضبه، وصمم على الثأر لنفسه من هذا المغتصب. وفي نهاية صيف ٩١٩م غزا سيمون تراقية مرة أخرى وتوغل الى الهلسبونت وعسكر في مواجهة لامباساكوس Lampsacus، ثم تقدم البلغار دون مقاومة، وبعد أن دمروا المزارع والقرى عادوا لقضاء الشتاء في بلغاريا.

وخلال عام ٩٢٠م كتب نيقولا رسائل كثيرة إلى بلاط بريسلاف، ولم يكتب لسيمون فقط بل كتب أيضاً إلى رئيس الاساقفة البلغاري، وإلى رئيس وزراء سيمون يدعوهم إلى السلام. وفي شهر يوليه كتب رسالة لسيمون يخبره بنهاية الشقاق الذي أحدثه الزواج الرابع لليو السادس. وبمهارة، إدعى أن سيمون سيكون مسروراً عندما يسمع بالإنتصار الذي حققته حكومة رومانوس. وأشار إلى أن سياسة رومانوس تختلف عن سياسة الحكومة السابقة.

ولم يحاول سيمون غزو تراقية في هذه السنة، فقد كانت قواته مشغولة بالحرب في صربيا، فقد أرسل رومانوس الأمير الصربي زكريا الذي كان لاجئاً في القسطنطينية، ليثير المتاعب ضد العميل البلغاري الأمير بولس. وهزم زكريا بسبب الغزو البلغاري، وأسر وحمل أسيراً الى بلغاريا. وانتهز رومانوس فرصة انشغال سيمون بالحرب مع الصرب، وحدث رومانوس نفسه بغزو بلغاريا ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. وفي سنة ٩٢١م، بعد أن كتب سيمون إلى نيقولا يخبره بأن شروطه تضمنت عزل رومانوس، تقدم سيمون مرة أخرى قاصداً مهاجمة القسطنطينية. وفي كاتاسيرتاي المسرح الذي شهد إنتصاره قبل أربع سنوات فاجأته الجيوش الإمبراطورية بقيادة ميخائيل مورووليون Michael Moroleon. ولم تكن خسائر البلغار كبيرة ولكنهم قرروا

الانسحاب إلى هرقلية وسلبمبريا Selymbria . ورداً على رسالة أخيرة لسيمون عرض نيفولا عليه أن يخرج للقائه هناك، ولكن سيمون لم يشجعه على ذلك، وصمم على عزل رومانوس. وأكد أن ذلك أمر سهل لا يساوي عنده الجنود البلغار الذين ماتوا في أرض المعركة. وبعد أن أمضى سيمون الصيف في تراقية عاد لقضاء الشتاء في بلاده.

وفي سنة ٩٢٢م ظهر سيمون من جديد بجوار القسطنطينية، وكان رومانوس قلقاً من أجل إنقاذ قصره في بجاي Pagae على البسفور من النهب والتدمير، فأرسل حامية لحراسة القصر. ولما كان القصر قائماً في وادٍ ضيق هناك نجح البلغار في هزيمة الحامية وذبحوا كل أفرادها وألقوهم في البحر. وبعد هذا النصر أقام سيمون في تراقية، وفي نهاية هذا العام أنقض البيزنطيون عليه ودمروا معسكره، ومرة أخرى كان عليه أن ينسحب.

وخلال الشتاء كانت رسائله أكثر ميلا للسلام وطلب من نيقولا أن يرسل إليه سفيراً للتفاوض. ولم يكن سيمون صادق النيّة في السلام، وعندما طلب ذلك كان يعيد تسليح جيشه. وفي ربيع ٩٢٣م كان مستعداً مرة أخرى للقتال وحاصر أدرنة. ودافع حاكم القلعة موروليون بشجاعة عنها. ولما لم يصله المدد من القسطنطينية، أجبر على التسليم.

وهناك ترك سيمون العنان لحقده وإنتقامه من الامبراطورية وقتل قائد الحامية، ولكنه لم يستطع التقدم أبعد من ذلك. فقد عادت المتاعب مرة أخرى من جانب صربيا. وكان يسهل دائماً على الساسة البيزنطيين أن يعرفوا أنه من غير الطبيعي أن يقوم تحالف بين صربيا وبلغاريا. وتأكد الامير بولس من هذه الحقيقة، وفشلت محاولته للتخلص من وصاية بلغاريا، وعزلت جيوش سيمون بولس ونصبت مكانه الامير زكريا. وتملكت الحيرة سيمون وجعلته أكثر ميلاً إلى التفاوض، بينما شعر أهالي القسطنطينية بالسرور والتفاؤل.

وإتخذ رومانوس شيئاً فشيئاً سياسة جديدة بعد أن ظهر له بوضوح فشله في محاولة تخليص أدرنة، فقد رأى أن يترك سيمون يغزو تراقية كما يحلو له،

ويتحصن وراء أسوار القسطنطينية آملاً في أن طول الحصار سوف ينهك قوات سيمون. وفي تلك الاثناء كان الجيش البيزنطي الرئيسي يحارب بنجاح في الشرق، ولذلك كان عليه أن يستخدم القوات الأجنبية ضد سيمون، والحقيقة أن الصرب كانوا يهزمون دائماً، ولكن رومانوس كان يتفاوض مع كل عامل من عوامل النجاح، فتفاوض مع الروس والبجناكية والماجيار.

وبعد ما هزم سيمون صربيا تحول كما هي العادة إلى القسطنطينية وطلب أن ترسل له الإمبراطورية سفيراً، ولكنه أوضح تمسكه بشروطه القديمة. وهنا جرب نيقولا طريقة جديدة، فمنذ سقوط زوي كانت العلاقات بين روما والقسطنطينية متوترة، ولكن في عام ٩٢٣م أرسل البابا مبعوثين هما ثيوفلاكت وكاروس Carus إلى القسطنطينية، ثم إلى بلغاريا للعمل من أجل إقرار السلام. ونسي نيقولا كبرياء البطريكية، وكتب إلى سيمون يرجوه أن يحترم رسل البابوية. وقد كان لسيمون موقفه ويرفض الاعتراف بالبابوية، كما أنه كان يعلم بالتحالف الواهي بين روما والقسطنطينية. لذلك قام سيمون بتحية ثيوفلاكت وكاروس بمودة بالغة، ولكن حديث سيمون كما نفهم من الأحداث التالية كان مختلفاً تماماً عما كان يأمل نيقولا، وفي هذه الأثناء كان سيمون يخطط بمحاولة أكثر فاعلية لغزو القسطنطينية.

كان وقت الهجوم في صيف عام ٩٢٤م، وقد كان سيمون أكثر تعقلاً في هذه المرحلة، وتحقق أن أسوار المدينة من ناحية الارض المواجهة للمدينة كانت حصينة، كما أن البلغار لا يملكون أسطولاً، لذلك كان مضطراً للبحث عن حليف لمساعدته بالاسطول حتى يمكن مهاجمة المدينة براً وبحراً. ولما كانت الدولة الفاطمية في شمال افريقيا في حالة حرب مع الامبراطورية البيزنطية، لذلك أرسل سيمون سفارة إلى الخليفة الفاطمي في المهدية يقترح عليه تحالفاً لحاجته إلى أسطول بحري لمهاجمة القسطنطينية. وقد تمت ترتيبات هذا التحالف بنجاح دون علم الإمبراطورية البيزنطية. وعاد رسل سيمون مع مبعوثي الفاطميين. وبينما كانت السفن الفاطمية تأخذ طريقها في البحر

المتوسط أسرتها قوة بحرية بيزنطية في الساحل الجنوبي لإيطاليا ، وأرسل الإمبراطور البيزنطي إلى الخليفة الفاطمي على الفور يعرض عليه صلحاً مجزياً ، وقد قوبل هذا العرض بارتياح من قبل الدولة الفاطمية ، فقد كان الفاطميون لا يرغبون في إندلاع حرب لا فائدة منها في المنطقة الشرقية في أوربا ، وظل الإمبراطور البيزنطي محتفظاً بالأسرى البلغاريين.

وفي الوقت نفسه إنزعج الامبراطور باستعدادات سيمون العسكرية ، لذلك أرسل الى الخليفة العباسي المقتدر في بغداد لعقد الهدنة حتى يتمكن من سحب قواته من الجبهة الشرقية ليدفع بها إلى إقليم تراقية لمواجهة سيمون وقواته.

وفي سبتمبر من العام نفسه ٩٢٤م وصل سيمون والقوات البلغارية الى أسوار القسطنطينية وقد إرتاع لمنظرها مرة أخرى . ومن المحتمل أن يكون قد علم في هذه المرحلة بما حل بالإسطول الفاطمي وتيقن من عدم مساعدته ، كما أن القوات البيزنطية التي كانت على الحدود الشرقية أخذت طريقها لمواجهة سيمون بعد عقد الهدنة مع الخليفة العباسي . وعند هذه المرحلة تذكر سيمون أحداث عام ٩١٣م ، عندما حاصر القسطنطينية ، فأرسل يطلب مقابلة البطريك نيقولا .

وعلى ضوء هذا العرض من قبل سيمون تم تبادل الرهائن من كلا الجانبين وأسرع نيقولا لمقابلة سيمون ، وبعد ان إستمتع سيمون بهذا الموقف المذل للإمبراطورية أرسل يطلب مقابلة الامبراطور بدلا من البطريك، وكان على الامبراطور ألا يأتي مسرعاً حفاظاً على هيبته ،وتمت استعدادات كبيرة لهذا اللقاء . وقد تم إعداد رصيف حصين خارج القرن الذهبي عند كوزميديوم Cosmidium وأقيم سور في منتصف هذا الرصيف . وعلى هذا السور تناقش الإمبراطور وسيمون ، وقد حدث بعض التأخير لإتمام هذه الاستعدادات ، الأمر الذي جعل سيمون يفقد صبره . وحتى يظهر سيمون مدى رهبته للإمبراطور ، قضى وقت الإنتظار في تخريب الأماكن المحيطة به وأحرق أحد المقدسات وهي الكنيسة القديمة للسيدة مريم العذراء في بجاي .

وتمت المقابلة يوم الثلاثاء في التاسع من سبتمبر عام ٩٢٤م، وقد وصل سيمون إلى الرصيف المعد للمقابلة عن طريق البحر وحوله حرسه المتألق، بعضهم لحمايته الشخصية وبعضهم لأعمال الترجمة الفورية لأن سيمون كان لا يريد إستخدام اللغة اليونانية التي يتكلم بها الإمبراطور رغم معرفته بها. وعندما تم تبادل الرهائن تقدم سيمون إلى المكان المعد للاستقبال حيث كان الإمبراطور رومانوس ليكابينوس في إنتظاره وقد أتى كلاهما من إتجاه مضاد. وقد وصل الامبراطور ومعه البطريك عن طريق البحر في يخت الامبراطور، وقد ظهر الامبراطور وعليه علامات التواضع، مرتدياً عباءته المقدسة ومعه عدد قليل من التابعين، لأنه كان يعلم أنه محاطاً بكل مجد وتقاليد الإمبراطورية.

وعندما تم اللقاء بين رومانوس وسيمون حيّا كل منهما الآخر، وبدأ سيمون يتحدث برعونة ساخراً من البطريك الذي لم يتمكن من إعداد رجاله للقتال وتجاهل سيمون رومانوس باعتباره مغتصباً للعرش. ولكن رومانوس تدخل وأخذ بطرف الحديث. وعَرَّف رومانوس سيمون بواجباته كمسيحي وبالعقاب الذي سيلاقيه على آثامه ضد المسيحية. ولما كان سيمون قد تجاوز الستين من عمره فقد ذكره الإمبراطور بقرب دنو أجله، وحذره من عقاب الله لما إقترفت يداه في حق إخوانه المسيحيين، وفي الوقت نفسه ألمح رومانوس ان السلام سيكون له مزايا مالية غير متوقعة للأمير البلغاري.

لقد تأثر سيمون إلى حد كبير، وأصبح السلام في هذه المرحلة هو السياسة العملية، فلقد إنتصر سيمون في مواقع متعددة تمتد من أسوار كورنثه Corinth وديراكيوم إلى أسوار القسطنطينية، وسيطر على ما حول هذه الأقاليم. ولكن العاصمة ظلت حصينة، في الوقت الذي لا يملك فيه أسطولاً ليستكمل حصارها، ورغم هذا كله فقد إعتبر سيمون ذلك نجاحاً محدوداً، ولكنه غير كاف، وعندما تقابل مع رومانوس إنتصر رومانوس لبعض الوقت بعظمة الإمبراطورية وإنتصر لفترة طويلة بمناعة القسطنطينية.

ولما كان سيمون وهو النصف بيزنطي، لأنه دَرس في شبابه عن عظمة الإمبراطورية البيزنطية التي عاشت قرون عديدة قبل ان يعرف العالم دولة البلغار، فقد تحقق له أنه لا يستطيع ان يكون أكثر من نصف بيزنطي. أما النصف الآخر فلا يعدو ان يكون مجرد فكرة في عقول البلغار وهم الذين إرتفعوا حديثاً من الهمجية الوثنية. وقد كان الأمير البلغاري بورس Boris ٨٥٢ ـ ٨٨٩م أكثر تعقلا وله نظرة ثاقبة، فهو لم يحاول التفكير في أن يصبح أكثر من أمير للبلغار، وكانت أهدافه تختلف تماماً عن أهداف سيمون سواء على المستوى الوطني أم العالمي. فقد كان بورس في تعامله مع الامبراطورية يشبه طفل خجول، يريد أن يكبر بسرعة، وفي الوقت نفسه يعمل على مساعدة نفسه بقدر الامكان. أما سيمون فقد كان مثل طفل ذكي مشاكس وأنه مصدر قلق وأنه سيكون في غاية السرور عندما يطلب منه الكبار أن يكف عن المشاكسة، وأنه بوسعه أن يرى حيلهم ويطلع على نقط الضعف فيهم وأن يستمتع من خلال هذا كله. ورغم هذا كله فقد كان يخجل لكونه طفل والآخرين أكبر منه، لذلك كان يشعر بالاستياء والاحباط مثله في ذلك مثل الطفل الذي يشعر بالتأنيب. ومن هنا أدخل حديث رومانوس الرهبة الى قلبه ولو لبعض الوقت ثم زال هذا الخوف وبدا خجولا مشاكساً مرة أخرى.

وفي هذه الأثناء وعندما كان العاهلان يتحادثان أرسلت العناية الالهية ـ كما تروي الحوليات البيزنطية ـ رمزاً من عندها فقد ظهر نسران على رأس العاهلان وقد تقابلا ثم انصرفا مرة أخرى، وقد طار أحدهما في اتجاه القسطنطينية بينما طار النسر الآخر في إتجاه جبال تراقيه. وكان في ذلك إشارة إلى كل من رومانوس وسيمون لتخبرهما أنه يجب أن يكون هناك إمبراطورتين في شبه جزيرة البلقان لفترة من الوقت على الأقل، ولكن النسران نفقا. هذا ما روته الحوليات، ولعل في هذا إشارة الى بطلان ادعاء رومانوس في عرش الامبراطورية البيزنطية وبطلان ادعاء سيمون في مطالبه غير المشروعة.

وعلى أية حال فقد أملت مصلحة كل منهما ان يوافقا على شروط الصلح ، ومن المحتمل ان تكون المناقشة تمت بين الطرفين دون مترجين في هذه المرحلة ، ولكن من المؤكد أن التفاصيل قد تمت بالطرق الدبلوماسية . وقد تم الاتفاق على أن يقوم سيمون بسحب قواته من أراضي الامبراطورية ، وعلى وجه الخصوص من المدن المحصنة الواقعة على البحر الأسود ، وهي أجاثوبولس Agathopolis وسوزوبولس Sozopolis ودفلتوس Develtus وأنخيالوس ، حتى يتمكن الامبراطور من إيجاد طريق للوصول الى مدينة مسمبريا ، وذلك مقابل أن يقدم الامبراطور البيزنطي كمية كبيرة من الذهب وهدايا أخرى قيمة كهدية سنوية فضلاً عن مائة روب مطرز من صنع أمهر عمال القسطنطينية ، وبعد هذا الاتفاق عاد سيمون إلى وطنه .

ولقد ظل هذا الاتفاق قائماً لبعض الوقت ، فقد إنسحب سيمون من تراقيه ، ولكنه ظهر غير راغباً في تسليم الاراضي التي إستولى عليها على شاطىء البحر الاسود . ولقد كتب رومانوس الى سيمون مرة بعد أخرى يطلب منه إعادة هذه الأراضي ولكنه كان يرفض حتى يقدم له الامبراطور المزيد من الهدايا . فقد كان إحتفاظه بقلاع البحر الأسود يشير إلى أكثر من معنى ، فان التأثير المميت الذي أحدثه لقاؤه مع الامبراطور قد ولى ، وكان يحب أن يرى نفسه بعيداً عن تأنيب الامبراطور . وبكل تأكيد فان سياسته قد تغيرت تماماً ، فإنه إستطاع بالكاد ان يكون حاكماً على البلقان ، ولكنه على الأقل كان يرغب في أن يكون إمبراطوراً لا حاكماً فحسب ، ولكنه حتى الآن وهو صاحب الأمل في الجلوس على عرش الامبراطورية ، كان عليه مراعاة الرسميات في إستخدام ألقابه ، وعليه أيضاً أن يؤكد السيادة الزمنية على الكنيسة . وعلى حكومته المقبلة أن تتجنب المشاكل بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية . ولقد صمم على ان يكون امبراطوراً حتى ولو كان بعيداً عن القسطنطينية . ولذلك إدعى لبعض الوقت انه إمبراطور الرومان والبلغار ، وقد حمل هذا اللقب ليمجد نفسه وينزل الاهانة بأعدائه .

وقد غضب الإمبراطور رومانوس من جراء هذا التصرف، وأرسل الى سيمون يعلن إحتجاجه ولكن سيمون لم يجبه. وليس ذلك فحسب بل أرسل إلى روما يطالب البابوية بتأييد موقفه. ووجدت البابوية ان هذا الإجراء في صالحها، لذلك وافقت على طلب سيمون. وفي عام ٩٢٦م وصل المندوب البابوي مادالبرت Madalbert إلى العاصمة البلغارية بريسلاف يحمل تهنئة البابا الى سيمون بصفته إمبراطوراً. لقد كان هذا ما أثمرت عنه زيارة ثيوفلاكت وكاروس، هذه الزيارة التي كان يتمنى لها نيقولا النجاح. ولقد كان على نيقولا أن يتخلص من أوهامه، فلقد حطمت المقابلة إعتقاد نيقولا في صدق نوايا سيمون، وأدرك نيقولا أيضاً أن سيمون لم يعد بحاجة إلى مساعدته بعد ذلك. ولقد كتب البطريق نيقولا إلى سيمون مرتين بعد هذه المقابلة ولكن ما ورد بالخطابين كان يكشف عن الغضب والمرارة من رجل مسن مريض. ومما تجدر ملاحظته ان الخطاب الأول منهما يمكن تحديد تاريخه بنهاية عام ٩٢٤م، أما الخطاب الثاني فلم يُحدد تاريخه على وجه الدقة وإنما يمكن تأريخه بالفترة الواقعة بين يناير وأبريل عام ٩٢٥م. ومما يلفت النظر في الخطاب الأخير أن نيقولا قد سجل فيه من ضمن ما كتبه إلى سيمون، سجل فيه على لسانه « يعتبر هذا خطابي الأخير ». وما لبث نيقولا أن توفي في مايو ٩٢٥م.

وبعد هذه الأحداث وبعد أن رفع سيمون نفسه الى مرتبة الامبراطور وجد أن الواجب عليه أن يكون له بطريقه الخاص في العاصمة بدلا من الإعتماد على بطريك القسطنطينية، وبدأ التفاوض مع البابا في روما حول هذا الموضوع. ولكن هذا الإجراء تأخر لبعض الوقت حتى يعود المبعوث البابوي مادالبرت إلى روما. وأخيراً وفي عام ٩٢٦م رفع سيمون رئيس أساقفة بلغاريا ليونتيوسLeontius إلى مرتبة البطريك. ولم يكن لذلك رد فعل يذكر في القسطنطينية فقد مات البطريق نيقولا وخلفه ستيفن الثاني ٩٢٥ - ٩٢٨م الذي كان أداة طيعة في يد الإمبراطور رومانوس ولم يعر الإمبراطور نفسه لهذا الأمر - رغم خطورته - أهمية تذكر. ويبدو ان عدم تحرك الامبراطور البيزنطي ضد هذا الاجراء قد أطمع سيمون مرة أخرى في مهاجمة العاصمة

البيزنطية، فاستعد في العام التالي ٩٢٧ م للقيام بعملياته العسكرية ولكن موته حال دون قيام هذه الحملة. وخلفه إبنه بطرس ٩٢٧ - ٩٦٩م ليحكم دولة بلغارية واسعة تمتد من أدنى نهر الدانوب شمالا الى شمال سالونيك جنوباً ومن مدينة فارنا Varna على البحر الأسود شرقاً الى الحدود الصربية غرباً.

وقد إختلف الأمر تماماً في حياة بطرس عن حياة ابيه سيمون، فان كان الأب إتصف بالشجاعة فقد افتقر الابن اليها، وإن كان الأب مولعاً بالخطط العسكرية فقد كان الابن مولعاً بحياة الترف، لذلك فلا عجب ان يتبدل الأمر، وعقد بطرس صلحاً مع الامبراطور البيزنطي حصل بموجب هذا الصلح على لقب قيصر فقط وليس إمبراطوراً، كما اعترف رومانوس بموجب هذا الصلح بالبطريكية التي أقامها البلغار في عاصمتهم. وتوج هذا الصلح بأن تزوج بطرس من ماريا ليكابينا Maria Lecapina إبنة كريستوفر Christopher الإبن الأكبر للامبراطور رومانوس ليكابينوس. ودام هذا الصلح طوال عهد رومانوس ليكابينوس وحتى عهد رومانوس الثاني ٩٥٩ - ٩٦٣م، ولم تندلع الحرب مرة أخرى إلا في عهد نقفور الثاني فوقاس Micephorus II Phocas (٩٦٣ - ٩٦٩ م).

على أية حال كانت فترة السلام هذه فترة طويلة إستراحت فيها الدولة البيزنطية من خطر البلغار الذي لاح في عهد سيمون. وفي الوقت نفسه أخذت الدولة البلغارية في الضعف والإضمحلال لعوامل متعددة، وكان هذا من العوامل التي ساعدت على دعم السلم بين البلدين لبعض الوقت.

الصراع مع المسلمين

وإذا كان ما سبق عرض لأحداث العلاقات البيزنطية البلغارية في عصر رومانوس وقسطنطين السابع، فإن أهم أحداث الصراع البيزنطي العربي في هذه المرحلة بدأ بنصر بحري أنزلته البحرية البيزنطية بالأسطول العربي في عام ٩٢٤ م/٣١٢ هـ وعلى رأسه الطرابلسي في جزيرة ليمنوس Lemnos.

وبعد زوال الخطر البلغاري بدأت الاعتداءات البيزنطية على الشرق في عام ٩٢٨م/٣١٦هـ بقيادة حنا كوركواس وأخيه ثيوفيلوس Theophilus . وكان مسرح الأحداث بلاد الجزيرة وأرمينيه، وتمكن البيزنطيون من الاستيلاء على أرزن الروم وأخرجوا العرب من أرمينيه نهائياً. وأول نجاح أحرزته القوات البيزنطية هو استيلاء حنا كوركواس على مدينة ملطية عام ٩٣١م/٣١٩هـ وهي المدينة الهامة التي كانت دائماً هدفاً لمحاولات الامبراطورية للسيطرة عليها، ولكن العرب تمكنوا من استعادتها مرة أخرى، ثم ما لبثت أن استسلمت المدينة مرة أخرى للقائد البيزنطي في التاسع عشر من مايو ٩٣٤م/٣٢٣هـ. ولعل نجاح بيزنطة في هذه المرحلة يرجع الى سوء أحوال الدولة العباسية في بغداد حيث كانت تعاني الضعف والانحلال.

لم يكن ذلك نهاية الصراع العربي في هذه المرحلة، فقد التقت بيزنطة بخصم عنيد يتمثل في شخص أمير الموصل وهو سيف الدين الحمداني، لأن ضعف الخلافة في بغداد نقل عبء الجهاد الى سيف الدولة، ولجأت بيزنطة الى ضرب سيف الدولة بإقامة علاقات الصداقة مع الخليفة العباسي في بغداد، ولم يتأثر سيف الدولة بهذه العلاقات، وتصدى للدولة البيزنطية ونجح في إلحاق الهزائم بالقوات البيزنطية عام ٩٣٨م/٣٢٧هـ التي كانت تحت قيادة حنا كوركواس أمام حصن زياد، وتقدم سيف الدولة الى أرمينيه وأجبر كثيراً من الأمراء الأرمن على الاعتراف بسيادته.

وعلى أثر خضوع الأرمن لسيف الدولة أنفذت الامبراطورية البيزنطية في عام ٩٣٩م/٣٢٨هـ حملة عسكرية لتأديب الأمراء الأرمن بعدما امتنعوا عن الهجوم على الأراضي العربية، وكان على سيف الدولة أن يهب لمساعدتهم بعدما أرسلوا إليه يسألونه النجدة، وتوغل سيف الدولة داخل الأراضي البيزنطية في عام ٩٤٠م/٣٢٩هـ وأخذ يدمر ويخرب، ثم دخل ثيم خالديا Chaldian، واستولى على عدد من الحصون والمدن فيها، ثم تقدم الى مدينة كولونيا Colonea وحاصرها، وعلى أثر هذه الانتصارات أصبح سيف الدولة زعيم

الجهاد الأكبر في الأقطار الاسلامية ضد البيزنطيين.

وكان على بيزنطة أن تعمل على وقف هذا الخطر الجديد المتمثل في سيف الدولة، ففي نهاية عام ٩٤٠ م تقدمت القوات البيزنطية حتى كفرتونة، ولكن المعارك توقفت من كلا الطرفين لانشغال سيف الدولة ببعض المشاكل الداخلية، وانشغال بيزنطة بالخطر الروسي على شمال الإمبراطورية.

وبعد هزيمة الروس أصبح بوسع القوات البيزنطية ان تعاود نشاطها ضد العرب، ففي عام ٩٤٣ م/٣٣٢ هـ كانت الجولة في أراضي الجزيرة، وانقض حناكوركواس فجأة على ميافارقين واستولى عليها، كما استولى على آمد ودارا ونصيبين. وتشجعت الامبراطورية البيزنطية بهذا النصر، فحاصر كوركواس مدينة الرها حصاراً شديداً لم تتحمله المدينة فاستسلمت في عام ٩٤٤ م/٣٣٣ هـ، ودخلها كوركواس واستولى على الآثار الدينية المسيحية الموجودة بالمدينة ومنها منديل السيد المسيح، وأرسلت هذه الآثار الى القسطنطينية واحتفل بها في حفل ديني كبير. ومع إنشغال سيف الدولة بالصراع على مدينة حلب، اندفع البيزنطيون الى منطقة مرعش ومنطقة بغراس وتقدموا حتى أبواب أنطاكية. ولكن القوات البيزنطية اضطرت الى التراجع بعدما رد عليهم سيف الدولة بالإغارة على عرابسوس.

وهدأ الحال نسبياً مدة أربع سنوات، لم يتخللها سوى فداء الأسرى عند نهر اللامس عام ٩٤٦ م/٣٣٥ هـ، ولكن الحرب تجددت في عام ٩٤٨ م/٣٣٦ - ٣٣٧ هـ عندما توجهت القوات البيزنطية من ملطية وسميساط إلى أرض الجزيرة، ولكن سيف الدولة تصدى لهم.

وواصلت الإمبراطورية البيزنطية سياستها الهجومية التي تميزت بها في هذه المرحلة، ففي عام ٩٤٩ م/٣٣٧ - ٣٣٨ هـ حشدت الإمبراطورية البيزنطية قواتها تحت قيادة ليو فوقاس الذي تمكن من الإستيلاء على مدينة الحدث عنوة ودك حصونها، كما نجح البيزنطيون في العام نفسه من السيطرة على مدينة مرعش، وشجعت الإنتصارات البرية الإمبراطورية البيزنطية على نقل ميدان

المعركة إلى كريت، ففي العام نفسه أيضاً إنقض الأسطول البيزنطي على الجزيرة ولكن المحاولة باءت بالفشل

وأدى الإخفاق البحري إلى معاودة الهجوم على الأراضي العربية براً. ففي عام ٩٥٠ م/٣٣٩ هـ، انقض ليو فوقاس على شمال الشام وحاصر بوقة في سهل العمق، واحتكم الطرفان الى الصلح، وكاد الاتفاق يتم، ولكن مروان القرمطي - وهو أحد رجال سيف الدولة - قتل أحد رجال الوفد البيزنطي، فتوقفت المفاوضات وطالب الامبراطور قسطنطين السابع بتسليم القاتل. وعلى الرغم من اعتذار سيف الدولة وقبوله دفع التعويض إلا ان الامبراطور أصر على طلبه فانقطعت المفاوضات، واحتكم الطرفان للسيف مرة أخرى في العام نفسه.

استعد سيف الدولة استعداداً ضخماً وتوغل بجيشه شمالا حتى نهر الهاليس Halys يسبي ويحرق حتى بداية فصل الشتاء، وإكتفى بما أحدثه من خراب للعودة، ولكن القوات البيزنطية بقيادة لو فوقاس فاجأته عند عودته في منطقة خرشنة Charsianon ونجح سيف الدولة في السيطرة على الموقف في أول الأمر، إلا أن القوات البيزنطية تمكنت من إعادة تنظيم نفسها مرة أخرى، وكمنت للقوات الحمدانية في درب الجوازات بين البستين والحدث واشتد الخناق على الحمدانيين، ولم ينج سيف الدولة إلا بصعوبة، وعرفت هذه الغزوة باسم غزوة المصيبة، ولعل هذه التسمية راجعة الى نتائجها.

لم تفت هذه الهزائم في عضد سيف الدولة فاستعد للحرب في العام التالي ٩٥١ م/٣٤٠ هـ، وإتجه إلى قبدوقية ولكنه عاد مهزوماً، ثم استمرت الحرب بين الطرفين بعد ذلك لمدة سبع سنوات في قليقية والجزيرة، ولم يكن هناك نصر حاسم لأي من الطرفين. ومع عام ٩٥٨ م/٣٤٧ هـ بدأت ملامح الضعف في الدولة الحمدانية وكان لذلك أثره على موازين القوى في المنطقة.

بعد هذا العرض الموجز للصراع البيزنطي العربي في عصر رومانوس وقسطنطين يمكن القول بأن الانتصارات التي حققتها الامبراطورية البيزنطية

في الشرق في هذه الفترة زادت من رقعة الامبراطورية ومن هيبتها ومهدت الطريق لفتوحات أكبر في عهد خلفائهما.

وإن كان ما يميز هذه الفترة أن السيف كان هو الحكم بين عرب المشرق والامبراطورية البيزنطية، فإن الأمر قد اختلف مع الخلافة الاموية في الأندلس، فقد استقبل الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ/٩١٢ - ٩٦١م، سفارة بيزنطية في قرطبة عام ٣٣٦ هـ/٩٤٧م للعمل على «موادعته» على حد قول المؤرخ المقري، لأن الإمبراطور قسطنطين السابع كان يخشى نوايا الفاطميين الذين سبق لهم التحالف مع البلغار ضد رومانوس الأول.

وإستكمالاً للعلاقات البيزنطية مع العرب، يبقى عرب صقلية والمدن الإيطالية التي سيطرت عليها قوات عربية. ورغم أن هذه العمليات العسكرية لم تتوقف في هذه الفترة، إلا أن هذه العمليات لم تكن ذات أهمية كبرى، ولم تؤد إلى نتائج حاسمة، ولم يترتب عليها تغيير في الحدود البيزنطية بشكل ملموس.

العلاقات مع الروس

وإشتمل أيضاً عصر رومانوس وقسطنطين السابع على صراع بين الإمبراطورية والروس. والواقع أن عهد الروس ببيزنطة ليس ببعيد عن هذه الفترة، فأول غارة قام بها الروس على الإمبراطورية كانت على القسطنطينية في عام ٨٦٠م خلال عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث Michael III ٨٤٢ - ٨٦٧م. والواقع أن الهجوم الروسي لم يستهدف الغزو بل كان من أجل السلب والنهب، لذلك عادت القوات الروسية بعد أن حققت أهدافها.

وتجدد الصراع مرة أخرى في عهد ليو السادس، وإقتحم الروس بقيادة أميرهم أولج Oleg المياه البيزنطية ووصلوا حتى أسوار العاصمة في عام ٩٠٧م. ونجح الروس في إنزال بعض الخسائر ببعض المواقع البيزنطية.

وإضطر ليو إلى التفاوض ، وإنتهى الأمر بعقد إتفاق بين الطرفين ، وتجدد هذا الإتفاق مرة أخرى عام ٩١١ م ، ونصت بنوده على منح تسهيلات وإمتيازات بحرية في الأراضي البيزنطية . وإستمر السلام بين الطرفين حوالي ثلاثين عاماً ، إنتعشت خلالها التجارة بين الطرفين ، وإستمر البيزنطيون في سياستهم التي ترمي إلى كسب الروس إلى جانبهم عن طريق الهدايا .

وفي عام ٩٤١ م تعكر صفو السلام بين الطرفين ، فقد قام الأمير الروسي إيجور Igor بحملة فجائية على العاصمة البيزنطية ، ودخلت السفن الروسية مضيق البسفور ورست القوات الروسية على الشاطىء الآسيوي للبسفور في إقليم بثينا Bithynia ونهبوا وسلبوا . وفي ذاك الوقت كانت القوات البيزنطية تحارب في الشرق عند مدينة ملطية ، فاستدارت القوات وعلى رأسها حنا كوراكوس وتوجهت إلى ميدان القتال وهزمت الروس شر هزيمة في إقليم بثينا . وحاولت القوات الروسية الفرار عن طريق البحر ، ولكن القائد البحري ثيوفانس Theophanes قاد حملة بحرية عليهم ـ وهم يعدون العدة للانسحاب ـ مستخدماً النار الإغريقية ونجح في تدمير معظم سفنهم التي قدموا عليها .

وعاود الروس الإغارة على الأراضي البيزنطية في خريف عام ٩٤٤ م ، واستعدوا استعداداً ضخماً هذه المرة وتحالفوا مع البجناكية لضرب الامبراطورية ، وحددوا ميدان المعركة في هذه المرحلة لكي يكون على نهر الدانوب بدلا من الشاطىء الآسيوي ، ليكونوا على مقربة من البجناكية المتحالفين معهم ، والواضح ان الامبراطورية لم تكن على استعداد لملاقاة الروس والبجناكية لاشنغالها بحروبها في الشرق خلال هذا العام ، وما تلى ذلك من الصراع على العرش بين ولدي رومانوس وقسطنطين السابع ؛ لذلك وجدت الدولة من الحكمة أن تريح نفسها من هذا الصراع في الوقت الذي تعلم فيه أن الأموال والهدايا لها مفعول أقوى من مفعول السيوف مع مثل هذه الأقوام ، لذلك انتهى الأمر بالصلح في العام نفسه ، وكلل هذا الصلح بمعاهدة تجارية

تتلاقى في خطوطها الرئيسية مع صلح عام ٩١١ م، ولكنها كانت لصالح الامبراطورية البيزنطية أكثر منها لصالح روسيا.

ساد السلام بين بيزنطة والروس، وتوطدت أركان الصداقة بينهما عندما زارت الامبراطورة أولجا Olga - أرملة إيجور والوصية على العرش الروسي - القسطنطينية عام ٩٥٧ م حيث تم استقبالها استقبالاً حاراً وعمّدها بوليكتوس Polyeuctus بطريق الإمبراطورية ٩٥٦ - ٩٧٠ م، وسميت بإسم هيلينا، وهو إسم زوجة الإمبراطور قسطنطين السابع، وإن كان البعض يرى أنها اعتنقت المسيحية قبل ذلك بعدة سنوات. والمهم أن هذا الحدث فتح عصراً جديداً في العلاقات البيزنطية الروسية، وفتحت الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية أرضاً صالحة للقيام بعملها التبشيري في روسيا.

مما تقدم يتضح لنا الملامح الرئيسية للعلاقات البيزنطية مع البلغار وعرب المشرق والمغرب والروس. وكانت هناك علاقات مع العناصر الأخرى مثل البجناكية والصرب والماجيار والكرجيين والابازجيانيين وأمراء الأرمن والخزر والآلان ومع الامبراطورية الرومانية وبعض المقاطعات الاوروبية الأخرى. ولكن مثل هذه العلاقات سواء أكانت عسكرية أم سلمية لم يكن لها ذلك الأثر الذي تركته العلاقات مع العرب أو البلغار أو الروس.

وبعد وفاة قسطنطين حكم ابنه رومانوس الثاني فترة قصيرة تصل الى أربع سنوات، ثم تغيرت الأحوال فانتقل العرش إلى قادة عسكريين في الفترة من ٩٦٣ - ٩٧٦ م، ثم يعود العرش مرة أخرى إلى الأسرة المقدونية ممثلاً في بازيل الثاني ابن رومانوس الثاني.

الفصل التاسع

الأسرة المقدونية

٣ - عصر القادة العسكريين ٩٥٩ - ٩٧٦م

يبدأ هذا العصر من الناحية الرسمية من بداية عهد نقفور فوقاس عام ٩٦٣ م ، ولكنه من الناحية العملية كما يرى الباحث أنه يبدأ من عام ٩٥٩ م ، وهي السنة الأولى التي بدأ فيها حكم رومانوس الثاني . ولما كان رومانوس قد أهمل السلطة وتركها في أيدي غيره ، وأن لا أهمية تذكر في عصر رومانوس سوى الفتوحات العسكرية التي تولى قيادتها القادة العسكريون ، لذلك آثر الباحث أن يبدأ هذا العصر مع حكم رومانوس الثاني لإبراز جهود القادة العسكريين في عهده ، ويكون مدخلاً لعهد القادة العسكريين .

رومانوس الثاني ٩٥٩ - ٩٦٣م

توج رومانوس في حياة أبيه قسطنطين السابع عام ٩٤٥م ، ولما مات والده عام ٩٥٩ ، خلفه على عرش الامبراطورية وكان في العشرين من عمره . وكان رومانوس شاباً وسيماً وتلقى قدراً كبيراً من التعليم واعتنى والده بتلقينه مبادىء الحكم والسياسة في الامبراطورية عندما أعد له كتاباً عن إدارة الامبراطورية ليكون هادياً ومرشداً له في سياسته الخارجية والداخلية ، إلا أن كل هذا لم يجدنفعاً ،ولم يُخلف رومانوس سوى سمعه سيئة . ويرجع ذلك الى أن رومانوس كان لاهياً ماجناً لم يهتم بشؤون الدولة ، وترك مقاليد الحكم في يد زوجته ثيوفانو ذات الجمال النادر . وأدارت ثيوفانو شؤون الحكومة وساعدها في ذلك الخصي برنجاس Bringas .

وما إن تمكنت الزوجة من السلطة حتى بدأت بطرد حماتها وأخوات زوجها من القصر. ولم يكن ذلك بكثير على ثيوفانو سليلة الحانات، التي قال فيها المؤرخون أنها أوعزت الى رومانوس بدس السم لأبيه قسطنطين. وكان لكل هذا نتائج سيئة على رومانوس وبدأت المؤامرات من حوله لقتله، ولكنه نجا منها ليموت بعدما أصيب بلوثة في عقله وهو في الخامسة والعشرين من عمره، بعدما أنجب بازيل الذي عرف بالثاني وقسطنطين المعروف بالثامن وابنة ـ حملت إسم أمها ثيوفانو ـ وتزوجت من أوتو الثاني Otto II أمبراطور ألمانيا (٩٧٣ ـ ٩٨٣ م) في ربيع عام ٩٧٢ م.

ولا تمدنا المصادر البيزنطية بأحداث داخلية هامة حدثت في عصر رومانوس، ولكنها أمدتنا بمادة تاريخية طيبة عن العلاقات السليمة بين الامبراطورية وحكام الشرق والغرب في بداية عهد رومانوس. ومن ذلك ما قامت به ثيوفانو وبرنجاس من إرسال السفارات الى دول الشرق والغرب لتوطيد العلاقات الودية معها. ولكن مثل هذا العلاقات السلمية وبصفة خاصة مع حكام الشرق ما لبثت ان تحولت الى حرب ضروس في عهد رومانوس وخلفائه من بعده واحرزت الامبراطورية نصراً كبيراً في الشرق بصورة لم نسمع عنها طوال التاريخ البيزنطي.

حروب بيزنطة في الشرق الاسلامي.

وكانت أولى هذه الأعمال حملة كريت. والمعروف ان جزيرة كريت وترد في المصادر العربية باسم إقريطش، قد سقطت في يد المسلمين البيزنطيين عام ٢١٠ هـ/٨٢٥م. وقد بذلت الامبراطورية جهوداً كبيرة لاستعادتها، وكانت آخر هذه المحاولات ما حدث في عام ٩٤٩م/٣٤٨هـ.

ولعل ما دفع الدولة البيزنطية الى محاولة استرداد كريت في هذه المرحلة، هو ما لمسه القادة البيزنطيون من ضعف الدول الاسلامية الشرقية في هذه المرحلة، حتى تستعيد الدولة البيزنطية سيطرتها على طرق الملاحة والتجارة

في بحر إيجه. وتبنى برنجاس هذه الفكرة وعين القائد العسكري المشهور نقفور فوقاس قائداً لهذه الحملة. وحشد لهذه الحملة أسطولا كبيراً حتى يبدو لنا ان البحرية البيزنطية بأكملها قد أعدت لهذا الغرض، فقد بلغ تعداد السفن حوالي ثلاثة آلاف - وهو رقم مبالغ فيه - ما بين محاربة وحمالة للمؤن. وإشتملت عناصر الجيش، بالإضافة إلى القوات البيزنطية، عناصر روسية، وأخرى مرتزقة، وعدد كبير من الأسرى الذين كانوا لدى الإمبراطورية وهم من جنسيات مختلفة.

وكانت خطة نقفور العسكرية تهدف الى حصار كريت في الوقت الذي تتولى فيه بعض قطع الاسطول البيزنطي منع اي امدادات تصل الى الجزيرة من الشام أو مصر. وتولى نقفور مهمة الحصار وعهد الى آخرين بمهمة منع وصول أية مساعدات عسكرية للجزيرة.

بدأ نقفور بتوزيع الاسطول على سواحل الجزيرة، وسد جميع المنافذ التي تؤدي الى مدينة الخندق عاصمة كريت. ونجح أهل المدينة في بداية الأمر في الحاق الهزيمة بطلائع القوات البيزنطية التي كانت تقوم بالاستطلاع والاستكشاف. وشدد نقفور الحصار على الخندق وعاونه أهالي ضواحي المدينة من البيزنطيين.

إستمر الحصار الشديد على المدينة الحصينة لفترة طويلة تخللها عدة إشتباكات، وحاول المسلمون في كريت الاستنجاد بإخوانهم، وأثمرت هذه المحاولات عن قدوم عدد كبير من الفاطميين من شمال إفريقيا، فانضموا إلى قوات الجزيرة وكوّنوا جيشاً بلغ تعداده حوالي أربعين ألفاً. ودارت معركة رهيبة بين القوات البيزنطية والإسلامية إنتهت بانتصار الأولى وإستشهد عدد كبير من المسلمين.

تشجع نقفور بعد هذه الأحداث وشدد الحصار على الخندق، ونجحت القوات البيزنطية في نهاية الامر في اقتحام المدينة، ودخلتها على جثث المسلمين، وسبت العديد، وسلبت الكثير من الغنائم. وبعد سقوط مدينة الخندق

استطاع البيزنطيون السيطرة على باقي الجزيرة. وترتب على سقوط الجزيرة عودة الأمن الى بحر إيجه بعد ان تعرض لفترة طويلة لحملات المسلمين. وعادت كريت مركزاً تجارياً بيزنطياً هاماً فى حوض البحر المتوسط.

انزعج سيف الدولة لاستيلاء البيزنطيين على كريت، وأراد ان يوجه ضربة برية للامبراطورية قبل ان تفيق من نشوة النصر. وجهز سيف الدولة جيشاً كبيراً وتوغل به في آسيا الصغرى حتى وصل إلى ثيم خرشنة، ولكن الحكومة البيزنطية دفعت اليه بقواتها وعلى رأسها ليوفوقاس لتقطع عليه طريق العودة مثلما حدث في عزوة المصيبة. ونجح ليوفوقاس في سد طريق العودة على سيف الدولة وأنزل به هزيمة في ممر جبلي يعرف باسم أندراسوس Andrasos في المصادر البيزنطية.

وإستغلت الإمبراطورية هذا النصر، وتقدم نقفور إلى إقليم قيليقية وسيطر عليه في عام ٩٦٢ م، كما نجح نقفور في دخول مدينة عين زربة. وتشجع نقفور بهذا النصر وتقدم الى مدينة منبج ومنها اتجه الى مدينة حلب واقتحمها في العام نفسه، ولكن قلعة المدينة صمدت أمام القوات البيزنطية فاضطر نقفور الى فك الحصار عن القلعة بعد عشرة أيام، وعاد الى بلاده محملا بالغنائم. وأثناء عودة نقفور علم بموت الامبراطور رومانوس الثاني، فخطط ليكون اكثر من قائد لقبه الشعب البيزنطي بالظافر.

نقفور فوقاس ٩٦٣ - ٩٦٩م

ينحدر نقفور من أسرة عريقة لها سمعتها العسكرية يرجع أصلها الى اقليم قبدوقية في آسيا الصغرى. فقد أحرز جده الذي كان يحمل الإسم نفسه شهرة عسكرية كبيرة لما قام به من أعمال بطولية في الغرب، وبخاصة في إيطاليا وصقلية في عهد بازيل الأول، كما أسهم عمه ليو في الحرب ضد البلغار. كما أن والده برداس قد أسهم لوقت طويل في الحرب ضد المسلمين في آسيا الصغرى. وقد سار نقفور على درب أسلافه، حتى أصبح قائد القوات البيزنطية في الشرق. وواقع الأمر كان نقفور جندياً قديراً تعلق بالجيش والجند وبادلوه هذا

الشعور، كما كان تقياً ورعاً - يصل إلى حد الرهبانية - متمسكاً بالصلاة والتصوف. ولعل سر تعلق الشعب به يرجع الى هذه الصفات فضلا عن تمسكه بالعدالة.

ويرجع وصول نقفور إلى عرش الإمبراطورية إلى أن الإمبراطور رومانوس ترك طفلين هما بازيل وقسطنطين فتولت أمهما ثيوفانو الوصاية عليهما، وكانت العلاقات قد توترت بين الأم وبرنجاس بسبب محاولة الأم جمع السلطة في يدها. وترتب على ذلك تحول ثيوفانو الى نقفور بدلا من برنجاس فور وفاة زوجها خوفاً على سلطتها.

وارسلت ثيوفانو الى نقفور في آسيا الصغرى تطلعه على الأحداث التي وقعت بالعاصمة في محاولة للاستعانة به لتحقيق آمالها في الاحتفاظ بالسلطة. ونجحت ثيوفانو في ضم نقفور الى جانبها كما نجحت أيضاً وهي الأرملة الشابة الجميلة في ان تعزو قلب نقفور بالقوة التي غزا بها نقفور قلب آسياالصغرى، وكان عليه ان يحمي ثيوفانو كما حمى حدود الامبراطورية الشرقية.

تقدم نقفور الى القسطنطينية تحت شعار القائد المنتصر، ولكن برنجاس أحس بما كان يكنه نقفور وحاول منعه من دخول العاصمة ولكن حب الشعب للقائد نقفور جعل برنجاس يقلع عن هذه الفكرة. وما أن دخل نقفور العاصمة حتى أصبح الرجل الأول في الإمبراطورية، يساعده في ذلك ما قدم للإمبراطورية من الأعمال الجليلة والصلات الوثيقة بينه وبين رجال الدين وبطريك القسطنطينية. وإتسم عمل نقفور بعدم القدوم على أي عمل من شأنه إنقاص حقوق الإمبراطوريين القاصرين.

لم يستسلم برنجاس لتقلص نفوذه داخل الإمبراطورية، وبدأ يتآمر على نقفور، واستعان ببعض القادة باذلا لهم الكثير من الوعود، ولكن شخصية نقفور في هذه المرحلة كانت أقوى من المال، فأبلغه القواد ما ينوبه برنجاس. وكان نقفور في بعض المهام العسكرية في مدينة قيصرية في آسيا الصغرى، وألح القواد على

نقفور بسرعة التصرف وأشاروا عليه بالعودة الى القسطنطينية. وعلمت قوات نقفور بما يحاك ضده فنادت به إمبراطوراً في قيصرية في عام ٨٦٣م وزحفوا معه الى العاصمة لتتويجه.

وصلت هذه الاخبار الى العاصمة، وتزعم برنجاس ثورة ضد نقفور بعدما وضع أباه وأخاه رهينة عنده، وإستمرت الثورة حوالي ثلاثة أيام دخل بعدها نقفور العاصمة التي تلطخت شوارعها بالدماء ليتوج امبراطوراً شريكاً في السادس عشر من أغسطس عام ٩٦٣م، بعد ما أقسم بمراعاة حقوق الامبراطورين القاصرين. وبعد حوالي شهر تزوج من ثيوفانو وأصبح رجل الساعة الذي أنقذ الإمبراطورية من الأخطار الخارجية ومن المؤامرات الداخلية.

حروب نقفور في الشرق

كان نقفور يحارب في الشرق عندما قامت هذه الأحداث، فأوقف حملاته في شمال الشام. فانتهز سيف الدولة هذه الفرصة وتمكن من إستعادة عين زربه وغيرها من المدن التي كان نقفور قد إستولى عليها. ولم يقف نقفور ـ وهو القائد الذي إكتسب شهرته من هذه الحروب ـ مكتوف الأيدي، فأعد جيشاً قوياً ووضع على رأسه يوحنا تزيميسكس Tzimisces الذي أصبح قائد قوات الإمبراطورية في الشرق. وبدأت من هذا الوقت سلسلة من الحملات البيزنطية ضد المسلمين الذين كان يدافع عنهم في هذه المرحلة سيف الدولة الحمداني وأسرته من بعده.

تقدم يوحنا تزيميسكس الى مدينة المصيصة عام ٩٦٣م ولكنها صمدت أمامه، فتحول عنها الى مدينة أدرنه حيث منيت قواته بهزيمة كبيرة، ولم يواصل يوحنا أعماله العسكرية وفضل العودة الى بلاده بعدما حل القحط والمجاعة بالاقليم.

وفي العام التالي ٩٦٤م قاد نقفور القوات البيزنطية لقتال المسلمين وتركزت خطته العسكرية في اتخاذ مدينة قيصرية في قبدوقية مسقط رأسه

قاعدة عسكرية ينطلق منها الى ما يريد من البلدان الإسلامية. وبدأ نقفور بالتقدم الى عين زربه فاستولى عليها وما حولها وعاد منتصراً الى قاعدته قيصرية لقضاء فصل الشتاء.

وفي العام التالي ٩٦٥ م/٣٥٤ هـ، قسم نقفور جيشه الى قسمين تولى هو قسماً منه واتجه به المصيصة فدخلها عنوة، وتوجه القسم الآخر تحت قيادة أخيه ليو الى طرطوس وظل محاصراً لها حتى أتى اليه نقفور بعد سقوط أدرنه، ولم تحتمل المدينة شدة الحصار فاستسلمت لقوات نقفور. وهكذا عادت قيليقيه الى السيادة البيزنطية، بعدما عجز المسلمون عن قتال القوات البيزنطية. ولم يتدخل سوى كافور الأخشيدي الذي وجه أسطولا مصرياً حمل المؤن لأهل طرطوس، ولكن القوات البيزنطية حالت دون وصول هذه المؤن الى اهالي طرطوس بعدما تعرضت السفن لضربات السفن البيزنطية.

وأعقب هذه الاحداث قيام البحرية البيزنطية بحملة بحرية في العام نفسه ٩٦٥م على جزيرة قبرص، وقد نجحت هذه الحملة في هزيمة القوات الاسلامية في قبرص فدخلتها وسيطرت عليها تماماً وأقصت الحكم الاسلامي عن الجزيرة، وعادت قبرص ولاية بيزنطية، كما عادت قيليقيه وجزيرة كريت من قبل.

وفي صيف العام التالي ٩٦٦م توقفت الحرب لبعض الوقت وتم تبادل الأسرى بين الطرفين، وكان من بينهم الشاعر أبو فراس الحمداني بعد ان قضى أربع سنوات أسيراً لدى البيزنطيين، وما ان حل شتاء العام نفسه حتى تقدم نقفور الى أعالي الفرات فدخل دارا ونصيبين، ثم تحول الى مدينة انطاكية وأغار عليها ولكنه إضطر للتراجع بسبب الخطر البلغاري.

وبعد ما فرغ نقفور من المشكلة البلغارية عاد في عام ٩٦٨م/٣٥٧ هـ وتقدم مرة أخرى الى أعالي الشام فدخل معرة النعمان وأحرق مسجدها، ثم اتجه الى شيزر وحماه وحمص. ولما دخل الاخيرة أحرق مسجدها وصلى بكنيستها. واتجه بعد هذه الاحداث الى انطاكية فألقى عليها الحصار، ولكنه اضطر للتراجع الى العاصمة بسبب نفاذ المؤن وسوء المناخ، بعدما عهد الى

بطرس فوقاس ـ المعروف في المصادر العربية باسم الطرباذي ـ بأمر انطاكية .

وأثناء غياب نقفور نجح بطرس فوقاس في الاستيلاء على المدينة في أواخر عام ٩٦٩ م ، وعاد نقفور ليجد حماس الجند يدفعه للتقدم نحو حلب ، واستغل نقفور هذا الحماس وإتجه إلى حلب فدخلها في العام نفسه ، ووقع صاحبها قرغوية معاهدة مع البيزنطيين اعترف فيها بسيادتهم ، فأقره نقفور على حكم المدينة ، ومن شروط هذه المعاهدة اقامة نائب للامبراطور في المدينة ، ورفع الجزية عن المسيحيين ، وان يدفع كل مسلم ديناراً كل عام . وعلى حاكم المدينة تأمين طرق التجارة ، واشراف الحلبيين والبيزنطيين على جباية المكوس .

نقفور والإمبراطورية الرومانية في الغرب

حكم أوتو الأول المانيا من عام ٩٣٦ - ٩٦٢ ثم توج امبراطوراً في عام ٩٦٢ م وظل كذلك حتى عام ٩٧٣ م . وتسلط أوتو على جانب كبير من الغرب الاوربي وادعى السيادة على ايطاليا كلها بعدما .اعترفت لمبارديا بسلطته . ولعل ذلك مرجعه إلى عدة عوامل ؛ منها أنه كإمبراطور عليه أن يعيد أملاك شارلمان في إيطاليا . لذلك تقدم أوتو وحاصر مدينة باري Bari وهي القاعدة البيزنطية الهامة في إيطاليا ولكنه هزم .

ولجأ أوتو إلى سياسة أخرى غير سياسة الحرب ، وأرسل مبعوثاً الى القسطنطينية للتفاوض في أمر زواج ثيوفانو ابنة الامبراطور رومانوس الثاني من ابن أوتو الذي يحمل الاسم نفسه . ولكن نقفور إعترض على مثل هذا الزواج ، كما اعترض على حمل أوتو لقب امبراطور . وتوسط البابا يوحنا الثالث ٩٦٥ - ٩٧٢ م ، وخاطب نقفور بلقب امبراطور اليونان ولبس الامبراطور الروماني . وتعقدت المشكلة وتفاقمت وانتقلت الى صراع بين الكنيسة الشرقية والغربية ، ولكن نقفور القائد لم يعبأ بعداء روما وكنيستها .

أما عن علاقة نقفور بالبلغار فمرجعه الى المعاهدة التي وقعها رومانوس ليكابينوس مع بطرس البلغاري بعد الصراع الطويل بين بيزنطة وسيمون .

وكانت هذه المعاهدة تقضي بقيام الامبراطورية بدفع جزية سنوية للبلغار ، وظل الحال كذلك حتى عهد نقفور . ولما كانت بلغاريا تعاني من الإنقسامات الداخلية ، وإستقلال بعض الإقطاعيين بما تحت أيديهم من أراضي ، رأى نقفور استغلال هذا الموقف لصالحه والامتناع عن دفع الجزية ، وكانت الحجة التي تذرع بها نقفور لوقف الجزية ، هي عبور بعض البلغار لنهر الدانوب ودخولهم الأراضي البيزنطية . وعندما كان نقفور يحاصر انطاكية عام ٩٦٧م قدم المندوبون البلغار لاستلام الجزية ، فترك نقفور حصار انطاكية ليعود الى العاصمة ليقابل الوفد مقابلة مهينة ويطرده من العاصمة .

ولما كان نقفور مشغولا بالحرب على الجبهة الشرقية فقد رأى الاستعانة بالروس لضرب البلغار . لذلك اتصل بالروس في عاصمتهم كييف للتحالف مع أميرهم سفياتوسلاف Sviatoslav . وإستجاب الروس لطلب نقفور ، ودفعوا بجيش كبير إلى بلغاريا ونجحوا في إجتياح أراضيها بمساعدة بعض الأمراء البلغار . ولكن سفياتوسلاف اضطر الى العودة الى روسيا بسبب هجمات البجناكية ، وبعدم ما تخلص من خطر البجناكية عاد الى بلغاريا في عام ٩٦٩م ليضمها الى ممتلكاته . وأحس نقفور بالخطأ الذي وقع فيه فتحول الى البلغار لضمهم الى جانبه ، وفي هذه المرحلة مات بطرس قيصر البلغار ، فوقعت الحرب الأهلية التي كفلت الراحة للإمبراطورية البيزنطية لبعض الوقت .

يوحنا تزيمسكس ٦٩٩ - ٩٧٦م

كان نقفور تزوج من ثيوفانو وهو في الخمسين مرة ، ولكنه لفت نظرها كقائد عسكري ، ولم ترض عنه بعد الزواج بسبب التفاوت في السن وانشغاله الدائب بأمور الدولة . وعلى الرغم من انتصارات نقفور فإنه لم يستطع ان يجعل من نفسه امبراطوراً محبوباً ، وذلك بسبب وطأة الضرائب التي فرضها على الشعب لسد نفقات الحرب ، وبدأ نقفور يتخوف من أقرب الناس اليه . وانتقل هذا الشعور الى زوجته الشابة الجميلة التي هجرها نقفور ، فهي الأرملة التي قالوا عنها انها دست السم لزوجها رغم شبابه لتتزوج من نقفور البطل . ولكنها

الآن تتطلع الى الشباب والبطولة وكان يوحنا تزيميسكس يملك هاتين الصفتين. وربط بين ثيوفانو ويوحنا ماكان من نزاع بين يوحنا ونقفور وبدأ يوحنا يتآمر على نقفور. وانتهى الأمر بتدبير مؤامرة أعدتها ثيوفانو ذبح فيها نقفور داخل غرفة نومه في العاشر من ديسمبر عام ٩٦٩م.

وفي اليوم الثاني أصبح يوحنا امبراطوراً شريكاً مع بازيل وقسطنطين ولدى رومانوس الثاني، ولكن بوليوكتوس Polyeuctes بطريك القسطنطينية ٩٥٦ - ٩٧٠م رفض تتويج يوحنا إمبراطوراً، إلا بعد الإعتراف بقاتل نقفور، وطرد الامبراطورة الآثمة من القصر، وعدم التدخل في شؤون الكنيسة. وكان للبطريك ما أراد وتوج يوحنا في الخامس والعشرين من ديسمبر عام ٩٦٩م، ثم ما لبث البطريك ان مات بعد عام واحد.

علاقة بيزنطة بالروس والبلغار.

بعدما هزم الروس البلغار في عهد نقفور فوقاس، زاد طمعهم في الممتلكات البيزنطية. وفي عام ٩٧٠م تقدم الأمير الروسي سفياتوسلاف الى الحدود البيزنطية ودخل تراقية وأخذ يتلمس طريقه الى العاصمة البيزنطية، الأمر الذي أثار الذعر في القسطنطينية. ولم يعد أمام تزيميسكس سوى الحرب، فاستدعى قواته من آسيا الصغرى وأعدها اعداداً جيداً في العاصمة ووضع على رأسها إثنين من أعظم قواده هما بارداس سكليروس وبطرس فوقاس.

وفي مدينة أركاديوبوليس Arcadiopolis تقابل الجيش البيزنطي مع القوات الروسية، فتظاهر بارداس سكليروس بالانسحاب الأمر الذي أطمع الروس في ملاحقة الجيش البيزنطي، وكان برداس قد أعد الكمائن في الأماكن التي تراجع منها وسد المنافذ التي يمكن للقوات الروسية استخدامها.

ونجح سفياتوسلاف في هذه المرحلة في ضم المجيار والبجناكية إلى جانبه، فضلا عن بعض أمراء البلغار. واغتر الأمير الروسي بما تحت يديه من قوات وتقدم خلف القوات البيزنطية حتى دخل منطقة الكمائن التي أعدها برداس

سكليروس ،وفي الوقت المناسب ضربت القوات البيزنطية ضربتها وانتصرت إنتصاراً ساحقاً على الروس وحلفائهم بالقرب من مدينة أدرنه ، واضطرت القوات الروسية إلى الانسحاب إلى بلغاريا .

وانشغل يوحنا لبعض الوقت بثورة برداس فوقاس ولكنه لم يهمل الجانب الروسي ،فكان يرسل اليه القوات الكفيلة بمنع تقدمه الى الشرق . وفي عام ٩٧٢ م أعد يوحنا جيشاً قوياً حسن التدريب ، كما أبحرت البحرية البيزنطية في نهر الدانوب للغرض نفسه . وفي بريسلاف نشبت معركة بين الجانبين انتصرت فيها القوات البيزنطية انتصاراً ساحقاً وهلك عدد كبير من القوات الروسية ، وكانت كارثة من أعظم الكوارث التي حلت بالروس في هذه المرحلة من الزمن . ووقع العديد من الأسرى في أيدي القوات البيزنطية ومن بينهم قيصر البلغار المعزول . ولكي يفرق يوحنا بين الروس والبلغار اعاد القيصر بوريس البلغاري الى عرشه فانقض البلغار على الروس .

بعد هذه الأحداث فر الأمير الروسي إلى مدينة سيلسترا Silistra على نهر الدانوب فتتبعه يوحنا ، وإنضم إليه الأسطول البيزنطي القادم من الدانوب غرباً . وألقى يوحنا الحصار على المدينة حتى كادت تهلك جوعاً ، وفشلت محاولات الأمير الروسي في فك الحصار وانتهى الأمر بهروبه من المدينة ليلاً ، فدخل يوحنا المدينة وغنم منها الكثير . وانتهى الأمر بأن عرض الأمير الروسي الصلح على يوحنا فقبله الأخير ووقعت معاهدة بين الطرفين ، إحتفظ الروس بموجبها على ما كان لهم من إمتيازات تجارية في بيزنطة .

كان ما قام به يوحنا من اعادة بوريس قيصر البلغار الى عرشه ما هو إلا خدعة لضرب التحالف الروسي البلغاري ، وبعد ما تخلص يوحنا من الخطر الروسي استدار الى البلغار وعزل بوريس وسيره أسيراً الى القسطنطينية ، ولم يكتف بذلك بل عزل بطريك بلغاريا وأضحت بلغاريا الشرقية جزءاً من أراضي الإمبراطورية البيزنطية وفقدت استقلالها السياسي والديني ، أما الجانب الغربي من بلغاريا الذي عرف باسم امبراطورية بلغاريا المقدونية فقد حكمه صمويل

ابتداء من ٩٧٦ حتى ١٠١٤ م، ثم جبريل من ١٠١٤ - ١٠١٥ وأخيراً يوحنا فلاديسلاف Vladislav من ١٠١٥ - ١٠١٨ م وتنتهي الامبراطورية البلغارية الاولى.

تزيميسكس والإمبراطورية الرومانية في الغرب

ظل الصراع قائماً بين الامبراطور الالماني أوتو الأول وبين نقفور فوقاس في إيطاليا طوال عهد نقفور حتى عام ٩٦٩ م. وعند علم أوتو بمصرع نقفور إستعد للقضاء على النفوذ البيزنطي في إيطاليا. وفي صيف عام ٩٧٠م تقدم الى ايطاليا، وبعد أشهر قليلة كانت القوات الالمانية قد توغلت جنوباً حتى بعد نابلي.

كان الموقف داخل القسطنطينية في هذه المرحلة في غاية السوء، فالحرب الروسية البلغارية تهدد الامبراطورية من الناحية الشمالية والغربية، والخطر الاسلامي قائم في الشرق، يضاف الى ذلك الثورة التي قام بها برداس فوقاس. وفوق هذا كله كان موقف الامبراطور يوحنا تزيميسكس في غاية الحرج،فقد كان في نظر الشعب البيزنطي قاتل نقفور أو على الأقل محرضاً على قتله وإنه في كلا الحالتين مغتصباً للعرش.

كان على تزيميسكس ان يتصرف بمنتهى الحكمة في هذه المرحلة حتى لا تضيع كل الجهود التي بذلها للوصول الى عرش الامبراطورية، لذلك تحول الإمبراطور إلى أمير كابوا الذي أسره نقفور عام ٩٦٩ م، كعلامة على حسن نية الامبراطور تزيميسكس،وفي الوقت نفسه ليكون سفيراً بين بيزنطة والمانيا لتسوية الموقف في ايطاليا بطريقة سلمية. وجدد الامبراطور الالماني أوتو الاول عرضه الخاص بزواج ابنه المدعو أوتو أيضاً من ثيوفانو ابنة رومانوس الثاني، وهو العرض الذي رفضه نقفور من قبل.

وافق تزيميسكس على طلب أوتو ورحلت ثيوفانو الى روما حيث تم الزواج في عام ٩٧٢م. وسويت المسألة الايطالية بانسحاب القوات الالمانية من

الممتلكات البيزنطية في إيطاليا. وعاد أوتو من ايطاليا حيث مات في العام الثاني ٩٧٣م وخلفه على عرش الامبراطورية أوتو الثاني ومعه زوجته ثيوفانو.

تزيميسكس والمسلمون

لم تجر احداث هامة في صقلية وجنوب ايطاليا بين بيزنطة والدولة الفاطمية في المغرب لانشغال الدولة الفاطمية بفتح مصر، ولكن هذا الصراع انتقل الى الجانب الشرقي بعدما سيطرت الخلافة الفاطمية على مصر والشام.

وواقع الأمر ان الصراع بين البيزنطيين والمسلمين صراع طويل لازم الدولة البيزنطية طوال عهدها، حتى أصبح حرب المسلمين واجب مقدس لدى الأباطرة البيزنطيين، وأن أكثر الأباطرة شهرة في التاريخ البيزنطي هم الذين حازوا انتصاراً على المسلمين، رغم ان هذا الانتصار مهما كانت قيمته فانه كان انتصاراً مؤقتاً، لأن القسطنطينية سقطت في نهاية الأمر على يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م.

على أية حال بعدما فرغ يوحنا تزيميسكس من الروس والبلغار بالحرب، ومن الامبراطورية الرومانية في الغرب بالسلم والزواج السياسي، توجه الى المشرق وخطط لضرب بغداد عاصمة الخلافة العباسية والسيطرة على الشام ودخول بيت المقدس. ومن هنا يرى بعض المؤرخين ان عهد تزيميسكس مقدمة للعدوان الصليبي على المشرق العربي.

ولكن الأحداث لم تبق الأمور على حالها، فالدولة الفاطمية التي دخلت مصر ثم الشام، وجدت نفسها وجهاً لوجه مع الدولة البيزنطية، وهكذا انتقل الصراع بين الخلافة الفاطمية وبيزنطة من صقلية وجنوب ايطاليا الى أعالي الشام وأصبح الصدام حتمياً.

وترجع هذه الاحداث الى بداية حكم تزيميسكس عندما دخلت القوات الفاطمية الشام بقيادة جعفر بن فلاح أوائل عام ٣٥٩هـ/ أواخر ٩٦٩م، واستولت على دمشق، ثم محاولة جعفر الاستيلاء على انطاكية في العام التالي.

وبعدما فرغ تزيميسكس من حروب الروس والبلغار، جهز حملة في عام ٩٧٤م وسار على رأسها الى أعالي الفرات، فدخل نصيبين ودياريكر فسبي وأحرق وخرب، ثم ما لبث ان عاد الى القسطنطينية، ولعل ذلك بسبب قلة المؤن.

ويبدو أن تزيميسكس قد تحالف مع أحد زعماء الأرمن وهو الملك آشوط الثالث Ashot III ٩٥٢ - ٩٧٧م قبل عودته إلى بلاده، وحاول آشوط استكمال أعمال تزيميسكس فتوغل في إقليم الجزيرة وحاول الإستيلاء على مدينة آمد، ولكن الحمدانيين أنزلوا به هزيمة ساحقة عند ميافارقين. وترتب على هذه الهزيمة إسترداد المسلمون لكل الأراضي التي فتحها تزيميسكس.

وأراد الامبراطور البيزنطي الانتقام لما حل من هزيمة بحليفه الأرميني، ولعل ما أطعمه في التقدم صوب الممتلكات الاسلامية في هذه المرحلة هو سوء الاوضاع في العالم الإسلامي فقد كان أبو تغلب الحمداني في الموصل، وسعد الدولة الحمداني في حلب. وكان يتولى أمر الخلافة العباسية في بغداد الخليفة المطيع ٣٣٤ - ٣٦٣هـ/٩٤٦ - ٩٧٤م، ومن بعده إبنه الطائع ٣٦٣ - ٣٨١هـ/٩٧٤ - ٩٩١م. وخضع باقي الشام ومصر للخلافة الفاطمية.

تحرك تزيميسكس في عام ٩٧٤م صوب إقليم الجزيرة وشاركه الأرمن في هذه الحملة، واستولى على آمد ثم ميافارقين ونصيبين، وعزم تزيميسكس على التوجه الى بغداد، ولم تمدنا المصادر بالأسباب التي جعلت الامبراطور يقلع عن هذه الفكرة ويعود الى العاصمة البيزنطية، بعدما ترك جيشه في طرسوس وانطاكية.

عاد تزيميسكس مرة أخرى الى القتال عام ٩٧٥م، وكان مسرح الأحداث في هذه المرحلة أراضي الشام وكان على الخلافة الفاطمية التي إنتزعت معظم المدن الحصينة من الدولة البيزنطية في شمال الشام، ان تتصدى للقوات البيزنطية.

إتخذ تزيميسكس طريقه الى إنطاكية في مارس ٩٧٥م حيث استراح لبعض الوقت وأعد قواته لكفاءة قتالية أفضل. ومن انطاكية إتجه الى حمص ثم الى بعلبك، ومنها عبر جبال لبنان الى دمشق وفرض عليها الجزية. وتقدمت القوات البيزنطية وسيطرت على الساحل الشامي حتى الرملة.

عاد تزيميسكس بعد هذه الأعمال العسكرية الى عاصمته ولم يمض وقت طويل حتى مات في يناير عام ٩٧٦م. وبوفاة تزيميسكس، ينتهي عهد القادة العسكريين الذين حكموا الامبراطورية إبان حكم الأسرة المقدونية، وعاد الحكم مرة أخرى الى البيت المقدوني وتولى عرش الامبراطورية بازيل الثاني.

الفصل العاشر

الأسرة المقدونية

٤ - عصر بازيل الثاني ٩٧٦ - ١٠٢٥م

رغم أن الحقوق الامبراطورية للممثلين الشرعيين للأسرة المقدونية ظلت تحت حكم نقفور فوقاس ويوحنا تزيميسكس، فقد كانت فكرة أن العرش لا يحق الا لمن ولد في الحجرة الارجوانية أخذت تتضاءل في أذهان النبلاء البيزنطيين. وأصبحت العادة المتبعة هي تركيز السلطة في أيدي أحد القادة الذين ينتمون للعائلات الكبيرة، وعند وفاة يوحنا تزيمسكس جاء زوج أخته بارداس سكليروس متوقعاً أن يملأ المركز الشاغر كشريك للامبراطور. وبدا البيت الإمبراطوري المقدوني، مثل البيت الميروفنجي، قد حكم عليه أن يظل ضحية لعدد من موظفي القصر، ولكن قدرة الامبراطور الشاب بازيل الثاني، النادرة، هي صاحبة الفضل في إبعاد بيزنطة من هذا المصير.

وصل ابناء رومانوس الثاني إلى سن تجعلهم مؤهلين للحكم؛ فقد كان بازيل في الثامنة عشرة وقسطنطين في السادسة عشرة. وكان يؤيدهما خالهما الخصي بازيل بقوة حتى تسلما السلطة. ولكن الاخ الاكبر وحده هو الذي مارس السلطة الفعلية، ذلك أن قسطنطين الثامن كان شبيهاً بوالده إلى حد كبير، لأنه كان بفطرته لاهياً مستهتراً، لم يرغب في شيء سوى أن يمضي حياته منغمساً في اللهو والمسرات. وكان الأمر عكس ذلك تماماً مع بازيل الثاني الذي لم يلبث أن ظهر أنه رجل ذو إرادة حديدية ومواهب نادرة. ومن بين كل خلفاء بازيل الاول، كان هو وحده حاكماً مؤهلاً للحكم ورجل دولة، رغم أنه لم يُعد الاعداد اللازم للقيام بأعباء الحكم. فمنذ أن كان طفلا كانوا يعتبرونه

مجرد تمثال صغير في حفلات البلاط ، وعاملوه وكأنه فرد من أفراد حاشية المغتصبين للعرش .

وكانت دفة الحكم في الأيدي الخبيرة للخصى بازيل كبير الامناء . والثورة التي قادها بارداس سكليروس كانت موجهة ضد الخصي أكثر منها ثورة ضد أبناء أخته ، اللذين لم يشكلا حتى هذه المرحلة أية خطورة . وبارداس ، وهو سليل واحدة من أقدم وأغنى العائلات البيزنطية كان قائداً فذاً مشهوراً شغل في عهد تزيمسكس أعلى منصب عسكري وهو قائد قوات الشرق ، جعل جنوده ينادون به إمبراطوراً في صيف ٩٧٦ م . وحقق إنتصارات على القواد الموالين للقصر الذين أرسلوا لمحاربته ، وشيئاً فشيئاً وضع كل آسيا الصغرى تحت سلطانه ، وحتى بداية ٩٧٨ م ، بعد إستيلائه على نيقية ، كان في إستطاعة التقدم نحو العاصمة نفسها ، وفي هذه اللحظات من الخطر العظيم المحدق بالامبراطورية تحول بازيل كبير الامناء إلى بارداس فوقاس ، ابن شقيق الإمبراطور نقفور ، وهو محارب شجاع عملاق الحجم ، حاول إغتصاب العرش ايام تزيمسكس . وكان عليه ان يسحق سكليروس باسم الحكام الجدد كما حدث وسحقه سكليروس نفسه من أجل يوحنا تزيمسكس . وانتصر بارداس فوقاس بالفعل على منافسه السابق ، ولكن هذا النصر لم يحرزه كخادم للأباطرة الشرعيين ولكن كبطل من بيت فوقاس القوى . وحتى يبعد ميدان القتال عن القسطنطينية ، تقدم الى قيصرية ، معقل آل فوقاس ، وبعمله هذا أجبر المغتصب على التراجع عن القسطنطينية . وكسب سكليروس المعركة الأولى ، ولكن في ٢٤ مايو ٩٧٩ م ، وفي سهول بانكاليا Bankalia ، ليس بعيداً عن عمورية هزم فوقاس غريمه أولاً في مبارزة فردية ثم هزم جيشه هزيمة حاسمة . وهرب سكليروس إلى بلاط الخليفة العباسي الطائع لله في بغداد ، وبفراره إنتهت الحرب الأهلية الأولى التي إستمرت ثلاث سنوات .

وبعد سنوات نشبت خصومة بين الامبراطور الشاب بازيل وخاله المتسلط . ولم يعد بازيل ذلك الفتى عديم التجربة الذي يحتاج الى العون والتأييد ،

والارشاد والهداية. فقد ظهرت قوته وقدرته على الحكم، والوصاية التي قبلها ورحب بها في البداية صارت عبئاً عليه، واخيراً تجمعت عدة عوامل، منها رغبته المتعطشة للسلطة وإحساسه بالفشل بسبب إبعاده عن مهام السلطة، تجمعت كلها في إحساس بالكراهية الشديدة تجاه الرجل الذي يدين له بما تعلمه في السياسة، وربما كان مدينا له بالعرش نفسه. وهكذا كان رجل الدولة العظيم - الذي عرف كيف يتعامل مع القواد الاباطرة الاقوياء مثل نقفور وتزيسكس - ضحيته الرغبة الجامحة في السلطة من قبل إبن إخته. ويبدو أن الخصي بازيل قد تنبأ بما سيحدث له، وتآمر مع بارداس فوقاس وقادة آخرين ضد الإمبراطور الناكر للجميل. ولكن الإمبراطور قطع عليه خط الرجعة وقبض عليه كأي ثائر عادي، وبعد مصادرة ثروته الهائلة، أرسل الى المنفى، حيث ما لبث أن توفي متأثراً بسوء المصير الذي إنتهى إليه.

ورغم أن إنفراد بازيل الثاني بالحكم يعرف رسمياً منذ ٩٧٦م، فان إستقلاله بالحكم فعلا يبدأ بعد نفي خاله كبير الامناء في سنة ٩٨٥م. وهناك حقيقة هامة تظهر بوضوح إلى أي مدى كان كبير الامناء قديراً، وذلك عندما ظهر حنق واستياء الامبراطور من الوصى عليه، فقد آل باسيل الثاني على نفسه أن يعلن عدم صلاحية كل القرارات التي نشرت قبل عزل الخصى، إلا إذا كانت تحمل تأييداً للأوامر السابقة في هيئة مذكرة مكتوبة بخط يده بأنه قد أجازها.

وكانت أول مشاريع بازيل الثاني حملة البلقان في سنة ٩٨٦م، فإن وفاة تزيسكس كانت خلاصاً لأعداء الإمبراطورية وكأنهم تخلصوا من كابوس. والحرب الاهلية وغيرها من المشاكل التي تتابعت على الدولة البيزنطية تركتهم يتصرفون بحرية لعدة سنوات.

بازيل والبلغار

وكان ضعف السلطة المركزية للإمبراطورية، له آثار بعيدة المدى على الاحوال في البلقان. فبعد وفاة يوحنا تزيميسكس، قامت ثورة في منطقة

مقـدونيـاً ، قـادهـا أبنـاء نيقولا والي مقـدونيـا . واتخـذت هـذه الثورة شكـلاً خطيراً وأصبحت حرباً من أجل الإنفصال إنتشرت في كل أرجاء مقدونيا ، مطالبة بإزالة الحكم البيزنطي عن الجزء الأكبر من البلقان . وعند سماع تلك الانباء فر بوريس الثاني Boris II قيصر البلغار (٩٦٩-٩٧٢م) مع أخيه رومانوس من القسطنطينية ، ولكن بوريس ارتكب خطأً أدى إلى قتله على يد الحراس البلغار ؛ ووصل رومانوس إلى وطنه ولكنه لم يستطع المطالبة بالعرش لانـه خُصي في بـيزنطيـة ، وآلـت القيـادة والتـاج فيـما بعـد إلى صموئيـل ٩٧٦-١٠١٤م ، أصغر أبناء حاكم مقدونيا ، ذلك ان اخويه الكبيرين قد ماتا ، أما الثالث فقد قتله صموئيل بنفسه .

وأصبح صموئيل مؤسس إمبراطورية قوية ، إتخذت في البداية مدينة Ochrida أوخريدا عاصمة لها . وشيئاً فشيئاً ضم لنفوذه كل منطقة مقدونيا ـ فيما عدا سالونيك والأراضي البلغارية القديمة بين الدانوب وجبال البلقان ، وتساليا ، وابيروس ، وجزءاً من ساحل دالماشيا يتضمن ديراكيوم ، وأخيراً الهرسك ودقليا . وإحتفل صموئيل بإحياء البطريكية البلغارية التي ألغاها تزيميسكس ، وإتخذت من أوخريدا العاصمة مركزاً لها ، وظلت كمركز ديني لعدة قرون بعد انتهاء إمبراطورية صموئيل . وإختلفت إمبراطورية صموئيل التي إتخذت منطقة مقدونيا نواة لها ، عن إمبراطورية سيمون في تكوينها وإتجاهها نحو الغرب والجنوب . ومهما يكن الأمر فإنها إنحدرت سياسياً ودينياً من إمبراطورية سيمون وبطرس .

وفي ذلك الوقت كان البلغار هم الشعب الوحيد بعد البيزنطيين الذين يملكون إمبراطورية وبطريكية خاصة بهم . وكانت هجمات البلغار على سالونيك قد تبعها نزوحهم المتكرر إلى تساليا Thessaly ، وإستولى صموئيل أخيراً على لاريسا Larissa عام ٩٨٥م . وقد تسبب هذا في هجوم مضاد من جانب بازيل الثاني ، ولكن معركته الأولى مع صموئيل لم تكن ناجحة . فقد غزا بازيل منطقة ساردیکا Sardica من بوابة تراجان ، ولكن محاولة الاستيلاء على

المدينة باءت بالفشل، وهوجم جيشه وهزم أثناء الإنسحاب في أغسطس ٩٨٦م. وعند ذلك أصبح في إمكان صموئيل تدعيم قوته دون أن يزعجه أحد. وامتدت حدود امبراطوريته حتى البحر الأسود من جانب، والى البحر الأدرياتيكي من الجانب الآخر.

وحوالي ذلك الوقت ثارت الإرستقراطية البيزنطية في وجه الامبراطور بعد أن شجعها على ذلك فشله في الحرب، وفي بداية عام ٩٨٧م ظهر بارداس سكليروس على الأرض البيزنطية، وعاد بارداس فوقاس الذي أصابه الخزي والعار بسبب تآمره مع بازيل كبير الأمناء، إلى القيادة العليا في آسيا وكان عليه مرة أخرى أن يقف ضد سميه بارداس سكليروس. ولكنه بدلاً من ذلك، ثار هو نفسه ضد الإمبراطور، بسبب إهمال بازيل له خلال السنوات القليلة السابقة، وهو ما إستنكره وإستاء منه بشدة ومرارة، وأعلن نفسه إمبراطوراً في ١٥ إغسطس ١٨٧م متمثلاً عمه العظيم نقفور فوقاس أمام عينيه.

وكان لثورته خطر كبير، ذلك أنه تقدم بجيش منظم يضم ضباطاً من أعلى الرتب وعدداً كبيراً من ملاك الأراضي الإستقراطيين في آسيا الصغرى. وهكذا ساند المغتصب قواد الجيش الذين كانوا يخشون قوة شخصية الإمبراطور الشاب التي تقف عقبة في سبيل تحقيق طموحهم. وإتفق بارداس فوقاس مع منافسه السابق على تقسيم الإمبراطورية، فيأخذ فوقاس القسم الأوربي بما فيه القسطنطينية، ويأخذ سكليروس القسم الآسيوي. وبعد فترة قصيرة من التعاون بينهما، تحقق بارداس فوقاس من تفوقه، وهذا ما دفعه إلى إعتقال رميله الطامع في العرش، وأصبح هو المطالب الوحيد بالعرش. وخضعت له كل آسيا الصغرى، وفي بداية عام ٩٨٨م تقدم نحو القيسطنطينية. وكان قد أعد هجوماً ثنائياً ضد العاصمة من البحر والبر، ووضع جزءاً من جيشه في كريسوبوليس Chrysopolis والباقي في أبيدوس. وكان الإمبراطور الشرعي لا أمل فيه ومئوس منه، ولم يكن هناك ما ينقذه من الدمار سوى العون الخارجي. وقد أدرك بازيل الثاني ذلك في الوقت المناسب وأرسل يطلب

المساعدة من الأمير الروسي فلاديير Vladimir (٩٧٢ - ١٠٠٥م).

وفي ربيع ٩٨٨م، دخلت الأراضي البيزنطية فرقة محاربة من ستة آلاف روسي، تحت قيادة دروزينا الفارانجي Druzina Varagian الشهير الذي أنقذ الموقف في آخر لحظة، وقاد الإمبراطور شخصياً الفارانجيين وهزم الثائرين وسحقهم عند كريسوبوليس، وكانت نهايتهم في معركة أبيدوس في الثالث عشر من إبريل ٩٨٩م، وفي أثنائها توفي بارداس فوقاس بأزمة قلبية، وأخمدت الثورة. وقام بارداس سكليروس بثورة جديدة ولكنها إنتهت بالطرق السلمية وإستسلام بارداس. وظل دروزينا الفارانجي في خدمة بيزنطة، وتعززت قواته بإضافة أعداد جديدة من الفرانجيين وغيرهم من الشماليين، ولعب دوراً هاماً في الجيش البيزنطي.

وكجائزة له على إنقاذه العرش الإمبراطوري وعد بازيل الثاني بزواج فلاديير أمير كييف من أخته سليلة الغرفة الإرجوانية، بشرط أن يدخل في المسيحية هو وشعبه. وكان ذلك إمتيازاً كبيراً. ولم يرشح لهذا الشرف العظيم بالإنتاء إلى البيت الإمبراطوري عن طريق الزواج سوى حاكم المملكة الروسية الفتية.

ومثل هذا الزواج السياسي كان ضد إحترام بيزنطة لنفسها، فبعد مرور الخطر ساد شعور في القسطنطينية بأن الوعد الذي منح في هذا الوقت العصيب لا يجب التمسك به. ولكي يقوي فلاديير مطلبه بالزواج من الأميرة البيزنطية وجد نفسه مضطراً إلى غزو الممتلكات البيزنطية على الجانب البعيد من البحر الأسود فإستولى على خرسون في صيف ٩٨٩م.

وتحول مملكة كييف الروسية إلى المسيحية لا يحدد فقط بداية عصر جديد في تقدم روسيا، بل يشير أيضاً إلى إنتصار باهر لبيزنطة. وإتسع مجال التأثير البيزنطي إلى مدى لم يكن متوقعاً، وخضعت أكبر أمم السلاف، ووضعت نفسها تحت القيادة الروحية للقسطنطينية. وكانت الكنيسة الروسية الجديدة تابعة لبطريكية القسطنطينية وأدارها في البداية مطارنة بيزنطيون أرسلتهم بيزنطة

لهذا الغرض. ولفترة قادمة ظل التقدم الحضاري لروسيا يسير تحت الحماية البيزنطية.

وخرج بازيل الثاني منتصراً في صراعه مع الإستقراطية في آسيا الصغرى. وبعد نضال ميئوس منه وحروب أهلية مريرة إنتصر على كل أعدائه والمناهضين له. ولكن الصراع إستمر ثلاثة عشر سنة كاملة، وفي أثناء تلك التجربة المريرة لتلك السنوات نمت شخصية الإمبراطور وإكتسبت قوتها الكاملة. وفقد ولعه بمسرات ومباهج الحياة التي كان قد إستسلم لها في شبابه، وأصبح مكتئباً مرتاباً متشككاً، لا يثق في أحد، ولا يعرف الصداقة ولا الحب. وظل أعزباً طول حياته. وعاش وحيداً منطوياً على نفسه، تماماً مثلما حكم الإمبراطورية منفرداً، معرِضاً عن كل مشورة أو نصح، فكان حاكماً أوتوقراطياً بكل معنى الكلمة. وكان أسلوبه في الحياة أسلوب ناسك متعبد أو أسلوب زاهد. وكانت طريقته في التعبير بسيطة وجافة، في نظر البيزنطيين المثقفين لأنها خشنة غير مهذبه. ورغم أنه كان عدو الإرستقراطية، لم يحاول كسب حب الشعب. ولم يطلب من شعبه الحب بل الطاعة. وكان طموحه بأكمله متجهاً نحو زيادة قوة الدولة والتفوق على أعداء الإمبراطورية في الداخل والخارج.

وإذا كان الطموح السياسي للإرستقراطية قد إنفجر في حرب أهلية ضارية، ففي الإمكان الشروع في الحد من طموحهم الاقتصادي. وأدرك بازيل كما أدرك رومانوس ليكابينوس من قبل كيف كان إتساع رقعة الإقطاعيات الكبيرة في الولايات يشكل عبئاً ثقيلا على البناء الاجتماعي والاقتصادي للدولة البيزنطية. ومن التجارب الهامة في طفولته وشبابه لم يميز بازيل الثاني سوى العواقب السياسية. واستأنف السياسة الزراعية ضد الارستقراطية التي بدأها رومانوس ليكابينوس، مصراً ليس فقط على التوسع في إستخدامها على نفس الخط، ولكن على التشدد في تنفيذها، بالإضافة الى بعد النظر السياسي الذي جعله يأخذ على نفسه عهداً بالمحافظة على ملكيات الفلاحين وملكيات الجيش.

وكان كرهه الشخصي للعائلات الكبيرة التي انكرت حقه في عرش آبائه جعلته يتمادى في عدم احترام مقتضيات الحق والعدل. وهذا تفسره قضية يوستاثيوس مالينوس Eustathius Maleinus ، أحد زملاء بارداس فوقاس السابقين في السلاح ، الذي طلب بازيل إستضافته عند عودته من حملته على الشام. ومرجع ذلك إلى الثروة العظيمة من الممتلكات والإقطاعات الواسعة التي يمتلكها هذا الوجيه الكبادوكي ، وفوق كل هذا ، العدد الكبير من العبيد والأتباع الذين كان في إمكانه أن يُكوّن منهم فرقة عسكرية من عدة آلاف من الرجال. وقد أثر كل هذا على الإمبراطور تأثيراً كبيراً ، حتى أنه دعا ضيفه إلى القسطنطينية وإعتقله وسجنه سجناً يليق بمقامه الرفيع ، وصادر كل ثروته وممتلكاته.

وفي التشريع الجديد (Novel) الذي أصدره بازيل الثاني سنة ٩٩٦ م ، يذكر آل فوقاس ومالينوس كأشهر ممثلين لأرستقراطية ملاك الإقطاعيات الأقوياء. وأهم إضافة - الى مواد التشريعات القديمة - قدمتها متجددة بازيل الثاني هو الغاء مهلة الاربعين سنة ، والتي بعدها ، حسب القوانين القديمة ، يبطل أي حق في ارجاع الممتلكات المكتسبة بطريقة غير قانونية. وتركز متجددة بازيل الثاني على ان النبلاء ، يستطيعون بقوة مركزهم ونفوذهم ، - ودون خوف من العقاب - المراوغة في فترة المهلة ، وبذلك يحافظون على ممتلكاتهم التي إستولوا عليها بطريقة غير قانونية. ولهذا أصدر الإمبراطور قانوناً يقضي بان كل الممتلكات ،التي إكتسبها الاغنياء من الفقراء منذ إصدار رومانوس ليكابينوس أول مرسوم سنة ٩٢٢ م ، يجب ان ترد الى الفقراء دون أي اعتبار لفترة المهلة ودون أي تعويض ، ومهما كان الأمر فان الملكية الخاصة كانت بالنسبة لبازيل الثاني معفية من مراعاة أي فترة زمنية ؛ وعاد حق الدولة في تجريد من تشاء من ممتلكاته.

وفي هذه المتجددة حاول بازيل الثاني أيضاً أن يحد من إتساع أملاك الكنيسة على حساب أراضي صغار الملاك. أما الأديرة التي أنشأها الفلاحون

وتقع في أراضيهم وبها عدد قليل من الرهبان ، ينظر إليها على أنها منازل صغيرة للراحة ملحقة بمجتمع القرية وتعفى من دفع الجزية للأسقف . ومع ذلك فان الأديرة الأكبر ، والتي تضم ثمانية رهبان أو أكثر ظلت في الواقع ، تابعة للأسقف ، الذي احتفظ بحقه كاملا في التصرف فيها ، ولكنهم منعوا من اقتناء أراض جديدة .

وصارت إجراءات بازيل الثاني ضد النبلاء تزداد صرامة وشدة . وبعد مرور سنوات قليلة على إلغائه لفترة المهلة ، قيدهم القانون بدفع الالتزام التضامني Allelengyon نيابة عن الفقراء ، أي أنه جعلهم مسؤولين عن دفع معظم الضريبة المقررة على الفلاحين . وهكذا إنتقل عبء هذه الضريبة التي كان حتى ذلك الوقت يقع عبء دفعها على جيران دافع الضرائب المفلس ، إنتقل الآن ليقع على كبار ملاك الأراضي . وهذا الإجراء الصارم كان له أثر مزدوج ، فهو ضربة جديدة ثقيلة موجهة للنبلاء ، وضمان للخزانة بدفع الضريبة . لأن دفع الضرائب عن الممتلكات المفلسة لأحد الجيران كانت دائماً فوق طاقة الفلاحين ودفعتهم الى الهجرة وترك مزارعهم ، مما ادى الى خسارة كبيرة للدولة . ولم تؤثر احتجاجات كبار الملاك على بازيل الثاني ، رغم أنهم تلقوا التأييد من البطريك سرجيوس (٩٩٩ - ١٠١٩ م) نفسه . وكان تصميم بازيل الأكيد هو كسر شوكة الإرستقراطية المتعجرفة ، الذي حاربها أسلافه بلا فائدة .

وبعد إنتهاء الحرب الاهلية مباشرة وبنفس القوة دخل بازيل في صراع مع أعدائه في الخارج . وكان أكثر أعدائه خطراً القيصر صموئيل . وأصبح الصراع مع صموئيل عمله الأساسي ، وإبادة إمبراطورية صموئيل أصبح حلم حياته ، وبدأ بمحالفة حكام البلقان الآخرين ضد الإمبراطورية البلغارية . وأرسل الشارة الملكية الى ستچبان دريزيسلاف Stegepan Drizislav ملك كرواتيا - كما فعل رومانوس ليكابينوس مع توميسلاف Tomislav ملك كرواتيا - ٩١٠ - ٩٢٨م أيضاً من قبل ، أثناء صراعه مع سيمون . وأعطى بازيل ملك كرواتيا

حكم مدن دالماشيا وأنعم عليه بلقب بطريق Patricius . ويبدو أنه أقام علاقات مماثلة مع الأمير يوحنا فلاديمير Vladimir أمير دقليا . ووصلت سفارة صربية ، يبدو أنها من دقليا ، بطريق البحر الى بيزنطة في عام ٩٩٢ م ، بعد أن واجهت العديد من المغامرات ، ولكنهم وجدوا أن الامبراطور قد غادر العاصمة بالفعل إلى ميدان القتال . ففي ربيع ٩٩١م غزا بازيل مقدونيا حيث كان عليه أن يتابع الصراع مع صموئيل لعدة سنوات .

ومهما كان الأمر فقد اضطر بازيل إلى قطع حملته الناجحة لكي يتوجه إلى الشرق ، ذلك أنه في سنة ٩٩٤ م ، أنزل الفاطميون هزيمة خطيرة بقائد أنطاكية البيزنطي ، عند نهر العاصي ، ونتيجة لذلك حاصروا حلب وأصبح الخطر الكبير يتهدد أنطاكية نفسها . وكان قدر الإمبراطورية أنها دائماً تحارب على الجبهتين الشرقية والغربية . وكان العقاب الشديد يعقب أية محاولة لتجنب هذا القدر . وكانت المسألة البلقانية بالنسبة لبازيل الثاني بنفس الأهمية التي ينظر بها إلى المسألة الشامية . ولكن بازيل لم يقع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه زوج أمه نقفور ، الذي أنسته مشاغله في شمال الشام التزاماته في البلقان . وفي ٩٩٥ م ، ظهر بازيل الثاني بنفسه أمام أسوار حلب ، وأخذ العدو على غرة ، وإستولى على رافينا وحمص . ثم عاد إلى شمال الشام مرة أخرى عام ٩٩٩ م ، لينقذ الموقف بعد هزيمة حاكم انطاكية على يد الفاطميين . ولكن جهوده للإستيلاء على طرابلس باءت بالفشل للمرة الثانية . وبعد إعادة الحالة إلى ما كانت عليه في الشام ذهب إلى القوقاز للإشراف على شؤون أرمينية وإيبريا .

وانتهز صمويل فرصة غياب الامبراطور وقاد حملة ضد بلاد اليونان متوغلا في البلوبونيز . وفي طريق العودة ، فاجأه القائد البيزنطي القدير نقفور أورانوس Uranus وهزمه ، وجرح صمويل نفسه في المعركة ونجا من الموت بإعجوبة عام ٩٩٧ م . ورغم هذه الكارثة ، لم تقف أطماع صمويل ، وربما كان دخوله الى ديراكيوم وضمه الهرسك ودقليا قد حدثت في السنوات التي تلتها مباشرة .

ولم يبدأ الهجوم البيزنطي الكبير إلا بعد عودة بازيل الثاني من آسيا سنة ١٠٠١ م وظهوره للمرة الثانية في البلقان ، فقد جاء الامبراطور يقود بنفسه حملة مجهزة بعناية فائقة هدفها إبادة العدو بلا رحمة . وفي البداية تقدم الامبراطور في منطقة سارديكا واستولى على الحصون المحيطة بها . وبهذه الوسيلة أصبح صموئيل مقطوعاً عن الممتلكات البلغارية القديمة على الدانوب ، والعاصمة البلغارية السابقة بليسكا Pliska وبريسلاف الكبيرة والصغيرة وسيطر عليها القواد البيزنطيون . وهنا تحول بازيل الثاني إلى مقدونيا ، وإستسلمت له برهويا Berhoia ، وإستولى على سرفيا Servia عنوة وأصبح الطريق الى شمال اليونان مفتوحاً أمامه . وأعيد الحكم البيزنطي في الحال إلى تساليا Thessaly .

وظهر بازيل مرة ثانية في مقدونيا ، وبعد نضال عنيف إستولى على المدينة الحصينة فودينا Vodena . وبالضربة التالية إستولى على فيدن Vidin ، أقوى المعاقل على الدانوب ، وأخضعها بعد حصار دام ثمانية أشهر . ومن فيدن أسرع الإمبراطور الى الجنوب ، وعلى نهر فاردار Vardar بالقرب من سكوبلج Skoplje أحرز نصراً حاسماً على جيش صمويل ، وبعدها فتحت سكوبلج له أبوابها عام ١٠٠٤ م . وكان الاستيلاء عليها من جانب وعلى فودينا من جانب آخر يعني ان اراضي صمويل أصبحت بين طرفي كماشة . وبعد أربع سنوات من الصراع الذي لم يتوقف ، كانت بيزنطة تتقدم من نصر إلى نصر ، وفقد صموئيل أكثر من نصف أراضيه . ولأول مرة ، قرر بازيل ان يمنح نفسه فترة للراحة فعاد إلى القسطنطينية عن طريق فيليبوبولس Philippopolis لقضاء فترة الشتاء ، وعلى حد قول احد المعاصرين : لم يسر بازيل الثاني في الحروب على نهج غيره من الأباطرة الذين كانوا يخرجون للحرب في الربيع ويعودون في الصيف ، أما بالنسبة لبازيل فكان وقت العودة يحدده النجاح في إنجاز الهدف الذي خرج من أجله .

والواقع أن أحداً لا يشك في نتيجة الحرب ، فقد أظهرت الامبراطورية

البيزنطية تفوقها مرة أخرى يساندها قرون طويلة التقاليد المتوارثة. والقيصر الشجاع صموئيل لم يكن يستطيع الوصول الى مستوى الامبراطورية البيزنطية العريقة في المهارة الحربية وقيادة الجيوش أو التنظيمات. وبدأ القواد والحكام ينفضون من حوله، وفي ١٠٠٥م سقطت ديراكيوم في أيدي الامبراطور البيزنطي نتيجة للخيانة. ولكن النصر النهائي جاء في يوليه ١٠١٤م، بعد صراع طويل الأمد لا نعرف عنه الا القليل. وأحاطت الجيوش البيزنطية بجيش صموئيل في ممرات كليديون Kleidion الجبلية في منطقة ستروما Struma. وحاول القيصر الفرار الى بريلب Prilep، ولكن عدداً كبيراً من أفراد جيشه وقع في الأسر، وإحتفل بازيل سفاح البلغار Bulgaroctonus بانتصاره بطريقة بشعة. فالأسرى الذين بلغ عددهم أربعة عشر ألف سملت أعينهم وأرسلوا الى قيصرهم في بريلب مقيدين كل مائة رجل معاً يقودهم رجل بعين واحدة. وعندما علم صموئيل باقتراب هذا الموكب الشنيع سقط على الأرض بلا حراك. وبعد يومين توفي القيصر في السادس من اكتوبر عام ١٠١٤م.

ولم تعش إمبراطورية صموئيل بعده سوى سنوات قليلة، وقد ساعدت الإمبراطور المنتصر النزاعات الداخلية في بلغاريا. ففي عام ١٠١٥م قتل جبريل بن صموئيل بمعرفة ابن عمه يوحنا فلاديسلاف. وكذلك قتلت زوجة جبريل وأخوها يوحنا فلاديير أمير دقليا. وإستمر تدهور البلاد شيئاً فشيئاً حتى وفاة يوحنا فلاديسلاف في إحدى الهجمات على ديراكيوم في فبراير ١٠١٨م، مما وضع نهاية للصراع. ودخل بازيل الثاني أوخريدا في إحتفال كبير، وقدمت له أرملة القيصر فروض الولاء والتبعية، وكذلك ممن بقي على قيد الحياة من أفراد البيت المالك، وحقق الإمبراطور هدفه. فهذه البلد الذي بدأ الصراع معها قبل أكثر من ثلاثين عاماً تخر راكعة تحت أقدامه بعد أن أصبح في الستين من عمره، وصارت ملحقة بالإمبراطورية. وصار كل شبه جزيرة البلقان مرة أخرى ضمن أراضي الإمبراطورية البيزنطية، وذلك لأول

مرة منذ سيطرة السلاف عليها . وبعد أن سار بازيل عبر الأراضي التي خضعت له مثبتاً حكمه في كل مكان يمر به ، زار مدينة أثينا الخالدة ، ودفعه الشعور بالعظمة الذي عاد بإحياء الإمبراطورية ، إلى التعبير عنه في إحتفال الشكر الذي قدمه الإمبراطور المنتصر في البارثنون عندما كرّس المكان للسيدة مريم العذراء .

كانت سياسة بازيل سفاح البلغار تجاه البلد المهزوم المنهار سياسة معتدلة ومتعقلة .بقدر ما كان سلوكه في ميدان القتال غير إنساني وبلا رحمة . ومراعاة للحالة التي وصلت اليها بلغاريا أعفي أتباعه الجدد من الإلتزام بدفع الضرائب بالذهب ، وهو ما كان مفروضاً على الأجزاء المتقدمة إقتصادياً في الإمبراطورية . وبدلاً من الذهب قبل ان يدفعوا الضريبة عينياً . وأنزلت رتبة بطريك أوخريدا إلى رتبة رئيس أساقفة ، ولكن رئيس الأساقفة الجديد كانت له إمتيازات كثيرة هامة ، فقد منح حق الإشراف على كل الأسقفيات التي كانت تنتمي من قبل لإمبراطورية صموئيل والقيصر بطرس . وكان رئيس الاساقفة هذا يخضع مباشرة للإمبراطور البيزنطي وليس لبطريق القسطنطينية ، وإحتفظ الإمبراطور لنفسه بحق تعيينه . وبهذه الترتيبات وهي ضربة معلم للسياسة الإمبراطورية ، إحتفظت بيزنطة بسلطانها على كنائس السلاف الجنوبيين ، ولكنها تجنبت أي امتداد جديد لإختصاصات بطريك القسطنطينية في الحكم ، وفي الوقت نفسه أكدت على المطالبة بجعل أوخريدا مركزاً دينياً ، واحتل رئيس أساقفتها مركزاً أعلى - في الزعامة الدينية للكنيسة البيزنطية - من غيره من رجال الكنيسة الذين كانوا تابعين لبطريك القسطنطينية .

وكجزء من الامبراطورية البيزنطية ، قسمت الاجزاء التي فتحتها الامبراطورية الى ولايات ، مثل أية ممتلكات بيزنطية أخرى . والاراضي التي شكلت نواة امبراطورية صموئيل أصبحت تعرف بثيم بلغاريا ، وبغض النظر عن أهمية هذا الثيم الجديد ، حكمه من البداية كاتبان Catepan ، وعند

الامتدادات السفلى للدانوب يقع ثيم باريستربون Paristrion ، وعاصمة سيليستريا Silistria ، التي رفعت بعد ذلك إلى كاتبانية ثم إلى دوقية Ducatus . ويبدو ان منطقة سيرميوم Sirmium كونت ثيماً آخر على الحدود الشمالية للإمبراطورية . والمنطقة الواقعة على ساحل الأدرياتيكي ، بما فيها زارا Zara في الشمال ودوبرفنك (راجوزة) في الجنوب . والجهات الداخلية من زاكلوميا Zachlumia ، والهرسك والبوسنة Rascia & Bosnia ، لم يعترف بها كبنود أو ثيمات ، بل على العكس ، كما هو الحال في كرواتيا ، ظلت تحت حكم أمرائها الوطنيين ، وصارت إمارات تابعة للإمبراطورية البيزنطية . وظلت سكوردا Scorda منضمة كما كانت من قبل الى دوقية ديراكيوم ، التي كانت تشكل أهم معقل استراتيجي للإمبراطورية على الأدرياتيك ، مثل ثيم سالونيك الذي أصبح دوقية في الوقت نفسه ، وكانت أهم حصون بيزنطة على البحر الإيجي .

وكان لاسترداد شبه جزيرة البلقان أهمية كبيرة أيضاً في السياسة الداخلية . فلم يكن من قبيل المصادفة ان فتوحات نقفور فوقاس ـ وهو أحد نبلاء آسيا الصغرى ـ كانت كلها على الأراضي الآسيوية . كما ان بازيل الثاني ـ الذي يبغض ملاك الاقطاعات الكبيرة في آسيا الصغرى ـ وجه كل اهتمامه الى الجزء الأوربي من الامبراطورية . ومع إمتداد الممتلكات الامبراطورية حتى الدانوب والادرياتيكي ، فان الاهمية القصوى الكبيرة التي كانت الامبراطورية تنظر بها الى آسيا الصغرى اثناء القرون السابقة أصبحت شيئاً من الماضي .

بازيل والأرمن

وعلى أي حال فإن بازيل الثاني لم يغمض عينيه عن المهام التي تنتظر الإمبراطورية في آسيا . وأثناء السنوات الاخيرة من حكمه ، إمتد نشاطه الى الطرف الآخر من الإمبراطورية البيزنطية ، في منطقة القوقاز . وبعد وفاة جاجيك الاول Gagik I (٩٩٠ ـ ١٠٢٠ م) ، الذي كان عهده أعظم عصر لمملكة البغرين ، حدثت الاضطرابات الداخلية في أرمينية ، وهذه

الاضطرابات كانت فرصة مواتية للامبراطور البيزنطي ليتدخل في شؤون أرمينيه بنجاح، وضمت منطقة فاسبوركان Vaspurkan مع جزء من ايبريا الى بيزنطة، بينما ظلت مملكة آني Ani الارمينية تحت حكم الملك يوحنا سمبات Sembat أثناء حياته، وبعد ذلك خضعت للحكم البيزنطي. وكدليل على الانتصارات العظيمة للعهود الثلاثة، الأخيرة (نقفور - تزيميسكس - بازيل الثاني)، إنتشرت الثيمات الجديدة في آسيا وإمتدت إلى الشرق والجنوب فيما وراء الممتلكات القديمة للإمبراطورية.

وقبل وفاة بايزل حول الامبراطور النشيط انتباهه إلى الغرب، ووضع بيزنطة في جنوب إيطاليا، الذي هدده تقدم الامبراطورية الجرمانية لبعض الوقت ثم استقر نتيجة لحروب أوتوا الثاني مع العرب. وفكرة «إحياء روما» Renopa-tio Romana التي بدأت جذورها بزعامة الامبراطور الشاب أوتو الثالث ابن الأميرة ثيوفانو، يعني أن النفوذ البيزنطي قد وجد الفرصة لكي يجد له موطأ قدم في داخل الامبراطورية الغربية. وقوى مركز بيزنطة بجمع كل ممتلكاتها في إيطاليا وضمها في كاتبانية واحدة. وحقق الكاتبان القدير باسيل بويانس Boioannes عدداً من الإنتصارات على أعداء الامبراطورية. وجذبت هذه الإنتصارات إنتباه بازيل الثاني ليبني عليها نجاحه، وبدأ الاستعدادات من أجل حملة كبيرة ضد عرب صقلية. ولكنه توفي الخامس عشر من ديسمبر ١٠٢٥ م. وترك بازيل الثاني وراءه امبراطورية تمتد من جبال أرمينية إلى الأدرياتيكي ومن الفرات إلى الدانوب. وفي القرن الثالث عشر يصف المؤلف مخائيل خونياتس Choniates كُلاً من الأمبراطورين هرقل وبازيل الثاني بأنهما من أعظم الأباطرة البيزنطيين، وأن هذه الاسماء العظيمة في تاريخ بيزنطة ترمز إلى عصر البطولة، فكانت بدايته مع هرقل ونهايته مع بازيل الثاني.

الفصل الحادي عشر

الأسرة المقدونية

٥ - إنحلال النظام السياسي بعد بازيل الثاني
١٠٢٥ - ١٠٥٩ م

تعتبر وفاة بازيل الثاني نقطة تحول في تاريخ الأمبراطورية، ففي السياسة الخارجية انتابت الأمبراطورية فترة من الضعف عاشت فيها على امجادها السابقة، أما في المجال الداخلي فقد أخذت القوى التي عملت على انحلال الدولة الحرية الكاملة لتتصرف كما يحلو لها، بعد الإنجازات البطولية للعهود السابقة التي ظهرت فيها الأمبراطورية بأنها القوة التي لا تقهر، وما ترتب على ذلك من عهد سلام لم تشهده الأمبراطورية من قبل. ولسوء الحظ فإن فترة الأمجاد السابقة كانت فترة لالتقاط الأنفاس، ولم تعمل فيها الحكومة على توحيد الصفوف داخل الأمبراطورية. ولذلك يمكن القول إنها كانت فترة من الاسترخاء ترتب عليها انهيار النظام الذي احتفظت به الأمبراطورية منذ عهد بعيد، وحتى نهاية عهد بازيل الثاني. ولعل من أسباب هذا التدهور هو عدم مقدرة الأباطرة الذين خلفوا بازيل الثاني على مواصلة النضال ضد النبلاء الإقطاعيين، فضلاً عن تقلص الملكيات العسكرية الصغيرة، والتي كانت بمثابة المنابع التي أمدت جيش الأمبراطورية بالرجال. ومن هنا تعرض البناء الاقتصادي والعسكري والاجتماعي لتغيير جذري، لأن سيطرة الإقطاعيين المدنيين على السلطة أدى إلى ظهور طبقة من الاستقراطية المدنية نافست الأستقراطية العسكرية على الحكم. ولفترة طويلة أصبح الصراع بين العسكريين والمدنيين على السلطة هو الشغل الشاغل للامبراطورية. ويظهر ذلك بشكل واضح في الصراع الذي قام بين الأرستقراطية المدنية في العاصمة

والأرستقراطية العسكرية في الولايات. ورغم ذلك فإن أهم ما نلمسه في العصر الذي تلى حكم بازيل هو قيام نهضة ثقافية في العاصمة واضمحلال القوى العسكرية للأمبراطورية.

قسطنطين الثامن ١٠٢٥ - ١٠٢٨م

خلف بازيل الثاني أخوه قسطنطين الثامن، وقد تولى الحكم بعد أن شارك بازيل في العرش لمدة نصف قرن تقريباً عاشها في الظل بجوار أخيه القوي. وقد أثر ذلك على شخصيته، فضلاً عن أنه أصبح رجلاً مسناً. ولذلك يمكن القول إنه كان إمبراطوراً إسمياً أكثر منه فعلياً، فقد كان ضعيف الشخصية والإحساس بالمسؤولية، لذلك لم يهتم بشؤون الحكم وأمضى وقته في إقامة الحفلات والاستمتاع بوسائل اللهو وإهمال ثروات الأمبراطورية التي جمعها بازيل الثاني.

رومانوس أرجيروس ١٠٢٨ - ١٠٣٤م

ومن أهم المسائل التي شغلت الأمبراطور قسطنطين مسألة ولاية العهد، فلم يكن له ذكور وله ثلاث بنات. وكانت الكبرى هي يودوكيا وقد شوه الجدري وجهها وسلكت الرهبانية. أما زوي وثيودورا قد تجاوزا مرحلة الشباب. وقبل موت قسطنطين بثلاثة أيام وقع اختياره على حاكم مدينة القسطنطينية وهو رومانوس أرجيروس Argyrus الذي يمثل الأرستقراطية المدنية. وفي الثاني عشر من نوفمبر عام ١٠٢٨م تزوج رومانوس من الأميرة زوي التي بلغت الخمسين من عمرها، واعتلى عرش الأمبراطورية تحت اسم رومانوس الثالث ١٠٢٨ - ١٠٣٤م. وكان رومانوس في الستين من عمره ولكنه كان محتفظاً بحيويته وعلى قدر مناسب من الثقافة. ولكنه كحاكم لم تكن له مواهب بازيل، كما أنه كا مغروراً وضعيفاً بدرجة لا حدود لها، وفي بعض الأحيان كا مثله الأعلى ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius، ثم أصبح يقلد جستينيان الأول، وبدأ يعد برنامجاً رائعاً للبناء، ثم تراجان أو هادريان Hadrian

وتصور نفسه قائداً عظيماً يكرس حياته للحرب .

وفي مجال السياسة الداخلية فإن أهم ما يميز فترة حكم رومانوس الثالث هو التخلي التام عن سياسة بازيل الثاني . فقد جعل بازيل الأغنياء مسؤولين عن دفع ضرائب صغارالملاك ،ولكن رومانوس استسلم لضغط الأرستقراطية المدنية وأعفاهم من دفع ضرائب صغار الملاك ، ثم أصبح الأغنياء غير راغبين في دفع ما عليهم من ضرائب ، ولم يستطع رومانوس إجبارهم على دفع الضرائب لأن رومانوس نفسه من الطبقة نفسها ، ولم يفكر حتى في معارضتهم ، وفضلاً عن ذلك كانت قوانين بازيل الثاني تمنع الأغنياء من شراء الملكيات الصغيرة . ومع تولي رومانوس اختفت كل هذه الضمانات التي تحمي صغار الملاك ، واختفت الملكيات الصغيرة ، وابتلع كبار الملاك ممتلكات الفلاحين والجنود ، وحولوا الفلاحين من صغار ملاك إلى عبيد للأرض . وترتب على ذلك ضعف الجيش وإيرادات الدولة .

وفي مجال السياسة الخارجية ، فرغم ما حدث داخل الأمبراطورية كان الجيش لا يزال قوياً بفضل الجهود التي بذلها بازيل الثاني ، وظلت حركة التوسع قائمة ولكن نتائجها كانت أخف بكثير من ذي قبل . ففي عام ١٠٢٧ م / ٤١٨ هـ قام المسلمون بهجوم بحري على جزر بحر إيجه ، ولكن البحرية البيزنطية صمدت في وجه الغزاة وأنزلت بهم خسائر فادحة في الرجال والعتاد . وفي العام نفسه وافق الخليفة الفاطمي الظاهر ٤١١ - ٤٢٦ هـ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥ م ، على ترميم كنيسة القيامة التي أمر الخليفة الحاكم ٣٨٦ - ٤١٠ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م بإحراقها . وفي عهد رومانوس قام المرداسيون في حلب بالإغارة على الأراضي البيزنطية فهب رومانوس في عام ١٠٣٠ م / ٤٢١ م للدفاع عن البلاد ولكنه فشل فشلاً ذريعاً وكاد يقع أسيراً . ويمدنا المؤرخ البيزنطي ميخائيل بسلوس Psellos بتفاصيل هذه الأحداث كما أمدتنا المصادر العربية بجانب منها . وتتفق المصادر في أن الأمبراطور استبدل نعله الأرجواني بنعل أسود حتى لا يعرفه أحد ، وأهم الانتصارات في عهد

رومانوس هو استيلائه على مدينة الرها عام ١٠٣٢م / ٤٢٢هـ.

ميخائيل الرابع ١٠٣٤ - ١٠٤١م

ولم تكن الأمور تسير سيراً طبيعياً بين الأمبراطور رومانوس وزوجته زوي. فمنذ أن اعتلى رومانوس العرش وهو لا يهتم بالأمبراطورة. ولكن المرأة العجوز التي تعلقت بالحياة ارتبطت بشاب يسمى ميخائيل، من أسرة ريفية في إقليم بفلاجونيا. وقد أُحضر هذا الشاب إلى مساكن الحريم في القصر الامبراطوري، وكان الذي أتى به هو أخيه الخصي يوحنا صاحب النفوذ في القصر. ودبرت مؤامرة في القصر مات على أثرها رومانوس الثالث في الحادي عشر من أبريل عام ١٠٣٤م، وفي مساء اليوم نفسه تزوجت الامبراطورة العجوز من الشاب ميخائيل واعتلى العرش باسم ميخائيل الرابع ١٠٣٤ - ١٠٤١م.

وإذا كان قسطنطين الثامن قد أخطأ في اختيار رومانوس أرجيروس زوجاً للامبراطورة زوي، فإن زوي نفسها أخطأت التقدير باختيارها ميخائيل. وواقع الأمر أن ما كان يعني الجميع هو الاحتفاظ بالعرش أو الوصول إليه، فبعد أن ضمن ميخائيل عرش الأمبراطورية أهمل زوي وكلف أخيه الخصي يوحنا بمراقبتها حتى أصبحت شبه سجينة داخل القصر. فقد كان ميخائيل يخشى تكرار المأساة التي حدثت لسلفه، وحتى يكون في مأمن من المصير نفسه الذي لاقاه رومانوس. وقد أثبتت الأحداث أن ميخائيل كان رجلاً موهوباً وقائداً شجاعاً، ولكنه كان مريضاً ويعاني من نوبات الصرع التي تزايدت مع مر الأيام. ومن هنا جاءت سيطرة الخصي يوحنا على مقاليد الحكم في الامبراطورية. والحقيقة أن يوحنا تمكن من إدارة دفة الحكم بمهارة عظيمة، رغم تعسفه في جمع الضرائب. ولم ترضَ عن هذا التعسف الأرستقراطية المدنية أو العسكرية، ولم يهتم يوحنا بهذا الأمر لأنه رجل ارتفع من الطبقات الدنيا بجهوده الذاتية ومثّل السلطة المركزية دون ارتباط بطبقة معينة.

وعانى من هذا النظام الأرستقراطية الإقطاعية والعسكرية في آسيا الصغرى أكثر من غيرهم، ثم أثار في مرحلة لاحقة الشعوب السلافية في البلقان بدرجة كبيرة دفعتهم إلى الثورة. وكانت بداية الثورة عندما ألغيت القوانين التي كانت تسمح لهم بتقديم الضرائب عيناً. وزاد التمرد حتى أن السلاف نصبوا بمعرفتهم رئيس الأساقفة ليو بعد وفاة يوحنا السلافي عام ١٠٣٧م. وفي عام ١٠٤٠م عين البلغار بطرس ديلجان Deljan قيصراً في مدينة بلجراد، وعمت الثورة جانباً كبيراً من أراضي البلقان. ورغم أن الامبراطور تمكن من إخماد الثورة في عام ١٠٤١م في وقت قصير جداً، إلا أنها أثرت بدرجة كبيرة على الأنظمة التي وضعها بازيل الثاني. ولم تهدأ الثورة بعد ذلك، فقد كانت الثورة تهب من وقت لآخر، وحاولت الأمبراطورية إرسال حملات تأديبية من وقت لآخر لقمع الثائرين، ولكن هذه الحملات لم تأت بالنتائج المرجوة.

وحين عاد الأمبراطور من البلقان بعد إخماد ثورة ديلجان مرض مرضاً شديداً، وأحس الخصي يوحنا بدنو أجله فخطط للاحتفاظ بالعرش لأسرة ميخائيل، ونجح في استمالة زوي إلى جانبه، واقترح أن يتبنى ميخائيل وزوي ابن أخ الامبراطور وكان يدعى ميخائيل أيضاً، وهو المعروف في التاريخ باسم ميخائيل القلفات Calaphates نسبة إلى الحرفة التي كان يمارسها والده. وقد مُنح ميخائيل القلفات لقب قيصر في بداية الأمر، إلى أن مات ميخائيل الرابع في العاشر من ديسمبر ١٠٤١م.

ميخائيل القلفات ١٠٤١ - ١٠٤٢م

حكم ميخائيل الخامس المعروف بالقلفات من ١٠٤١ - ١٠٤٢م، وهي فترة قصيرة جداً، وفي مستهل عهده بالعرش أنكر الجميل لعمه يوحنا فقبض عليه وأرسله إلى المنفى، ويبدو أن ميخائيل كان يشعر بكراهية الجميع لعمه فأقدم على هذه الخطوة التي لم يعترض عليها أحد. وقد شجع ارتياح الجميع لنفي يوحنا، قيام الأمبراطور بعزل الأمبراطورة زوي وإرسالها إلى أحد الأديرة

ولكن عزل زوي قد كلف الأمبراطور عرشه. فقد اتحدت الأرستقراطية المدنية والعسكرية والكنيسة مع الشرعية واعترضت على عزل زوي، وقامت بعزل ميخائيل وسملت عيناه في العشرين من أبريل ١٠٤٢م بعد أن حكم ما يقرب من أربعة أشهر ونصف تقريباً.

قسطنطين مونوماخوس ١٠٤٢ - ١٠٥٥م

تولى عرش الامبراطورية ثيودورا وزوي حتى الحادي عشر من يونيه من العام نفسه. وقد عجل بانهيار حكمهما معا عدم الاهلية للحكم وكره احدهما للاخرى. وكان من الضروري ايجاد حل لهذه المشكلة، ولم تكن ثيودورا راغبة في الزواج، أما زوي فرغم بلوغها الرابعة والستين فقدرغبت في الزواج للمرة الثالثة، ووقع الاختيار على عضو مجلس السناتور البارز قسطنطين مونوماخوس Monomachus الذي توج في الثاني عشر من يونيه عام ١٠٤٢م، وعرف بإسم قسطنطين التاسع.

وكان حكم قسطنطين وزوي سيئاً للغاية عاد بالضرر الكثير على الأمبراطورية في الداخل والخارج. فقد نشبت ثورات عديدة في آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان، كما شنت قبائل البجناكية الغارات جنوب نهر الدانوب. وتمكن النورمان الذين أقاموا في جنوب إيطاليا من مهاجمة منطقة لمبارديا آخر الممتلكات البيزنطية في إيطاليا، وأقاموا مكانها دوقية أبوليا في عام ١٠٥٥م. أما العلاقات الإسلامية فقد بدأت تدخل مرحلة خطيرة بعد ظهور الأتراك السلاجقة حينما بدأت قواتهم تجتاح حدود الأمبراطورية الشرقية من نواحي أرمينيه. وفي الجانب الديني فإن أهم الأحداث التي وقعت في عصر قسطنطين بل وفي تاريخ الأمبراطورية والباباوية في روما هو الانشقاق الكبير الذي وقع في عام ١٠٥٤م.

وأفضل ما ينسب إلى عهد قسطنطين هو اهتمامه بجامعة القسطنطينية لإمداد الدولة برجال مثقفين قادرين على إدارة شؤون الحكم بحكمة وكفاءة، وانتزاعها من أيدي الخصيان والقادة العسكريين، وشهد عصره عدداً من

الأدباء والفلاسفة ورجال القانون، وكان على رأس هؤلاء الفيلسوف المؤرخ ميخائيل بسلوس.

ومات قسطنطين التاسع في مطلع عام ١٠٥٥ م، وكانت زوي قد ماتت من قبل، ولم يعد من الأسرة المقدونية غير ثيودورا فحكمت بمفردها حتى سبتمبر عام ١٠٥٦ م.

عصر الفوضى والفتن الداخلية

ورشحت ثيودورا وهي على فراش الموت رجلاً مسناً هو ميخائيل المعروف بالسادس ١٠٥٦ - ١٠٥٧ م، الذي كان غير أهلاً للحكم. وكان في وصول ميخائيل للعرش انتصاراً للأرستقراطية أو الحزب المدني. ورغم أن ميخائيل كان جندياً محنكاً ومحارباً قديراً منذ ربع قرن مضى، إلا أنه أصبح عند توليه العرش ضعيفاً يمكن السيطرة عليه بسهولة. ولما كانت الأمبراطورية مليئة بالقواد الطامعين في العرش، فبعد سنة واحدة دبر جماعة من النبلاء الأسيويين مؤامرة لعزل ميخائيل السادس.

انتهت أحداث هذه المؤامرة بأن أعلن إسحق الأول كومنيين Issac I Commenus ١٠٥٧ - ١٠٥٩ م، نفسه إمبراطوراً في بفلاجونيا في يونيه عام ١٠٥٧ م، ووفد عليه المهنئون من كل أنحاء آسيا الصغرى. وخلال وقت قصير ظهر في مدينة نيقيه على رأس جيش كبير، وقد منيت القوات التي أرسلت للقضاء عليه بالهزيمة، فاضطر ميخائيل إلى فتح باب المفاوضات مع إسحق كومنيين. وأرسلت سفارة من القسطنطينية لهذا الغرض وعرضت على إسحق كومنيين لقب قيصر والاعتراف به كوريث للعرش البيزنطي، ولم يقبل إسحق هذا العرض، وفي الوقت نفسه كان تراخي الامبراطور أمام هذه الثورة عاملاً من عوامل انفضاض مؤيديه من حوله. وهنا تدخلت الكنيسة بين الحزبين المدني والعسكري وأصبحت قوة ثالثة وازنت بين الحزبين وانضم البطريق إلى المعارضين للامبراطور وأصبحت كنيسة ،آيـا صوفيا المركز المحرك للثورة ضد

الحكومة . وأخيراً أجبر الأمبراطور على التنازل عن العرش وسلك الرهبانية . وفي أول سبتمبر عام ١٠٥٧م دخل إسحق كومنيين القسطينطينية وتوجه بطريك العاصمة امبراطوراً .

كان إسحق كومنيين ينتمي للأرستقراطية العسكرية في آسيا الصغرى ، لذلك عمل على تأسيس حكم عسكري قوي . وأمر بوضع صورته على العملة البيزنطية وهو يحمل سيفه . وبدأ إسحق في محاولة إصلاح الأحوال المالية بعد الفساد الذي سببته الأنظمة السابقة وضياع الأموال التي تركها بازيل الثاني ، فشن حملة كبيرة لمصادرة الممتلكات ومما صادره ممتلكات الكنيسة . ولم يرض البطريق ميخائيل كيرولاريوس Cerularius ١٠٤٣ - ١٠٥٨م الذي ساعده في الوصول إلى العرش عن . هذا التصرف ، فبدأ الصدام بين الامبراطور والبطريك . وفي بداية الأمر كان لتفوق الأمبراطور اليد العليا في الدولة، ولكن شعبية البطريك كانت قوية، وعندما خطط الأمبراطور لعزل البطريك لم يجرؤ أحد على حمل السلاح ضده في العاصمة ، ولم يقع في قبضة حراس الامبراطور إلا عندما غادر القسطنطينية لزيارة أحد الأديرة . فتم القبض عليه وحمل إلى المنفى . ورغم هذا لم يقدم البطريك استقالته مما حمل الامبراطور على عقد مجلس ديني لإصدار قرار العزل ، وشاء القدر أن يتوفى البطريك أثناء انعقاد المجلس ، وتولى البطريكية قسطنطين ليكودس Leichudes ١٠٥٩ - ١٠٦٣م ، وأصبح ميخائيل بسلوس الوزير الأول .

وأحس الامبراطور بالنصر ، ولكنه ما لبث أن وجد أن البطريق وهو ميت أشد خطورة عليه كمنافس وهو حي ، فقد وصل الاستياء بعد وفاة البطريك إلى مرحلة الغليان ، وزاد العداء للامبراطور وازداد الوضع اضطراباً واتحدت الكنيسة مع زعماء الأرستقراطية المدنية المعادية للامبراطور وخططوا لعزل الامبراطور إسحق . وبعد ما أحس إسحق بكل ذلك وكان يعاني من المرض انتابه اليأس وتخلى عن العرش بناء على نصيحة بسلوس وسلك الامبراطور المنحني سلك الرهبانية .

الفصل الثاني عشر

اسرة دوقاس
عصر الاضطراب والخطر السلجوقي
١٠٥٩-١٠٨١م

قسطنطين دوقاس ١٠٥٩ - ١٠٦٧ م

جاء إلى عرش الامبراطورية قسطنطين العاشر دوقاس Ducas ١٠٥٩ - ١٠٦٧ م كنتيجة لتحالف الكنيسة مع الحزب المدني ، وهو التحالف الذي عمل على إسقاط إسحق كومنيين . وقد كان قسطنطين صديقاً حمياً لكل من بسلوس وبطريك القسطنطينية ليكودس . وتزوج الأمبراطور من يودوكيا ابنة أخت البطريك السابق ميخائيل كيرولاريوس . وارتاح بسلوس لهذه الأحداث التي كان له اليد الطولى فيها ، فقد حقق أهدافه ، فهو المستشار الأول للامبراطور ومعلم ابنه وولي عهده ، ومن هنا كان بسلوس يستطيع التحكم في سياسة الامبراطورية . ويقول بسلوس في حوليته إن قسطنطين « كان مولّعاً بي أكثر من أي شخص آخر ، واعتمد عليّ تماماً في المشورة ، وإذ لم يرني عدة مرات في اليوم كان يبدو متضايقاً ويشكو من ذلك » .

وكما كان إسحق كومنيين يمثل الأرتسقراطية العسكرية في آسيا الصغرى كان قسطنطين دوقاس يمثل الأرستقراطية المدنية في العاصمة . ويمكن القول إن فترة حكم إسحق كومنيين كانت مجرد فترة انتقال عاد بعدها الحزب المدني للحكم . وعمل الحزب على تقوية نفوذه بإدخال عدد من أعضائه في مجلس السناتو . وذهب الامبراطور إلى أبعد من ذلك وتوسع في عملية الالتزام

الضريبي، كما باع المناصب في الأقسام الإدارية المالية. ولكي يضعف الامبراطور من قوة الأرستقراطية العسكرية أهمل الجيش فقل عدد قواته وفاعليته. وبسبب ما كانت تعانيه الدولة من ضائقة مالية، أنقصت المبالغ المخصصة للقوات المسلحة لمواجهة الإنفاق في مجالات أخرى، خاصة نفقات البلاط، والهدايا التي تمنح للكنيسة، ولحكام الدول المحيطين بالأمبراطورية حتى يكفوا عن شن الغارات على حدود الأمبراطورية.

وواقع الأمر، فإن هذه السياسة التي عملت على إضعاف الحزب العسكري عن طريق إضعاف الجيش جاءت في وقت غير مناسب، لأن الأخطار الخارجية كانت تحيق بالأمبراطورية، خاصة أن النورمان في جنوب إيطاليا كانوا يحرزون النصر تلو النصر على قوات الامبراطورية في غرب أوربا. كما أن المجريين قاموا بهجوم كبير على أملاك الأمبراطورية في الغرب واستولوا في عام ١٠٦٤م على مدينة بلجراد قلعة الدانوب الهامة. وزاد من الخطر الخارجي هجرة بعض القبائل في العام نفسه إلى منطقة البلقان وخربت الأراضي البلغارية ومقدونيا. وأشد الأخطار التي واجهت الامبراطورية في هذه المرحلة تقدم الأتراك السلاجقة في الشرق بعد ما أصبح لهم السيادة على الخلافة العباسية في بغداد.

وكان ضعف الجيش البيزنطي والصراع الداخلي على السلطة يعني أن الطريق أصبح مفتوحاً إلى قلب آسيا الصغرى، لذلك نجح السلطان السلجوقي ألب أرسلان ٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢م في التوغل داخل أرمينيه واستولى على مدينة آني Ani عام ١٠٦٥م وخرب قيليقية ودمر مدينة قيصرية في أعالي الفرات عام ١٠٦٧م.

يودوكيا ١٠٦٧م

ومات قسطنطين دوقاس في العام نفسه التي خربت فيه قيصرية فانتقلت السلطة إلى يد زوجته يودوكيا باعتبارها وصية على ولديها الصغيرين ميخائيل وقسطنطين. وحكمت يودوكيا كوصية لمدة عام واحد (١٠٦٧م) كانت مقاليد

الحكم في يدي بسلوس والقيصر يوحنا دوقاس شقيق الامبراطور الراحل. وخلال هذه الفترة كانت الكوارث التي حلت بالامبراطورية سبباً في زيادة نشاط المعارضين وجعلتهم يطالبون بحكومة عسكرية لإنقاذ الإمبراطورية. وقد ساند بطريق القسطنطينية يوحنا الثامن أكسيفيلينوس Xiphilinus ١٠٦٤ ـ ١٠٧٥ م المعارضين وهم الحزب العسكري رغم علاقته الطيبة مع بسلوس. وفي نهاية الأمر تم زواج القائد العسكري رومانوس ديوجينس Diogenes من الامبراطورة يودوكيا ونودي به إمبراطوراً في أول يناير ١٠٨٦ م.

رومانوس ديوجينس ١٠٨٦ ـ ١٠٧١م

كان رومانوس الرابع ديوجينس قائداً خبيراً وشجاعاً أظهر مهاراته العسكرية في حروب الامبراطورية ضد البجناكية، وله سمعة طيبة بين أعضاء الحزب العسكري. وقد أخذ رومانوس على عاتقه بداية النضال ضد السلاجقة وأعد جيشاً كبيراً لهذا الغرض قاد به عدة حروب ضدهم.

والحملة الأولى التي قادها رومانوس وقعت أحداثها في العشرين من أكتوبر عام ١٠٦٨ م/التاسع عشر من المحرم ٤٦١ هـ. ولعل أسباب هذه الحملة ترجع بصفة عامة إلى تقدم الأتراك السلاجقة المطرد في آسيا الصغرى على حساب الممتلكات البيزنطية، وبصفة خاصة عندما هاجم السلاجقة مدينة أنطاكية ـ التي كانت تحت السيادة البيزنطية ـ وما حولها ثم عودتهم. وعلى ذلك سار الامبراطور رومانوس إلى الحدود الشرقية للامبراطورية واتجه إلى مدينة ليكاندوس Lykandos حيث وصلته الأخبار بأن الجيش السلجوقي اتجه شمالاً إلى إقليم بنطس Ponts وأغار على مدينة قيصرية. وعلى ذلك أسرع رومانوس واعترض طريق السلاجقة عند مدينة سيواس Sebaste (Sivas) وجبال تفليس وأجبر السلاجقة على الفرار بعد ما نجح في تحرير الأسرى واسترداد الغنائم.

واتجه رومانوس بعد هذه الأحداث إلى الجنوب وأغار على نواحي مدينة حلب واستولى على مدينة منبج Hierapolis وحصنها في العشرين من أكتوبر

عام ١٠٦٨ / التاسع عشر من محرم ٤٦١ م ، باعتبارها من المدن الحصينة المتقدمة على حدود الامبراطورية ، ثم هاجم بليدة عزاز ثم عاد إلى بوابات قيليقية حيث علم بأن السلاجقة انتهزوا فرصة تواجده في منبج وأن الحدود الشرقية أصبحت مفتوحة أمامهم فاتجهوا إلى مدينة عمورية وعادوا بسرعة دون أن يلحق بهم رومانوس.

وكانت حملة رومانوس الثانية على مدينة خلاط في ربيع عام ١٠٦٩ م / أواسط عام ٤٦٢ هـ ، ويرجع سببها إلى اجتياح السلاجقة للأراضي البيزنطية المحيطة بمدينة قيصرية. وحتى ينتهي رومانوس من طرد السلاجقة بأسرع وقت ممكن ، كان يقتل الأسرى حتى لا يخصص جانباً من جنده لحراستهم ويستفيد بكل قواته في المعارك العسكرية. وبعدما وصل إلى إقليم قبدوقية اتجه إلى مدينة ملطية عبر مدينة رومانوبوليس Romanopolis. وكانت خطته تنحصر في محاصرة مدينة خلاط أملاً في حماية الحدود الأرمينية من غارات السلاجقة. ولم يرسل رومانوس أحد قواده للقيام بهذه المهمة بل اتجه على رأس جيشه لتنفيذ هذه المهمة ، وعهد بحماية الحدود إلى القائد الأرميني فيلاريتوس Philaretos دوق انطاكية. وكعادة السلاجقة في حروبهم الخاطفة أفسحوا للقائد الأرميني الطريق والتفوا حوله وهزموه ، ثم اتجهوا إلى مدينة قونيه Iconium فهاجموها وعادوا محملين بالغنائم. وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع رومانوس تراجع عن خلاط واتجه إلى مدينة سيواس وأرسل إلى فيلاريتوس ليقطع خط الرجعة على السلاجقة في الوقت الذي هاجم هو فيه السلاجقة عند مدينة هرقلية ، كما اشترك الأرمن في مهاجمة السلاجقة عند جبال قيليقية ، وأجبروهم على ترك الأسلاب والفرار. وكافأ رومانوس قائده فلاريتوس على شجاعته ومنحه لقب دومستيق Domistic أي ضابط قصر.

والحملة الثالثة وقعت أحداثها في عام ١٠٧٠ م / ٤٦٣ هـ وتولى قيادة هذه الحملة القائد مانويل كومنيين Manuel Comnenus قائد القوات البيزنطية. وقد عهد إليه رومانوس بمراقبة تحركات السلاجقة في آسيا الصغرى ووقف

غاراتهم ولكن مانويل لم يوفق في مهمته وهزم أمام القوات الإسلامية ووقع أسيراً في أيديها. وشجع هذا النصر القوات السلجوقية فاستمرت في غاراتها حتى وصلت إلى مدينة خونيه Chonae التي هُلك الكثير من أهلها أثناء محاولتهم الفرار أمام القوات السلجوقية. وشجعت هذه الانتصارات أيضاً القوات السلجوقية فاستولت على مدينة مانزكرت في العام نفسه (١٠٧٠ م)، ثم أغاروا على مدينة الرها. وبعد أن قضى السلاجقة أمام أسوارها قرابة خمسين يوماً عادوا إلى بلادهم، وكان ذلك كله سبباً في حملة أخرى قادها رومانوس.

معركة مانزكرت

والحملة الرابعة التي قادها الامبراطور رومانوس وقعت في السابع عشر من ذي القعدة عام ٤٦٣ هـ / السادس عشر من أغسطس ١٧٠١ م وهي المعركة المعروفة باسم معركة مانزكرت. ولا يتسع المقام هنا للحديث عنها بالتفصيل ولكن الباحث يكتفي بالتركيز على خمس نقاط محددة، الأولى تاريخ خروج الامبراطور رومانوس بجيشه من القسطنطينية، والثانية التعرف على حجم وتسليح القوات البيزنطية والسلجوقية، والثالثة تتعلق بالمعركة وتاريخها، أما الرابعة فهي مرتبطة بأسر الامبراطور ومعاملته، والخامسة والأخيرة تخص النتائج المترتبة على هذه المعركة.

وفيما يتعلق بتاريخ خروج الامبراطور للقتال فقد أشار المؤرخ البيزنطي بسلوس المعاصر لهذه الأحداث أن خروج الأمبراطور كان في الربيع دون ذكر السنة، أما المصادر العربية فقد أوضحت أن خروج البيزنطيين كان في عام ٤٩٣ هـ / أكتوبر ١٠٧٠ ـ أغسطس ١٠٧١ م. والربيع الواقع في هذه الفترة هو ربيع عام ١٠٧١ م أواسط عام ٤٦٣ هـ.

أما عن حجم وتسليح القوات البيزنطية، فقد ذكر بسلوس أن رومانوس خرج لمحاربة السلاجقة مصحوباً بجيوش حليفة ووحدات عسكرية بيزنطية أكبر من حجم القوات التي خرج بها رومانوس من قبل، ولم يشر إلى حجم القوات

السلجوقية. وذكرت بعض المصادر العربية أن القوات البيزنطية كانت على ما قيل ستمائة ألف من الروم «وانضاف إليهم من سائر الطوائف». وذكرت مصادر أخرى أن الجيش البيزنطي كان يزيد عن ثلاثمائة ألف فارس وراجل تضمنت عناصر من البيزنطيين والأرمن والفرس والبجناكية والغز والفرنجة، وأن القوات الإسلامية كانت خمسة عشر ألف من الفرسان الشجعان. وذكر آخرون أنهم جاءوا في ستمائة ألف فارس وأن المسلمين كانوا اثني عشر ألفاً.

وذكر ابن الأثير أن القوات البيزنطية كانت مائتي ألف من الروم والفرنج والروس والبجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد، وأن المسلمين كانوا خمسة عشر ألف فارس. أما ابن العبري فقد روى أن القوات البيزنطية كانت مائة ألف وأن القوات الإسلامية خمسة عشر ألف. وسجل ابن العريم أن عدد القوات البيزنطية كانت ثلاثمائة ألف أو يزيدون ما بين فارس وراجل من جموع مختلفة من الروم والروس والخزر والـلآن والغز والقفجاق والكرج والأبخاز والفرنج والأرمن ومنهم خمسة آلاف من رماة الأقواس، وأن المسلمين كانوا خمسة عشر ألفاً... ذكر المؤرخ ميخائيل السرياني أن عدد القوات السلجوقية كان اثني عشر ألفاً، ولم يذكر أعداد القوات البيزنطية.

من ذلك يتضح أن بعض المصادر قد غالت كثيراً في ذكر حجم القوات المشتركة في القتال مثل ابن القلانسي، لذلك يرى الباحث عدم الاعتماد عليه في هذه الناحية. ويتبين بعد ذلك أن ما ذكرته المصادر العربية حول القوات البيزنطية يتراوح بين ثلاثمائة ألف وأقلها مائة ألف، ولكن المراجع المتخصصة ترى أن حجم القوات البيزنطية كان ستين ألف، وهو عدد مقبول ومعقول، وانها اشتملت على عناصر غير بيزنطية. أما عن القوات السلجوقية فيمكن القول إنها كانت خمسة عشر ألف، وهو ما اتفقت عليه معظم المصادر العربية.

وعن تسليح القوات البيزنطية فالمعروف أن العمليات العسكرية في الجيش البيزنطي كانت تقع على عاتق الفرسان والمشاة. ويبدو أن رومانوس استعد استعداداً كبيراً لهذه المعركة، فقد كان لديه ثلاثة آلاف أو أكثر من العربات

لنقل الأحمال ، هذا بالإضافة إلى معدات الحرب التي كان بها منجنيق كبير يرمي حجراً وزنه بالرطل الخلاطي قنطار « وكأنه جبل له في الجو مطار » .

وفيما يتعلق بوقائع هذه المعركة فالواضح أن رومانوس كان يعتمد على عنصر المفاجأة ، لذلك قسم جيشه إلى قسمين ، أحدهما تولى قيادته القائد النورماني رسل دي بايل Roussel de Bailleul ، ومعه المرتزقة الأوربيين للإستيلاء على خلاط . والقسم الثاني تولى قيادته رومانوس بنفسه واتجه إلى مدينة مانزكرت لاستعادتها من يد السلاجقة .

كانت تحركات البيزنطيين مفاجأة للسلطان ألب أرسلان الذي كان في أذربيجان عندما وصلت القوات البيزنطية إلى مدينة أرزن الروم . ولما كان السلطان في خواص جنده وجموع عساكره بعيدة عنه ، فقد بقي في خمسة عشر ألف فارس من نخبة عسكره ، واتجه إلى ميدان القتال . وكان ذلك يوم الأربعاء الخامس عشر من ذي القعدة عام ٤٦٣ هـ / الرابع عشر من أغسطس عام ١٠٧١ م ولما عرف السلطان ألب أرسلان بكبر حجم القوات البيزنطية ، أرسل في طلب الصلح من الامبراطور رومانوس . ولكن الامبراطور رفض وقال « لا هدنة إلا بالري » أي بعد هزيمة السلطان ألب أرسلان ودخوله مدينة الري . ويرى البعض أن السفارة التي أوفدها السلطان لعرض الصلح لم تكن غير عيون للسلطان وأن مقصوده كان « أن يكشف سرهم ويتعرف أمرهم » .

وإذا كان رومانوس هو الذي دق ناقوس الحرب ضد السلاجقة فإن ألب أرسلان هو الذي حدد موعدها . وتتفق المصادر على أن الطرفان التقيا يوم الجمعة السابع عشر من ذي القعدة عام ٤٦٣ هـ / السادس عشر من أغسطس ١٠٧١ م ، وقت الصلاة حسب ما أشار به الفقهاء على السلطان .

اصطف الجيشان للقتال ووضع رومانوس نفسه على رأس القوات في الوسط ، وعهد بالجناح الأيمن إلى القائد القبادوقي الياتس Alyattes ، وإلى الجناح الأيسر إلى نقفوربرينيوس Bryennius ، وتولى أمر الجنود الاحتياطية

أندرونيقوس Andronicus ابن القيصر يوحنا دوقاس ألد أعداء الامبراطور. وظلت المعركة من الظهر حتى قرب غروب الشمس ولم يحقق أي طرف نصراً ملموساً على الآخر. ومع اقتراب المساء أعطى رومانوس أوامره للجيش بالعودة إلى المعسكر البيزنطي. والواضح أن أندرونيقوس قد انسحب في وقت غير مناسب وأذاع عن عمد شائعة بأن الجيش البيزنطي قد هزم أمام القوات السلجوقية. وقد سبب ذلك كله ارتباكاً في صفوف القوات البيزنطية، وهي الفرصة التي استغلها السلاجقة لإنزال الضربات بالجيش البيزنطي. وحاول رومانوس معالجة الموقف بما تحت يديه من قوات وقاتل حتى هزم ووقع في الأسر.

وفيما يتعلق بمعاملة السلطان للامبراطور رومانوس فقد اتفقت المصادر على حسن معاملة ألب أرسلان لأسيره الامبراطور. ومما ذكرته المصادر العربية أن السلطان قال للامبراطور «ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت، فقال رومانوس: دعني من التوبيخ وافعل ما تريد. فقال السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟ فقال الامبراطور: أفعل القبيح. قال السلطان: فما تظن أنني أفعل بك، قال الامبراطور: إما أن تقتلني، وإما أن تشهر بي في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال، واصطناعي نائباً عنك. قال السلطان: ما عزمت على غير هذا». وهناك رواية أخرى بيزنطية حول المعنى ذاته، وقد جاء فيها أن السلطان سأل الإمبراطور عما يفعله به إذا كسب المعركة وأسر السلطان، فأجاب الامبراطور: كنت أجلدك حتى الموت، ولكن ألب أرسلان قال له: لن أجلدك فقد قيل لي أن السيد المسيح علمكم الصفح عن الخطايا وأنه يكره المتكبر ويكرم المتواضع. وفي نهاية الأمر تم الصلح بين الطرفين وافتدى رومانوس نفسه بحوالي ألف ألف دينار واشترط ألب أرسلان على رومانوس أن يرسل إليه عساكره في أي وقت يطلبها، وأن يطلق سراح أسرى المسلمين، وهادنه السلطان خمسين سنة.

أما عن نتائج معركة مانزكرت فيمكن القول إن هذه المعركة فتحت

الحدود الشرقية البيزنطية على مصراعيها أمام التقدم السلجوقي، وأن الامبراطورية البيزنطية فقدت اسمها كحامية للحدود الشرقية الأوروبية، وأن السلاجقة نجحوا في مراحل لاحقة في السيطرة على جانب كبير من آسيا الصغرى. أما في الجانب البيزنطي فقد تسببت في أن يفقد رومانوس عرشه، وزيادة الصراع على السلطة داخل العاصمة البيزنطية لفترة ليست بقصيرة، كما اتخذ البعض من معركة مانزكرت سبباً من أسباب الحروب الصليبية.

وزاد من خطورة الموقف في هذه المرحلة أن روبرت جويسكارد Robert Guiscard النورماني دوق أبوليا Apulia' ١٠٥٧ - ١٠٨٥م، انتهز فرصة انشغال القوات البيزنطية بالحرب مع السلاجقة، واستولى على مدينة باري في السادس عشر من أبريل عام ١٠٧١م، أي قبل معركة مانزكرت بأربعة أشهر. وبسقوط مدينة باري في يد النورمان تنتهي السيطرة البيزنطية على آخر موقع لها في إيطاليا.

ميخائيل دوقاس ١٠٧١ - ١٠٧٨م

وأثناء تواجد الامبراطور رومانوس في الأسر نجحت المعارضة وعلى رأسها القيصر يوحنا في عزل الامبراطور عن العرش، وعادت الامبراطورة يودوكيا إلى الحكم ومعها ابنها الأكبر ميخائيل دوقاس، وبعد وقت قصير، وفي الرابع والعشرين من أكتوبر عام ١٠٧١م أجبرت الامبراطورة على دخول أحد الأديرة، وتولى ميخائيل دوقاس العرش باسم ميخائيل السابع دوقاس ١٠٧١ - ١٠٧٨م.

ولما أطلق سراح رومانوس من الأسر واجه المعارضة في العاصمة ولم تعترف به كإمبراطور، فنشبت حرب أهلية انتهت بإعطاء الأمان للأمبراطور رومانوس على أن يسلم نفسه، ولكن العصبة الحاكمة لم تحترم ما وعدت به. وما إن وصل رومانوس إلى القسطنطينية حتى تم القبض عليه وسملت عيناه وتم نفيه إلى جزيرة بروت حيث مات هناك في صيف عام ١٠٧٢م.

ولم تعترف الحكومة البيزنطية بالمعاهدة التي عقدها رومانوس مع ألب أرسلان، فاتخذ السلاجقة من ذلك ذريعة لمهاجمة الأراضي البيزنطية، ومرة أخرى أصبحت الامبراطورية أمام الخطر السلجوقي في وقت كان يجلس على عرش بيزنطة امبراطور صغير السن ينقصه النضوج الجسمي والعقلي ويتحكم فيه مربيه ومعلمه ميخائيل بسلوس.

وإلى جانب الخطر السلجوقي الذي هدد آسيا الصغرى والخطر النورماني الذي طرد البيزنطيين من إيطاليا، قامت ثورة في البلقان عام ١٠٧٢م ولم تستطع بيزنطة إخمادها إلا بصعوبة شديدة. وقد ترتب على هذه الثورة تقدم البجناكية والمجر في البلقان للتخريب والتدمير، كما أن السيادة البيزنطية على الكروات بدأت تتناقص، وتدريجياً فقدت الامبراطورية سيطرتها على ساحل دالماشيا.

وفي خضم هذه الأحداث كان الامبراطور بعيداً عن الجيش ولا يرغب في القتال، لذلك تمكن الخصي نيفقوريتزس Nicephoritzes دوق أنطاكية من الوصول إلى القصر، وإبعاد بسلوس والقيصر يوحنا، وبدأ نيفقوريتزس في جمع الأموال فاستحوذ على تجارة القمح واحتكرها، فأدى ذلك إلى غضب الأهالي.

وخلال هذه الأحداث طمع كل قائد في الاستقلال بما تحت يديه من أراضي، ومن هؤلاء رسل دي بايبل الذي سبق له وحارب مع رومانوس ضد الأتراك السلاجقة. واستقل رسل بمناطق قونية وأنقرة فاستعان الامبراطور بالسلاجقة، فدخل مائة ألف من القوات السلجوقية تحت قيادة سليمان بن قطلمش وتقدموا في آسيا الصغرى في عام ١٠٧٤م حتى وصلوا إلى الشاطىء الأسيوي للبسفور، وهزم رسل ووقع في الأسر، ولكنه افتدى نفسه بالمال ثم عاد مرة أخرى للانتقام من الأتراك السلاجقة. وعند هذه المرحلة خرج القائد البيزنطي الكسيوس كومنين Alexius Comnenus للقضاء على رسل واستعان ألكسيوس بالسلاجقة وانتصر على رسل. ولكن هذا النصر كلف الامبراطورية إقليم قبدوقية الذي استقر فيه الأتراك السلاجقة.

تفقور بوتانياتس Botaniates ١٠٧٨ - ١٠٨١م

وكان نفقور من القادة الطموحين في آسيا الصغرى ، وقد نجح في ضم عدد كبير من القوات السلجوقية إلى جانبه فاستولوا باسمه على مدن قيزيقوس ونيقيه ونيقوميديا وغيرها واستقروا فيها .

وإلى جانب نفقور بوتانياتس كان هناك في البلقان منشق آخر هو نفقور برينيوس Bryennius . وعمت الفوضى أنحاء الامبراطورية وتدخل رجال الدين ونادوا بنقفور بوتانياتس امبراطوراً ونزل ميخائيل السابع عن العرش وسلك الرهبانية . ولكن هذا الوضع لم يُرض البعض الآخر فاندلعت الحرب الأهلية . ولم يتمكن نقفور بوتانياتس من إعادة النظام إلى صفوف الجيش . وتطورت أحوال الدولة من سيء إلى أسوأ ، وظهرت الدسائس والمؤامرات في أنحاء الامبراطورية ، فخاف الكسيوس كومنيين على نفسه وخرج من العاصمة وانضم إلى القوات البيزنطية التي كانت تحارب السلاجقة في آسيا الصغرى . ولدى وصوله نادى به الجند امبراطوراً ، فعاد إلى العاصمة ليجلس على عرش الامبراطورية ، وتنازل نقفور عن العرش وسلك الرهبانية وعاش بقية عمره راهباً ، بعدما عاشت العاصمة ثلاثة أعوام كانت مسرحاً للعنف والفوضى ، وتوج ألكسيوس في الرابع من أبريل عام ١٠٨١م .

الفصل الثالث عشر

الأسرة الكومنينية

١- عصر الكسيوس ويوحنا

١٠٨١ - ١١٤٣م

من المعترف به أن أصل أسرة كومنيين إنحدر من أصول إغريقية ، وكانت قد إستقرت في أملاك شاسعة حول مدينة أدرنة ، وهي إحدى البيوتات الواسعة الثراء والمتألقة في المجتمع البيزنطي كعائلة نبيلة إقطاعية حربية . وقد ظلت هذه الأسرة في صف المعارضة طالما بقي الحكم تحت السيطرة المدنية . وكما رأينا انه في احداث عام ١٠٥٧م وضع التحالف العسكري واحدا من هذه الاسرة وهو إسحق كومنيين على العرش البيزنطي ، ثم رأينا أيضا أنه على أثر تعاقب الاحداث كان لا بد لاسحق هذا أن يتنازل عن العرش لصالح رجل استقراطي آخر هو قسطنطين دوقاس ، وان الاضطرابات الجديدة أدت الى وضع السلطة لمدة أربع سنوات في يد القائد الشهير نقفور بوتانياتس . واخيرا فان الامبراطورية البيزنطية التي هزتها وأضعفتها كل هذه القلاقل لم يكن ينقذها سوى قائد محنك ، وكان الكسيوس الأول كومنيين ١٠٨١ - ١١١٨م هو ذلك القائد العظيم .

كان الكسيوس قائدا شجاعا بهرت شجاعته أعين معاصريه ، كما كان فاتن المظهر جذاب، قوي الإرادة، وذكياً ومقاتلاً ممتازاً في ميدان القتال، هذا بالاضافة الى مكر ودهاء ومرونة تجلت في مؤامرات البلاط . كان الكسيوس أحد الشخصيات المتألقة في القصر في ظل حكم ميحائيل دوقاس ، وسطع نجمه وتألق في المعارك التي خاضتها الامبراطورية ضد الاتراك ورسل بابيل في آسيا

الصغرى، ولقد حقق الكسيوس انتصارا على هؤلاء ونجح أيضا في أسر رسل بابيل ودخل به القسطنطينية حيث استقبل استقبال الفاتحين.

وخلال النزاع الذي شجر بسبب الصراع على العرش كان الكسيوس من الحنكة بحيث لم يضع نفسه موضع الشبهات، فقد كان يعلم أن فرصته قادمة لا ريب فيها ولكنه كان يريد أن يُدعى ليتولى العرش بإرادة الجميع. وقد تزوج الكسيوس من إيرين دوقايس واستطاع ان يوحد بين أسرتين متنافستين، وضمن بذلك مساندة وتأييد أولئك الذين قد ينازعونه على العرش، وأثناء حكم نقفور بوتنياتس أبدى الكسيوس ولاء واخلاصا وحصل على اسمى مناصب الشرف. ولم يقف الكسيوس عند هذا الحد لأن زواجه من إيرين دوقاس لم يقيد قدمه، فلقد احب الامبراطورة ماريا، وهي المرأة الرائعة التي كانت تتمتع بجاذبية خارقة، كما أن ماريا لم تقو على مقاومة هذا الغازي المنتصر فأصبحت خليلته وأخلصت في حبه وخدمته وإرضائه، ولجأت الى فكرة التبني ووضعت الكسيوس في الاسرة الامبراطورية. ولقد فهم وأدرك نقفور بوتنياتس ما يكمن وراء ذلك من خطر فأمر بالقاء القبض على الكسيوس وأخيه اسحق، ولكنهما عرفا بنية الامبراطور في حينه. وقبل فوات الاوان فرا في الرابع عشر من فبراير عام ١٠٨١م. ولكن القوات المسلحة ساندت الكسيوس ونادت به إمبراطوراً، ودخل الكسيوس العاصمة البيزنطية على رأس هذه القوات. ودارت بعض المعارك في شوارع القسطنطينية ولكن الأسطول ساند الكسيوس أيضا فقرر نقفور التنازل عن العرش.

الكسيوس الأول ١٠٨١ - ١١١٨م

لقد أثبت الكسيوس في هذه الظروف أنه يعرف كيف يضع مصالح الامبراطورية فوق عواطفه، فلقد كان يحب ماريا ولم يبادل زوجته الشرعية الشعور نفسه، ومع كل ما لديه من سلطة كإمبراطور كان بوسعه أن يطلق زوجته إيرين وأن يتزوج من عشيقته ماريا، ولكنه في الوقت نفسه كان سيجلب لنفسه

متاعب لا قبل له بها من أسرة دوقاس التي تنحدر منها زوجته الشرعية ، وظلت هذه الافكار تراود عقله طيلة ثمانية ايام ، وفي النهاية قرر البقاء مع زوجته الشرعية وحصل من ماريا على ما بقي له من حبها على الاقل . ومنذ تلك اللحظة أصبح العرش مضمونا ومأمونا بالنسبة له لفترة دامت سبعة وثلاثين عاما وأسرته من بعده حتى عام ١١٨٥ م .

ويلاحظ في هذه الفترة أنه من المآسي التي عرفتها الامبراطورية على الرغم من انتصاراتها وأوجه نجاحها المتألقة أنها كانت تتجه بشكل قاطع نحو مصير مظلم ونحو كارثة كبرى لا قيام منها . وسوف نشهد الحدث الأهم في تلك الفترة وربما كان أهم حدث في تاريخ بيزنطة ، وهو الإنهيار الكامل للعلاقات البيزنطية بين الشرق والغرب على السواء ، وأن الامبراطورية البيزنطية التي كانت ممثلة للامبراطورية الرومانية القديمة وخليفة لها حسب مفهوم البيزنطيين انفسهم ، اضطرت تحت ضغط الضربات العسكرية الى أن تبتعد عن الحوض الغربي للبحر المتوسط وان تضع في الشرق القوة الرئيسية لجيشها . ومع ذلك فقد استطاعت الامبراطورية أن تحتفظ بممتلكات هامة في ايطاليا وفي صقلية . ورغم أنها كانت تنسحب منها تدريجياً تحت ضغط العرب ثم تحت وطأة النورمان ، الا انها لم تعان على الاقل بطريقة مباشرة من تهديد الشعوب الغربية في أول الامر . ومن المعروف ان الامبراطورية كانت معتادة على ان تهب وتستيقظ ضد كل طامع فيها وأن تاريخها حافل بحروب ضارية كان عليها ان تكون طرفا فيها للدفاع عن نفسها . ولكي تحمي نفسها وتضمن وحدة أراضيها في الشرق والشمال كان يجب عليها أن تقف في وجه العرب والبلغار والأتراك . أما بالنسبة لحكام الغرب الأوربي فقد اعتبرتهم بيزنطة رعايا متمردين شقوا عصا الطاعة ، ولكنها لم تنزلهم منزلة الاعداء . ولكن الحقيقة تجلت في اليوم الذي التمست فيه بيزنطة مساعدة الغرب ضد سلاجقة الروم ، وأيقنت أنها وقعت بيدها على قرار إعدامها لأن دول الغرب كانت طامعة هي الأخرى في ممتلكات بيزنطة .

ويتضح ذلك مع قدوم المغامرين النورمان ، قوادا للجند المرتزقة وجنودا مرتزقة ايضا يقدمون خدماتهم للامبراطورية نظير ما يقدم لهم من أموال. وكانوا موالين للامبراطورية البيزنطية، ولم يكن لديهم أطماع محددة حتى ذاك الوقت. ولكنهم شعروا مع مرور الوقت بأنه يجب أن يستفيدوا من الأخطار التي تهدد الامبراطورية. فرغم أن الوراثة كانت هي القانون المتبع في مسألة وراثة العرش ، الا ان الانقلابات العسكرية الاخيرة قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن القوة العسكرية في إمكانها ان تكون طريقا الى العرش البيزنطي. ولما كانت بيزنطة تمر بفترة من القلق فقد التفتت نحو الغرب الأوربي والتمست أو قبلت تدخله ، ومنحت بذلك الفرصة الذهبية للطامعين فيها . ولكن بيزنطة لم تكن تعي ذلك عندما طلبت المساعدة ، بل كانت تريد أن تحقق حلما قديما طالما راودها وهو إعادة السيطرة على البحر المتوسط . ولن يكون خارج نطاق هذا الموضوع ان نذكر الكلمات التي أوردتها أنا كومينا Anna Commena عن أبيها في مؤلفها « الالكسياد The Alexiad » التي وضعته ليكون تاريخاً لعصر أبيها ، فقد قالت حول روبرت جسكارد Robert Guissard دوق أبوليا النورماني ، أن الحرب الضروس التي خضناها كانت ثمرة الحلف الشاذ الذي عقدناه مع البرابرة - تقصد النورمان.

بيزنطة والنورمان والبنادقة:

واذا كانت الانتصارات التي أحرزها الكسيوس ضد الاتراك واستحق الكسيوس الاول عليها أن يعتبر ضمن عظماء الأباطرة العسكريين الذين أرسوا واكدوا قوة الامبراطورية ، فانه منذ بداية حكمه كان عليه ان يناضل ضد النورمان . ومن ناحية اخرى كان الموقف يدعو لليأس في الشرق والغرب ، وقد عبرت أناكومنيا حول هذا الموقف بقولها « عندما رأى والدي [الكسيوس] أن كل أجزاء الامبراطورية تعرضت للهجوم والضربات القاتلة وأن الأتراك اجتاحوا الشرق وأن روبرت جسكارد أشعل نيران الحرب في الغرب بحجة إعادة ميخائيل دوقاس الى العرش ، فانه أراد ان يبدأ بنفسه ، وانه من اجل

هذا صنع جهازا قويا وحشد الجيوش وجهز الاساطيل ووجد نفسه في ارتباك عجيب. وقد سمعت من الجنود القدامى أن الدولة لم تكن في يوم من الايام بمثل هذا الضعف والتداعي ».

لم يكن هناك حدا لمطامع روبرت جسكارد دوق أبوليا المغامر الذي إعترف به البابا، وهو الجندي المرتزق المغتر بجسارته وجرأته وصعود نجمه. ولقد بدت له القسطنطينية فريسة سهلة يمكن الاستيلاء عليها بسهولة وأن يعتلي عرش الامبراطورية البيزنطية. وكان روبرت يعلم أن خمسة وعشرين عاماً مضت من الفوضى المدمرة لم تترك سوى أشباح جيش، لذلك قام على رأس اسطول قوى وعبر بحر الإدرياتيك وانطلق نحو مدينة ديراكيوم Dyrachium الواقعة على ساحل دالماشيا، ومن هناك اعتقد ان الطريق مفتوح أمامه عبر سالونيك الى القسطنطينية، وكان هذا الطريق هو الباب الغربي للإمبراطورية واحدى نقاط الضعف فيها، وكان الرئيس النورماني قد خطط لهذه الحملة كرجل حرب ورجل سياسة.

وامام تهديد روبرت الذي لم يكن بوسع الكسيوس أن يرده، خاصة وأن البحرية البيزنطية لم تكن كافية لصد مثل هذا الخطر، لجأ ألكسيوس إلى البندقية وحالفهم وعرض الامبراطور على البنادقة بعض الامتيازات التجارية، ووافقت البندقية بدافع الخوف من وجود النورمان على مقربة منها ومنافسين مباشرين لها، وأرسلت قواتها البحرية الى ديراكيوم وهزمت النورمان واضطر الاسطول النورماني المهزوم الى رفع الحصار عن المدينة.

لم يكن هذا سوى انتصار عابر موقت، فقد نجحت القوات النورمانية في تشتيت الجيوش البيزنطية على البر، واخيرا سقطت مدينة ديراكيوم في يدها. ولكنه ثمة خطر منع روبرت جسكارد من استثمار نجاحه وانتصاره، فقد انتهزت مقاطعات جنوب ايطاليا فرصة غيابه وثارت، وكان على روبرت أن يعجل بالعودة تاركا ابنه بوهمند Bohemund على رأس قواته، ولما كان بوهمند صغير السن قليل التجربة فقد أصيب بالهزيمة.

وجدد روبرت الحملة بعد فوات الأوان وذهبت محاولته أدراج الرياح ، فقد استطاع الكسيوس أن يعيد تنظيم قواته لينازل النورمان ، كما أن سوء الحظ كان حليف روبرت عندما تفشى الوباء في قواته ، بل أن روبرت نفسه أصيب به عام ١٠٨٥ م وظلت أطماع روبرت سرابا . ولكن الدولة الإيطالية النورمانية قد تحققت وأدى هذا الى انشاء المملكة النورمانية في صقليه بعد خمسين عاما . وكان ذلك أبقى وأقوى ما خلفه روبرت لخلفائه من بعده ، فان صراعه مع الامبراطورية البيزنطية قد فتح الطريق لمطامع خلفائه ووضع أساسا لها . وظهرت القسطنطينية التي كانت سيدة المدن بأنها ليست الحصن المنيع الذي لا يمكن اقتحامه ، ولم تعد تحميها مكانتها الدينية والعناية الالهية ، ولم تعد سوى أروع ما حققته قوى البشر ، وأن البشر في إمكانهم ان يستولوا عليها .

وتدعم سلطان الغرب على القسطنطينية بالثمن الذي دفعته الامبراطورية عرفانا بمساعدة الاسطول البندقي ، فعلى إتساع رقعة الامبراطورية حصل تجار البنادقة على الحق في ممارسة التجارة بحرية مع إعفاءات جركية كبيرة . كما أصبح للبنادقة في ميناء القسطنطينية ثلاثة أحواض للشحن والتفريغ وخصص حي كامل في المدينة لأعمالهم التجارية . ان هذا العزو السلمي ، الودي ظاهريا ، قد كلف بيزنطة أفدح الاثمان .

بيزنطة والأتراك السلاجقة

لقد كان إختفاء روبرت جسكارد وفشل مشروعاته ومحاولاته في نظر الامبراطورية نصرا عظيما ، واستطاعت بيزنطة أن تمد من جديد ممتلكاتها عبر البلقان حتى بحر الادرياتيك . ولكن كان عليها أن تناضل ضد البجناكية في حروب استمرت أكثر من عشر سنوات . وقد شكل البجناكية خطرا كبيرا على بيزنطة شأنهم في ذلك شأن سكان تراقية النين كانوا ينتمون الى مذهب البوجوميليين Bogomils المتعصبين له . وبدأت الاحداث في عام ١٠٨٩ عندما

تحالف أهل تراقية مع الاتراك السلاجقة ضد بيزنطة وأنزلوا بالامبراطور الكسيوس هزيمة كاملة في أول الأمر ، ولم ينقذ الامبراطورية من هذه الكارثة سوى الخلاف الذي وقع بين السلاجقة وأهل تراقية حول استمرار الحرب . وفي عام ١٠٩٠ م بدأ البجناكية ، التي تسميهم أناكومنيا (سكيت) Scyth ، عملياتهم العسكرية بعنف شديد وكان من المستحيل وقف تقدمهم . وبعد أن شتتوا القوات البيزنطية التي إعترضت طريقهم إتخذوا طريقهم صوب العاصمة ووصلوا حتى أسوارها في يوم الذكرى السنوية للقديس ثيودور تيرون Theodore Tiron حيث إعتاد الأهالي في مثل هذا اليوم التوجه الى الكنيسة القائمة خارج أسوار العاصمة، واستحال على الاهالي في هذا اليوم الاحتفال بالذكرى السنوية لهذا القديس لأن البجناكية كانوا يعسكرون عند الأبواب .

وتفاقم الموقف بعد ذلك لأن البجناكيه تحالفوا مع حاكم أزمير ،وهو قائد من أصل تركي أيضا يدعى زاخاس Tzaches . وكان زاخاس هذا قد قضى فترة شبابه بالقسطنطينية أيام حكم نقفور بوتانياتس وحصل على مكانة رفيعة هناك ، وبذلك أصبح على علم بمواطن الضعف فيها وخاصة البحرية البيزنطية . وجهز زاخاس أسطولا على الساحل الغربي لآسيا الصغرى ونجح في الاستيلاء على بعض مدن هذا الساحل وأصبح مهيبا يخشى بأسه ويعمل له حسابا . وعندما أصبح لديه عدد كاف من السفن عرض على البجناكيه أن يحارب الى جانبهم ،وأن يتولى هو مهمة حصار القسطنطينية من ناحية البحر . يضاف الى ذلك أن الاتراك السلاجقة الذين يعيشون في آسيا الصغرى انضموا الى جانب زاخاس . وتحدى زاخاس الامبراطورية البيزنطية وأعلن نفسه امبراطورا وارتدى الزي الإمبراطوري معتقدا ان النصر التام على الامبراطورية أصبح وشيك الوقوع .

قلق الكسيوس من جراء هذه الاحداث ولكنه لم يفقد شجاعته ونجح في استمالة عناصر الكومان Cumans ، وهي قبائل تركية أيضا عاشت شمال البحر الاسود . ورغم ان هذه القبائل كانت صعبة المراس إلا ان الأماكن التي تقطنها

كانت حساسة جدا بالنسبة للامبراطورية . وقد رحبت هذه العناصر بالتحالف مع الكسيوس عندما اطمأنت وتأكدت أن كل الغنائم ستكون من نصيبهم . وتحمل الكومان عبء المعركة ضد البجناكية وكان دورهم أقوى فاعلية من الدور الذي قامت به الجيوش البيزنطية في معركة التاسع والعشرين من ابريل عام ١٠٩١ م ، كما انضم الى الكومان قوات روسية لم تكن اقل شجاعة منهم ولا أقل ضراوة . وقد عانى البجناكيه من مجزرة رهيبة لم تكن سوى مذبحة مرتبة ومنسقة لم ينج منها سوى القليل ، وتقول أنا كومنينا في كتابها عن هذا النصر « إنه لمنظر رائع أن نرى شعبا كثير العدد يسحق في يوم واحد دون استثناء للنساء أو الاطفال » ولعل في قولها هذا ما يدل على ضراوة المعركة وبشاعتها . كما ارتاحت الامبراطورية من متاعب زاخاس عندما اغتاله صهره قلج أرسلان الأول سلطان السلاجقة الروم ١٠٩٢ ـ ١١٠٧ م ، وذلك بايعاز من الامبراطور الكسيوس حتى يتقرب من الامبراطورية البيزنطية ، هذا بالاضافة الى ان قلج ارسلان كان يخشى من أطماع زاخاس في ممتلكاته .

بيزنطة والصليبيون :

وطوال فترة القلق والإضطراب هذه التي إنتهت لصالح الامبراطورية ، فان هناك سؤال يطرح نفسه . هل كان الكسيوس يحاول أن يتحالف فقط مع الشعوب التي كان منتصرا عليها ، وانه لم يلتمس مساعدة الغرب الأوربي؟ وهذا السؤال تبرز اهميته عندما نعرف أنه إذا كان الإمبراطور الكسيوس قد طلب تدخل الدول الغربية ، فان الكسيوس بموجب هذه الحقيقة الوحيدة يعتبر أحد المسئولين عن الحملة الصليبية الاولى .

وواقع الأمر أنه حول هذه المشكلة اختلف المؤرخون ودار بينهم جدل كثير ، واننا لا نملك النص الاصلي للخطاب الذي وجهه الامبراطور الكسيوس الى روبرت الثاني كونت فلاندرز Robert II Count of Flanders ، الذي نزل على الإمبراطور ضيفا في القسطنطينية اثناء عودته من الاراضي المقدسة قبل

سنوات من بداية الحروب الصليبية. هذه الرسالة التي كانت مليئة تقريبا باليأس، وتصف في عبارات مؤثرة الموقف العصيب للإمبراطورية التي يطمع فيها الاعداء، وينهبونها ويخربونها، وفيها أيضا طلب الكسيوس من حكام الغرب الأوربي أن يهبوا لمساعدة أخوانهم، وتذكرهم بالقديسين والكنوز التي سوف ينقذونها. ولكن هل هذه الوثيقة الموجودة حاليا هي نفس الوثيقة التي أرسلها الكسيوس أم أنها مزورة؟ وحول هذا الموضوع علينا أن نلاحظ أنه طبقا لما كتبته أنا كومنين نفسها، ان أباها قد كتب مناشدا عون الغربيين. ولنتذكر من ناحية أخرى ان الكسيوس سبق وطلب مساعدة البنادقة ضد النورمانديين. ونخلص من ذلك ان المحتمل هو أن الامبراطور التمس مساعدة الغرب. وعلينا أن نذكر أيضا أن الامبراطور ميخائيل دوقاس سبق له طلب مساعدة البابا جريجوري السابع Gregory VII ١٠٧٣ - ١٠٨٥ للدفاع عن الإمبراطورية ضد الأتراك. وأن هذا البابا اخذ في إعتباره ان توحيد الكنيستين - كما وعد الامبراطور - هو ثمن هذه المساعدة، وقام بتوجيه نداء عاجل الى القوى الغربية والى امبراطور المانيا بصفة خاصة. وكان هذا البابا يرى أن غزو الاراضي المقدسة أقل اهمية من سلامة الامبراطورية البيزنطية حصن العقيدة المسيحية في الشرق، وخط الدفاع الامامي عن الغرب الأوربي، وعلى الغرب أن يرضى بكل التضحيات إذا كان في مساعدة بيزنطة نهاية للانشقاق الديني بين الكنسة الشرقية والكنسة الغربية.

هذه السوابق كلها لا بد وأنها أوحت الى الامبراطور ألكسيوس بالإلتفات بدوره نحو الأمم الغربية. وبقي لنا أن نعرف ما اذا كان نص الرسالة البابوية إليه هي الرسالة نفسها التي أرسلها ألكسيوس. لقد أثبتت البحوث التاريخية الحديثة ان الرسالة قد حرفت بالترجمة لكي ينتهز الغرب الأوربي الفرصة ويبرر تدخلاته اللاحقة. وواقع الأمر أن الامبراطور الكسيوس طلب بعض الجند المرتزقة لمساعدته، ولم يطلب جيوشا جرارة مثل التي قدمت أثناء الحرب الصليبية الاولى. ولعل ما دفع الغرب الى الطمع في أملاك الامبراطورية أن الدول التي كانت خاضعة من قبل للامبراطورية بدأت تتخلص وتتحرر

بالتدريـج فحصلت كرواتيا على استقلالها وأصبحت مملكة، وكانت صربيا ثائرة، وأن بلغاريا واقعة تحت أيدي البجناكية. وكان الغرب الأوربي يرى أن تتاح له فرصة إقتسام الامبراطورية اذ لم يستطع السيطرة عليها بأكملها، وهذا التصور هو الذي دفع الغرب نحو أبهة وعظمة الشرق وكان بداية مرحلة جديدة في تاريخ الامبراطورية. وفي عام ١٠٩٥م عندما تخيل الكسيوس أنه أصبح بوسعه أن يعمل في جو هادىء نسبيا لإعادة تنظيم الامبراطورية، وإحكام الدفاع عنها حتى يستعد لاستئناف النضال ضد سلاجقة الروم، في هـذه اللحظـة تلقـى نبـأ وصول قوات الحملـة الصليبيـة الاولى إلى أسوار القسطنطينية.

والحملات الصليبية لا تهمنا في هذه الدراسة إلا في صلتها بالامبراطورية البيزنطية وفي نطاق تأثيرها على مصيرها. واذا كان لنا ان نذكر بايجاز اسباب الحروب الصليبية نقول ان السبب الاول الذي كان ظاهرا إبان تلك الفترة هو السبب الديني، وكان الهدف بطريقة مباشرة أو غير مباشرة هو السيطرة على الاماكن المقدسة في ربوع الشام. ولكن الاسباب الاخرى وهي كثيرة تبعد تماما عن الناحية الدينية. ولشرح ذلك نقول ان الامبراطورية البيزنطية بعد الفتح الاسلامي الاول ظلت تتولى مهمة الدفاع عن الغرب الأوربي باعتبارها في خط المواجهة مع الدول الاسلامية في العراق والشام. ولكن في هذه الآونة أي أواخر القرن الحادي عشر الميلادي لم تستطع أن تقوم بهذه المهمة أمام ضربات السلاجقة المتلاحقة وخاصة أمام سلاجقة الروم الذين سيطروا على معظم أراضي آسيا الصغرى، واتخذوا مدينة نيقية على الشاطىء الاسيوي على مقربة من القسطنطينية عاصمة لهم. وفضلا عن ذلك أصبحت الامبراطورية عاجزة أيضا عن صد التوسع الهنغاري واضطرت كذلك للتسليم باستقلال الصرب. هذا العجز هو الذي دفع الغرب الأوربي الى مفهومين رئيسين. أولهما، انه يجب على الغرب الأوروبي الدفاع عن أوربا بدلا من الدولة البيزنطية. والمفهوم الثاني مترتب على المفهوم الاول وهو انه طالما أصبحت بيزنطة ضعيفة عسكريا فان الغرب الأوربي عليه أن يرث هذه الامبراطورية وما عليها من ثروات.

وسبب آخر هو روح المغامرة وحب المعارك والأمل في غزوات باهرة هو الذي قوى وأجج من الحماس الديني ، فلقد كانت الحروب الصليبية بديلا عن الحروب الاقطاعية التي أصبحت مهنة فرسان العصور الوسطى في هذه المرحلة . وقد رأى هؤلاء الفرسان أن بوسعهم أن يحققوا ما حققه البارونات النورمان في إيطاليا وصقلية وانشاء إمارات جديدة في الشرق . وهناك ايضا الأسباب التجارية وأن المصلحة المباشرة في هذا المضار دفعت بالكثير الى الخدمة في صفوف الحملات الصليبية خاصة المدن التي تقع على البحر المتوسط التي كانت ترى ان سيطرة الاتراك السلاجقة على مدن الشام وآسيا الصغرى ، سوف يغلق هذه الموانىء في وجهها ويعوق حرية التجارة التي كانت تسمح بها حتى ذلك الوقت الامبراطورية البيزنطية كباب مفتوح على الشرق ، هذا بالاضافة الى اسباب اخرى منها ما هو إجتماعي أو اقتصادي أو عسكري أو شخصي .

وعلى أية حال فعندما أقام سلاجقة الروم بعد معركة مانزكرت سلطنة نيقية فإنهم واصلوا توسعاتهم في آسيا الصغرى واستولوا على مدينة أزمير وسيطروا على كثير من الجزر القريبة من الساحل ، هذا بالاضافة الى توسعاتهم في الشام أيضا حيث استولوا على بيت المقدس عام ١٠٧٨م من الخلافة الفاطمية وتبعها العديد من مدن الشام . واذا كان هذا ما حدث في الشرق ، فان معركة الزلاقة في عام ١٠٨٦م التي انهزمت فيها القوات الاسلامية في اسبانيا اشعرت أهل الغرب الأوربي بأن الوقت قد حان ليتولى الغرب مهمة محاربة المسلمين في الشرق أيضا، وان بوسعهم الانتصار عليهم طالما انتصروا عليهم في أسبانيا .

نادى البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) بالدعوة للحملة الصليبية الاولى في مؤتمر كليرمونت Clermont عام ١٠٩٥م ، وانخرط آلاف من العامة تحت قيادة بطرس الناسك Peter the Hermit . وهو من الحجاج الذين زاروا الاراضي المقدسة ، وكان في طول فرنسا وعرضها الداعية النشط

الفعال للحملة الاولى ، وكان نجاحه منقطع النظير. ويقول أحد المؤرخين المعاصرين وهو جيبرت دي نوجنت Guibert de Nogent إنه لا يوجد فرد من بين أشد الناس فقرا لم يفكر للحظة واحدة في قلة المال أو في الصعوبات التي تكتنف هذه الرحلة ، لقد كانت هناك مجاعة في فرنسا ، وكانوا يخفون القمح أو يبيعونه بسعر مرتفع ، وعندما سمعوا بنداء الحرب الصليبية « هذه ارادة الله » نسي الجميع المجاعة وقام أصحاب المخازن المغلقة بفتح أبوابها ووزعوا قمحهم دون مقابل. ولم يكن أمام الجميع سوى الرحيل وانخرط كل الناس شيبا وشبانا واطفالا في صفوف الحملة المعروفة بالحملة الشعبية.

وفي الوقت الذي حدث فيه هذا التحرك الواسع النطاق للغرب الأوربي لم يعد الكسيوس في حاجة الى المساعدة التي سبق أن طلبها. فلقد تحسن موقف الإمبراطورية بعد تحالفه مع الكومان وبعد مقتل زاخاس أيضاً ، وإختفى التهديد الذي كان مسلطا على بيزنطة. ومن ناحية اخرى فانه عندما طلب مساعدة الغرب لم يكن يتصور أن تكون بهذه الصورة الضخمة. لقد طلب إمداده بقوات عسكرية مرتزقة لا بطوفان من البشر يتقاتل على أرضه ، وأن المساعدة المطلوبة كانت للدفاع عن القسطنطينية فقط ، لانه منذ حوالي خمسة قرون ونصف لم تعد الاماكن المقدسة جزءا من الامبراطورية ولم يفكر الكسيوس في الاستيلاء عليها من أيدي المسلمين. وتظهر لنا أنا كومنينا التعجب والخوف من العناصر القادمة وتقول ، قبل أن يتاح للامبراطور فسحة من الوقت للراحة بعد العديد من الاعمال العسكرية ، علم بقدم جيش لا حصر له من الفرنسيين ، ولمعرفته بعدم ولاء القادمين امتلأ رعبا وخوفا ، ومع ذلك فان الامبراطور عمل كل ما في وسعه للاستعداد لهم في حالة تمردهم دون ان يفقد شجاعته ورباطة جأشه. وتصف أنا كومنينا الاعداد الهائلة القادمة بقولها ، وبدا أن كل الغرب وكل من يسكن البحر الادرياتيك وكل أوربا قد قام ضد المسلمين.

هذه القوة الاولى من الحملات الصليبية لم تكن سوى جمهرة ضخمة من الغوغاء ، خليطا مشوشا تعسا قوامها ثمانية عشر ألف شخص تقريبا تحت قيادة

بطرس الناسك. وقد أتوا عن طريق البر عبر بافاريا وهنغاريا وبلغاريا، وكان من بينهم عدد كبير من اللصوص الذين ارتكبوا طوال مسيرتهم أعمال السلب والنهب تاركين على طول الطريق عددا كبيرا من جمهور الحملة موتى على الطريق. ومنذ وصول هذه الأخلاط الى ضواحي القسطنطينية قاموا بأعمال النهب والسرقة، ولم تكن لديهم أية وسيلة للعيش. وحتى يتخلص الكسيوس من هذه الجموع عمل على نقلهم بأسرع ما يستطيع الى آسيا الصغرى. وعلى مقربة من مدينة نيقية عاصمة سلاجقة الروم قام الاتراك بالقضاء عليهم ولم يتمكن بطرس الناسك إلا أن يعود بالقليل منهم.

كانت الحملة الصليبية وهي المعروفة بالحملة الاولى قد تم إعدادها بصورة أكثر جدية وكانت تتكون من أربعة جيوش، تولى بوهمند وتانكرد Tancred قيادة الفرق النورمانية، وكانت القوات البروفنسالية تحت قيادة ريموند الرابع كونت تولوز Raymond IV , Count of Toulouse ، والقوات الفرنسية بقيادة هيو كونت فرماندیوس Hugh, Count of Vermandois ، وإتين أف بلوا Etienee of Blois ، وروبرت الثاني أف فلاندرز Robert II, Count Flanders ، أما الأخيرة وهي قوات إقليم اللورين فكانت تحت قيادة جودفري دوق اللورين Godfrey, duck of Lorraine . واتخذت هذه الجيوش الأربعة أربع طرق مختلفة ولكنها إتفقت جميعها على الإلتقاء عند أسوار القسطنطينية.

لم يكن لدى ألكسيوس سوى شاغل واحد وهو نقلهم إلى آسيا الصغرى ما داموا لم يجندوا إلا لمقاتلة المسلمين، فلقد كانوا ضيوفاً صلفين ومغرورين، ومن جهة البيزنطيين الذين اعتبروا أنفسهم شعب مهذب رقيق، اعتبروهم متخلفين. أما بالنسبة لهذه الحشود فكانت تعتبر البيزنطيين هراطقة، ومن هنا كان الصراع مستمر بين هؤلاء المحاربين وبين من لا يريد أن يقتل أو ينهب أو تكال له الإهانات، وهو الشعب البيزنطي.

ورغم هذا كله فقد وجد الكسيوس وهو الدبلوماسي المرموق عدم مساعدة

الصليبيين إلا مقابل يين الولاء والتبعية له كإمبراطور ، وان تعطى له كل الاراضي التي يتم الاستيلاء عليها اذا كانت هذه الاراضي تابعة للامبراطورية من قبل . ولقد قبل القادة الصليبيون بعد مفاوضات طويلة هذهالشروط ،ولعل ذلك تم تحت ضغط رجال الدين الغربيين على أمل أن يؤدي هذا الى وضع حد للانشقاق الديني . وعندما أقسم القادة للامبراطور بما يريد ؛سمح لهم بالعبور الى آسيا الصغرى وتولت الحملة الصليبية المهمة التي جاءت من أجلها .

كانت العملية العسكرية الاولى هي حصار مدينة نيقية عاصمة سلاجقة الروم ، وبعدمحاولات شاقة سقطت المدينة في ١٠٩٧ م . وطبقا للاتفاق السابق مع الامبراطور تم تسليم المدينة إليه . وثمة انتصار آخر على السلاجقة الذين كانوا يحكمون الاقاليم القريبة من آسيا الصغرى أتاح لبيزنطة أن تسترد كل مدن الساحل الغربي لآسيا الصغرى . وواصل الصليبيون مسيرتهم نحو الشرق والى الجنوب الشرقي . وليس لنا هنا أن نتتبع كيف أن رؤساء الحملة توقفوا في الطريق لتأسيس إمارة الرها ثم إمارة إنطاكية ثم إمارة بيت المقدس التي وصل اليها ما يقدر بحوالي عشرين الف أو خمسة وعشرين ألف رجل حيث هاجموها في الخامس عشر من يوليو عام ١٠٩٩ م ، وأن العملية كانت نهبا وسلبا وتخريبا وتدميرا ومجزرة بشعة . أما إمارة طرابلس فلم تؤسس الا في مرحلة لاحقة .

وبالنسبة للامبراطورية البيزنطية فلقد حصلت على مزايا هامة من الحملة الاولى ، ومن بين هذه الامتيازات اضعاف سلاجقة الروم عسكريا وإعادة سلطانها على جزء كبير من آسيا الصغرى ، ورغم هذا لم تخف الامبراطورية قلقها وعدم إرتياحها من قيام إمارات صليبية مستقلة لا تدين لها بالولاء والطاعة . وكبداية أراد الكسيوس أن يسترد أنطاكية ، طبقا للاتفاق الذي قطعه الصليبيون على أنفسهم عند مرورهم عبر القسطنطينية ورفض الاعتراف بها كامارة مستقلة تحت حكم بوهمند ، ولكن الاخير رفض . وحدث ان هَزم المسلمون بوهمند على مقربة من الرها ، ولما كان بوهمند عاجزا عن تحمل وطأة الحرب ضد المسلمين وضد بيزنطة في وقت واحد ، رحل إلى إيطاليا تاركاً

تانكرد ابن اخيه على رأس الإمارة. وعاد بوهمند على رأس جيش وهاجم الاملاك البيزنطية ولكنه هزم واجبر على توقيع معاهدة ديفول Divol عام ١١٠٧ م واعترف بموجب هذه المعاهدة بتبعيته للامبراطور وأقسم على أن يعيد الى الامبراطورية كل أراضيها القديمة وقبل أن يتبع بطريق انطاكية كنيسة القسطنطينية، وان يعين هذا البطريق من قبل الامبراطور.

كان هذا العمل بالنسبة للامبراطورية نجاحا منقطع النظير، ولكنه ظل عديم الفائدة، لان تانكرد الذي تولى أمر إمارة انطاكية بعد وفاة بوهمند، رفض العمل بمعاهدة ديفول، ولم تكن بيزنطة في موقف تستطيع فيه إستخدام القوة. فقد كانت مشغولة في هذه المرحلة بالصراع مع سلاجقة الروم في آسيا الصغرى بعدما اتخذوا مدينة قونية عاصمة لهم بعد سقوط نيقية. وهذا الصراع هو الذي كرّس الكسيوس من أجله بقية حياته ونجح فيه إلى حد ما.

واذا القينا نظرة على حكم الكسيوس، وجب علينا ان نتفق على أنه كان حاكما عظيما، تمكن في ظروف قاسية من صد الأخطار التي حاقت بالامبراطورية وأن يعيد لها بالحرب والسياسة والخديعة أراضي كانت قد فقدتها. وكان عليه أن يناضل ضد النورمان وضد البجناكيه وضد سلاجقة الروم وأخيرا ضد الصليبيين، وبفضل حنكته ومقدرته وخططه تمكن من الانتصار عليهم وان الامبراطورية أثناء حكم الكسيوس تخلصت وانطلقت من هذا الاختناق الذي أطبق عليها وتمكنت من استعادة جانب من عظمتها القديمة.

وعلى الرغم من أهمية اعمال الكسيوس وعلى الرغم من العظمة والشجاعة التي ابداها الكسيوس في حروبه ايضا، فانه كان موضع النقد والهجوم العنيف من كل المؤرخين الغربيين الذين حكموا عليه من وجهة النظر الكاثوليكية وحملوه مسئولية الخسائر التي منيت بها الحملات الصليبية التي مرت عبر أراضيه والتي لم تمر أيضا. وواقع الامر ان الامبراطور كان يفكر في سلامة دولته، ولا يجوز أن يلام على عمل آخر. ولا يلام أيضا عندما يقصى عن بلاده

الرحل الهمج وأن يدافع عن نفسه ضد تعدي وتطاول الأمراء الصليبيين. ولقد أدى الكسيوس دوره باتقان وترك امبراطوريته لابنه يوحنا.

يوحنا الثاني ١١١٨ - ١١٤٣م

لم يكن تولي يوحنا، وهو الإبن الأكبر عرش الامبراطوري بالأمر السهل. فعندما مات الكسيوس، فان زوجته الامبراطورة إيرين كانت تفضل - دون كل إبنائها - كريمتها أنا كومنينا، ولذلك سعت للحصول على موافقة القصر على تعيين - زوج إبنتها أنا - نقفور برينيوس Bryennius لتولي العرش. ولكي يتغلب يوحنا على موقف والدته قرر أن يقوم بانقلاب مسلح حتى يضعها أمام الأمر الواقع، وقام باخفاء الخاتم الامبراطوري من أبيه وهو يحتضر وجمع أنصاره وحشد القوات وعرض عليهم الخاتم كإشارة لإرادة الأب، وأعلن في القصر أن والده قد مات. وفي الحال دبرت أمه وأخته وزوجها مؤامرة لاغتيال يوحنا ولكن المؤامرة فشلت بسبب تردد وخوف نقفور، وفاز يوحنا بالعرش. ورغم هذا فقد أظهر يوحنا سعة صدر وحلم نادر الحدوث في التاريخ البيزنطي ولعل ذلك ما دفع بعض المؤرخين بتسميته يوحنا الطيب. فقد اكتفى بمصادرة ثروات وأموال أولئك النين تآمروا عليه، ثم أعاد الى أختـه كل ثروتها، وترك لوالدته العجوز مطلق الحرية بان تكرس ميولها الادارية وحب السيطرة والتوجيه في إدارة الدير الذي أنشأته. كما أقامت إبنتها أنا على مقربة منها في قصر فخم حيث عاشت الامبراطورة المعزولة والاميرة التي خاب املها في بدخ محاطتين ببلاط من الشخصيات البارزة والادبية.

تسلم يوحنا مقاليد السلطة ولم يضع برنامجا جديدا للحكومة، فلقد جلس على عرش مستند إلى كل الجهود التي بذلها والده الكسيوس، وما كان عليه إلا أن يواصل أعمال أبيه. وعلى ذلك كان على يوحنا أن يعمل على تأييد مصالح الامبراطورية، ولم يكن ذلك بالأمر السهل وسط العديد من المشاكل السياسية والدينية، هذا بالاضافة الى محاولة أبعاد الشعوب التي استولت على بعض أراضي الإمبراطورية، والوقوف في وجه مشروعات الإمارات الصليبية التي

أقامها وانشأها إقطاعيو الغرب في الشام ، لأن هؤلاء الصليبيين الذين إعتبروا البيزنطيين هراطقة لم يخفوا عداوتهم للامبراطورية ، وكانوا يحلمون باليوم الذي يسيطرون فيه على القسطنطينية مثلما فعلوا ببيت المقدس . وليس من المدهش أن تحاول بيزنطه الدفاع عن نفسها ضدهم ، لأن الاتراك رغم خطورتهم بدوا في هذه المرحلة أقل خطرا على الامبراطورية من الصليبيين .

يوحنا والغرب الأوربي

واصل يوحنا سياسة أبيه في دعم القوة العسكرية للإمبراطورية ، وكان عليه الوقوف في وجه العناصر التي تحاول أن تقتطع من الامبراطورية مزيدا من الاراضي ، ولـذلـك قضى يوحنـا معظم أيـامـه في الحروب . وقـد أحرز الامبراطور إنتصارا عظيما على البجناكيه الذين عبروا الدانوب وبدأوا في غزو أراضي الامبراطوريـة . وكـان هـذا الانتصـار سببـا في تخليـص بيزنطـة من عدوانهم ، وليس هذا فحسب بل أن يوحنا ضم الى جيشه عددا كبيرا من أسرى الحرب . أما فيما يتعلق بالموقف مع البلغار فان يوحنا لم يتمكن من أن ينتصر عليهم إنتصارا حاسما ولكنه نجح إضعافهم ، وإثارة الخوف بينهم ، والى جعلهم يلتزمون بحدود بلادهم . وتوصل يوحنا إلى عقد معاهدة تحالف مع لوثير الثالث Lothair III ملك المانيا (١١٢٥ ـ ١١٣٧م) ، كما تحالف ايضا مع خليفته كونراد الثالث Conrad III ١١٣٨ ـ ١١٥٢ م . وكان تحالف بيزنطة مع ملوك المانيا موجها ضد روجر الثاني النورماني Roger II ملك صقلية ١١٠١ ـ ١١٥٤ م ، فقد أصبح روجر قوياً بعدما ضم صقلية وجنوب إيطاليا في مملكة واحدة ، وتسبب في إثارة القلاقل للإمبراطورية . واذا كانت بيزنطة قد فقدت سيادتها على جنوب إيطاليا من الناحية الفعلية ، فقد كان عليها أن تمنع ـ على الاقل ـ روجر من أن يتخذ زمام المبادأة ويشن الحرب ضد الإمبراطورية ، وأن التحالف البيزنطي الألماني سوف يجبر روجر على أن يفكر ويتدبر قبل الاقدام على مثل هذا العمل ، ولم يكن هذا التحالف مكسبا ضئيلا أو هينا .

يوحنا والشرق :

وفي آسيا الصغرى لم يكن نشاط يوحنا أقل فاعلية، لقد نجح في إستعادة قيليقية، ثم سار الى انطاكية التي رفضت الخضوع للإمبراطورية وحاصرها وأجبرها على التسليم. ودخل يوحنا المدينة في موكب المنتصرين بصحبة كل رجال بلاطه يتبعه أمير انطاكية الذي أنزله الى مرتبة اقطاعي. وفي ضوء المكانة التي تحققت له بفضل انتصاراته فكر الامبراطور في مشاريع أوسع نطاقا وأخطر، لقد فكر في التقدم حتى بيت المقدس لكي يبسط سيادته عليها كما فعل بإمارة أنطاكية، غير أن حادثة وقعت له أثناء الصيد وجرح بسهمه المسموم فانهت حياته عام ١١٤٣م، ولكن يوحنا كان لديه الوقت قبل موته، لكي يعين ابنه مانويل الاول Manuel I (١١٤٣ - ١١٨٠م) خلفا له على عرش الامبراطورية تاركا له امبراطورية أوسع بكثير جدا مما تسلمها.

مات الإمبراطور يوحنا بعد أن حكم ثمانية وعشرين عاماً وثمانية شهور، بعدما حكم الامبراطورية بحكمة، وعاش حياة نقية طاهرة، بعيدة عن كل أنواع الإنحلال والفسق. لقد أحب أن يظهر عظمته في السخاء والجود على الشعب وفي الكنائس الشامخة التي شيدها. وكان يحب المجد ولديه رغبة قوية في تخليد أثره، لقد سعى وراء الطهارة في كل شيء، وإبتعد وتحاشى كما يتحاشى الإنسان الطاعون كل الأقوال لا المبتذلة فحسب، بل أيضاً كل الأقوال التي لا فائدة منها وكل حشو ولغو. ونقل للجميع الموضوعات الفاضلة التي يمكنهم أن يقتدوا بها. وليس معنى ذلك أنه كان رجلا فظاً منفراً، بل على العكس، فقد كان أحياناً يتنازل عن صرامته ويتسلى تسلية شريفة. ولم يحكم يوحنا على أحد بالموت أو بأية عقوبة بدنية طوال حكمه. ويعتبر يوحنا درة أسرة كومنيين، ولم تضع هذه الأسرة على العرش من يضاهيه أو يطاوله عليه في أفعاله وخصاله.

الفصل الرابع عشر

الأسرة الكومنينية

٢- مانويل الأول ١١٤٣ - ١١٨٠م

مانويل الأول ١١٤٣ - ١١٨٠م:

كان مانويل موجوداً على مقربة من أبيه في قيليقية لحظة وفاته، وشيع جنازته ثم نقل جثمانه إلى القسطنطينية. وكان محبوباً جداً كما عرف بالشجاعة والإقدام والحكمة والتعقل والهمة العالية، ولقد أحبه الشعب واستبشر به خيراً عند دخوله العاصمة.

ومنذ توليته العرش، أخذ الملك الفتى - اذ ولد حوالي عام ١١٢٠م - يعمل على تقوية التحالف مع الامبراطورية الألمانية، وما كان عليه إلا أن يطبق آراء أبيه. ومن ثم فقد إستأنف المفاوضات التي كانت جارية من قبل بين والده وبين كونراد الثالث ملك ألمانيا. واستجابة للرغبات الأخيرة لوالده كان قرار مانويل بالزواج من أخت زوجة كونراد وهي برتا أف سالزباج Bertha of Salsbach. وواقع الأمر كان هذا زواجاً سياسياً من شأنه طبقاً لتعهدات كونراد، أن تكفل المانيا لبيزنطة عند الحاجة مساعدة القوات الالمانية تحت قيادة الامبراطور نفسه. وقد شكل هذا الزواج المدعم بالتحالف محوراً قوياً متماسكاً ضد روجر الثاني، وأصلب من أن يفكر أحد في مهاجمة الإمبراطورية البيزنطية دون أن يكون معرضاً لخطر جسيم. ولكن الحملات الصليبية تطرح نفسها مرة أخرى، وأصبح للعامل الغربي من تحالفات أو عداوات

وتهديدات بالغزو أو مقاومة الغزو بالتدريج أحد العناصر الجوهرية في السياسة البيزنطية ، لقد كانت السياسة البيزنطية مزعزعة ومجبرة على التحول نحو الغرب الأوروبي بنوع من الحتمية التاريخية ، ولكن هذا التحول نحو الغرب الذي كان أحد محاورها القديمة قد شكل بالنسبة لها أنكى الأخطار وأشدها فيما بعد .

مانويل والغرب الأوروبي

أ ـ مانويل والمجر

لقد أظهر الأمبراطور مانويل نشاطاً كبيراً في صد أخطار المجر ، وقد سلك في سبيل ذلك طرقاً مباشرة وغير مباشرة . ومن ذلك أن الأمبراطور نجح في إعادة السيادة البيزنطية على اقليم الصرب وعين ستيفن نمانيا Stephen Nemanya حاكماً عليه . وبتحريض من الأمبراطورية شن ستيفن عدداً من الحملات العسكرية الناضجة على المجر وأجبر المجريين على عقد صلح مناسب مع الأمبراطورية . وعلاوة على ذلك فعندما مات ملك المجر جيزا الثاني Geisa II عام ١١٦١ م تدخل الأمبراطور مانويل في حرب الوراثة وساند ستيفن الثالث ١١٦١ ـ ١١٧٣ م ابن جيزا في عرش الدولة ، وقد أدى ذلك إلى صراع طويل . وقد نجح مانويل في الحصول على تأييد كبير داخل المجر خاصة من رجال الدين .

ولكن دولة المجر بدأت تميل تجاه الأمبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا ، لذلك جدد مانويل الحرب ضد المجر ، وقد نجح الجيش الامبراطوري في استعادة بعض المراكز المجرية على ساحل دلماشيا التي كانت الامبراطورية قد فقدتها من زمن طويل . وأخيراً وفي عام ١١٦٤ م اضطرت المجر إلى عقد صلح أخذت الأمبراطورية بموجبه دلماشيا وبعض أراضي الكروات .

ولمزيد من ربط المجر بالأمبراطورية قرر الأمبراطور مانويل تزويج الأمير المجري بيلا Bella من ابنته وجعله وريثاً له ، ولكن الأمبراطور مانويل رزق

بمولود ذكر جعله يقلع عن هذه الفكرة . وقد نجح مانويل في تمكين الأمير بيلا من عرش المجر بعد موت ستيفن الثالث في عام ١١٧٣ م . وقد ظل بيلا تابعاً للأمبراطورية لفترة من الزمن .

ب ـ مانويل والنورمان

لقد زادت قوة المملكة النورمانية في صقلية وجنوب إيطاليا ، وكان روجر الثاني Roger II ملك النورمان ١١٢٩ ـ ١١٥٤ م مصدر قلق للامبراطورية

وفي عام ١١٤٧ م قام الأسطول النورماني بمهاجمة السواحل البيزنطية واستولوا على جزيرة كورڤو Corfu or Korvo في جنوب ساحل دلماشيا ، ولم يكتف النورمان بذلك بل قاموا بضرب الاقتصاد البيزنطي عندما حملوا عمال الجزيرة المهرة في صناعة الحرير إلى مدينة بالرمو في صقلية . ولم يتمكن الأمبراطور مانويل من القيام بعمل عسكري ضد النورمان في تلك المرحلة لانشغاله بأمر الحملة الصليبية الثانية التي اتخذت الطريق البري عبر الأمبراطورية البيزنطية وآسيا الصغرى .

وقد لجأ الأمبراطور مانويل إلى التحالف مع البنادقة وتمكن من استعادة الجزيرة ، ثم أغار على إيطاليا واستولى على مدينة انكونا Ancona . ورغم موت ملك النورمان روجر الثاني فإن الأمبراطورية لم تحقق نجاحاً كبيراً ضد النورمان . وفي نهاية الأمر عقدت معاهدة في عام ١١٥٨ م مع وليام الأول ملك النورمان (١١٥٦ ـ ١١٦٦ م) ، ولكن العلاقات ظلت متوترة بين الأمبراطورية والنورمان . ويلاحظ أن الغرب الأوروبي لم يرض على أن تكون إيطاليا تحت النفوذ البيزنطي ، كما أن البنادقة حلفاء الأمبراطورية أول من قاوم مثل هذا النفوذ .

جـ ـ مانويل والبنادقة

عندما تحالف مانويل مع البنادقة في عام ١١٤٨ م لضرب النورمان بذل الأمبراطور للبنادقة منح تجارية في مدن الأمبراطورية ، وقد استمر هذا التحالف مؤثراً للبعض ضد النورمان . ولكن سوء التفاهم بين البنادقة والأمبراطورية ظهر

في المراحل التالية الأمر الذي أثار سخط البيزنطيين ، ويرجع ذلك إلى جشع البنادقة ومحاولة تسلطهم على التجارية الشرقية . يضاف إلى ذلك أن البنادقة شعروا بتهديد مصالحهم التجارية عندما نجح الأمبراطور في ضرب النورمان والاستيلاء على بعض المواقع الجنوبية في ساحل ولماشيا .

ولقد كانت المزايا التجارية التي منحتها الأمبراطورية للبنادقة كثيرة لدرجة أزعجت سكان الأمبراطورية . ولذلك حاول مانويل تقوية روابط الأمبراطورية مع بعض المدن الإيطالية التجارية الأخرى ، فعقد حلفاً مع جنوه في عام ١١٦٩ م ومع بيزا في عام ١١٧٠ م . ثم ساءت العلاقة بين الأمبراطورية والبنادقة في ١٢ مارس عام ١١٧١ م عندما تم القبض على جميع التجار البنادقة ومصادرة بضائعهم . وردت البندقية في اليوم نفسه بالإغارة على جزيرة خيوس Chios ولسبوس lisbos ، وعقدت حلفاً مع حاكم قبرص البيزنطي الذي انشق الأمبراطورية .

وظلت العلاقات متوترة بين الأمبراطورية والبنادقة حتى عام ١١٧٥ م حين احتاجت الأمبراطورية للبنادقة لمساندتها ضد ألمانيا ، ورضخت الأمبراطورية وأعادت للبنادقة امتيازتها السابقة داخل الأمبراطورية . ورغم هذا كله فقد ظلت أطماع البندقية في الأمبراطورية كبيرة مثل النورمان وغيرهم من العناصر الأوروبية حتى جاء اليوم الذي أظهر فيه الغرب الأوروبي العداء السافر للأمبراطورة ووجهوا إليها ضربة قاسمة في الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ م .

د ـ مانويل والأمبراطورية في الغرب

كان للأمبراطورية البيزنطية أهدافاً كبيرة في الغرب الأوروبي ، وقد رغب آل كونيين مثل غيرهم في إعادة فرض سيطرتهم على الغرب الأوروبي سواء أكان ذلك عن طريق القوة العسكرية أو احتواء البابوية في روما . ولعل ذلك مرجعه إلى أن الأباطرة البيزنطيين اعتبروا أن الأمبراطورية الرومانية في الغرب غاصبة لهم ولسلطانهم ، وقد أبدى الأمبراطور مانويل اهتماماً خاصاً في هذا المجال ، ولعل ما شجع بيزنطة في هذه المرحلة ما حققه الأمبراطور مانويل من انتصار على البنادقة رغم أن هذا الانتصار كان مؤقتاً ، يضاف إلى ذلك ما كان

من عداء بين البابوية والأمبراطور الروماني الغربي فريدريك بارباروسا . Frederik Barbarossa (١١٥٢ ـ ١١٩٠ م) .

كانت فرصة الأمبراطور مانويل في مساندة البابا اسكندر الثالث Alexander III ضد الأمبراطور فريدريك ، وذلك عندما حاول الأمبراطور مانويل التقرب للباباوية وأشار بفكرة توحيد الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية في القسطنطينية مع الكنيسة الغربية الكاثوليكية في روما ، وإذا كان مانويل أراد من وراء ذلك مساندة الباباوية إلا أنه كان يرغب في الحصول على تاج الأمبراطورية الرومانية في الغرب ، وبذلك يصبح الأمبراطور الوحيد في الشرق والغرب . ولم يكتف مانويل بذلك بل شجع العصبة اللومباردية وهي الجبهة التي وقفت ضد أطماع الأمبراطور فريدريك . هذا بالإضافة إلى تشجيع البندقية وجنوه وبيزا ضد الأمبراطور فريدريك .

وحقيقة الأمر أن مثل هذه المشروعات التي أقامها الأمبراطور مانويل كانت مشروعات خيالية ، فواقع الحال أن البابا في روما لا يستطيع الموافقة على مشروعات الأمبراطور البيزنطي ، وأن يصبح بطريكاً بيزنطياً في روما التي أراد الأمبراطور مانويل أن يجعل منها عاصمة أمبراطوريته المزعومة ، كما أن المدن الإيطالية التجارية لم توافق على مشروعات بيزنطية . وقد ترتب على ذلك كله استياء الأمبراطور فريدريك من السياسة البيزنطية وأعلن العداء السافر لحكام بيزنطة . وهكذا عاد اهتمام الأمبراطور مانويل بأمر الغرب الأوروبي بالضرر البالغ على الأمبراطورية البيزنطية .

ويلاحظ أن الأمبراطور مانويل قد اهتم كثيراً بالعناصر اللاتينية خاصة الصليبية منها وقربها إليه . ، وقد أثار ذلك العناصر البيزنطية داخل بيزنطة نفسها ، كما أن طموح الأمبراطور مانويل في الغرب قد أثار الغرب كله وأوجد تحالفاً ضد الأمبراطورية البيزنطية . وإذا كان مانويل قد نجح في تحقيق شهرة كبيرة في العالم لمدينة القسطنطينية ، فإنه في نهاية الأمر قد أرهق خزانة الدولة من جراء حروبه العسكرية وترك الأمبراطورية معرضة للخطر وعاجزة عن مواجهة الاخطار الخارجية في المراحل اللاحقة .

مانويل والشرق

أ ـ مانويل السلاجقة

من الواضح أن العلاقة بين بيزنطة والمسلمين سواء أكانوا سلاجقة أم عباسيين أم أمويين أو غير ذلك كانت علاقة قديمة تبدأ منذ ظهور الإسلام . وإذا كانت العلاقة بين بيزنطة والمسلمين منذ الفتح الإسلامي للشام ومصر وشمال أفريقيا حتى نهاية الدولة الأموية كانت علاقة وجود ، بمعنى أن المسلمين حاولوا جاهدين القضاء على بيزنطة وهاجموها في عقر دارها القسطنطينية ، فإن علاقة بيزنطة مع الدولة العباسية كانت علاقة حدود ، بمعنى أن كلاً من الدولتين كانت تحافظ على حدودها ، فإن العلاقة عادت مرة أخرى بين بيزنطة والسلاجقة لتكون علاقة وجود مرة أخرى ، فكانت سلطنة الروم في آسيا الصغرى تسعى جاهدة للسيطرة على آسيا الصغرى بأكملها وجعل البحر حداً فاصلاً بين الممتلكات السلجوقية في آسيا الصغرى والممتلكات البيزنطة في أوروبا . وإذا كان الأمبراطور ألكسيوس قد نجح بمساعدة الصليبيين في استعادة جانباً من أملاك الأمبراطورية في آسيا الصغرى ، ودفع السلاجقة إلى الوراء واتخاذهم مدينة قونية عاصمة لهم بدلاً من مدينة نيقية ، فإن الأمبراطور مانويل قد واصل سياسة أسلافه وحارب السلاجقة حتى تقدم إلى العاصمة قونية عام ١١٤٦ م . ولكن الغزو النورماني والحملة الصليبية الثانية قد دفعته إلى التراجع في عام ١١٤٧ إلى عاصمته .

وقد تطلع مانويل إلى القضاء على السلاجقة في آسيا الصغرى ، ولكن مشاغله في الغرب قد شغلته لبعض الوقت عن تنفيذ هذه السياسة ، وعندما بدأ يهتم مرة أخرى بأمر آسيا الصغرى كان الوقت قد مضى ، وانخدع لبعض الوقت بالسياسة السلمية التي قدمها سلطان سلاجقة الروم قلج أرسلان الثاني (١١٥٦ ـ ١١٩٣ م) . وقد استغل قلج أرسلان هذه الفرصة ووحد دولته بعد أن قضى على منافسيه من آل دانشمند ، وإقامة بعض التحصينات للمدن القريبة في آسيا الصغرى القريبة من الحدود البيزنطية .

كما أن الأمبراطور مانويل اتخذ سياسة دفاعية طوال الفترة من ١١٦٤ م

وهي السنة التي زار فيها قلج أرسلان العاصمة البيزنطية وتصالح مع الأمبراطور مانويل ، حتى عام ١١٧٥ م واكتفى باقامة بعض التحصينات المحدودة في قلاعه بآسيا الصغرى . وعندما تنبه مانويل إلى خطر السلاجقة المتزايد في آسيا الصغرى بدأ هجومه على السلاجقة ، ولكن مثل هذا الهجوم جاء متأخراً للغاية . وفي عام ١١٧٦ م وقعت معركة ميريوكيفالوم Myriociphalom حيث لحقت هزيمة ساحقة بالجيش البيزنطي الذي تبدد تقريباً . وسيكون لهذه المعركة أثرها الكبير في الشرق والغرب على السواء . وقد حاول الأمبراطور مانويل إعادة هيبة الأمبراطورية أمام الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى ، لذلك قام في عام ١١٧٧ م وما بعدها ببعض الحملات العسكرية على الحدود الغربية السلجوقية وقد بدت هذه الحملات وكأنها حملات ناجحة وأصلحت بعض الشيء من كارثة ميريوكيفالوم ، إلا أنه في واقع الأمر أن السلاجقة أصبحوا في نهاية حكم الأمبراطور مانويل ١١٨٠ م دولة قوية يخشى بأسها .

ب ـ مانويل والصليبيون

لقد نجح الأمبراطور الكسيوس في الاستفادة من الصليبيين أثناء عبورهم آسيا الصغرى في الحملة الأولى واستعاد بعض المدن التي كان السلاجقة قد استولوا عليها ، كما نجح الأمبراطور يوحنا في فرض سلطان الأمبراطورية إلى حد ما على الإمارات الصليبية في الشام خاصة إنطاكية . وعندما قدمت الحملة الصليبية الثانية من أوروبا في طريقها إلى بلاد الشام عبر أراضي الأراضي انزعج الأمبراطور مانويل من القوات الكبيرة التي تجمعت في القسطنطينية فقد قدم كونراد الثالث Conrad III ملك إلمانيا (١١٣٨ ـ ١١٥٢ م) وتلاه لويس السابع Iouis VII ملك فرنسا (١١٣٧ ـ ١١٨٠ م) .

وقد حاول الأمبراطور مانويل الأستفادة من هذه القوات كما فعل جده الكسيوس ، ولكنه لم يوفق لذلك تخلص من القوات الألمانية بسرعة ودفعهم إلى آسيا الصغرى ، ولعل ذلك مرجعه إلى المصاهرة التي كانت بين العاهلين . ولكن مانويل صادف بعض الصعوبات مع القوات الفرنسية التي قدمت إلى القسطنطينية عقب مرور القوات الألمانية حتى أن الفرنسيين فكروا

في الاستيلاء على العاصمة البيزنطية . وعندما هاجم السلاجقة قوات الحملة ومزقتها اتهمت أوروبا الأمبراطورية البيزنطية بالتحالف مع السلاجقة لضرب القوات الصليبية وخيانة القضية الصليبية ، وطالبت بإعداد حملة صليبية توجه ضد الأمبراطورية البيزنطية في عام ١١٥٠ م تزعمها الملك لويس السابع . وإن كانت هذه الفكرة لم تنفذ إلا أن الخلافات بين البيزنطيين والصليبيين قد تزايدت حتى وصلت إلى فقدان الثقة بين الطرفين في المراحل التالية .

ومن المعروف أن إمارة انطاكية النورمانية كانت مصدر إزعاج للأمبراطورية بسبب مطامع أميرها يوهمند الذي أجبر على توقيع معاهدة ديفول عام ١١٠٨ م واعتقدت بيزنطة أن هذه المعاهدة سوف تضمن نجاح السياسة البيزنطية في فرض سلطانها على الإمارات الصليبية ووضع إنطاكية تحت السيادة البيزنطية . ولكن هذا المعاهدة لم تنفذ . وقد ظلت مشكلة السيادة على انطاكية ذريعة للتدخل البيزنطي في الإمارات الصليبية في عهد الأمبراطور يوحنا وابنه مانويل ، وكان كل منهما يأمل في فرض سلطانه على الإمارة الأرمينية في إقليم كيلكيا وعلى كافة الإمارات الصليبية في بلاد الشام .

وكان ليو أمير أرمينيا قد تمكن من توسيع رقعة الإماراة على حساب الممتلكات البيزنطية ، كما كون حلفاً مع الأمراء الصليبيين في بلاد الشام ، وانتهز الأمبراطور يوحنا أول فرصة وتدخل لاخضاع الأمير ليو وريموند أف بواتيه أمير أنطاكية وبدى وكأنه السيد المطاع في أرمينيا والإمارات الصليبية في بلاد الشام في عام ١١٣٨ ، كما قاد يوحنا حملة ضد المسلمين ولكنه لم يوفق ، ومات في عام ١١٤٣ م دون أن يحقق عملاً يذكر في بلاد الشام .

وسار الأمبراطور مانويل على سياسة أبيه وأجبر ريموند أف بواتيه على القدوم إلى القسطنطينية وتقديم اعتذاره على قبر والده ، والاعتراف بالأمبراطور مانويل كسيد أعلى واعتبر ريموند نفسه انطاكياً تابعةَ للأمبراطور وذلك مقابل مساعدة مانويل له ضد المسلمين .

وفي عام ١١٥٨ م قاد مانويل بنفسه حملة تأديبية ضد ثوروس حاكم أرمينيا ورينو أف شاتيون حاكم انطاكية لتمردها على السيادة البيزنطية وعلى

مهاجمتها لجزيرة قبرص التابعة للأمبراطورية البيزنطية وقد نجح مانويل في حملته هذه ودخل انطاكية في موكب حافل وخلفه حكام الإمارات الصليبية الذين أصبحوا اتباعاً له .

وفي السنوات التالية زادت الروابط بين بيزنطة والصليبيين في بلاد الشام وتزوج الأمراء الصليبيين من أميرات بيزنطيات ، كما تزوج الأمبراطور مانويل من ماريا ورثية عرش انطاكية لربط الإمارة بالإمبراطورية ، وتوطدت العلاقات بين بيزنطة والصليبيين عندما تعاون الطرفان للقيام بحملات عسكرية ضد مصر مثل مشروع عام ١١٦٨ م الذي نفذ عام ١١٦٩ م بقيام حملة بيزنطية صليبية لغزو مصر . وقد فشلت هذه الحملة تماماً في مهمتها . كما نلاحظ أن من روابط الصلة بين بيزنطة والصليبيين أن الحضارة البيزنطية قد شقت طريقها إلى الممتلكات الصليبية في بلاد الشام حيث كان نفوذ الأمبراطور مانويل واضحاً .

ومما لا شك فيه أن الصليبيين كانوا يلجأون دائماً إلى الأمبراطورية في حالة ضعفهم ، أما في غير ذلك فكانوا يحملون الأمبراطورية كل المسؤولية إذا أصابهم ضرر سواء أكان هذا الضرر داخلياً أم خارجياً . ورغم أن الصليبيين كانوا يلجأون إلى الأمبراطورية حتى أواخر عهد الأمبراطور مانويل عام ١١٨٠ م إلا أن الصليبيين والغرب الأوروبي كانوا يكرهون الأمبراطورية البيزنطية ، وقد زادت هذه الكراهية في المراحل اللاحقة لعهد الأمبراطور مانويل ، كما أن البيزنطيين قد كرهوا الصليبيين لما كان لهم من نفوذ في البلاد البيزنطية .

نهاية الأسرة الكومنينية

الكسيوس الثاني ١١٨٠ - ١١٨٣ م .

وبعد وفاة مانويل حكم ابنه القاصر الكسيوس تحت وصاية أمه ماريا الأنطاكية ، واستعانت الأم بابن أخي مانويل ويدعى الكسيوس أيضاً ليساعدها في تدبير شؤون الحكم ، ولما كانت ماريا فرنسية الأصل وأن مساعدها الكسيوس قد عرف عنه حبه للاتين ، وهو أمر لا يرضى عنه البيزنطيون ، فقد بدأت المؤامرات للإطاحة بالوصية وابنها . وكان من الطامعين في العرش ماريا

أخت الأمبراطور الراحل مانويل وزوجها رينه دي مونتفرات Renier de Mantferrat . وإندلعت ثورة أهلية انتهت بوضع أندرونيقوس كومنيين في عام ١١٨٢ م وصياً على الأمبراطور القاصر ، ولم يكد أندرونيقوس يصل إلى هذا المنصب حتى قبض على الأمبراطور الصغير ألكسيوس ، ثم قتله في عام ١١٨٣ م ..

أندرونيقوس كومنيين ١١٨٣ - ١١٨٥ م :

وهو ابن عم الأمبراطور مانويل ، وكان فارساً له شهرته ، وذكياً فصيحاً ، يجيد المناظرة ولديه القدرة على إقناع الآخرين بوجهة نظره . وكان أندرونيقوس جميل الصورة وعرف عنه كثرة مغامراته العاطفية ، وإنه تآمر على ابن عمه مانويل ، ولما كشفت المؤامرة فر خارج البلاد ثم عاد إلى القسطنطينية وتم القبض عليه وأودع أحد سجون العاصمة ، ولكنه نجح في الفرار ولجأ إلى إمارة إنطاكية الصليبية ثم بيت المقدس . وفي داخل الإمارات الصليبية كانت له مغامراته العاطفية مع ثيودورا أرملة الملك الصليبي بلدوين الثالث . وضج الأمراء الصليبيون من مسلكه هذا فعاد إلى العاصمة البيزنطية نادماً تائباً ، فعفى عنه الأمبراطور مانويل وأبعده عن العاصمة ليعيش على أطراف البحر الأسود . وبعد وفاة مانويل بدأ يعمل على الوصول إلى عرش الأمبراطورية .

وكان في وصاية ماريا الانطاكية وكره البيزنطيين لها باعتبارها غير بيزنطية ومساعدة الكسيوس لها لأنه كان متعاطفاً مع الفرنجة ، فرصة استغلها أندرونيقوس للوصول إلى العرش . وانتهى الأمر بأن أصبح وصياً على الأمبراطور القاصر الكسيوس بن مانويل ثم قتله بعد عام واحد وانفرد بالعرش في عام ١١٨٣ م .

واستغل أندرونيقوس كره البيزنطيين للأوروبيين بعامة وللصليبيين بخاصة ، فأنزل الاضطهاد بالصليبيين الذين كانوا في خدمة ماريا الأنطاكية وسمل عيون كثيرين منهم . وزاد طغيان أندرونيقوس ففر الكثير من النبلاء البيزنطيين وكبار رجال الدولة من العاصمة ولجأوا إلى الصليبيين في إنطاكية

وطـرابلس وبيت المقـدس ، كمـا لجـأ بعضهـم إلى الأتـراك السـلاجقـة في عاصمتهم قونية .

وكان من بين الذين نزل بهم الاضطهاد وفرَّ من القسطنطينية أمير بيزنطي يدعى ألكسيوس كومنيين الذي فـرَّ إلى الأمراء الـروس ثم إلى النورمـان في صقلية وطلب حماية ملكها وليم الثاني ١١٦٦ ـ ١١٨٤ م . وقد وجد وليم في ذلك فرصة للتدخل في الشؤون البيزنـطية فـأعد حملة وأغـار على الأراضي البيـزنـطيـة ووصلت الحملة إلى أسـوار العـاصمـة ، وفي هـذه الأثنـاء كـان أندرونيقوس بعيـداً عن العاصمـة . وخلال هـذه الاضطرابـات ظهر إسحـاق أنجليوس Issac Angelus فالتف شعب القسطنطينية حوله واستولى على القصر الأمبراطور ، وعندما عاد أندرونيقوس إلى العاصمة لمحاولة استرداد عرشه تم القبض عليه وألقى به وسط الثائرين فقتلوه . ومع مقتل أنـدورنيقوس وتـولي اسحق أنجليوس عرض بيزنطة ينتهي حكم الأسرة الكومنينية الذي دام حكمها أكثر من قرن من الزمان ، ويبدأ حكم آل أنجليوس

الفصل الخامس عشر

أسرة أنجيلوس والحملة الصليبية الرابعة
١١٨٥ - ١٢٠٤م

أسرة أنجيلوس

حكم من هذه الاسرة أربعة أباطرة في الفترة من ١١٨٥ - ١٢٠٤م وقد أسسها وبدأ حكمها إسحق انجيلوس ١١٨٥ - ١١٩٥م، وبعده حكم أخوه ألكسيوس الثالث ١١٩٥ - ١٢٠٣م، ثم عاد إسحق أنجيلوس مرة أخرى ليحكم عاماً واحداً من ١٢٠٣ - ١٢٠٤م. وإنتهت بحكم ألكسيوس الخامس وحكم بضعة أشهر في عام ١٢٠٤م.

إسحق أنجيلوس ١١٨٥ - ١١٩٥م

وقد وصل إسحق أنجيلوس للعرش بعدما أطاح بالإمبراطور أندرونيقوس. ولم يختلف إسحق عن سابقه فكلاهما كان لاهياً ماجناً اهتم بحياته الخاصة ومتعه الشخصية عن الإهتام بشؤون الإمبراطورية وإصلاح أحوالها. وفي الوقت الذي وصل فيه إسحق إلى العرش كان الخطر النورماني يهدد الإمبراطورية من ناحية الغرب، لذلك بدأ إسحق في عرض الصلح على النورمانيين ولكنهم رفضوا. فاستعدت الإمبراطورية للحرب وتمكن القائد البيزنطي براناس Branas من هزيمة النورمانيين وطردهم من سالونيك وجزيرة كورفو Corfu أهم مركز لصناعة النسيج في الإمبراطورية، وإنتهى الأمر بعقد الصلح بين الطرفين.

ولحاجة الامبراطورية للأموال ،عمل الامبراطور على زيادة الضرائب فضج الاهالي وقامت ثورة في البلاد بزعامة القائد براناس ولكنها فشلت وانتهت بمقتل قائدها ، وأعقب ذلك موجة من الإضطهاد نزلت بأنصار القائد المهزوم .

وعادت الأخطار الخارجية مرة أخرى ، وكانت هذه المرة من قبل البلغار الذين قاموا في عام ١١٨٨ م بالتوغل داخل إقليم تراقيه ، وفشل إسحق في إخضاعهم بالقوة فلجأ الى المفاوضة وطلب الصلح الذي إنتهى بإطلاق يد البلغار في المنطقة الواقعة من البلقان وشمالا حتى نهر الدانوب . وفي عام ١١٩٣ تمرد الصرب على الحكومة البيزنطية فاسترضاهم إسحق وأنعم على زعيمهم ستيفن نيمانيا Stephen Nemanja بالألقاب . وإنتقلت عدوى التمرد الى آسيا الصغرى وظهر فيها متمرد يدعى ثيودورTheodore .ولكن ثورته لم تنجح ولجأ في نهاية الأمر الى السلطان السلجوقي قلج ارسلان الثاني في عاصمته قونيه .

وخلال هذه الأحداث إسترد المسلمون مدينة بيت المقدس من الصليبيين في عام ١١٨٧ م ، فاستعدت أوربا بالحملة الصليبية المعروفة بالثالثة لمحاولة استردادها . واستعد ريتشارد قلب الأسد (Richard (Lion-Heart ملك انجلترا ١١٨٩ - ١١٩٩ م وفيليب أغسطس Philip Augustus ملك فرنسا ١١٨٠ - ١٢٢٣ م وفريدريك باربا روسا Frederick Barbarossa إمبراطور ألمانيا ١١٥٢ - ١١٩٠ م . واختار ملك انجلترا وملك فرنسا الطريق البحري بينما إختار فريدريك الطريق البري عبر الاراضي البيزنطية . وكان على إسحق وفريدريك الاتفاق حول هذا الموضوع رغم أن الامبراطورية البيزنطية لا تعترف بامبراطور العالم الأوربي . وفي النهاية تم توقيع معاهدة في عام ١١٨٨ م تعهد بموجبها الامبراطور البيزنطي السماح للقوات الصليبية بالمرور عبر الاراضي البيزنطية . ولما كان كل من إسحق وفردريك يخشى نوايا الآخر ، فقد تفاوض إسحق مع صلاح الدين ، وذكرت المصادر العربية أن الامبراطور البيزنطي كتب الى صلاح الدين وجاء في هذه المصادر : لقد « وصل من ملك قسطنطينة كتابا يتضمن استعطافا وإستسعافا » ، واضافت المصادر ، إن

فريدريك «لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع».

ولم يكن فريدريك أقل حذرا من الامبراطور إسحق، وكان الامبراطور الألماني قد تحالف مع الصرب والبلغار والنورمانيين وكل أعداء الامبراطورية. ويبدو أن فريدريك قد شك في تصرفات الامبراطور أثناء تقدمه صوب القسطنطينية، لذلك كتب الى ابنه هنري لإعداد أسطول لمهاجمة العاصمة من البحر، في الوقت الذي يهاجمها الامبراطور الألماني من البر. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لأن إسحق عجل بعبور القوات الألمانية الى آسيا الصغرى، ثم ما لبث ان مات فريدريك غريقا في أحد أنهار منطقة قيليقية.

والواضح أن إسحق تخلص من القوات الألمانية ليحارب البلغار لتحالفهم مع فريدريك، فخرج في عام ١١٩٥م لمحاربتهم. وفي الطريق دخل الكسيوس على أخيه إسحق في خيمته وقبض عليه وسجنه بعدما سمل عينيه وأعلن نفسه امبراطورا.

ألكسيوس الثالث ١١٩٥ - ١٢٠٣

قام الامبراطور الجديد باغداق الأموال على من عاونوه في الاستيلاء على العرش، فأرهق خزانة الدولة، في الوقت الذي كانت فيه هيبة الامبراطورية قد ضاعت من قبل في الخارج بسبب ثورة البلغار، بالاضافة الى ضياع جزيرة قبرص التي استولى عليها ريتشارد قلب الأسد في مايو ١١٩١م، وهو في طريقه الى عكا مع قوات الحملة الصليبية الثالثة. ويعتبر ضياع قبرص أول إشارة على ضياع هيبة الأباطرة البيزنطيين في القسطنطينية.

على أية حال لم يقم الإمبراطور الكسيوس الثالث بأي عمل ناجح من شأنه إعادة أملاك دولته الضائعة في قبرص، كما واصل الحرب البلغارية بنفس الفشل الذي صاحب سلفه. وفضلا عن ذلك فقد تنازع مع الامبراطور الألماني هنري السادس Henry VI ١١٩٠ - ١١٩٧م، بسبب إدعاء هنري لعرش

بيزنطة عن طريق والد زوجته روبرت الصقلي Robert of Sicily ، واستعد هنري فعلا لغزو بيزنطة ، إلا أن المرض داهمه واصيب بالحمى التي قضت عليه في عام ١١٩٧ م.

سقوط القسطنطينية في يد الصليبيين

واذا كانت الامبراطورية البيزنطية قد أمنت شر هنري بموته ، فانها تعرضت بعد قليل إلى ما هو أشد فتكا عندما اجتاحتها جحافل الحملة الصليبية الرابعة التي استولت على معظم أراضيها في الفترة من ١٢٠٤ - ١٢٦١ م . ومرجع ذلك الى أن الأمير الكسيوس ابن الامبراطور السابق إسحق تمكن من الفرار من سجنه ولجأ الى زوج اخته فيليب أف سوابيا Philip of Suabia امبراطور المانيا في هذه المرحلة ١١٩٧ - ١٢٠٨ م ، وطلب منه المساعدة على الوصول الى عرش الامبراطورية البيزنطية . وقد وجد فيليب في مساندة الكسيوس وإعادته الى عرشه فرصة لتحقيق امنيته الموروثة عن هنري السادس وهي احتواء عرش بيزنطة . ولكي يتم ذلك دبر فيليب أمر الاتصال بين الكسيوس والمسئولين عن قيادة الحملة الصليبية الرابعة أثناء تواجدهم في مدينة زارا Zara ، وعرض الكسيوس على الصليبيين مائة ألف مارك نظير مساعدته في استرداد عرش بيزنطة ، كما تعهد بتبعية الكنيسة البيزنطية لكنيسة روما ، وأن يقدم بعد استرداد عرشه عشرة آلاف جندي للمساهمة في استرداد الاراضي المقدسة بالشام .

وقد لقيت مهاجمة بيزنطة التأييد من معظم كبار المسئولين الأوربيين ، بالاضافة الى موافقة البابا أنوسنت الثالث Innocent III ١١٩٨ - ١٢١٦ م ، طالما أن المشروع يحقق فكرة البابوية العالمية في توحيد الكنسيتين الشرقية والغربية تحت سيادة روما بعد قطيعه عام ١٠٥٤ م . ووافق فيليب أف سوابيا على ذلك لانه يحقق سيطرته على عرش بيزنطة الى حد ما ، كما وافق البنادقة لاعتبارات تجارية ، لأنهم كانوا يرون أنه طالما بقيت الامبراطورية في

القسطنطينية فانهم لا يأمنون بقاء مراكزهم التجارية الاحتكارية في حوض البحر المتوسط.

وأخيرا تم الإتفاق على مهاجمة القسطنطينية رغم معارضة بعض قواد الحملة. وانحرفت على هدفها الأصلي وهو مهاجمة مصر، واتجهت صوب القسطنطينية، واستولت عليها في الثالث عشر من أبريل عام ١٢٠٤م. وهرب الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث وجلس على العرش إسحق أنجيلوس والى جانبه ابنه الكسيوس الرابع الذي ما لبث ان انفرد بالعرش. وعجز الامبراطور الجديد عن الوفاء بوعوده المالية لقادة الحملة فانتهى الأمر بعزله، وجلس أحد القادة الصليبيين وهو بلدوين كونت فلاندرز Baldwin of Flanders ١٢٠٤ - ١٢٠٥م على عرش القسطنطينية، وقسمت الإمبراطورية البيزنطية على القادة البيزنطيين والبنادقة، كما طرد البطريك البيزنطي الأرثوذكسي ونصب بدلاً منه أسقفاً بندقياً كاثوليكاً، وأرسلت الأخبار إلى البابا تنبئه بتوحيد الكنيستين وهو أمل طالما تمناه بابوات روما.

الإمبراطورية البيزنطية في نيقيه ١٢٠٤ - ١٢٦١م

قسمت الامبراطورية البيزنطية إلى عدد من الدويلات والإمارات، وأهم هؤلاء كان أمبراطورية القسطنطينية، ومملكة سالونيك، وإمارة آخيه Achaia، ودوقية أثينا وطيبة. واحتوت ممتلكات البندقية أهم جزر بحر إيجه والبحر الإدرياتيكي وجزيرة كريت. واحتفظ البيزنطيون بإقليمي نيقيه وطرابيزون، في آسيا الصغرى، وإقليم إبيروس Epirus غرب اليونان. وفي خضم هذا التقسيم نجد أن التاريخ في هذه المناطق هو صراع بين البيزنطيين والصليبيين، وبين البيزنطيين أنفسهم، وبين الصليبيين والبلغار. وما يهمنا في هذا الموضع هو مدينة نيقيه التي قامت بعمل إيجابي ضد هؤلاء جميعاً ونجحت في نهاية الأمر في إعادة وحدة الأمبراطورية بعد ثمانية وخمسين عاماً من التفكك.

ثيودور الأول لاسكاريس Lascaris ١٢٠٤ - ١١٢٢ م.

ويعرف عنه أنه أحد القادة العسكريين الذين قاوموا الغزو الصليبي على العاصمة البيزنطية، ثم فرّ بعد فشل المقاومة إلى آسيا الصغرى والتفّ حوله الكثير من البيزنطيين واتخذ من نيقيه مركزاً للمقاومة. وواقع الأمر أن مهمة ثيودور كانت صعبة ومعقدة، فسلاجقة الروم يهددونه من عاصمتهم قونية في الشرق والصليبيين غرباً في القسطنطينية. كما كان الصليبيون مهددون من البلغار في الغرب هذا بالإضافة إلى الفوضى التي عمت أرجاء البلاد، وقلة موارد الامبراطورية في نيقية.

وقد تكفل البلغار بالصليبيين في بداية الأمر، ومرجع ذلك إلى احتقار الصليبيين الكاثوليك لعقائد البلغار الأرثوذكس. ولعب البطريك البيزنطي يوحنا كماتريوس Johnx Camaterus ١١٩٨ - ١٢٠٦، الذي فر من العاصمة أثناء سقوطها ولجأ إلى البلغار، دوراً في التقارب بين البيزنطيين في إبيروس والبلغار، فوقع الامبراطور الصليبي بلدوين بين شقي الرحى. وعند مدينة أدرنة التقى الصليبيون بالبلغار عام ١٢٠٥ م، فانهزم الصليبيون وقتل بلدوين فخلفه هنري ١٢٠٦ - ١٢١٦م.

وكان ثيودور قد استغل هذه الفرصة وعمل على توطيد مركزه في نيقيه، ولكن الأمر لم يكن سهلاً، لأن ألكسيوس الثالث الذي كان قد فر إلى قونية اعتبر نفسه وريثاً لعرش بيزنطة. وسانده في هذه المرحلة سلطان سلاجقة الروم، وكتب السلطان إلى ثيودور يطالبه بالتنازل عن العرش لصالح ألكسيوس الثالث. فقامت الحرب بين سلاجقة الروم والبيزنطيين في نيقيه، فانهزم السلاجقة وقتل سلطانهم وأسر ألكسيوس. وقوي هذا النصر من مركز امبراطورية نيقيه، وخاف امبراطور القسطنطينية الصليبي سوء العاقبة، فاستعد لمحاربة ثيودور. وفي عام ١٢١٢م قامت الحرب بين الطرفين وهزم ثيودور وتم توقيع الهدنة بين الطرفين التي كان من أهم شروطها احترام الحدود

بينهما. وهدأت الأحوال نسبياً حتى عام ١٢١٦ م، وهي السنة التي مات فيها هنري، وزال بموته خطر الصليبيين وتمكن ثيودور من متابعة نضاله ضد الصليبيين حتى مات عام ١٢٢٢ م.

يوحنا الثالث فاتاتزس Vatatzes ١٢٢٢ - ١٢٥٣ م

تولى عرش امبراطورية نيقيه بعد ثيودور الأمبراطور يوحنا فاتاتزس زوج إيرين ابنة ثيودور، وكان حاكماً عظيماً، وجندياً قديراً. وقد تمكن من إصلاح الأحوال المالية في امبراطوريته لدرجة مكنته من مواصلة الجهاد. وفي عام ١٢٣٠ م عبرت جنوده إلى أوربا وطردت الصليبيين من جنوب تراقيه، وألقى يوحنا الحصار على القسطنطينية في العام نفسه. ولكنه لم يتمكن من اقتحامها لمناعة أسوارها بعد وصول أسطول البنادقة لنجدتها.

وحوالي ذلك الوقت كانت هناك إمارة بيزنطية قائمة في إبيروس يتولى أمرها ميخائيل أنجيلوس ١٢٠٤ - ١٢١٥ م، وقد نجح ميخائيل في توطيد مركزه وهزم صليبي أثينا وسالونيك، ولكنه مات في سن مبكرة فخلفه أخوه ثيودور ١٢١٥ - ١٢٢٤ م، الذي واصل النضال ضد الصليبيين بنجاح. وهكذا ظهرت قوتين بيزنطيتين، أحدهما في إبيروس والثانية في نيقيه، وكلاهما يناضل من أجل إسقاط القسطنطينية، ليتربع على عرش الأمبراطورية، ومن هنا كان الصدام حتمياً بين المتنافسين.

وفي عام ١٢٤١ م عندما كان يحكم إبيروس يوحنا أنجيلوس (١٢٤٠ - ١٢٤٤ م) ويوحنا فاتاتزس في نيقيه اشتعلت الحرب بين الطرفين، وانتهت بهزيمة يوحنا أنجيلوس الذي اعترف بأنه تابع لامبراطورية نيقيه، وفي عام ١٢٤٤ م مات يوحنا أنجيلوس، فاستولى فاتاتزس على أملاكه وضمها إلى أمبراطورية نيقيه. وظل فاتاتزس يكافح من أجل إعادة الأمبراطورة حتى مات عام ١٢٥٣.

ثيودور الثاني لاسكاريس ١٢٥٤ - ١٢٥٨م

وقد سار على نهج أبيه. ونجح في طرد البلغار من إقليم مقدونية، ولكنه كان مريضاً ومات وهو صغير، بعد حكم دام أربع سنوات وترك العرش لابن قاصر هو يوحنا الذي كان في الثامنة من عمره. وكان في ذلك عودة إلى الصراع على العرش.

يوحنا الرابع لاسكاريس ١٢٥٨ - ١٢٦١م

تولى العرش بعد أبيه ثيودور الذي عين قبل وفاته مجلس وصاية على ولي عهده، من بطريق الأمبراطورية أرسينيوس Arsenius ١٢٥٥ - ١٢٥٩م، وصديقه الحميم جورج ميزالون George Muzalon. وبدأت المؤامرات في الأيام الأولى لتولي يوحنا الرابع، وأحس موزالون بما يدبر في الخفاء فخاف على نفسه وطلب إعفاءه من مجلس الوصاية. ولكن بعض أعضاء مجلس الشيوخ طلبوا منه البقاء في منصبه، وكان على رأس هؤلاء ميخائيل باليولوجوس Palaeologus الذي كان يتطلع إلى عرش الأمبراطورية. وقد نجح رجال باليولوجوس في اغتيال موزالون أثناء الصلاة في اليوم التاسع لتولية يوحنا العرش. فاجتمع مجلس الشيوخ واختاروا باليولوجوس ومنحوه لقب دوق عظيم megas dux ووصياً على الامبراطور القاصر.

الفصل السادس عشر

عصر أسرة باليولوجوس
١٢٦١-١٤٥٣م

بعد أن وطد ميخائيل باليولوجوس مركزه داخل القصر طلب من مجلس الشيوخ تعيينه امبراطوراً ، وأن يقسم يمين الولاء للامبراطور القاصر ، وأن يسلمه العرش عندما يصل إلى سن الرشد . وقد تمت الموافقة على ذلك وأعدت مراسم التتويج ، وأراد البطريق أرسينوس إقامة مراسم تتويج الأمبراطور القاصر قبل مراسم تتويج ميخائيل فاعترض الأخير على هذا الإجراء ، وتدخل رجال الدين والأعيان وانتهى الأمر بتتويج ميخائيل باليولوجوس امبراطوراً ، وتأجل تتويج يوحنا حتى يبلغ سن الرشد ، ولكن يوحنا لم يتوج بعد ذلك فقد آل العرش إلى أسرة باليولوجوس بعد وفاة ميخائيل .

ميخائيل السابع باليولوجوس ١٢٥٩ - ١٢٨٢ م .

لقد أهمل ميخائيل الامبراطور القاصر في بداية الأمر ، ثم قام بعد حوالي عامين بسمل عينيه وأودعه أحد السجون ليقضي بقية عمره هناك . وكان في اغتصاب ميخائيل عرش الامبراطورية دافعاً لجميع أعداء امبراطورية نيقيه على حمل السلاح ضدها ، فتحالف حكام ابيروس البيزنطيين مع الصليبيين في القسطنطينية وغيرها ، بالإضافة إلى البنادقة . وفي خريف عام ١٢٥٩ م دارت معركة رهيبة بين الطرفين في وادي بلاجونيا Pelagonia في شمال بلاد اليونان ، انتصر فيها ميخائيل انتصاراً ساحقاً ، ولم يتمكن أعداؤه بعدها من الوقوف أمامه مرة أخرى .

وبعدما نجح ميخائيل على أعدائه في البلقان بدأ يخطط لفتح القسطنطينية وإعادة الامبراطورية البيزنطية مرة أخرى. وكان يحكم امبراطورية القسطنطينية في هذه الفترة بلدوين الثاني ١٢٢٨ - ١٢٦١ م. وكانت أمبراطوريته تعاني الكثير. وقد بذل بلدوين جهداً كبيراً لمحاولة إنقاذها، ولذلك قضى سنوات طويلة خارج بلاده متجولاً في أوربا للبحث عن العون المالي والعسكري. ولم يكن هذا خافياً على ميخائيل باليولوجوس الذي انتظر الوقت المناسب للهجوم على القسطنطينية.

وفي عام ١٢٦١ أرسل ميخائيل قائده ألكسيوس بعدما جهزه بما يمكن تجهيزه به من جند ومعدات. ونجح ألكسيوس في يوليو من العام نفسه من اقتحام المدينة دون مقاومة تذكر. وفرّ بلدوين من العاصمة ليطلب العون من حكام أوربا لإستعادة عرشه. ودخل ميخائيل العاصمة البيزنطية ليعيد مجد الامبراطورية مرة أخرى.

ولا يعني انتصار ميخائيل باليولوجوس أنه أعاد حدود الامبراطورية إلى ما كانت عليه عند سقوطها في يد الصليبيين عام ١٢٠٤ م، فقد كان هناك جانب من بلاد اليونان مقسم بين بعض الأمراء الصليبيين وجزر بحر إيجه التي كان معظمها تحت سلطان البنادقة. كما أن الأحوال الداخلية في الامبراطورية كانت تحتاج إلى الإصلاح في جميع النواحي بعد ما يزيد عن نصف قرن من الحروب المتواصلة.

وكان على ميخائيل أن يبدأ بالإصلاح الذي بدا شبه مستحيل في هذه المرحلة. وكان عليه أن يقتحم المشاكل من أجل بقاء الامبراطورية، ومن أجل بقائه على عرشها. وبدأ بترميم أحياء العاصمة التي هدمت فعاد إليها السكان ونشطت الحياة. كما تعهد أسوار المدينة بالإصلاح ليعيد إليها حصانتها. وبنى أسطولاً جديداً ليدافع عن مصالح الآمبراطورية. ورغم هذا كله فقد كانت الإدارة المالية والحكومية قد اختلت تماماً وكان إصلاحها يحتاج إلى جهد كبير.

وواقع الأمر أن انحطاط التجارة، كان السبب الرئيسي في عدم جدوى الإصلاح، ذلك أن عظمة الأمبراطورية القديمة كان سببها إنها كانت تتحكم في جانب كبير من تجارة العالم الغربي، وان القسطنطينية كانت مركز هذه التجارة. ولكن الحروب الصليبية فتحت آفاقاً جديدة للتجارة الأوربية في مصر والشام، وبقيت القسطنطينية مركزاً التجارة البحر الأسود.

وفي مجال السياسة الخارجية، فقد كانت تتلخص في أن حدود الامبراطورية في الشرق كانت تدافع عنها قوات محلية منحها الامبراطور الأرض للإقامة عليها للدفاع عن الحدود، وقد نجحت هذه السياسة لفترة من الزمن. وعندما بدأ الأمبراطور في تجريد هذه المناطق من السلاح لشكه في إخلاصها، بدا الطريق سهلاً أمام سلاجقة الروم والأتراك العثمانيين من بعدهم. وفي الجانب الغربي فقد تحالف الإمبراطور البيزنطي مع قوة ضد أخرى، وقد سهل له ذلك الوقوف أمام البلغار والفرنجة وأساطيل جنوة لفترة من الزمن، ولكن أعداءه الغربيين تحالفوا عليه بعد ما اكتشفوا أمره وسببوا له متاعب كثيرة. ويمكن القول أن ميخائيل باليولوجوس قد أعاد الإمبراطورية إلى ما كانت عليه تقريباً من الناحية الإسمية، ولكنه لم ينجح في إعادة فاعليتها وقوتها من جديد. وقبل موته بعشرة أعوام أشرك ابنه أندرونيقوس في الحكم وكان في السادسة عشرة من عمره وزوجه من ماريا ابنة ستيفن الخامس ملك المجر ١٢٧٠ - ١٢٧٢م.

أندرونيقوس الثاني ١٢٨٢ - ١٣٢٨م.

ورث الابن عن أبيه القوة والخيانة والتهور، وقضى وقتاً طويلاً في الصراع مع بطارقة الأمبراطورية، فقد تعامل مع إحدى عشر بطريكياً كان هو عازلهم ومووليهم. وقد أعطى هذا الصراع الفرصة للأتراك السلاجقة للتوغل غرباً في آسيا الصغرى حتى وصلوا إلى الساحل الغربي عند أزمير وإفسوس، وما ان حل عام ١٣٢٥ حتى انحصرت أملاك الأمبراطورية في آسيا الصغرى في شريط ساحلي ضيق يمتد من الدردنيل جنوباً حتى البسفور شمالاً.

وقد سببت جماعة من المرتزقة إستدعاها أندرونيقوس لقتال الأتراك السلاجقة ضرراً كبيراً في طول البلاد وعرضها. وقد عرف هؤلاء المرتزقة باسم الجماعة الكبيرة Grand Campany وهو الإسم الذي إتخذته بعد نهاية الحرب بين بيتي آنجو Anjon وأرجوان Aragon في عام ١٣٠٢م بعد مذبحة الفسبار الصقلية The Siciliam Vespers. فقد استعان الإمبراطور بهؤلاء المرتزقة لمقاومة الاتراك السلاجقة، ولكن هؤلاء المرتزقة حاولوا الإستقلال بالأرض التي استردوها من السلاجقة وضايقوا الأهالي. وقد انتهى الأمر بالقبض على قائد المرتزقة وقتله في عام ١٣٠٧م.وإذا كان الإمبراطور قد لجأ الى المرتزقة لصد هجمات السلاجقة، فان السلاجقة استغلوا فرصة إنشغال الامبراطور بمقاومتهم وتقدموا في آسيا الصغرى.

والى جانب الصراع مع الأتراك السلاجقة والمرتزقة نشب صراح ثالث بين الامبراطور وحفيده الذي يحمل إسمه. فقد أراد أندرونيقوس حرمان الحفيد أندرونيقوس من حقه في وراثة العرش. وانقسم الجيش الى فريقين كل منهما يحارب لصالح جانب من الجانبين. وانتهى الأمر بعد حرب طويلة إلى سيطرة الحفيد على الموقف، وإبعاد الجد عن السلطة. وظل الحال كذلك حتى مات أندرونيقوس الثاني عام ١٣٢٨م. وترتب على هذا الصراع الطويل نتائج سيئة في الداخل والخارج فقد فقدت الامبراطورية ثلث أراضيها التي إستردتها في عام ١٢٦١م.

أندرونيقوس الثالث ١٣٢٨ - ١٣٤١م

حاول أندرونيقوس منذ توليه العرش العمل على النهوض بالدولة من عثرتها، وقرب إليه القائد يوحنا كانتاكوزين. Cantacuzenus، وهو رجل قدير له شهرته الحربية والسياسية. وكان أول ما قام به يوحنا هو العمل على إيجاد حالة من الإستقرار الداخلي. فقضي على الفتن والمؤامرات حتى يشعر الأهالي بالأمن، وفوق ذلك فقد رفع عن كاهل الأهالي الضرائب الزائدة. وحتى ينشر العدل بين أرجاء الإمبراطورية لجأ الى الكنيسة لاختيار رجال

القضاء وزاد من رواتبهم، وجعلهم يقسمون على معامله الناس كافة معاملة واحدة لا فرق بين غني وفقير، وأشرف الإمبراطور بنفسه على تنفيذ ذلك. ولكن مرور الوقت أضعف الرقابة عليهم شيئاً فشيئاً، فعادت الامور الى ما كانت عليه من الفساد مرة أخرى.

أندرونيقوس والصرب

تحالف الإمبراطور مع ميخائيل شيشمان Sisman حاكم البلغار ١٣٢٣ - ١٣٣٠م لقتال الصرب الطامعين في الأراضي البيزنطية. وفي عام ١٣٣٠ تعجل ميخائيل حاكم البلغار المعركة مع الصرب قبل وصول القوات البيزنطية، فهزم ميخائيل ومات في المعركة. ولما كان أندرونيقوس طامعاً في بعض حصون البلغار فقد إستولى عليها بعد وفاة ميخائيل. وترتب على ذلك تحالف الملك البلغاري الجديد ايفان الكسندر Ivan Alexander ١٣٣١ - ١٣٧١م، مع ملك الصرب ستيفن دوشان Stephen Dusan ١٣٣١ - ١٣٥٥م وأعلن إيفان الحرب على أندرونيقوس واستعاد ما سبق أن إستولى عليه الإمبراطور البيزنطي. واذا كانت حروب الإمبراطورية ضد الصرب لم تغير من شكل الحدود، فان الامبراطور البيزنطي قد نجح في ضم بعض الأراضي في إقليم ايبروس.

أندرونيقوس والأتراك العثمانيون

واقع الأمر أن الحالة كانت تتطلب المزيد من الإهتمام بآسيا الصغرى في هذه المرحلة، لأن أحد القبائل التركية التي تولى قيادتها الامير عثمان ٦٩٩ - ٧٣٧ هـ/ ١٢٩٩ - ١٣٢٦م كانت قد وسعت أراضيها على حساب الأراضي البيزنطية. وتابع عثمان فتوحاته، ونجح في عام ١٣٢٦ في الإستيلاء على مدينة بروسة. ومات عثمان في العام نفسه وتولى بعده أورخان ٧٣٧ - ٧٦١ هـ/ ١٣٢٦ - ١٣٥٩م، الذي إستولى على مدينة نيقيه عام ١٣٣١م. ولم يكتف أورخان بذلك بل عبر الى الجانب الاوربي، ولكنه هزم في

تراقيه في العام نفسه. وعاود أوخان الكرة مرة أخرى عام ١٣٣٧م ونزل بقواته في ضواحي العاصمة البيزنطية ولكنه فشل مرة أخرى في إحراز النصر على القوات البيزنطية. وعند هذه المرحلة رأى أورخان ان يكتفي بما تحت يديه من أراضي في آسيا الصغرى وان يتوسع فيها بدلا من الجانب الاوربي، فهاجم أورخان مدينة نيقوميدية واستولى عليها. وبذلك تقلصت الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى ولم يعد لها سوى بعض المدن المتفرقة. وظهرت في آسيا الصغرى بعض الإمارات التركية التس أسست حكمها بالقرب من الساحل الغربي، وبدأت في الإغارة على المدن البيزنطية الساحلية منها والداخلية. وحاول أندرونيقوس وقادته وقف التوسع التركي بالتحالف مع الغرب الأوربي والتقرب الى البابا بندكت الثاني عشر Benedict XII ١٣٣٤-١٣٤٢م، لإشعال نار حملة صليبية ضد الأتراك في آسيا الصغرى، ولكن إنشغال حكام الغرب الأوربي بمشاكلهم الداخلية والخارجية، وعدم موافقة رجال الدين البيزنطيين على التعاون مع البابا في روما أفسد هذا المشروع.

يوحنا الخامس باليولوجوس ١٣٤١-١٣٩١م

ومات أندرونيقوس والخطر التركي يزداد يوماً بعد آخر، وزاد من سوء الحال ان الإمبراطور الجديد كان قاصراً فتولت أمه الوصاية عليه وشاركها في الوصاية الوزير الأول يوحنا كانتاكوزين . وبدأ الوزير يوحنا كعادته موجة من الإصلاح مثل التي بدأها مع والد الإمبراطور. ولكن البعض حقدوا عليه وبدأوا يتآمرون ضده عند أم الإمبراطور، ولكن الأم رفضت إبعاده عن الوصاية. وعاد الحاقدون الى التآمر مرة أخرى. وكان يوحنا على علم بكل ما يدبر ضده، فانتظر حتى نفذ صبره. وفي نهاية الأمر وبمساندة أصحاب الملكيات الكبيرة وطائفة من الرهبان أعلن نفسه إمبراطوراً.

ولم يرض الحاقدون على هذا الإجراء وكان على رأسهم الكسيوس أبوكوكوس Apocauxos الذي نجح في ضم الفلاحين والطبقات المتوسطة الى جانبه، واشتعلت حرب أهلية طاحنة دامت لأكثر من ست سنوات، إنتهت

بمقتل أبوكوكوس وتتويج يوحنا كانتاكوزين إمبراطوراً . ولكي يضمن يوحنا بقاءه على العرش زوج إبنته هيلينا من الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس .

يوحنا كانتاكوزين (مغتصب) ١٣٤٧ - ١٣٥٥ م

لم تكن جميع الأطراف راضية عن حكم يوحنا واعتبروه مغتصباً للعرش . لذلك بادر يوحنا بإصدار العفو عن جميع من قاوموه ، ويبدو ان هذه الخطوة لم تُهدىء من الثائرين ، فاضطر الى إعادة يوحنا باليولوجوس إمبراطوراً الى جانبه . ولم ينخدع الشعب بهذه الحيلة ولم تهدأ ثائرة الأهالي ، واستغل اعداء الإمبراطورية في الخارج الفتن الداخلية وبدأوا في غزو أراضي الامبراطورية .

وكان الصربيون أول من استغل المتاعب الداخلية في غزو الاراضي البيزنطية فاستولى ستيفن دوشان ملك الصرب على مقدونية وغيرها من الأراضي البيزنطية الغربية بسهولة ، وقد ساعده ذلك على التطلع للعاصمة البيزنطية نفسها . وحلم بما كان يحلم به سيمون البلغاري من قبل ، وفكر في تأسيس دولة صربية في البلقان ، واستخف ستيفن بالامبراطورية البيزنطية ويمن على عرشها ، فجمع رجال الدين لانتخاب بطريكاً لدولته المزمع قيامها . وبعد ما تم انتخاب البطريك ، تُوج ستيفن امبراطوراً لا على دولة الصرب فحسب ، بل على الصربيين والبيزنطيين . والواقع أن ما أقدم عليه ستيفن كان خطوة كبيرة ما كان يستطيع القيام بها اذا تيسر للامبراطورية البيزنطية القوات العسكرية لمقاومته .

ولكن الامبراطور البيزنطي يوحنا كانتاكوزين إستعان بالقوات التركية ، ولجأ الى أورخان الذي أمده بالقوات اللازمة ، ونجحت القوات التركية في إبعاد الصرب عن إقليم تساليه ، والقوات البيزنطية في استعادة سالونيك عام ١٣٤٩ م . كما استغل الامبراطور البيزنطي فرصة الصراع الذي قام بين البلغار والصرب ونجح في استمالة بعض أمراء الصرب الى جانبه وتمكن من استعادة جانباً كبيراً من مقدونيا . ولم يكن أمام ستيفن غير التخلي عن أطماعه

في هذه المرحلة على الأقل، والتسليم بشروط الامبراطور البيزنطي يوحنا كانتاكوزين التي تقضي بعودة الأراضي التي استولى عليها الصرب وتم توقيع المعاهدة في عام ١٣٥٠م.

وكان الجنيويون طامعين أيضاً في ممتلكات الإمبراطورية، ووجدوا في الحرب الاهلية فرصة لهم أيضاً في زيادة مطامعهم، وبدأت المشاكل عندما خفف الامبراطور البيزنطي الرسوم الجمركية بهدف زيادة النشاط التجاري. ولما كان الجنيويون لا يحبون ان يروا غيرهم مستفيداً بتجارة البحر الاسود، فقد وجدوا في قرارات التخفيض الجمركي تهديداً لمصالحهم التجارية. واستغل الجنيويون فرصة وجود الامبراطور بعيداً عن العاصمة وحاصروها وعاثوا في ضواحيها فساداً. وظل الحال مضطرباً بضعة أشهر، وأحس الجنيويون بمحاولة تحالف الامبراطور مع البنادقة، فخافوا من تدخل البنادقة المنافسين لهم ورضخوا لأوامر الامبراطور. وهدأت الأحوال حتى جاءت سفن البنادقة للتجارة في مياه البحر الأسود، فثار الجنيويون من جديد واشتبكوا مع البنادقة. ولكن الإمبراطور تدخل ونجح في تهدئة الأحوال ولكن إلى حين.

وفي خضم هذه الاحداث قامت حرب أهلية بسبب محاولة يوحنا كانتاكوزين الانفراد بالعرش، واتسع نطاق هذه الحرب وتحالف يوحنا كانتاكوزين مع الاتراك العثمانيين، وفي الوقت نفسه لجأ الامبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس الى التحالف مع الصرب والبنادقة والبلغار، ولكن رجال الدين والشعب ساندوا الامبراطور الشرعي يوحنا باليولوجوس. وانتهى الامر بعد صراع دام أربع سنوات (١٣٥١ - ١٣٥٥) بخلع يوحنا كانتاكوزين ودخوله الدير، وانفراد يوحنا باليولوجوس بالعرش البيزنطي ليحكم حتى عام ١٣٩١م.

وواقع الأمر ان يوحنا باليولوجوس عاد ليجلس على عرش امبراطورية متصدعة تحيط بها الأخطار من كل جانب. ولم يكن بوسعه مقاومة الطامعين في أراضي الإمبراطورية من الأتراك والبلغار والصرب وغيرهم ممن ساعدوه على

استرداد عرشه، فارتضى بالأمر الواقع بغية حدوث بعض التغيرات التي تمكنه من استعادة أملاكه. ولكن الظروف أجبرته في العام الذي استرد فيه عرشه على التخلي عن جزيرة لسبوس Lesbos في بحر إيجه إلى فرانسسكو جاتليوسيو Francesco Gattilusio، وهو قرصان جنيوي ساعد يوحنا باليولوجوس في إسترداد عرشه. كما أجبرته الظروف مرة أخرى على التخلي عن إقليم تراقيه للأتراك العثمانيين في عام ١٢٥٨ م. ويبدو ان هذه الأحداث قد دفعت متى بن يوحنا كانتاكوزين الى اعلان نفسه امبراطوراً في منطقة أدرنه، ولكن الأب أقنع الابن بالعدول عن هذه الفكرة وانتهى الأمر بسيطرة الامبراطور على الموقف.

وفي خضم هذا الصراع خاف البنادقة من غزو الاتراك للعاصمة البيزنطية فأعدوا مشروعاً للاستيلاء عليها، ولكن هذا المشروع لم ير النور، كما إنشغل الصرب والبلغار في بعض المشاكل الداخلية فكان من ذلك فرصة للأتراك العثمانيين الذين استغلوا ثورة متى كانتاكوزين وتوسعوا في اقليم تراقية. وبدأ أورخان في حصار مدينة أدرنه ولكنه مات أثناء الحصار، فخلفه ابنه مراد الأول ٧٦٣ - ٧٩٢ هـ/ ١٣٦٠-١٣٨٩ م الذي واصل الحصار حتى سقطت أدرنه عام ١٣٦١ م. وباستيلاء الأتراك العثمانيين على إقليم تراقية يتم فصل القسطنطينية عن الاقاليم البيزنطية الغربية في أوربا.

لم يعد بوسع الامبراطورية البيزنطية مقاومة الاتراك بعد هذه الاحداث، خاصة انه لم يعد لديها الجيش المدرب الذي يستطيع التغلب على الخيالة التركية خفيفة الحركة، أو اقتحام صحون الاتراك المنيعة، ولذلك اعترف يوحنا باليولوجوس بسلطان الاتراك على تراقية. وحاول الامبراطور البيزنطي في مرحلة لاحقة التحالف مع الصرب لضرب الاتراك من الجانب الغربي، فأحس مراد الأول بذلك ورد على الامبراطور في عام ١٣٦٦ م بأن جعل مدينة أدرنه عاصمة لحكمه.

وأحس الامبراطور البيزنطي بالخطر يزحف على القسطنطينية فأراد

اشعال حرب صليبية ضد الاتراك ، ومن أجل ذلك اتجه الامبراطور الى البابا في روما ليقدم فروض الولاء والطاعة. وليس ذلك فحسب بل ان الإمبراطور البيزنطي الارثوذكسي تخلى عن مذهبه وأعلن انه كاثوليكي المذهب. ورغم ذلك كله فان ما ذهب من أجله وهو دفع البابا الى الدعوة لحملة صليبية لم يتم.

وجاء تحول الإمبراطور من الارثوذكسية الى الكاثوليكية في غير صالحة، فقد قاوم هذا الاتجاه البطريك البيزنطي ، وأعلن عدم اعترافه بسلطة البابوية في روما على الكنيسة الارثوذكسية في القسطنطينية، وشاركه في ذلك الصرب والبلغار. وربما يمكن القول ان إعلان الامبراطور البيزنطي بأنه أصبح كاثوليكياً كان من قبل العمل السياسي وليس عملاً دينياً ، إلا أنه كان له . أثر كبير على الجبهة الداخلية بعامة ، والأوساط الدينية بخاصة ، وكان لهذا الموقف أثر كبير على الأحداث التالية .

وأحس مراد بتصدع الامبراطورية البيزنطية ونجح في عام ١٣٧٠م في الوصول إلى نهر الدانوب ، وفي عام ١٣٧٣ م انتصر على الجيوش الصربية والبلغارية التي حاولت إيقاف تقدم الأتراك في شرق أوربا ، كما سيطر مراد على مقدونية وواصل الاتراك زحفهم حتى وصلوا الى ساحل دالماشيا. وأجبر مراد الاول أمراء الصرب على الدخول في طاعته. وأمام هذا كله ، ومع فشل الامبراطور البيزنطي في الحصول على مساعدة البابا والغرب الاوربي ، اضطر الامبراطور الى الدخول في طاعة السلطان العثماني مراد الاول عام ١٣٧٤ م.

وزاد من خطورة الموقف في الإمبراطورية الخلاف الذي نشب بين الاسرة الحاكمة ، ففي العام الذي أعلن فيه الامبراطور دخوله في طاعة السلطان مراد الاول وهو عام ١٣٧٤ م ، أعلن الامبراطور أيضاً حرمان ابنه الاكبر أندرونيقوس من وراثة العرش ، وفضل عليه أخيه مانويل. وقد أدى ذلك الى تمرد أندرونيقوس على أبيه. ورغم ان هذا التمرد انتهى الى عفو الاب عن ابنه ، إلا ان نتائجه كانت وخيمة على الامبراطورية ، وجعلت من الأتراك أسياد الموقف ، فالأسرة الحاكمة منشقة على نفسها ، ودول أوربا الشرقية مثل

الصرب والبلغار لم تتمكن من وقف الزحف العثماني ، والدول الاوربية مشغولة بمشاكلها الداخلية والخارجية ، ولا يستطيع البابا ان يجمع جيوش الغرب في حملة صليبية كما كان الحال في القرون السابقة.

وتمكن الأتراك في السنوات التالية من التقدم في شرق أوروبا، وتابعوا انتصاراتهم في غربي البلقان، واستولوا على مدينة صوفيا في عام ١٣٨٥ م، ونيس في عام ١٣٨٦ م. ونجحوا في الاستيلاء على مدينة سالونيك في عام ١٣٨٧ م، وكان في هذا التقدم تهديداً مباشراً لدولة الصرب التي كان يتولى أمرها في هذه المرحلة الأمير لازار Lazar ١٣٧١ - ١٣٨٩ ، لذلك نقض لازار عهد والده بتبعيته للأتراك، وتصدى الابن بعدما تحالف مع البجناكية للقوات التركية وهزمها في اقليم البوسنة Bosnia عام ١٣٨٨ . ولكن الأتراك أعادوا تنظيم صفوفهم مرة أخرى ، حيث تقابلت مع القوات الصربية في قوصوه Kosovo، وفي الخامس عشر من يونيه عام ١٣٨٩ م وقعت المعركة المشهورة. وحالف النصر الصربيين في بداية الأمر وقتل مراد وهرب الجناح الأيمن للجيش التركي فتولى بايزيد الأول إدارة المعركة والدولة ٧٩٣ - ٨٠٥ هـ/١٣٨٩ - ١٤٠٢ م . وواصل بايزيد الحرب ونجح في الانتصار على الصرب وأسر لازار وعدداً من نبلائه وقتلهم بايزيد وتولى أمر الصرب ستيفن لازارفيك ıazarvic ١٣٨٩ - ١٤٢٧ م . ووافق الحاكم الجديد على دفع الجزية للأتراك والخدمة في صفوف القوات التركية . وبانتصار الأتراك على الصرب في موقعة قوصوه سقط مركز المقاومة في شرق أوروبا ضد الأتراك ، وقد سهل هذا من فرض الأتراك بسيطرتهم على البلقان .

وبدأت موازين القوى تميل بشكل ملحوظ بعد هذه الأحداث لصالح الأتراك العثمانيين. وكان أمام بايزيد الجبهة البلقانية حيث معظم الأراضي البيزنطية والصرب والبلغار والبجناكية، والجبهة الآسيوية في آسيا الصغرى حيث توجد بعض الاراضي البيزنطية وأمراء الأتراك المستقلين في دويلاتهم. وقد نجح بايزيد في الفترة من ١٤٩١م - ١٤٩٥ م من إخضاع بعض الأمراء

الأتراك في آسيا الصغرى لسلطانه، وبعض المدن البيزنطية الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأسود ومنها مدينة سينوب.

كما نجح بايزيد كذلك في الجبهة البلقانية وتمكن بالحرب من هزيمة البجناكية وبالسياسة في كسب الصرب إلى جانبه. ولم تبقَ غير الجبهة البلغارية التي مثلت مركز المقاومة للتقدم العثماني في شرق أوربا. وإعتقد البلغار أنهم أصبحوا ورثة الإمبراطورية في حكم البلقان. ومن هنا كان الصدام حتمياً بين الأتراك والبلغار، وبادر البلغار بالهجوم ونجحوا في الإستيلاء على مدينة نيقوبوليس الواقعة على نهر الدانوب بعد حصار طويل، ولكنهم إضطروا إلى الجلاء عنها عندما سمعوا بقدوم القوات العثمانية بعدما تكبدوا خسارة كبيرة. وتابع بايزيد إنتصاراته في الأراضي البلغارية، ولم يكتف بذلك بل نقل بعض البلغاريين إلى آسيا الصغرى لإضعاف الجبهة البلغارية والاستفادة من البلغار في آسيا الصغرى.

ونجح بايزيد أيضاً في تعامله مع الامبراطورية باتباعه سياسة فرق تسد، فجشع الطامعين في العرش وعاونهم ثم سيطر عليهم. وموجز هذه الأحداث أن بايزيد شجع طامع في العرش هو يوحنا بن أندرونيقوس الرابع وساعده في الوصول إلى عرش الامبراطورية. وإضطر الأمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس باليولوجوس إلى الفرار والاحتماء في أحد الحصون. ثم جاء طامع آخر وهو مانويل الثاني باليولوجوس ١٣٩١ - ١٤٢٥م، ونجح في طرد يوحنا بن إندرونيقوس وجلس على العرش. ولم يعترض بايزيد على ذلك وشجع الإمبراطور الجديد، وخرج من هذه الصفقة بأن زاد في الجزية التي تقدمها الامبراطورية وإقامة مسجد في القسطنطينية. وظهر نفوذ بايزيد بصورة واضحة عندما اختلف ثيودور الأولب باليولوجوس حاكم المورة وهو بيزنطي، مع حكام بقايا الدويلات الصليبية المجاورين له. فاشتكى هؤلاء إلى بايزيد فدعا بايزيد كل هؤلاء والأمبراطور البيزنطي وفرض عليهم كلمته وأنزل العقاب بالمخالفين منهم حتى أنه سمل أعين بعضهم.

وبعد هذه الأحداث خاف البنادقة على مصالحهم التجارية في البسفور والدردنيل، ولم يكن بوسعهم مقاومة الأتراك العثمانيين بمفردهم، فاتصلوا بالجنيويين والامبراطور البيزنطي مانويل الثاني باليولوجوس بهدف الدعوة إلى حملة صليبية ونجحت الفكرة.

صليبية نيقوبوليس

بدأت الدعوة لحملة صليبية منذ عام ١٣٩٤ م. وتم الاتفاق في عام ١٣٩٥ م على أن يتولى سيجسموند Sigsimund ملك المجر ١٣٨٧ - ١٤٣٧م قيادة الجيوش الغربية، وتطهير ولاشيا والأراضي البلغارية من الاتراك، في الوقت الذي تتولى فيه بحرية البنادقة كسر الخطوط البحرية للأتراك الموجودة في مضيق البسفور والدردنيل.

وفي عام ١٣٩٦ م بدأ تنفيذ الخطة المتفق عليها. وتقدم سيجسموند بقوات الحملة شرقاً على طول نهر الدانوب، في الوقت الذي تقدمت فيه البنادقة صوب المضايق ونجحت في إختراق خطوط البحرية التركية، وانتظرت مهاجمة سيجسموند وقواته للقسطنطينية من الغرب. ولكن سيجسموند لم ينجح في الوصول إلى العاصمة فقد آثر إنتظار بايزيد في البلقان. ولما طالت مدة الإنتظار تقدم بقواته حتى وصل إلى مدينة نيقوبوليس. وألقى الحصار عليها. وعند هذه المرحلة وصلت القوات التركية وأنزلت بالقوات الصليبية هزيمة ساحقة. وهكذا فشل التحالف الأوربي البيزنطي في القضاء على الأتراك العثمانيين.

لم يعد بايزيد يطمئن بعد ذلك إلى الحكام المحيطين به، وبدأ بضرب حاكم المورة وإنتصر عليه في عام ١٣٩٧ م، وأجبره على الدخول في طاعته. ولم يكتف بذلك. وأراد إضعاف اقليم المورة فاستولى على بعض مدنه وأسر ما يقرب من ثلاثين ألف نقلهم إلى بلاده.

والتفت بايزيد الى القسطنطينية بعد المورة وطلب من الامبراطور

البيزنطي تسليمها فرفض. ورأى بايزيد الاستيلاء عليها بالقوة ولكن الأسطول العثماني لم يكن قوياً لإقتحامها من جانب إلبحر فضلاً عن حصانتها من ناحية البر، فأجل هذا المشروع.

وأحس الامبراطور البيزنطي مانويل الثاني باليولوجوس بالخطر المحدق به، فإتصل بانجلترا وفرنسا وروسيا، فأتته المعونة المالية من الجميع، ووصلت بعض القوات الفرنسية في عام ١٣٩٨م إلى العاصمة البيزنطية ولكن هذا كله لم يغير الموقف.

ولما لم تجد كثيراً اتصالات الأمبراطور البيزنطي بالعواصم الأوروبية، انتقل بنفسه إلى الغرب الأوربي، فاتجه إلى ايطاليا حيث المدن التجارية والباباوية في روما، ونجح في كسب معنوي فقط، ودعوة البابا لحملة صليبية لإنقاذ الامبراطورية البيزنطية. ومن ايطاليا انتقل الى فرنسا وقابل الملك شارل السادس ١٣٨٠ - ١٤٢٢م الذي قدم له حوالي ألف جندي ونفقاتهم لمدة عام. ثم إتجه مانويل إلى إنجلترا والتقى بالملك هنري الرابع ١٣٩٩ - ١٤١٣م الذي لم يقدم له سوى كرم الضيافة. وهكذا يمكن القول أن جولة مانويل في أوربا التي دامت حوالي ثلاث سنوات (١٣٩٩ - ١٤٠٢م) لم تحقق شيئاً من أجل إنقاذ الامبراطورية المتداعية.

وعلم بايزيد بما يخطط له الامبراطور البيزنطي، فطلب من نائب الامبراطور تسليم القسطنطينية والدخول في طاعته، وكان بايزيد يهدف من وراء ذلك الى هدفين؛ إما أن يقوم النائب بتنفيذ هذه الشروط وهذا في صالح بايزيد، أو يرفض فيكون في ذلك سبباً مباشراً للحرب. وحدث أن رفض نائب الامبراطور شروط بايزيد، فألقى الأخير الحصار على العاصمة البيزنطية. ولكن بايزيد إضطر لرفع الحصار عندما داهم التتار آسيا الصغرى.

ومن العوامل التي شجعت التتار على دخول آسيا الصغرى أن أمراء الأتراك الذين استولى بايريد على أملاكهم لجأوا إلى تيمورلنك لمناصرتهم على

بايزيد. وبدأت قوات التتار تتقدم داخل آسيا عام ١٤٠٠م فاستولت على جانب كبير من أراضيها. وأرسل تيمورلنك الى الجنيويين لمحالفتهم ضد بايزيد، ثم طالب بايزيد بإعادة الأراضي البيزنطية التي استولى عليها الى الامبراطور البيزنطي. ويبدو أن ذلك كان شرط تحالف البنادقة مع التتار، ولكن بايزيد رفض شروط تيمورلنك فاستعد الطرفان للقاء. وكانت مدينة أنقرة مسرحاً لأحداث معركة مروعة وقعت في عام ١٤٠٢م، إنتصر فيها التتار ووقع بايزيد في أسر تيمورلنك حيث مات بعد أقل من عام.

وترتب على موقعة أنقرة نتائج خطيرة غيرت الحدود السياسية في المنطقة، فقد أعاد تيمورلنك أمراء الأتراك السلاجقة إلى اماراتهم وأعطى إقليم تراقية إلى سليمان بن بايزيد على أن يحكم باسم تيمورلنك. وترتب على ذلك أن دخل أبناء بايزيد في حرب أهلية دامت لبعض الوقت، فعطلت مشروعات الأتراك العثمانيين في السيطرة على القسطنطينية إلى حين.

عاد الامبراطور البيزنطي مانويل إلى عاصمته من جولته في أوربا وعلم بهذه الأحداث، وكان الصراع بين أبناء بايزيد على أشده. فناصر أحدهما على الآخر لبعض الوقت حتى انتهى الأمر بعد صراع دام ما يقرب من إحدى عشر عاماً ١٤٠٢ ـ ١٤١٣م إلى إعتلاء محمد بن بايزيد عرش سلطنه الأتراك العثمانيين ٨١٦ ـ ٨٢٤ هـ/١٤١٣ ـ ١٤٢١م. وتحسنت العلاقة بين مانويل ومحمد طوال عهد الأخير ولم تقع الحرب بينهما حتى نهاية عهده. وكان في ذلك فرصة للطرفان لالتقاط الأنفاس.

تجددت الحروب مرة أخرى بعد وفاة محمد وتولية ابنه مراد الثاني ٨٢٤ ـ ٨٥٥ هـ/ ١٤٢١ ـ ١٤٥١م، ففي عام ١٤٢٢ ألقى مراد الحصار على العاصمة البيزنطية ولكنه أضطر لرفع الحصار للقضاء على ثورة قام بها أخوه. وظلت العلاقات بين التوتر والسلام، ولم يعش مانويل طويلاً فقد مات في عام ١٤٢٥م، بعد ما نصب إبنه يوحنا على عرش الامبراطورية.

يوحنا الثامن باليولوجوس ١٤٢٥ ـ ١٤٤٨م

كانت الامبراطورية قد ضاع منها الكثير، ولم يبق من أراضيها سوى مثلث قاعدته المسافة الممتدة من القسطنطينية حتى سليمبريه Selymbria غرباً وضلعه الغربي من سليمبريه حتى مسيمبريا Mesembria شمالاً والضلع الشرقي من سليمبريه حتى القسطنطينية، واحتوى ألخيالوس وسوزوبوليس Sozopolis، هذا بالإضافة الى سالونيك والمورة. ونتج عن ذلك قلة موارد الدولة وما ترتب على ذلك من نتائج في كافة المجالات حتى شلت مرافق الدولة. ولم تعد الامبراطورية قادرة على الصمود أمام هجمات الأتراك العثمانيين فسقطت مدينة مودون Modon الواقعة في شبه جَزيرة المورة عام ١٤٢٥، أي في العام الأول من تولية يوحنا الثامن، في يد الأتراك، وبعد خمس سنوات وفي عام ١٤٣٠م سقطت سالونيك. وغنم الأتراك الكثير من هاتين المدينتين فضلاً عن الأسرى.

لم يكن بوسع الامبراطورية مقاومة السلطان مراد والجيوش التركية، فلجأ يوحنا الثامن إلى الغرب الأوربي وخاصة البابا يستنهضهم لرفع الخطر عن القسطنطينية. وأسفر الموقف عن عقد مجمع ديني في مدينة فرارا Frrara عام ١٤٣٨م ثم إنتقل المجمع إلى مدينة فلورنسا Florence في العام التالي ١٤٣٩م، حيث وعد البابا يوجينوس الرابع Eugenius IV ١٤٣١ ـ ١٤٤٧م بدعوة ملوك الغرب الأوربي لإنقاذ القسطنطينية.

إستجاب لنداء البابا ملك أراجون ونابلي الفونسو الخامس Alphonso V ١٤١٦ ـ ١٤٥٨م أقوى شخصية أوربية في حوض البحر المتوسط، ولاديسلاس الثالث Ladislas III ملك المجر وبولندا ١٤٣٤ ـ ١٤٤٤م، ويوحنا هونيادي Hunyadi حاكم ترانسلفانيا. وقاد هؤلاء حملة صليبية لقتال الأتراك العثمانيين. وإنتهى الأمر بهزيمة الأتراك بالقرب من مدينة نيش عام ١٤٤٣م وعقد معاهدة لمدة عشر سنوات.

ولكن المدنة لم تنفذ سوى بضعة أشهر، فقد خرقها الجانب الأوربي في العام التالي. وتقدم هونيادي حتى وصل إلى البحر الأسود. وعلم السلطان مراد بهذه الأحداث فهرع إلى فارنا Varna وأنزل بالصليبيين هزيمة قاسية في عام ١٤٤٤م. وفي عام ١٤٤٧م نجح مراد في هزيمة قسطنطين باليولوجوس حاكم المورة الذي دخل في طاعة السلطان.

وفي عام ١٤٤٨م دعا البابا نيقولا الخامس ١٤٤٧ - ١٤٥٥م، إلى حملة صليبية، كان معظم أفرادها من المجر وبولونيا تحت قيادة هونيادي. ولكن مراد انتصر على هذه الحملة عند قوصوه في العام نفسه.

قسطنطين الحادي عشر ١٤٤٩ - ١٤٥٣م

بدأ عهده بإعلان ولاءه للسلطان العثماني مراد، ولكن مراد مات بعد قليل فخلفه محمد الثاني (الفاتح) ١٤٥١ - ١٤٨١م وتعكر صفو العلاقات بين بيزنطة والأتراك وبدأ كل طرف يستعد لمنازلة الطرف الآخر، وراسل الامبراطور البيزنطي الغرب الأوربي لنجدته.

وبدأ إستعداد قسطنطين بترميم أسوار العاصمة وحصونها. وفي عام ١٤٥٣م بدأ السلطان محمد الفاتح في حصار القسطنطينية، وقصف المدينة بالمدافع وطال أمر الحصار. وهنا عرض السلطان على قسطنطين تسليم المدينة بالأمان فرفض الامبراطور. فاشتعلت الحرب مرة أخرى، وقاوم أهل المدينة ببسالة حتى نجحت القوات التركية في دخول المدينة عبر ثغرة في سور المدينة ونفذوا الى الداخل وحارب قسطنطين حتى لقي مصرعه.. وسقطت المدينة في يد محمد الفاتح وسقطت الإمبراطورية البيزنطية بعد إحدى عشر قرناً ونصف تقريباً. ودخل محمد الفاتح القسطنطينية في شهر مايو عام ١٤٥٣ في إحتفال كبير، ومن العجيب أن القسطنطينية قد بناها قسطنطين الكبير وإفتتحها رسمياً في الحادي عشر من مايو عام ٣٣٠م، وأنها سقطت في عهد إمبراطور يحمل نفس الإسم وهو قسطنطين الحادي عشر. وأن محمد الفاتح دخلها في الثلاثين من مايو عام ١٤٥٣ وهو الشهر عينه الذي إفتتحت فيه.

الفصل السابع عشر

بعض الجوانب الحضارية

الإسلام والبيزنطيون

الحياة الاقتصادية

الدبلوماسية البيزنطية

الإسلام والبيزنطيون

مقدمة :

بعد سنوات قليلة على ظهور الإسلام نجح المسلمون في فتح بلاد الشام والعراق ومصر ، وتلا ذلك تقدم العرب إلى الغرب فى شمال أفريقيا ، وعند نهاية القرن السابع الميلادي تمكن المسلمون من فتح شمال أفريقيا كله ، وأعقب ذلك فتح إسبانيا . وعلى هذه الصورة أصبح المسلمون يسيطرون على السواحل الشرقية والجنوبية والغربية للبحر المتوسط . ولم يكن للمسلمون أسطولاً ولا خبرة بحرية ، لذلك استعانوا بأهل البلاد المفتوحة وتمكنوا من فتح جزيرة قبرص في منتصف القرن السابع واتخذوا من هذه الجزيرة محطة بحرية هامة ، انطلقوا منها إلى جزيرة كريت وتقدموا حتى بحر إيجة وحاولوا فتح القسطنطينية ولكنهم لم يوفقوا .

وأصبح فتح العاصمة البيزنطية هدفاً كبيراً للسياسة الإسلامية لذلك كانت حملة عام ٧١٧ م ، ولكن الأمبراطورية البيزنطية تصدت لهذه المحاولة بقيادة الأمبراطور ليو الايسوري وارتد المسلمون عن العاصمة البيزنطية ، وظلت فكرة الاستيلاء على القسطنطينية باقية في أذهان المسلمون . وعلى أية حال يمكن القول أن الصراع بين الدولة الأموية والأمبراطورية كان صراع وجود بمعنى أن الدولة الأموية وضعت في أهدافها السياسة الأساسية اسقاط القسطنطينية .

وفي العصر العباسي وهو العصر الذي تلى فترة الحكم الأموي انتقلت العاصمة من دمشق إلى بغداد ، وظل الصراع قائماً بين الدولة العباسية والأمبراطورية البيزنطية ، ولكن أهداف هذا الصراع في هذه المرحلة اختلف من المرحلة السابقة ، فكثيراً ما نسمع عن تدخل الجيوش العباسية في عمق آسيا الصغرى مثلما تم في عهد هارون الرشيد والخليفة المعتصم ، ولكن مثل هذه المعارك يمكن أن نطلق عليها غارات عسكرية القصد منها الحفاظ على هيبة الدولة العباسية أكثر من الاحتفاظ بالأراضي البيزنطية ، وكثيراً ما عقدت الهدن بين الدولة العباسية والأمبراطورية وتم تبادل الأسرى وهو ما عرف في المصادر الإسلامية باسم الفداء . وعلى ذلك يمكن القول أن الصراع بين الأمبراطورية البيزنطية والدولة العباسية كان صراع حدود ، بمعنى أن كل طرف من الطرفين حاول جاهداً الحفاظ على حدوده كما هي رغم ما عرف باسم الصوائف والشواتي عند المسلمين .

وخلال الصراع الطويل الذي قام بين المسلمين والبيزنطيين ظلت آسيا الصغرى على حالها مسيحية تابعة للأمبراطورية . ولكن الموقف السياسي تغير في آسيا الصغرى عندما بدأ السلاجقة يزحفون إلى آسيا الصغرى . ففي عام ١٠٧١ م هزم السلاجقة الجيش البيزنطي هزيمة قاسية افقدت الأمبراطورية توازنها وأسروا الأمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع في معركة مانزكرت . وفي العام نفسه تقدم السلاجقة واستولوا على بلاد الشام من أيدي الفاطميين واستولوا على مدينة القدس . ومنذ هذه المرحلة صار الإسلام خطراً كبيراً عاد يهدد الأمبراطورية البيزنطية ، وأكملت الدولة العثمانية سياستها ضد بيزنطة بعد زوال دولة سلاجقة الروم .

وكانت معركة مانزكرت ونتائجها سبباً من أسباب الحروب الصليبية . والواقع أن موقف الأمبراطورية البيزنطية خلال الحروب الصليبية كان شديد التعقيد ، ولم يكن لدى بيزنطة أي فكرة عن الحروب الصليبية ، ولم يكن في خيال بيزنطة العمل على استعادة القدس ، ولم يكن داخل بيزنطة أيضاً من يحرضون البيزنطيين على قتال المسلمين . ولكن الأمبراطورية البيزنطية دخلت رغماً عنها

معترك الحروب الصليبية ، فقد استفـادت من قوات الحملة الصليبيـة الأولى واستعادت من سلاجقة الروم أراضي كبيرة في آسيا الصغرى .

وإذا كانت الأمبراطورية البيزنطية قد سايرت الحروب الصليبية مضطرة واستفادت منها ، إلا أن الصليبيين اعتبروا كل فشل صادف الحروب الصليبية تتحمل مسؤوليته الأمبراطورية البيزنطية ، وأن كان في ذلك تجني عليها . ولقد دفعت بيزنطة ثمن ذلك غالياً عندما انحرفت الحملة الصليبية الرابعة في عام ١٢٠٤ م واستـولت على القسطنـطينيـة واسقـطت الأمبـراطـوريـة حتى عـام ١٢٦١ م . وعندما قامت أسرة بـاليولـوجوس في عـام ١٢٦١ م لتعيد إحيـاء الأمبراطورية كانت أضعف من أن تقوم بأي محاولة لاستعادة ما فقدته بيزنطة في آسيا الصغرى ضد المسلمين . ويتضح من ذلـك أن الصراع الـذي دار بين سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ومن بعدهم العثمانيين كان صراع وجود ، أي أن سلاحقة الروم قد وضعوا ضمن أهدافهم السيطرة على آسيا الصغرى، وزاد الأمر من ذلك أيام الأتراك العثمانيين .

السفارات :

ولما كانت الحرب شبه دائمة بين المسلمين والبيزنـطيين ، فقد كـانت العلاقات السياسية بين الطرفين أمراً أساسياً بينهما . ومن ذلك أن الطرفين اهتما اهتماماً كبيراً بأمر السفارات . وقد كانت مـراسم استقبال السفـراء المسلمين الذين وفدوا إلى العاصمة البيزنطية في فترات الهدن أو الصلح تجري في نظام دقيق . وكانت الأمبراطورية تستقبل السفراء وترحب بهم وتحيطهم بكل مظاهر الاحتفـال والمجامـلات الدبلومـاسية ومـا يصاحب ذلـك من عرض للقـوات العسكرية البيزنطية استعراضاً للقوة . وفي كتاب المراسم الذي وضعه المؤرخ الأمبـراطور قسنـطينين السابـع وصفاً لـلاستقبـال الـودي الـذي استقبلت بـه الأمبراطورية سفراء بغداد والقاهرة وغيرها من العواصم .

وأولت الأمبراطورية عناية خاصة بسفراء دمشق وبغداد ، فقد كان سفراء المشرق يجلسون في أماكن أشرف من أماكن سفراء الغرب ، كما كان سفراء المسلمين بعامة يجلسون على المائدة الأمبراطورية على مقاعد أعلى من مقاعد

سفراء الفرنجة. كما أن سفراء البيزنطيين عندما كانوا يفدون على بغداد أو عاصمة أخرى كان الحاكم الإسلامي يستقبلهم استقبالاً رسمياً مع إقامة العروض العسكرية .

ومن مظاهر استقبال سفراء الأمبراطورية البيزنطية في الأندلس عام ٩٤٧ م أن الأمبراطور قسطنطين السابع أرسل سفارة إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث استقبلها في قصر قرطبة . ويذكر ابن خلدون في صدد ذلك « ووفدت عليه سنة ست وثلاثين [وثلاثمائة] رسل صاحب القسطنطينية هديته ، وهو يومئذ قسطنطين بن ليون بن شل ، واحتفل الناصر للقاؤهم في يوم مشهود ، وكتب [جعلها كتائب] فيه العساكر بالسلاح في أكمل هيئة وزي وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وجعل السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والأخوة والأعمام والقرابة . ورتب الوزراء والخدمة في مواقفهم ، ودخل الرسل فهالهم ما رأوا وقربوا حتى أدوا رسالتهم . وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك المحفل ، ويعظموا أمر الإسلام والخلافة ، ويشكروا نعمة اللّٰه على ظهور دينه وأعزازه » .

وحول هذه السفارة أيضاً يروي المقريء «ورحل الناصر لدين اللّٰه من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه ، فقعد لهم . . . في بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلاً ، وقعد عن يمينه ولي العهد من بنيه ، الحكم ثم عبد اللّٰه ثم عبد العزيز ثم الأصبغ ثم مروان ، وقعد عن يساره المنذر ، ثم عبد الجبار ، ثم سليمان ، وتخلف عبد الملك لأنه كان عليلاً لم يطق الحضور ، وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي الوكلاء وغيرهم ، وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك [جمع درنك وهو بساط ذو خمل قصير] ، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور، فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوا من بهجة الملك وفخامة السلطان ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون ، وهو في رق مصبوغ لونه سماوياً مكتوب بالذهب بالخط الأغريقي ، وداخل الكتاب مُدرجة مصبوغة أيضاً

مكتوبة بفضة بخط أغريقي أيضاً فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد منه صورة المسيح ، وعلى الوجه الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده ، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبسه بالديباج » .

ومن الملاحظ أنه كان في ترجمة عنوان هذا الكتاب في سطر منه قسطنطين ورمانوس [ابنه] المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم، وفي سطر آخر إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال اللّه بقاءه » .

ويقدم لنا المؤرخ ابن شداد وصفاً ممتعاً عن السفارة التي قدمت إلى صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م من قبل الأمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني انجيلوس ١١٨٥ ـ ١١٩٥ م . ويقول ابن شداد « وكان بين السلطان رحمة اللّه عليه ـ وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان وصل منه رسول إلى الباب السلطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة في جواب رسول كان انفذه السلطان ـ رحمة اللّه عليه ـ إليه بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية ، فمضى الرسول ، وأقام الخطبة ، ولقي باحترام عظيم وإكرام زائد ، وكان قد أخذ معه في المراكب الخطيب والمنبر وجمعاً من المؤذنين والقراء ، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوماً عظيماً من أيام الإسلام شاهده جمع كثير من التجار ، ورقي الخطيب المنبر ، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار ، وأقام الدعوة الإسلامية العباسية ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبرنا بانتظام الحال في ذلك ، فأقام مدة . ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ، ومعه ترجمان يترجم عنه ، وهو شيخ أحسن ما يفرض أن يكون من صدر المشايخ ، وعليه زيهم الذي يختص بهم ، ومعه كتاب وتذكرة ، والكتاب مختوم بذهب ، ولما مات وصل إلى ملك القسطنطينية خبر وفاته ، فأنفذ هذا الرسول في تتمة ذلك ، ووصل معه الكتاب في جواب ذلك وصوره ما فُسر من الكتاب الواصل منه ووصفه ، إنه كتاب

مدروج عرضاً ، وهو دون عرض كتاب بغداد ، مترجماً في ظاهره وباطنه بسطرين ، بينهما فرجة ، وضع فيها الختم والختم من ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع على ختمه صورة ملك ، وزن الذهب خمسة عشر ديناراً ، مضمون السطرين المكتوبين ، ما هذا صورته : من ايساكيوس [اسحاق] الملك المؤمن بالمسيح . . . ، المتوج من الله المنصور العالي أبداً . . . المدبر من الله القادر الذي لا يغلب ، ضابط الروم بذاته أنكليوس [أنجليوس] إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين » . . . وأما ما فُسر من الكتاب فهذا : المحبة المودة ، وقد وصل خط نسبتك الذي انفذت إلى ملكي ، وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفي وحزنا أنه توفي في بلد غريب ، وما قُدر أن يتم كلما رسم له مُلكي ، وأمره أن يتحدث مع نسبتك ، ويقول في حضرتك ، ولا بد لنسبتك أن تهتم بانقاذ رسول إلى ملكي ليعرف ملكي ما بعثت إليك مع رسولي المتوفي . وأما القماش الذي خلفه بعد موته بنفذ إلى ملكي لنعطيه أولاده وأقاربه ، وما أظن أنه سمَّع نسبتك أخباراً ردية ، وأنه قد سار في بلاد الألمان ، وما هو عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء كذب على قدر أغراضهم ، ولو تشتهي أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلاحي بلادي ، وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال ، ومات منهم كثير ، وقتلوا ، وتلفوا ، وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي ، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك ، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة ، ولا يقدرون ينفعون جنسهم ، ولا يضرون نسبتك ، وبعد ذلك كله العجب كيف قد نسيت الذي بيني وبينك ، وكيف ما عرفت لملكي شيئاً من المقاصد والمهمات ، ما ربح ملكي محبتك إلا عداوة الفرنج وجنسهم . . . .

. . . .

وقد علم صلاح الدين بترجمة هذا الخطاب ، وأكرم الرسول وأحسن مسواه ، وكان شيخاً حسن الخلق ، مهيباً ، عارفاً بالعربية واللاتينية واليونانية والمهم أن هذه الرسالة قد حملت معلومات في غاية الأهمية فهي توضح لنا العلاقات الطيبة التي كانت بين الأمبراطورية البيزنطية وبين صلاح الدين وما كان من أمر جامع القسطنطينية والمنبر والخطيب والقراء . ويوضح لنا الخطاب

الحركة التجارية أيضاً بإشارته إلى حضور جمع كثير من التجار هذا الاحتفال ، ويشير أيضاً أن جماعة من المسلمين كانوا يعيشون في القسطنطينية وإلى جانب ذلك إشارة إلى أن الخطبة في المسجد كانت الدعوة فيها للخلافة العباسية .

ويتضح من النص الذي أورده ابن شداد أيضاً أنه كان هناك زياً خاصاً للسفراء وأنه كان يحمل معه « تذكرة » وهي أشبه بخطاب الاعتماد في أيامنا هذه . وتشير النصوص أيضاً إلى أن الخطاب الذي أرسل إلى صلاح الدين كان أقل عرضاً من الخطابات التي ترسل إلى الخليفة العباسي في بغداد . كما يتضح أيضاً طريقة وضع الأختام الذهبية المطبوعة في الخطاب . ويفسر الخطاب أيضاً طريقة توريث المتوفي عندما أشار إلى القماش الذي سوف يعطي لأولاده وأقاربه وفوق هذا كله فالخطاب يقدم تحذيراً لصلاح الدين عن أخبار قدوم الحملة التي قادها فريدريك باباروسا أمبراطور ألمانيا الذي تولى قيادة قواته ضمن قوات الحملة الصليبية الثالثة التي قدمت من أوروبا لمحاولة استعادة مدينة القدس بعد ما استردها صلاح الدين عام ١١٨٧ م . وفي النهاية يوضح الأمبراطور مدى العداوة التي لحقت به من جانب الصليبيين لأنه على علاقة طيبة مع المسلمين .

الرحالة المسلمون :

وخلال فترة الحروب الصليبية وما بعدها زار القسطنطينية مجموعة من الرحالة العرب وتركوا لنا معلومات قيمة عن المدينة ، ونذكر من هؤلاء الرحالة أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي المتوفي بحلب عام ٦١١ هـ ، وقد سجل الهروي مشاهداته في كتابه كتاب الإشارات إلى معرفة الزيات . وكانت زيارة الهروي للعاصمة البيزنطية في عهد الأمبراطور مانويل كونيين . وما يعنينا في هذا الموضع ما ذكره الهروي عن الآثار الإسلامية والتسامح الديني داخل الأمبراطورية البيزنطية . فقد ذكر أنه في جانب من مدينة القسطنطينية قبر أبي أيوب الأنصاري رضي اللّه عنه صاحب رسول اللّه صلعم . واسمه خالد بن زيد . ولما قتل دفنه المسلمون وقالوا للروم « هذا من كبار أصحاب نبينا فواللّه أن نبش لادق بناقوس في أرض العرب أبداً » وهذا القبر موجود حتى آيامنا

هـذه . ويضيف الهروي أن بهـا الجامـع الذي بنـاه مسلمة ابن عبـد الملك والتابعون ، وبه قبر رجل من ولد الحسين . وفي نهـاية حـديث الهروي عن القسطنطينية يشير إلى التسامح الديني وحسن معاملة الأمبراطور مانويـل له ، واختتم الحديث بقوله : وهذه المدينة هي أكبر من اسمها فاللّه تعالى يجعلها دار الإسلام بمنه وكرمه إن شاء اللّه تعالى .

وعندما تحدث الهرري عن مـدينة عمـورية ذكـر أن بها قبـور جماعـة استشهدوا مع الخليفة المعتصم رضي اللّه عنهم ، وعندما تحدث عن مدينة قيصرية أورد أن بهذه المدينة حبس محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب ، وبها جامع محمد البطال.وتحدث الهروي أيضاً عن جزيرة قبرص وقال ورأيت بجـزيرة قبـرص مكتوبـاً على حجر مـا هذه صـورتـه بعـد البسملة وسـورة الاخلاص : « هذا قبر عروة بن ثابت توفي في شهر رمضان سنة تسع وعشرين للهجرة » .

ومن الذين زار القسطنطينية الرحالة ابن بطوطة ، وقد ترك لنا وصفاً في عدة صفحات عن المدينة والأمبراطور وكنيسة آياصوفيا وبعض الأديرة وقاضي القسطنطينية المسلم . وسوف نسجل بعض لمحات من هذه الزيارة ، فقد ذكر « وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية ، وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الأفاق لاختلاط أصواتها . ولما وصلنا الباب من أبواب قصـر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق مكانه ، وسمعتهم يقولون : سراكنوا سراكنوا ، ومعناه « المسلمون » .

ويذكر ابن بطوطة عندما سمح له بمقابلة الأمبراطور أنه وصل إلى قبة والسلطان على سريره وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح ، فأشار إليّ قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هنية ليسكن من روعي ، ففعلت ذلك ، ثم وصلت إليه فسلمت عليـه وأشار إليّ : أن أجلس ، فلم أفعـل ، وسألني عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن كنيسة القيامة وعن مهد عيسى عليه السلام ، وعن بيت لحم ، وعن مدينة الخليل عليه السلام ، ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم ، فأجبته عن ذلك كله واليهودي يترجم

بيني وبينه ، فأعجبه كلامي ، وقال لأولاده : اكرموا هذا الرجل وأمنوه ، ثم خلع عليّ خلعة وأمر لي بفرس مسرج ملجم ، ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه ، وهي علامة الأمان ، وطلبت منه أن يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم حتى أشاهد عجائبها وغرائبها ، وأذكرها في بلادي ، فعين لي ذلك . ويضيف ابن بطوطة أن من عوائد البيزنطين « أن الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالأبواق والانفار والأطبال ليراه الناس » .

ويضيف ابن بطوطة أنه كان يوماً مع الرومي المعين للركوب معه فرأى والد الملك وكان هذا الوالد قد سلك الرهبة فلما رآه الرومي نزل وقال لي : انزل فهذا والد الملك فلما سلم عليه الرومي سأله عني ، ثم وقف وبعث لي فجئت إليه فأخذ بيدي وقال لذلك الرومي ، وكان يعرف اللسان العربي : قل لهذا السراكنوا ، يعنى المسلم ، أنا أصافح اليد التي دخلت بيت المقدس ، والرجل التي مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى وبيت لحم ، وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم .

العلاقات الثقافية

ويبدو لغير المتخصصين في التاريخ البيزنطي أن مصالح الأمبراطورية والدول الإسلامية لا يمكن لها أن تلتقي لأنهما العدوين اللذين فرقت بينهما السياسة والعقيدة ، إلا أن الواقع كان غير ذلك ، فإن الأعمال العسكرية بين الطرفين لم تمنع قيام علاقات ثقافية بين الطرفين . والحقيقة أنه خلال العصور الوسطى كانت هناك مجموعة من المراكز الثقافية العالمية . فقد كانت القسطنطينية وهي المدينة الغنية وأبرز مدن أوروبا في العصور الوسطى . وهي أيضاً المدينة التي زارها الجغرافي والمؤرخ المشهور المسعودي . وقد ترك لنا وصفاً ممتعاً وقال « ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين ، وبرهة من مملكة الروم ، تنظم العلماء ، وتشرف الحكماء ، وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والعقل والنفس ، والتعاليم الأربعة ، وهي الإرتماطيقي ،

وهو علم الأعداد ، والجومطريقي وهو علم المساحة والهندسة ، والأسترنوميا وهو علم النجوم ، والموسيقى وهو علم تأليف اللحون ، ولم تزل العلوم قائمة السوق ، مشرقة الأقطار قوية المعالم ، شديدة المقادم ، سامية البناء، إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم ، فقضوا معالم الحكمة ، وأزالوا رسمها ومحوا سبلها ، وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته ، وغيروا ما كانت القدماء منهم أوضحته . والحقيقة أن ما ذكره المسعودي سليماً إلى حد كبير ولكن علينا أن نقرأه بحذر خاصة فيما يتعلق بزوال المعرفة في الأمبراطورية البيزنطية ولكن ما حدث أن الأمبراطورية تطرقت إلى علوم اليونان من خلال نظرة مسيحية وليست وثنية كما كانت عند اليونان .

وبالإضافة إلى القسطنطينية كانت هناك مراكز إسلامية عديدة في العصور الوسطى فقد كانت دمشق في بداية الأمر حيث كانت عاصمة الأمويين ، وتلي ذلك مدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية وما كان لها من أمجاد حتى اجتاحها المغول في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . وقد كانت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية ثم الأيوبيين ثم المماليك ، وما كان لهؤلاء من أمجاد شهد لها التاريخ الأوروبي قبل الإسلامي . ومن العواصم الإسلامية أيضاً قرطبة حاضرة الأندلس وما كان لها من دور حضاري رائع قريب من أوروبا ، يضاف إلى ذلك جزيرة صقلية أثناء الحكم الإسلامي وحتى بعد أن استولى عليها النورمان . والحقيقة التي أود أن أركز عليها أن صقلية كانت مركزاً علمياً إسلامياً كبيراً لأن أوروبا أفاقت من غياهب العصور الوسطى لتجد نفسها أمام حضارة إسلامية شامخة البناء ، فأخذ أهل أوروبا يقبلون على الحضارة الإسلامية . ومن علماء المسلمين في صقلية الأدريسي الجغرافي الذي ولد في مدينة سبتة حوالي عام ١١٠٠ م وتلقى علومه في قرطبة وكتب فى مدينة بالرمو عاصمة صقلية استجابة لطلب روجر الثاني ملك صقلية ١١٢٩ ـ ١١٥٤ م كتابه المسمى نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. ولست في حاجة إلى الحديث عن بغداد ولكنني أكتفي بأن أقول أن بغداد كانت حديقة حقيقية للمعرفة والعلم والفنون . أما مدينة قرطبة التي كانت أكثر المدن الأوروبية حضارة فقد أثارت دهشة العالم وأعجابه ، وكان بها حوالي سبعين مكتبة وتسعمائة حمام .

لقد كانت الولايات البيزنطية والفارسية التي فتحها العرب على اتصال وثيق بالثقافة الهلينستية ، وبذلك انضم إلى المسلمين عديد من المراكز الثقافية الكبيرة مثل الاسكندرية وانطاكية وبيروت وقيصرية وغزة ، وأصبحت مدارس هذه المراكز ومتاحفها وسكانها المشبعين بالحياة الفكرية الهلينستية جزءاً من العالم الإسلامي . وعن طريق هذه المراكز عرفوا أثار القدماء ومعارفهم في ميدان العلوم والفنون وقد أضافوا إليها الكثير حتى خرجت الحضارة الإسلامية بالصورة التي نعرفها، حيث ألفوا علوماً خضعت للمنهج التجريبي بعد أن كانت نقلاً وتعريباً .

ولقد شاهدت العلاقات البيزنطية الإسلامية سلسلة من أعمال الحرب والسلم والعداوة والصداقة وغير ذلك ، إلا أن ما نلاحظه في هذا الصدد عدم وجود حقد عنصري أو عقائدي ، فقد كان الأمبراطور نقفور الأول كما تقول المصادر العربية من أصل عربي ، فقد ذكر ابن الأثير « وكان يملك الروم حينئذ إمرأة اسمها ريني [أيرين] فخلعها الروم وملك نقفور ، وتزعم الروم أنه من أولاد جفنة بن غسان » .

وفي عهد الأمبراطور ليو الإيسوي وهو الأمبراطور الذي دافع عن القسطنطينية وهزم القوات الإسلامية والحملة البحرية التي أرسلها سليمان بن عبد الملك تم بناء جامع القسطنطينية، حتى أن المصادر البيزنطية وصفت الأمبراطور ليو بأنه كان ذا عقلية عربية ، ولعل هذه التسميّة راجعة أيضاً إالى موقفه من عبادة الأيقونات .

كما كتب البطريق نيقولا مستيقوس في عام ٩١٣ أو ٩١٤ رسائل إلى الخليفة العباسي وليس يا أمير كريت كما يرى البعض . وقد ورد في هذه الرسائل عبارات طيبة منها « وعلى الذين توحد بينهم القوة الإلّهية أن يتصلوا ببعضهم عن طريق الرسائل والمبعوثين ، وهذا ينطبق بخاصة على القوتين العظيمتين وهما الرومان (يقصد البيزنطيون) والمسلمون . ومن هذه الرسائل أيضاً عبارة يا أشهر رؤوساء المسلمين ، ويا صاحب الجلالة ، وفيها أيضاً عبارة إلى صديقنا الأسمى والأمجد الذي نصبه اللّه حاكماً لأمة المسلمين . ورغم أن

هذه الرسائل كانت تتعلق بأمور سياسية إلا أن العبارات التي وردت بها تنم عن العلاقات الطيبة بين الدولتين .

ولقد كانت الثقافة الهلينستية هي التي قربت بين الدول الإسلامية والأمبراطورية البيزنطية ، فبعد ما فتح المسلمون الشام ومصر عاش الرهبان في أديرتهم وقد انكبوا على دراسة وترجمة المؤلفات العلمية والدينية ، وكان أرسطو على سبيل المثال يحتل مكانة عال بين الفلاسفة، كما كان أبقراط وجالينوس يحتلان مكانة سامية بين أصحاب المؤلفات الطبية .

وقد ساعد على ذلك النساطرة الذين اضطهدتهم الأمبراطورية بعد إدانتهم في مجمع أفسوس عام ٤٣١ م ، وقد لجأوا إلى دولة فارس حاملين معهم العلوم اليونانية ، وقد قام عدد كبير منهم زمن الخلفاء العباسيين بأعمال الترجمة من اليونانية إلى العربية .

ومن العلاقات الثقافية ما قام به الخليفة العباسي الواثق بالله الذي أرسل ما يمكن أن نطلق عليه البعثات العلمية . فقد أرسل الخليفة في أيامه محمد بن موسى المنجم وهو عالم عربي له شهرته وذلك بإذن من الأمبراطور ميخائيل الثالث إلى مدينة أفسوس لزيارة الكهف الذي حنط فيه رفات أهل الكهف . وحول هذا الحديث يروي ابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك ، وأما أصحاب الرقيم فبخرمة رستاق بين عمورية ونيقية ، وكان الواثق بالله وجه محمد بن موسى المنجم إلى بلاد الروم لينظر إلى أصحاب الرقيم وكتب إلى عظيم الروم بتوجيه من يوقفه عليهم، فحدثني محمد بن موسى أن عظيم الروم وجه معه من صار به إلى قرة ثم سار أربع مراحل وإذا جبل قطر أسفله أقل من ألف ذراع وله سرب من وجه الأرض ينفذ إلى الوضع الذي فيه أصحاب الرقيم قال فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته فإذا بئر محفورة لها سعة تبين الماء في قعرها ثم نزلنا إلى باب السرب فمشينا فيه مقدار ثلثمائة خطوة فصرنا إلى الموضع الذي أشرفنا عل فإذا رواق في الجبل على أساطين معقودة وفيه عدة أبيات منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة عليه باب حجر منقورة فيه الموتى ورجل موكل بحفظهم ومعه خصيان روقه وإذا هو يحيد من أن نراهم أو نفتشهم ويزعم أنه لا

يأمن أن يصيب من التمس بذلك آفة يريد التمويه ليدوم كسبه بهم فقلت له دعني أنظر إليهم وأنت بريء فصعدت بشمعة غليظة مع غلامي فنظرت إليهم في مسوح تتفرك في اليد وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم غير أني مررت يدي على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعر وقوة نباته ، وأحضر الموكل بهم طعاماً وسألنا الغذاء عنده فلما ذقنا طعامه انكرنا انفسنا فتهوعنا ، وإنما أراد أن يقتلنا .أو يغصنا فيصبح له ما كان يدعيه عند ملك الروم من أنهم أصحاب الرقيم ، فقلنا له إنما ظننا أنك ترينا موتى يشبهون الأحياء ، وليس هؤلاء كذلك . ويلاحظ أن المقدسي تحدث في كتابه أحسن التقاسيم عن الرقيم ذكر أنها قرية تقع على بعد فرسخ من عمان تخوم البادية .

وقد يكون السبب الرئيسي في حدوث هذه البعثة العلمية ذلك الميل الاعتزالي الذي شمل الدين منذ عهد المأمون . ومن البعثات العلمية أيضاً ما أعدها الخليفة الواثق أيضاً عندما أرسل بعثة كبيرة على رأسها المترجم سلام الذي كان يجيد العديد من اللغات ، وقد توجه سلام إلى آسيا الصغرى للبحث عن السور الذي بناه الاسكندر المقدوني ، هذا السور الذي تقول فيه الآثار أنه بني أيام يأجوج ومأجو ج ، وقد دامت أعمال هذه البعثة طويلاً وبعدها كافأ الخليفة رجال البعثة على ما قاموا به من أعمال بعد ما قدموا له تقريراً عن أعمالهم .

وكانت هناك مفاوضات كثيرة دخل فيها الأمبراطور ثيوفيل مع الخليفة المأمون حول العالم البيزنطي والمهندس الفلكي « ليو » فقد كان الخليفة يود رؤية هذا العالم ليستفيد من علمه الواسع في الرياضيات .

ولكن هذا العصر الذي بدأ بالمأمون وعاصره الواثق لم يدم طويلاً ولم يلبث أكثر من قرنين هما القرن التاسع والعاشر .

ونختم هذه الصفحات بالحديث عن سماحة الإسلام . ومن ذلك على سبيل المثال أن يوحنا الدمشقي كان يعيش في ظل الخلافة الأموية ، وكان من

المدافعين عن عبادة الايقونات ، وذلك عندما أصدر الأمبراطور ليو الأيسوري منشوراً في عام ٧٢٦ م يقضي بتحريم عبادة الأيقـونات . وقـد مارس يـوحنا الدمشقي من أرض الخلافة الدفـاع عن عبادة الأيقـونات وواصـل عمله دون إزعاج من السلطات الإسلامية أو من كتاباته المتعددة حول العقيدة المسيحية والجدل الديني عدة مقالات تضمن الرد على الذين يحطون من شأن عبـادة الصور ، حتى أن المجمع اللا أيقوني الذي عقد في عام ٧٥٤ م هاجم يوحنا الدمشقي واتهمه بالميل إلى الإسلام .

وقد عكر صفو هذا التسامح ما قام به الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر اللّه عندما أمر بهدم كنيسة القيامة في القدس ، ولكن الحال عاد إلى ما كان عليه بعد وفاته عام ١٠٢٠ م فقد عادت العلاقات الطيبة مع خلفه الخليفة الظاهر والأمبراطور قسطنطين الثامن عندما اتفقا عام ١٠٢٧ م على أن يدعى للخليفة الفـاطمي في جميع مسـاجد الأمبـراطوريـة البيزنـطية ، وإعـادة بنـاء جـامـع القسطنطينية الذي هدم رداً على هدم كنيسة القيامة ، كما وافق الخليفة الظاهر على السماح بإعادة بناء كنيسة القيامة .

الحياة الاقتصادية :

لقد ترتب على الهجرات الجرمانية إلى أوروبا تقويض دعائم اقتصاد الأمبراطورية في غرب أوروبا، وحاول الأمبراطور جستنيان احياء التجارة في الجانب الشرقي ، وقد نجح في ذلك إلى حد ما . كما ترتب على الفتوحات الإسلامية وسيطرة المسلمين على بلاد الشام ومصر والساحل الأفريقي تغيير هام في الاقتصاد البيزنطي ، ذلك لأن المسلمين اقتطعوا أغنى ولايات الأمبراطورية وأكثرها انتعاشاً ورقياً ، وبعد سيطرة المسلمين على قبرص وكربت وصقلية أصبح البحر المتوسط بحراً إسلامياً .

وقد يظن المرء أن كيان الأمبراطورية الاقتصادي قد انهار تماماً ، وأن العلاقات التجارية البيزنطية مع الشرق قد انتهت ، ولكن واقع الحال كان غير ذلك ، فقبل ظهور الإسلام كانت القوافل تخرج من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام ومصر ، وكانت الطرق التجارية آمنة من اليمين جنوباً إلى بلاد الشام ومصر . وكانت أغنى المدن الواقعة في هذا الطريق مدينة مكة المكرمة . وبعد ظهور الإسلام لم يختلف الأمر عن ذي قبل ولكنه زاد تماسكاً وترابطاً حتى أصبحت الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر مرتبطة برباط اقتصادي قوي تحت سلطان دولة واحدة . ولما لم يكن للمسلمين عملة في بداية أمرهم فقد استعملوا العملة البيزنطية في تعاملهم حتى عهد عبد الملك بن مروان الذي

عرب الدواوين والعملة ، وربما استاء البيزنطيـون في بدايـة الأمر عنـد تغيير عملتهم ولكنهم استوعبوا الموقف وسارت الأحوال الاقتصادية سيراً طبيعياً بعد ذلك مثلما كانت من قبل .

والواقع أن الحياة الاقتصادية في الولايات التي فتحها المسلمون كانت قائمة على أساس متين قبل أن يستولي عليها المسلمون ، وأصبحت كذلك بعد الفتح الإسلامي ، والدليل على ذلك أن أهالي البلاد المفتوحة في مصر والشام واصلوا عملهم في ظل الحكم الإسلامي ولم يهجروا أراضيهم . ومما لا شك فيه أن الاقتصاد البيزنطي قد تأثر كثيراً عندما فقدت الأمبراطورية الضرائب التي كانت تجنيها من سكان ولاياتها الشرقية والجنوبية أي الشام ومصر .

وبعد انتهاء فترة الحروب وثبات الحدود البيزنطية الإسلامية إلى حد ما عـاد الاقتصاد البيـزنطي إلى الافـادة بطريقـة غير مبـاشرة عنـدمـا استـطاعت الأمبراطورية تجديد علاقاتها التجارية مع مصر والشام . والحقيقة أن المسلمين والبيزنطيين قد تبينوا أهمية قيام العلاقات التجارية بينهما ، وبذلك ظهر التجار البيزنطيون في كثير من المدن الإسلامية ، كما أن التجار العرب تقـدموا في الأراضي البيزنطيـة وحتى العاصمـة القسطنـطينية لانجـاز أعمالهم وتصـريف بضائعهم .

ويصف ابن رسته في كتابه الأعلاق النفسية مدينة القسطنطينية كمـدينة تجارية ويقول « وفيها أسواق عظام وفي كل سوق قنلتان عظيمتان من مـاء ، وأسواقها كلها مبلطة برخام أبيض وفيها أربعـون ألف حمام ، وفيهـا مجامـع أسواق يقام فيها التجارات خمسة وتسعون موضعاً . ويذكر ابن بطوطة أيضاً أن أسواقها وشوارعها مفروشة بالصفاح ، متسعة وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم ، وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة بها النساء»، ثم يضيف في حديثه عن أهل القسطنطينية ويقول وجميعهم أهل تجارة ، ومرساهم من أعظم المراسي ، رأيت به نحو مائة من السفن الكبيرة وعدد لا يحصى من السفن الصغيرة .

ولقد أصبحت مدينة طرابيزون الواقعة في شمال البحر الأسود في القرن العاشر من أهم المراكز التجارية للمسلمين وغيرهم ، ويقول المسعودي عن هذه المدينة ، وهي مدينة على شاطىء هذا البحر لها أسواق في السنة يأتي إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن .

وعندما نجح الأمبراطور نقفور فوقاس في استعادة جزيرة كريت عام ٩٦١ م وجزيرة قبرص عام ٩٦٥ م ، استعادت الأمبراطورية معها بعض المراكز التجارية الهامة ، وتفاخر الأمبراطور نقفور بأن أسطوله أصبح قوياً وأن سفنه أصبحت تسير بحرية في البحر المتوسط . والحيقيقة أن العلاقات التجارية مع البيزنطيين كانت في غاية الأهمية ، لأن الأمبراطورية نجحت في تعزيز مكانتها الدولية التجارية من خلال التجارة العربية ، لأن أكثر التجارة العربية كانت تنقل إلى بلاد أوروبا من خلال التجار البيزنطيين ، وكانت الأمبراطورية تحقق أرباحاً كثيرة يتصل قيامها بدور الوسيط في التجارة بين الشرق والغرب ، ولكن الحروب الصليبية أضاعت هذه الوساطة وتلاشى إزدهار الأمبراطورية منذ عام ١٢٠٤ م عندما استولى الصليبيون على القسطنطين وانتقلت السيادة الاقتصادية إلى المدن الإيطالية وعلى رأسها البندقية وجنوه وبيزا وأمالفي وغيرها .

لقد كان لموقع القسطنطينية عند ملتقى الفرق العالمية التجارية بين الشمال والجنوب عند بحر مرمرة ، نتائج هائلة على الحركة التجارية للأمبراطورية البيزنطية ، والحقيقة أنه قل ما استمتع من المدن بهذا الموقع الفريد الذي استمتعت به هذه المدينة في العصور الوسطى . يضاف إلى ذلك عامل هام أيضاً هو المهارة التجارية لدى البيزنطيين خاصة العناصر الأرمينية واليونانية ، هذا إلى جانب عوامل أخرى جعلت من العاصمة البيزنطية لعدة قرون رمزاً للثراء ومطمع الدول .

ويوضح هذه الفكرة أن خط سير التجارة في العصور الوسطى كان يبدأ من الشرق الأقصى إلى البحر المتوسط . وكانت دول البحر المتوسط تستطيع أن

تكتفي بما تنتجه من أغذية ومستلزمات . ولكن هذه الدول كانت ترغب في حياة أكثر رفاهية فتطلعت إلى السلع الكمالية التي كان الشرق الأقصى يستطيع أن يصدرها إليها .

وكانت أوروبا تستورد الأعشاب وخشب الصندل من الهند كما استوردت الحرير المصنع والخام من بلاد الصين ، كما صدرت منطقة البحر المتوسط الزجاج . والمواد المشغولة بالمينا ، ولكن أثمان هذه الصادرات لم تكن تغطي احتياجاتها من الواردات، لذلك ذهب ثروات أوروبا إلى الشرق الأقصى ثمناً للواردات، الأمر الذي أدى إلى الكساد المالي الذي حاق بالأمبراطورية الرومانية في نهاية عهدها . وإذا كانت أوروبا تستطيع أن تستغني عن بعض السلع التي تستوردها من الشرق الأقصى ، إلا أنه لم يكن بوسعها الاستغناء عن الحرير ، وهو أمر شغل بال أوروبا لمدة طويلة .

وحقيقة الأمر كانت التجارة تأتي من الشرق الأقصى إلى البحر الأبيض عبر طرق عديدة ، ومن الطرق البحرية طريق المحيط الهندي حتى الخليج ثم إلى بلاد الشام أو إلى البحر الأحمر إلى مصر . أما الطرق البرية فمن الصين إلى تركستان ثم إلى بحر قزوين ثم إلى نهر الفولجا فالبحر الأسود عند مدينة خرسون ، أو عبر شمال إيران إلى مدينة نصيبين إلى مدينة طرابيزون أو عبر الهند وأفغانستان ووسط إيران إلى بلاد الشام .

ولما كانت الحرب تقع بين الأمبراطورية الفارسية والأمبراطورية الرومانية ثم البيزنطية ، كان على بيزنطة أن تتجنب مرور تجارتها عبر فارس . ولم يكن هناك سوى طريقين لا يمران بالأراضي الفارسية، الأول هو الذي يمر بالبحر الأحمر إلى مصر والثاني الذي يمر بالشمال الأقصى عبر روسيا . وبالإضافة إلى أخطار الحروب فقد كانت الأمبراطورية الفارسية تفرض رسوماً جمركية عالية على البضائع التي تمر عبر أراضيها ولهذين السببين بذلت الأمبراطورية البيزنطية كل جهد لضمان وصول تجارتها عبر الطرق الآمنة ، وذلك بالتفاوض مع دولة

الحبشة التي كانت تتحكم في البحر الأحمر أو مع قبائل الهـون في الشمال الأقصى لقارة آسيا .

ويعتبر القرن السادس الميلادي العصر الذهبي لتجـارة الشرق خـاصة تجارة الحرير التي كانت تصل إلى مدينة دارا أو نصيبين ومنها إلى مصانع الشام في صور وبيروت أو إلى مصانع القسطنطينية أو يصل جزء منها عن طريق البحر الأحمر أو الخليج العربي .

وكانت البضائع التي تأتي من الشرق الأقصى أو من البحر الأحمر وغير ذلـك من الأماكن تتجمـع في جزيـرة سيلان حيث يتم البيـع والشراء ، ومن البضائع الشرقية الحرير من بلاد الصين وخشب الصندل والقرنفل واللوز من الهند الصينية ، والفلفل مس ملبار والنحاس من نواحي مدينة بومباي والخردع والمسك من السند . ومن جزيرة سيلان اشترى التجار الفرس الحرير وحملوه إلى بلادهم عبر الخليج . أما بقية السلع الأخرى فقد كانت تأخذ طريقها بالبحر الأحمر . ولعل ما جعل لجزيرة سيلان هذه الأهمية ما ذكر فى كتاب عجايب الهند عندما ذكرت هذه الجزيرة «ومن الجزائر الموصوفة التي ليس مثلها في البحر جزيرة سرنديب وتسمى سهيلان ، وفيها مغاص اللؤلؤ النقي وجبلها حصين وهو جبل الياقوت والألماس . وفيها تراب أحمر وهو هذا السنبادج الذي يخرط به البلور والزجاج وقشور أشجارها القرفة ، وحشيش هذه الجزيرة أحمر يصبغ به الثياب والغزل وهو صباغ يفوق البقم والزعفران والعصفر وكل صبغ أحمر وبها من غرايب النباتات مما يطول شرحه»، كما أن الرحالة ابن بطوطة تكلم أيضاً عن مغاص الجوهر والياقوت عند ما زار جزيرة سيلان . ومن الملاحظ أن التجار في جزيرة سيلان كانوا يتعاملون بالعملة البيزنطية .

وقامت مملكة الحبشة بدور كبير في العملية التجارية ، وقد ساعدها على ذلك موقعها المطل على البحار وعلى عمق قارة أفريقيا ، وكان تجار الحبشة يقومون برحلة تجارية إلى قلب أفريقيا مرة كل عامين وقد يصل عددهم إلى حوالي خمسمائة حتى يتمكنوا من حماية أنفسـهم من القبائل الأفريقية ، وكان هؤلاء التجار يحملون معهم الماشية والملح وأسياخ الحديد حتى إذا وصلوا إلى

مايبغون أقاموا سوراً من الحديد حولهم ، ثم قاموا بذبح الماشية ليقتاتوا . وفي هذا المكان يعلق التجار الأحباش بضائعهم ويبتعدوا عنها فيتقدم المواطنون الأفارقة ويضعون على كل سلعة عدداً من القطع الذهبية يتناسب مع قيمتها ويرجعون إلى أماكنهم ، فيتقدم التجار الأحباش فإذا أعجبهم الثمن أخذوا قطع الذهب وتركوا البضائع وإذا لم يرق لهم الثمن تركوا الذهب مكانه وهنا يفهم المواطن الأفريقي أن الثمن لم يعجب الحبشي ، فإما أن يأخذ الأفريقي ما وضعه من ذهب أو يضيف إليه . وقد يستمر هذا السوق حوالي أربعة أيام أو أكثر ثم يعود التجار الأحباش قبل موسم الأمطار بعد أن يكونوا قد أمضوا حوالي ستة أشهر في الذهاب والعودة .

وظلت التجارة تسير سيراً طبيعياً مع الأمبراطورية البيزنطية والفارسية طالما سادت العلاقات السلمية بين الطرفين ، ولكن نشوب الحروب خاصة في عهد الأمبراطور جستنيان أوقفت تجارة الحرير عبر فارس فارتفع سعره داخل الأمبراطورية . وحتى يقضي الأمبراطور على هذه الظاهرة لجأ إلى شراء مصانع الحرير وبذلك تحولت صناعة الحرير إلى احتكار أمبراطوري وتحكم في أسعاره وأصدر منشوراً يقضي بعدم بيع رطل الحرير بأكثر من خمسة عشر صلدي ذهباً . ولكن هذا المنشور لم يؤد إلى النتيجة المطولبة ، بل جاء بالعكس، فقد رفض تجار الحرير الفرس بيع الحرير إلى الأمبراطورية ، فأفلست تجارة الحرير وتوقفت تجارته .

وحدث في هذه المرحلة أن بعض الرهبان النساطرة قد ساعدوا على حل هذه المشكلة بطريقة عملية ، وحول ذلك الموضوع يروي المؤرخ بروكوبيوس في معرض حديثه عن حرب الأمبراطورية مع القوط في إيطاليا أنه في حوالي ذلك الوقت يقصد ٥٥٢ ـ ٥٥٤ م ، فإن بعض الرهبان قد قدموا من الهند وعلموا أن الأمبراطور جستنيان لديه رغبة شديدة في عدم قيام البيزنطيين بشراء الحرير من أهل فارس . وقد ذهب هؤلاء الرهبان إلى الأمبراطور ووعدوه بالعمل على عدم شراء الحرير من الفرس أو أية دولة أخرى . وقال الرهبان للأمبراطور لقد قضينا وقتاً طويلاً في الدول العديدة التي تقع شمال الهند

وخاصة في الدولة التي تدعى سرنيدا Sernida وأنهم تعلموا في هذا المكان كيف يمكن انتاج خام الحرير في الأراضي البيزنطية .

ويضيف المؤرخ بروكوبيوس أنه عند هذه المرحلة أبدى الأمبراطور جستنيان عناية فائقة عندما عرف بهذه الملعومات ، وسأل الرهبان عدة أسئلة ليتأكد من سلامة المعلومات . وقد شرح له الرهبان أن هناك دودة معينة تضع الحرير بطريقة طبيعية . ولما كان من الصعب نقل هذه الديدان حية ، فإنه من السهل نقل الشرانق . وقد وعد الأمبراطور بتقديم هدايا قيمة لهم إذا نفذوا ما وعدوا به . وقد عاد الرهبان مرة أخرى إلى سرنيدا ثم عادوا بالشرانق إلى بيزنطة ، وقد تحولت الشرانق إلى ديدان وقد أطعمت الديدان على أوراق التوت . ومنذ هذه المرحلة قد أصبح بالإمكان انتاج الحرير في أراضي الأمبراطورية . وبعد مرحلة أصبحت تربية دودة القز واسعة الانتشار في أراضي الامبراطورية ، وبدأ استيراد الحرير من الشرق في الاضمحلال .

ولقد كان لفتح العرب للشام ومصر والعراق أثراً كبيراً على تجارة الأمبراطورية البيزنطية ، وقد عانت القسطنطينية في بداية الأمر الكثير ولكن وجود العرب كان أخف ضرراً بكثير من الحروب الفارسية . وبعد فترة انتعشت التجارة رويداً رويداً عبر آسيا الصغرى وإلى البحر الأسود عند مدينة طرابيزون ومنها إلى العاصمة البيزنطية. ونمت صناعة الحرير وازدهرت وصار للمصانع الأمبراطورية شأناً كبيراً في صناعة الحرير ، وجنت الأمبراطورية من وراء ذلك أرباحاً طائلة ، فقد كان العرب في الشرق وأوروبا في الغرب وأهل الخزر وغيرهم في الشمال يسارعون لشراء الحرير البيزنطي .

والحقيقة التي صاحبت فتح العرب للشام والعراق ومصر أن تجارة البحر المتوسط على الجانب الشرقي أي في بلاد الشام ومصر قد قلت كثيراً ، فقد توقف استيراد الأمبراطورية البيزنطية للقمح من مصر ، كما أن العمليات العسكرية البحرية في شرق البحر المتوسط قد أوقفت جانباً كبيراً من التجارة في هذه المنطقة يضاف إلى ذلك أن العرب سيطروا تماماً على تجارة المحيط الهندي .

وقد فكر الخليفة هارون الرشيد في حفر قناة تربط بين البحر الأحمر عند مدينة القلزم ـ وهي السويس حالياً ـ وبين البحر المتوسط عند مدينة دمياط الحالية تقريباً . ويروي المسعودي أنه قد رام للخليفة هاورن الرشيد أن يوصل بين هذين البحرين مما يلي النيل من أعالي مصبه من نحو بلاد الحبش وأقاصي صعيد مصر ، فلم تتأت له قسمة ماء النيل ، فرام ذلك مما يلي بلاد القزما نحو بلاد تنيس ، على أن يكون مصب بحر القلزم إلى البحر الرومي أي البحر المتوسط . ولكن هذه الفكرة لم تنفذ فقد خاف المسلمون من قيام البيزنطيين بالابحار بنفسهم عبر هذه القناة والدخول إلى البحر الأحمر والوصول إلى الأماكن المقدسة وإلقاء الأذى بالحجاج المسلمين . وفي ذلك يضيف المسعودي « أن يخطف الناس من المسجد الحرام والطواف ذلك أن مراكبهم تنتهي من بحر الروم إلى بحر الحجاز ، فتطرح سراياها مما يلي جدة ، فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة . . . فامتنع عن ذلك الخليفة .

وقد أدى عدم حفر القناة إلى أن مدينة طرابيزون على البحر الأسود قد أصبحت الميناء الشرقي الهام . وعندما استعاد الأمبراطور يوحنا تزيمكيس عام ٩٧١ م مدينة أنطاكية تقدمت التجارة من مدينة حلب إلى أنطاكية وإلى مدينة سلوقية في الجنوب الشرقي في آسيا الصغرى . وهذا لا يعني أن كل التجارة البيزنطية قد اتخذت هذا الطريق بل جانباً منها فقط . وظل الطريق الشمالي الآمن في تقدم ملحوظ ، حيث كانت تجارة الفراء والأسماك المجففة ، ومن مدينة القسطنطينية أو مدينة سالونيك تحمل هذه التجارة إلى غرب أوروبا .

وفي إيطاليا كانت مدينة باري عاصمة الأقليم البيزنطي في إيطاليا ، وقد ازدهرت هذه المدينة بفضل اسطولها الخاص وإن كان محلياً ، ولكنه استطاع أن يبعد العناصر اليونانية عن التجارة مع أوروبا شيئاً فشيئاً ، ومعنى ذلك ازدهار بعض المدن الإيطالية الأخرى مثل أمالفي ، ثم أعقب ذلك مدينتا بيزا وجنوة ، وهكذا بلغت التجارة رويداً رويداً ذروتها في القرن العاشر الميلادي .

وأعطت بيزنطة بعض الامتيازات للمدن التجارية الإيطالية في العاصمة

البيزنطية فقد صار لمدينة أمالفي مندوب يقيم في القسسطنطينية فزادت جاليتها ، وانتقلت التجارة من القسطنطينية إلى باري أو المالفي إلى مدينة البندقية التي كانت تعتبر ميناء أوروبا الرئيسي ، وقد ساعدها موقعها على أن تتولى عبء التجارة في شمال أيطاليا وألمانيا . ومن الامتيازات التجارة ما منحه الأمبراطور بازيل الثاني للبنادقة ، فقد سمح لهم بدفع ضريبة مخفضة على بضائعهم التي تصدر من القسطنطينية مقابل حمايتهم لشواطىء البحر الأدرياتيكي ونقل قوات الأمبراطورية إذا لزم الأمر. وتعددت أنواع السلع التي نقلها البنادقة إلى العاصمة البيزنطية ، وكان أهم أنواع هذه السلع هي الأسلحة والخشب والقماش الخشن كما اشتهر سوق البندقية بالرقيق وزاع صيتها في هذا المضمار .

ومع ظهور السلاجقة في العراق وسيطرتهم على الخلافة العباسية ثم تقدهم إلى آسيا عقب معركة مانزكرت عام ١٠٧١ م بدأ اضمحلال التجارة البيزنطية، فلم تعد البضائع تنقل إلى طرابيزون أو عبر آسيا الصغرى لأن السلاجقة سيطروا على هذه المناطق . يضاف إلى ذلك أن مملكة النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية بقيادة روجر الثاني قد أغارت في عام ١١٤٧ م على أملاك الأمبراطورية الغربية واستولت على جزيرة كورفو ومن هذه الجزيرة حملت العمال المهرة في صناعة الحرير ومعهم معداتهم إلى بالرمو في صقلية، وبذلك خسرت الأمبراطورية جانباً كبير من جراء احتكارها لصناعة الحرير منذ عهد الأمبراطور جستنيان .

ومع بداية الحروب الصليبية عام ١٠٩٥ م تغيرت طرق المواصلات في الشرق والغرب على السواء . فبعد أن سيطر الصليبيون على المدن الساحلية الشامية نقلت التجارة رأساً من هذه الموانىء عن طريق السفن الإيطالية إلى غرب أوروبا مباشرة ، ولم يبق للأمبراطورية البيزنطية سوى التجارة الشمالية فقط .

وضاعت التجارة الشمالية من الأمبراطورية البيزنطية عندما توسع آل كومنين في منح الامتيازات التجارية للمدن الإيطالية التجارية ، وذلك مقابل

تقديم هذه المدن العون العسكري للأمبراطورية ضد أعدائها . وقد منحت الأمبراطورية الامتيازات للبنادقة في بداية الأمر ثم إلى جنوه وبيزا . وقد سمحت الأمبراطورية لتجار هذه المدن بدفع الرسوم الجمركية بقيمة لا تتجاوز الأربعة في المائة بعد أن كانت عشرة في المائة . وليس هذا فحسب فقد منحت الأمبراطورية أيضاً مناطق كاملة في العاصمة وبعض المدن الأخرى لهؤلاء التجار الإيطاليين حتى بلغ عدد تجار المدن الإيطالية في المدن البيزنطية حوالي ستين ألفاً في نهاية عهد الأمبراطورية مانويل الأول عام ١١٨٠ م . ولعل ذلك راجع إلى أن زوجة الأمبراطور مانويل كانت لاتينية الأصل وهي أميرة صليبية تدعى ماريا ابنة حاكمة انطاكيه . وقد أدى التوسع في هذه المنح وتفضيل العناصر اللاتيتية في البلاط البيزنطي إلى نتائج سيئة عقب نهاية حكم الأمبراطور مانويل . وعندما تولى الأمبراطور أندرو نيقوس الأول كان كره العناصر البيزنطية للعناصر اللاتينية قد نما ، فأنزل البيزنطيون أعمال الذبح في العناصر اللاتينية خاصة الإيطاليين منهم على نطاق كبير في أنحاء الأمبراطورية . كما ألغى الأمبراطور الامتيازات التي منحت لهم ، وقد نتج عن هذا كله عداء مرير بين الغرب الأوروبي والبيزنطيين ، مما أدى إلى مهاجمة الحملة الصليبية الرابعة للعاصمة البيزنطية وانهيار الأمبراطور عام ١٢٠٤ م حتى عام ١٢٦١ م عندما استعادتها أسرة آل باليولوجوس .

وعندما نجحت أسرة باليولوجوس في استعادة الأمبراطورية لم تستعد كافة أراضيها ، ولم تعد الأمبراطورية كسابق عدها . كما أن أصل جنوه قد ساعدوا آل باليوجوس على استعادة الأمبراطورية وطالبوا بالثمن ، وكانت مكافآتهم هو ما تبقى للتجارة البيزنطية وهي تجارة الشمال حيث البحر الأسود ، وقد جنى أهل جنوة أرباحاً طائلة من هذا الطريق التجاري كرد فعل لرخاء الدولة المغولية في الشرق ، هذا بالإضافة إلى منح جنوة ضاحية بيزا أو جالاتا الواقعة على الضفة الشمالية للقرن الذهبي في مقابل القسطنطينية . والواقع أنه مع بداية حكم آل باليوجوس اضمحلت القسطنطينية وازدهرت ضاحية جالاتا حيث حملت كل أنواع التجارة إلى هذه الضاحية ، في حين بقيت مدينة سالونيكا كسابق عهدها لبعض الوقت .

وحددت الأمبراطورية البيزنطية رسوماً تعادل عشرة في المائة على البضائع المصدرة منها والمستوردة إليها . وحددت مدينة أبيروس في الجنوب لجمع رسوم البضائع الآتية عن طريق بحر إيجه ، ومدينة هيريا Hieria المقابلة لمدينة القسطنطينية على الضفة الآسيوية للبضائع الآتية من البحر الأسود، أما ضريبة البضائع الصادرة فكانت تدفع في القسطنطينية ، ولم يكن بوسع أي سفينة أن تعبر البوسفور أو الدردنيل إلا بعد دفع الضرائب المستحقة عليها . والحقيقة أن مثل هذه الضرائب قد أمدت خزانة الأمبراطورية بثروة هائلة عندما كانت الدول المحيطة بالأمبراطورية في حالة من الرخاء تمكنها من استخدام المواد التي تستوردها من الأمبراطورية ، أو تصدرها إليها . وهناك نقطة يجب أخذها في الاعتبار وهي ضرورة وضع خاتم الدولة على البضائع التي كانت تصدر إلى الخارج .

وفيما يتعلق بالسلع التي صدرتها الأمبراطورية فقد كان معظمها من المصنوعات المحلية ، وهي من أدوات الترف حيث أنتجتها مصانع القسطنطينية خاصة مصانع الحرير الأمبراطوري والديباج الموشى والأقمشة المقصبة التي أثارت بهجة العظماء والأمراء والملوك . يضاف إلى ذلك مشغولات الفضة والذهب والأحجار الكريمة . وفوق ذلك كله ما انتجه الصناع البيزنطيون من أكواب الذهب أو الفضة أو علب المخلفات وحواملها المكسوة بالمينا ، ومنتجات من العاج ، وصنعت الخمور في العديد من مدن الأمبراطورية . ومن الملاحظ أن تصدير مثل هذه السلع كان تحت رقابة مشددة من قبل الأمبراطورية لأنها لم تسمح بشيوع تصدير سلع الترف أكثر مما ينبغي خارج الأمبراطورية حتى تحتفظ بندرتها وارتفاع أثمانها . يضاف إلى ذلك أن الأمبراطورية لم تسمح بإنزال بعض أنواع الأقمشة إلى السوق ، واقتصر تصنيعها على كميات محدودة واقتصر أمرها على إرسالها كهدايا إلى بلاط الدول الأجنبية .

أما أهم الواردات من الشرق إلى الأمبراطورية فقد كان خام الحرير حتى نهاية القرن السادس الميلادي ، هذا بالإضافة إلى الواردات التي تأتي من الهند كالتوابل وغيرها بالإضافة إلى السجاجيد الفارسية . ومن الشمال كانت

الأخشاب والفراء . أما من الغرب فقد كان تجـار البندقيـة يجلبون الأسلحـة والرقيق . وكانت هذه الواردات تخضع للرسوم الجمركية بما يوازي عشرة في المائة في أبيدوس إذا كانت قادمة من الجنوب أو في مدينة هيريا إذا كانت قادمة من الشمال . وكانت الأمبراطورية تلجأ في بعض الأوقات إلى تقديم إعفاءات جمركية على بعض البضائع الواردة مثلما حدث في عهد الأمبراطور قسطنطين السادس وأمه إيرين . وفي أحياناً أخرى لجأت الأمبراطورية إلى فرض خطر تام على الواردات الأجنبية مثلما حدث في عهد يوحنا الثالث فاتاتزيس امبراطور أمبراطورية نيقية في المنفى . وتولى ديوان المالية عن طريق رجال الجمارك التابعين له تحصيل الرسوم الواجبة على البضائع الواردة والصادرة .

وكان ولاة المدن البيزنطية التجارية يتولون الاشراف على التجار والتجارة الأجنبية الواردة ، وكان على التجار الأجانب أن يقدموا أنفسهم إلى مقر والي المدينة عند وصلوهم ، وكان لا يصرح لأي تاجر أجنبي أن يبقى في المدينة أكثر من ثلاثة أشهر ، فإذا فرغ من بيع بضائعه قبل هذه المدة عليه الرحيل ، وإذ لم يتيسر له التصرف في بضائعه فعليه أن يترك ما تبقى منها للوالي الذي يتولى أمر بيعها ثم يحتفظ بقيمتها المالية طـرفه حتى قـدوم التاجـر في العام التالي . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان التجار الأجانب يوضعـون تحت رقابـة مشددة للتأكد أنهم لم يخرقوا قوانين الأمبراطورية .

ورغم الشدة البالغة التي فرضتها الأمبراطورية على صادرتها والبضـائع الواردة إليها فإنها لجأت في بعض الأوقات ولظروف سياسية أو عسكرية إلى منح بعض الإمتيازات ، فقد منحت الأمبراطوريـة روسيا في عـام ٩١١ م ، ٩٤٤ بعض الإمتيازات التجارية لأسباب سياسية ، فقد كان أمير كييف يتولى تنظيم البعثة التجارية المتوجهة إلى القسطنطينية ، وكان ينضم إلى هذه البعثة بعض تجار المناطق المجاورة ليكونوا في حماية القوات الروسية من هجمات قبائل الخزر . وكانت هذه القافلة التجارية تأخذ طريقها جنوباً في نهر الدنيبر ، ولما كانت الشلالات تعترض هذا النهر في أماكن متفرقة فقد كان على التجار أن ينزلوا من سفنهم ومعهم بضائعهم لينقلوها براً حتى يتفادوا مخاصر الشلالات .

ويقدم لنا كتاب إدارة الأمبراطورية وصفاً دقيقاً لهذه الرحلات التجارية وما كانت تلاقيه من مخاطر غارات القبائل القريبة من النهر حتى إذا وصلت السفن إلى مياه البحر الأسود أصبحت في حماية الأمبراطورية البيزنطية بفضل المعاهدة المعقودة بين الروس والأمبراطورية .

ومنحت الأمبراطورية للروس مساكن وإقامة ووجبات مجانية خارج أسوار العاصمة في حي القديس ماماس Mamas ، وكان يسمح للتجار الروس بدخول المدينة من البوابة القريبة من إقامتهم في حدود خمسين فرداً في المرة الواحدة دون سلاحهم ، كما كانت البضائع الروسية لا تخضع للضرائب . وفي مقابل ذلك كله تحالف الروس مع الأمبراطورية لمواجهة أخطار القبائل القاطنة في شمال البحر الأسود خاصة بلغار شبه جزيرة القرم . وكان التجار الروس يجلبون معهم الفراء الروسي والشمع والرقيق ، وكانت هذه البضائع تستبدل بالأقمشة الحريرية والخمور وبعض الفواكه . وعند عودة هذه القافلة الروسية إلى بلادها كانت الأمبراطورية تمدها ببعض الأدوات اللازمة للملاحة مثل الحبال والأشرعة والخطاطيف .

ومن الامتيازات التي قدمتها الأمبراطورية كانت المنح والتسهيلات التجارية التي قدمتها للبندقية ، عندما عقد الأمبراطور بازيل الثاني في عام ٩٩١ م معاهدة تجارية مع البندقية وقد أصبح ذلك دليلاً قوياً على أن البندقية لم تعد مدينة بل دولة تجارية لها شأنها في شمال البحر الأدرياتيكي . وعندما سيطر النورمان على صقلية وجنوب إيطاليا واحتدم الصراع بينها وبين الأمبراطور لجأ الأميراطور الكسيوس الأول في عام ١٠٨٢ م أي بعد توليه بعام واحد إلى عقد معاهدة مع البندقية منح بموجبها التجار البنادقة حرية التجارة في أنحاء الأمبراطورية مع اعفائهم من الرسوم الجمركية مقابل مساعدة البنادقة للأمبراطورية في حروبها مع النورمان . وخاف الأمبراطور يوحنا بن الكسيوس من زيادة النفوذ التجاري للبنادقة فقرر إلغاء هذه الامتيازات ومنح أقل منها لمنافستها جنوة ، ومنح الأمبراطور مانويل امتيازات تجارية لمدينة بيزا Pisa في عام ١١٧٠ ، وهكذا تسابقت المدن الإيطالية التجارية للحصول على الامتيازات التجارية البيزنطية . وقد كسبت البندقية المعركة في النهاية فقد كان

الصراع بين الأمبراطورية البيزنطية والبندقية هو صراع بين الاستقراطية الزراعية في القسطنطينية وبين الاستقراطية التجارية في البندقية حتى انتهى الأمر بالحملة الصليبية الرابعة التي استغلها البنادقة في مهاجمة القسطنطينية وسقوط الأمبراطورية البيزنطية في عام ١٢٠٤ حتى عام ١٢٦١ .

وخضعت التجارة البيزنطية للعديد من النظم والقوانين ، وعملت الدولة على حماية منتجاتها واحتكرت بعضها خاصة صناعة الحرير والأسلحة والخبز ، وألتزم الجميع بمراعاة كافة القواعد والنظم التجارية وقلما خالفها أحد ، وعندما منح الأمبراطور ليو السادس بعض الإمتيازات التجارية لبعض المقـربين له ، أعتبر هذا العمل فضيحة كبرى .

وكان الوالي هو موظف الدولة المسؤول عن الرقابة التي تقوم بها الدولة على الأعمال التجارية والصناعية ، وقد تم ذلك كله عن طريق النقابات ، فقد كان لكل صناعة أو تجارة نقابتها ، ولا يحق للفرد أن يلتحق بنقابتين في وقت واحد ، وتولى أمر النقابة رئيس يختاره أعضاؤها ويوافق عليه الـوالي . وكان العمل الرئيسي للنقابة شراء المواد الخام التي تلزم صناعتها ، ثم تقوم بتوزيع هذه المواد على أعضائها الذين يصنعونها ثم يحدد الوالي سعرها ويتم بيعها في مكان عام محدد لها وبذلك لم يعد لتجار الجملة مكـاناً . وإذ استعـان أحد أعضاء النقابة ببعض العمال في تصنيع المواد الخام فإن ساعات العمل وأجور هذه العمال كانت محددة وواضحة للجميع ولا يجوز الخروج عليها .

وعاقبت النقابات من يخرج على قواعدها ، وكانت هذه العقوبة تصل إلى الطرد من عضوية النقابة ، وربما أضيف إليها بتر أحد أعضاء الجسم إذا كان الجرم كبيرا . وقد تكلف الدولة النقابة بأداء بعض الأشغال العامة إذا لزم الأمر ، فقد كان أصحاب السفن يطالبون بتقديم المساعدة في حالة الكوارث البحرية . وكان فصل العمال من الأمور بالغة التعقيد ، وإذا فصل أحد العمال وكان صحيح الجسم ألزمت الدولة بتشغيله في الأعمال العامة أو الزمت الدولة بصرف إعانة له حتى يعمل ، وبذلك لم تعرف الأمبراطورية البطالة فقد كان مبدأها أن الكسل يورث الجريمة .

الدبلوماسية البيزنطية

لم يكن بالأمبراطورية البيزنطية جهازاً دبلوماسياً بالمعنى المفهوم في العصر الحديث ، فلم يكن هناك سفارات مستديمة الإقامة في الدول الأجنبية شأنها في ذلك شأن جميع الدول الأخرى المعاصرة لها . فقد كانت السفارات تعد بطريقة مركزية في العاصمة أو بطريقة غير مركزية عندما تبدو في الأفق مشكلة يتطلب حلها الإتصال بدولة أخرى ، فإذا ما انتهت السفارة من مهمتها عادت أدراجها مرة أخرى . ومن هنا سميت بالسفارة لتعدد سفراتها .

والحقيقة أنه لا يوجد لدينا إلا قدر ضئيل من المعلومات المتناثرة في المصادر البيزنطية وغيرها نستطيع أن نتلمس منها جانباً عن كيفية تنظيم الجهاز الدبلوماسي البيزنطي . ومن هذه المعلومات نستطيع أن نقول أنه كان بالأمبراطورية البيزنطية رئيساً لوزارة الخارجية ، وهو منصب من أهم المناصب يتولى صاحبه أمر الخيل والبريد والمراسلات المتبادلة بين الأمبراطور وكافة الإدارات داخل الأمبراطورية، وقد يطلق على صاحب هذا المنصب لقب المستشار . ولشدة خطورة متولي هذا المنصب كان عليه مقابلة الأمبراطور يوميا لتصريف شؤون الدولة . وكان من واجبات هذا الرئيس إعداد الترتيبات اللازمة داخل القصر الأمبراطوري وخارجه لاستقبال سفراء الدول الذين قدموا إلى العاصمة ، وكان عليه أيضاً اعداد البعثات الدبلوماسية إذا تطلب الأمر لإرسالها

إلى الدول الأخرى . ورغم هذا كله فقد كان الأمبراطور هو الموجه الرئيسي للسياسة الخارجية .

ومن السفارات التي أعدت مركزياً في العاصمة السفارة التي تولى أمرها المندوب الأمبراطور بولس Pauls ليتولى أمر المعاهدة التي عقدها جستنيان الثاني مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان . ومنها أيضاً السفارة التي أرسلها الأمبراطور بازيل الأول إلى اقليم دالماشيا ، وسبب ذلك أن أهالي دالماشيا أرسلوا مبعوثين دبلوماسيين من طرفهم يرجون الأمبراطور أن يسمح لهم بتعميد من لم يعمد منها ، كما أعلنوا خضوعهم وتبعيتهم للامبراطور كما كانوا من قبل . وقد استجاب الأمبراطور بازيل لطلبهم وأرسل إليهم مبعوثاً إمبراطورياً يرافقه عدد من رجال الدين .

وقد أولت الأمبراطورية إلى عناصر الروس والبجناكيه والأتراك والخزر وغيرها من عناصر السهوب الشمالية أهمية دبلوماسية خاصة ، لذلك أوجدت قاعدة دبلوماسية خاصة في مدينة خرسون .. وكان المندوب الأمبراطوري المكلف بمهمة مع أحد هذه العناصر أن يصل أولاً إلى مدينة خرسون حيث يتخذها قاعدة له ومن هناك يتولى الاتصال بالعناصر التي يراد التعامل معها .

وقد ورد في كتاب إدارة الأمبراطورية للمؤرخ الأمبراطور قسطنطين السابع أهمية عناصر البجناكية للأمبراطورية ، فقد ذكر أن البجناكيه يقطنون بجوار اقليم خرسون ويتبادلون التجارة معه ، ويؤدون خدمات لأهل الإقليم، وللأمبراطورية في المناطق الروسية والخزية وكل المناطق المجاورة . ويوضح المؤلف أنه عندما يذهب المندوب الأمبراظوري في مهمة إلى البجناكيه فيجب عليه أن يصل أولاً إلى مدينة خرسوف ، ومن هناك يرسل إلى البجناكية ويطلب منهم الرهائن ومرافقين لحمايته. أما إذا اتجه المندوب الأمبراطوري من القسطنطينية على سفن حربية ، فلا يتجه إلى مدينة خرسون بل يتجه إليهم مباشرة، ولكنه لا يغادر سفينته بل يبعث إليهم بالرسائل وعندما يأتي مندوبو البنجاكية يقدمون إليه الرهائن ثم يبدأ بتقديم الهدايا ، ثم يعقد معهم الاتفاق على ما يشاء سواء أكان عمل عسكري أم اقتصادي .

أما في الجانب الغربي من الأمبراطورية فقد كان البلقان حيث العناصر البلغارية والصرب والكروات ، وفي أوروبا كانت الأمبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا والملكية في فرنسا ، والباباوية في روما ، ومدن إيطاليا وأخيراً المسلمون في صقلية لبعض الوقت وشمال افريقيا والمسلمون في الأندلس . وقد أولت الأمبراطورية إلى هذا الجانب أهمية خاصة . ففي الأمور البسيطة كان يتولى القائد البيزنطي المحلي معالجة الشؤون التي تطرأ من وقت لآخر ، أما إذا كان الأمر من الأهمية فقد تقوم الأمبراطورية بإعداد البعثات المناسبة للقيامة بالمهام التي توكل إليها .

ومن الواضح أنه كان بالأمبراطورية طبقة خاصة معينة من الموظفين المدربين والمعدين لهذا الغرض هي التي كانت ترسل دائماً كسفراء عند الحاجة ، ومن ذلك السفير ليو Leo الذي أرسل في عدة سفارات إلى البلغار وإلى المسلمين في بغداد . وجرت العادة على إيفاد السفراء نفسهم إلى البلاد التي تولوا مهام رسمية فيها إذا نجحوا في مهتهم ، يضاف إلى ذلك أنه كان من الأفضل إرسال سفراء ممن يجدون لغة الدولة الموفدين إليها . وكان السفراء الذين يفدون إلى البلاد الإسلامية خاصة في الشرق يبحثون أمر الهدنة مع المسلمين أو تبادل الأسرى على الحدود وهو المعروف في المصادر العربية باسم الفداء . ويحدثنا كتاب إدارة الأمبراطورية عن السفير قسطنطين ليبس Lips المشرف على مائدة الأمبراطور الذي تولى أمر عدة سفارات في بلاد القوقاز خاصة مع أمير بلاد طارون .

وكان سفراء الأمبراطورية إلى بلاد أخرى يسافرون في حاشية فاخرة محملة بالهدايا الرائعة فيها من الذهب والجواهر والحلل الموشيه ، كما كانوا يعودون أيضاً محملين بالهدايا المناسبة لهداياهم ، ويتوقف ذلك على نجاح المهمة الموفدين إليها .

وجرت العادة في العاصمة البيزنطية أن تتم إستقبالات سفراء الدول الأجنبية في رسميات جامدة ، وكان يراد من وراء ذلك رفع كرامة الأمبراطور إلى درجة كبيرة . ومن ذلك انه إذا وصل سفير أجنبي إلى العاصمة عومل بكل

أنواع آداب السلوك الرفيعة ، وكانت هناك تعليمات مشددة تقضي بعدم مقابلة السفير القادم لأي شخص غير مسؤول ، فإذا حان موعد استقبال السفير للأمبراطور استقبل بالدور إذا تعدد السفراء حسب ترتيب أهمية دولته لدى الأمبراطورية .

وعرفت الأمبراطورية نظام الدول الأولى بالرعاية في المعنى الحديث . ومن ذلك أن الأمبراطورية عقدت معاهدة مع بطرس البلغاري ٩٢٧ ـ ٩٦٩ في العام الأول من حكمه وبموجب هذه المعاهدة حصل بطرس على لقب قيصر ، مع الاعتراف بالبطريقة التي أقامها البلغار في عاصمتهم ، وثم زواج بطرس من الأميرة ماريا ليكابينا Maria Lecapena حفيدة الأمبراطور رومانوس ليكابينوس . وعلى ذلك فانه منذ عام ٩٢٧ م أصبح سفراء البلغار وهم الذين يمثلون ملكاً مصاهراً للأمبراطور ، يمنحون أسبقية خاصة على جميع السفراء . وقد ظل هذا الإمتياز قائماً حتى قضى الأمبراطور يوحنا تزيميسكيس على استقلال بلغاريا وعزل حاكمها بوريس ٩٧٦ م .

وكان سفراء الدول الأجنبية يوضعون تحت رقابة مشددة ، فلا يجوز لهم أن يعلموا أو يطلعوا على شيء لا ترغب فيه الأمبراطورية . وكان عليهم أيضاً توخي الحذر في كل تصرفاتهم وأحاديثهم واشاراتهم حتى لا يحدث منهم تصرف يستدل منه بعدم احترام نظم الأمبراطورية أو عاداتها أو ديانتها أو تقاليدها .

ولم تعرف الأمبراطورية الحصانة الدبلوماسية ، فإذا خرج أحد السفراء عن العادات المألوفة في الأمبراطورية ، أو كانت أوراق اعتماده مكتوبة بطريقة غير لائقة كان جزاءه السجن ، ومن ذلك أن أوراق مندوب الباب حنا الثالث عشر ٩٦٥ ـ ٩٧٢ م التي قدمت إلى الأمبراطور نقفور فوقاس في عام ٩٦٨ م قد ألقى في السجن لأن أوراق اعتماده كانت تحمل عبارة إمبراطور اليونان وليس أمبراطور الرومان .

والتزمت الأمبراطورية في تنفيذ المعاهدات لدرجة كبيرة ، ولكن علاقاتها بالشعوب في غير ذلك كانت لا تكترث كثيراً بالقيم الأخلاقية ، فقد كان من

القواعد الأساسية في السياسة الخارجية البيزنطية دفع بعض الدول لضرب أعداء بيزنطة ، وقد ظل البيزنطيون يجيدون فن تحريض الدول أو القبائل على بعضها البعض .

والأمثلة عن القبائل متعددة ، نذكر منها : أن الأمبراطور ليو السادس ـ أثناء صراعه مع الملك سيمون البلغاري المسيحي الديانة ـ تحالف مع عناصر الماجيار غير المسيحية لضرب سيمون في عام ٨٩٤ م . كما أن الأمبراطور نقفور فوقاس قد استعان بالعناصر الروسية لضرب البلغار لأنه كان مشغولاً في ذلك الوقت بالصراع مع المسلمين في المشرق . وقد استجاب الروس لطلب نقفور واجتاحوا أراضي بلغاريا .

أما الأمثلة عن استخدام الأمبراطورية للدول لضرب أعوانها فهي كثيرة أيضاً ، نذكر فيها أن المسلمين استولوا على مدينة باري في إيطاليا عام ٨٤٦ م . وحتى تستفيد بيزنطة هذه المدينة التجارية الهامة التي تقع في البحر الأرياتيكي إلى الجنوب أرسل الأمبراطور بازيل الأول إلى لويس الثاني امبراطور ألمانيا يطلب منه المساعدة على استرداد المدينة ، وقد نجحت قوات لويس في الاستيلاء على المدينة عام ٨٧١ م ، وفي نهاية عام ٨٧٦ م فتحت مدينة باري أبوابها أمام الحاكم العسكري البيزنطي فعادت المدينة إلى الأمبراطورية البيزنطية .

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك أيضاً أن الأمبراطورية البيزنطية استعانت بالقوات الصليبية في الحملة الصليبية الأولى لضرب سلاجقة الروم في آسيا الصغرى . وقد استغلت الأمبراطورية الصليبيين أثناء عبورهم آسيا الصغرى في عام ١٠٩٧ م لضرب سلاجقة الروم واستولت عدد من المدن السلجوقية مثل العاصمة نيقيه ومدينة ضرورليوم وغير ذلك من الأراضي حتى تراجعت القوات السلجوقية إلى مدينة قونيه التي أصبحت عاصمة لهم ، وبذلك استعادت الأمبراطورية حوالى نصف أراضي آسيا الصغرى في عام واحد .

ووجدت الأمبراطورية البيزنطية مدخلاً آخر في الدبلوماسية البيزنطية ، فقد لعبت المصاهرة دوراً كبيراً في هذا المضمار . فقد تزوج الأباطرة أنفسهم

من أجنبيات كما زوج الأباطرة البيزنطيون بناتهم أو أميرات بيزنطيات من حكام أجانب . ومما لا شك فيه أن هذا الزواج السياسي كانت له دوافعه وأسبابه . والحقيقة أن فكرة الزواج من أجنبيات أو العكس كانت من الأمور المحرمة في رأي المؤرخ الأمبراطور قسطنطين السابع ، فقد ورد في كتابه إدارة الأمبراطورية في شكل نصائح ابنه ثلاث محرمات ؛ الأولى منح التاج الأمبراطوري أو الملابس الأمبراطورية لغير بيزنطي من الأسرات الحاكمة ، والثانية سر النار الاغريقية ، والثالثة هو زواج الأجانب .

وقد سجل قسطنطين السابع في كتابه حول زواج الأجانب وقال « لكل دولة عادات وتقاليد مختلفة تتميز بها عن غيرها ولها نظام خاص بها ، وعلى الدولة اتباع الأعراف السائدة فيها واحترامها والمحافظة عليها » . واعتبر أيضاً أن الزواج بأجنبيات مخالف لتعاليم الكنيسة ووصاياها ويلحق العار بالأمبراطورية .

وعلى آية حال فقد تمت مصاهرات بيزنطية في جوانب متعددة ، يمكن تقسيمها على النحو التالي ؛ زواج الأباطرة البيزنطين من أجنبيات ، وزواج حكام أجانب من أميرات بيزنطيات ، وزواج بنات من عائلات كبيرة للحكام الأجانب .

ومن الأمثلة على النوع الأول وهو زواج الأباطرة من أجنبيات ، فقد كانت له أسبابه السياسية . ومن ذلك أن الأمبراطور جستنبان الثاني لجأ إلى خان الخزر بعدما خلع عن عرش الأمبراطورية واستعان به لاستعادة عرشه وتزوج من ابنة الخان ودخلت في الديانة المسيحية وحملت اسم ثيودورا . وللغرض السياسي أيضاً فإن ليو الأيسوري تحالف مع الخزر لإمكان دفع العرب عن بلاده وتزوج ابنه قسطنطين الخامس من ابنة خان الخزر في عام ٧٣٣ م . كما تزوج الأمبراطور رومانوس الثاني من ابنة هيوأف بروفنس Hugh of Provense

ومن النوع الأول أيضاً وهو زواج الأباطرة من أجنبيات فالأمثلة على ذلك كثيرة ، فقد نرى الأمبراطور مانويل الأول وقد تزوج مرتين الأولى كانت من برتا اف سالزباخ الألمانية والثانية هي الأميرة الصليبية ماريا أميرة إنطاكية ، كما أن

الأمبراطور الكسيوس الثاني قد تزوج من أجنس التي عرفت باسم أنا Anna وهي ابنة الملك الفرنسي لويس السابع ، ثم أصبح أنا هذه زوجة للأمبراطور اندرونيقوس الأول . وكانت مارجريت الهنغارية هي الزوجة الثانية للأمبراطور إسحاق الثاني انجيلوس .

وبعد سقوط القسطنطينية في عام ١٢٠٤ م وقيام الأمبراطورية في المنفى إزدادت الحاجة إلى مثل هذه الزواج اليساسي ، فنجد الأمبراطور تيودور الأول لاسكارس أمبراطور نيقية ١٢٠٤ - ١٢٢٢ وقد تزوج من ماري اف كورتناري الفرنسية لتكون زوجته الثالثة . كما أن تيودور الثاني لاسكاريس تزوج من هيلينا ابنة آسن الثاني قيصر بلغاريا ١٢١٨ - ١٢٤١ م . وتزوج الأمبراطور يوحنا الثالث دوكاس فاتازس ١٢٢٢ - ١٢٥٤ م من كونستاس ابنة الأمبراطور فريدريك الثاني وعرفت باسم أنا Anna .

وحتى بعد أن استعاد البيزنطيون الأمبراطورية فإن الأمبراطور اندرونيقوس الثاني تزوج من أنا Anna البلغارية . وحذا حذوه خلفه الأمبراطور اندرونقيوس الثالث وتزوج من آن أميرة سافوى .

أما عن زواج الأجانب من أميرات بيزنطيات فالأمثلة عليه عديدة أيضاً ، ومن ذلك زواج الأميرة ماريا ليكابينا من بطرس ملك البلغار ٩٢٧ - ٩٦٩ م مكافأة له على الصلح الذي عقده مع الأمبراطورية بعد الحروب الدامية التي شنها والده سيمون على الأمبراطورية . كما نرى زواج الأميرة ثيوفانو من الأمبراطور الألماني أوتو الثاني في عام ٩٧٢ م . وتزوج فلاديمير أمير كييف الروسي من الأميرة أنا Anna ابنة الأمبراطور رومانوس الثاني . وزوج الأمبراطور مانويل الأول ابنته إلى الأمير الهنغاري بيلا Bela الذي اتخذ اسم الكسيوس . والأكثر من ذلك أن مانويل جعل من بيلا وريثاً لعرشه لكي يؤمن وحده عرش بيزنطة وهنغاريا ، ولكنه أقلع عن هذه الفكرة بعد ما رزق بمولود ذكر . وتزوجت يودكيا ابنة ألكسيوس الثالث من ستيفن ملك الصرب (١١٩٦ - ١٢٢٨) .

ومن الأمثلة على زواج الأميرات البيزنطيات من حكـام أجانب ، زواج الملك الصليبي بلدوين الثالث (١١٤٤ ـ ١١٦٢ م) من الأميرة البيزنطية ثيودورا في عام ١١٥٨ م ، وزواج الملك الصليبي عموري الأول (١١٦٢ ـ ١١٧٣ م) من الأميرة البيزنطية ماريا في عام ١١٦٧ م . وكان للسياسة الصليبية والبيزنطية دوافعها في هذه المرحلة فقد أراد الصليبيون التحالف مع البيزنطين ضد المسلمين في بلاد الشام ومصر ، كما أراد البيزنطيون تغلل نفوذ الأمبراطورية في المنطقة نفسها .

ومن هذه الأمثلة ما حدث بعد سقوط الأمبراطورية عام ١٢٠٤ م . فقد تزوجت الأميرة تامار Thamar ابنة نقفور حاكم ايبروس ١٢٧١ ـ ١٢٩٦ م من فيليب أمير تارنتو Tarento . كما تزوجت الأميرة ثيودوا أخت الأمبراطور اندرونيقوس الثالث ١٣٢٨ ـ ١٣٤١ م من القيصر البلغاري ميخائيل سشمان ١٣٢٣ ـ ١٣٣٠ م . وآخر الأمثلة هي زواج ثيودوا كانتاكوزين ابنة يوحنا السادس ١٣٤٧ ـ ١٣٥٤ م من السلطان العثماني أورخان ١٣٢٦ ـ ١٣٦٢ م .

والمثال الثالث الخاص بزواج بنات من عائلات بيزنطية للحكام والأمراء الأجانب ، فيمكن القول أن الدول التي كانت تقع إلى الشرق من الأمبراطورية خاصة القوقازية أو الأرمينية كانت ترى في الأمبراطورية البيزنطية قمة حضارة العالم في ذاك الوقت ، ولذلك كان التماس الزواج من البيوت البيزنطية يعتبر شرف كبير لهم . وكان المقصود من هذا الزواج بث روح التحضر في الجهات الأخرى . وحول مثل هذا الزواج سجل الأمبراطور قسطنطين السابع في كتابه إدارة الأمبراطورية انه جاء إلى العاصمة البيزنطية بانكراتيوس Bankratios أكبر أبناء أمير طارون الراحل ، وقد مثل بين يدي الأمبراطور فأنعم عليه بلقب الشريف وعينه حاكماً عسكرياً في طارون . كما طلب بانكراتيوس أن يتزوج احدى سليلات البيت الأمبراطوري ، وقد زوجه الأمبراطور من أخت الماجستير ثيوفيلاكت . وبعد زواجه كتب بانكراتيوس وصية قال فيها « إذا انجبت ابناء من هذه السيدة فانهم يرثون الحكم في بلادي » . وبناء على ذلك طلب من الأمبراطور أن يمنحه ضاحية لتكون مقراً

لـزوجته على أن تعـود الضاحيـة إلى الأمبراطـور في حالـة وفـاتهـا ، ووافق الأمبراطور على ذلك ، وسمح له بالعودة إلى بلاده بعد أن حمله بهدايا كثيرة .

ومن الدبلوماسية البيزنطية ما يعرف حالياً باللجوء السياسي ، فقد اهتمت الأمبراطورية البيزنطية بجمع عدد كبير من الثائرين على الحكومات الأجنبية أو المدعين لعروشها . ولم يخل البلاط البيزنطي من مطالبين بتاج دولة أخرى حيث عاشوا في العاصمة البيزنطية وتزوجوا من بيزنطيات . ومن ذلك أن الأمير تورنيكيوس عندما تضـايق من ابناء عمـه أمراء طـارون طلب من الأمبراطـور رومانوس ليكابينوس إرسال أحد رجاله لكي يصحبه إلى العاصمة البيزنطية . وعندما قام توماس الصقلي بثورته ضد الأمبراطور ميخائيل العموري ، وسانده الخليفة المأمون ، رد عليه الأمبراطور ثيوفيلوس بمساندة بابك الخرمي الذي ثار على الخلافة العباسية . كما أن الأمبراطور مانويل استضاف نصرة الـدين أخ نور الدين زنكي لبعض البعض وذلك عندما اختلف نصرة الـدين مع أخيـه . واستضاف الأمبراطور مانويل أيضاً أمراء من آل دانشمند الذين خرجوا عن طاعة السلطان السلجوقي قلج أرسلان .

لقد كانت الدبلوماسية البيزنـطية بـاهظة التكـاليف ، لأن الأمبراطـورية قدمت الكثير من الهبات والهدايا للشعوب العديدة المحيطة بها ، وهي أمور كلفت خزانة الأمبراطورية الكثير من المال . ومن فلسفة الدبلوماسية البيزنطية أيضاً هي دفع الأموال للدول المجاورة حتى لا تجتاح أراضيها وقـد اعتبرت الأمبراطورية هذا المال بمثابة رشوة لأعدائها بينما اعتبر هؤلاء الأعداء أن هذه المبالغ هي جزية مفروضة على الأمبراطورية . ورغم أن الأمبراطورية كان لديها جيشاً كبيراً وأسطولاً قوياً إلا إنها كانت تفضل عدم استخدام قواتها مقابل بعض المال ، ولم تستخدمها إلا عند الضرورة ، ولذلك فضلت الأمبراطورية سياسة الإيقاع بين الدول الأجنبية المحيطة بها وبذلك يكون لديها نـوع من التوازن الذي يمنع غزو أراضيها كلما أمكن . وعلى ذلك تكون الدبلوماسية مزدهرة إذا ما كثرت أموالها والعكس هو الصحيح ، ولم تكن الأمبراطورية ترى فيما يسميه البعض جزية إلا استثماراً حكيماً لنفقات الجيش والأسطول .

مـلاحـق

الخلفاء والحكام

الخلفاء الراشدون

(١١ - ٤٠ هـ / ٦٣٢ - ٦٦١ م)

	هجري	ميلادي
١ - أبو بكر الصديق	١١ - ١٣	٦٣٢ - ٦٣٤
٢ - عمر بن الخطاب	١٣ - ٢٣	٦٣٤ - ٦٤٤
٣ - عثمان بن عفان	٢٣ - ٣٥	٦٤٤ - ٦٥٦
٤ - علي بن ابي طالب	٣٥ - ٤٠	٦٥٦ - ٦٦٠

الأمويون في دمشق

(٤١ — ١٣٢ ﻫ / ٦٦١ — ٧٥٠ م)

	هجري	ميلادي
١ — معاوية الأول ابن أبي سفيان	٤١ — ٦٠	٦٦١ — ٦٨٠
٢ — يزيد الأول ابن معاوية	٦٠ — ٦٤	٦٨٠ — ٦٨٣
٣ — معاوية الثاني ابن يزيد	— ٦٤	٦٨٣ — ٦٨٤
٤ — مروان الأول ابن الحكم	٦٤ — ٦٥	٦٨٤ — ٦٨٥
٥ — عبد الملك بن مروان	٦٥ — ٨٦	٦٨٥ — ٧٠٥
٦ — الوليد الأول ابن عبد الملك	٨٦ — ٩٦	٧٠٥ — ٧١٥
٧ — سليمان بن عبد الملك	٩٦ — ٩٩	٧١٥ — ٧١٧
٨ — عمر بن عبد العزيز	٩٩ — ١٠١	٧١٧ — ٧٢٠
٩ — يزيد الثاني ابن عبد الملك	١٠١ — ١٠٥	٧٢٠ — ٧٢٤
١٠ — هشام بن عبد الملك	١٠٥ — ١٢٥	٧٢٤ — ٧٤٣
١١ — الوليد الثاني ابن يزيد	١٢٥ — ١٢٦	٧٤٣ — ٧٤٤
١٢ — يزيد الثالث ابن الوليد	— ١٢٦	— ٧٤٤
١٣ — ابراهيم بن الوليد	١٢٦ — ١٢٧	— ٧٤٤
١٤ — مروان الثاني ابن محمد	١٢٧ — ١٣٢	٧٤٤ — ٧٥٠

الخلفاء العباسيون في بغداد

(١٣٢ – ٦٥٦ هـ / ٧٥٠ – ١٢٥٨ م)

	هجري	ميلادي
١ - أبو العباس عبد الله السفاح بن محمد	١٣٢ – ١٣٦	٧٥٠ – ٧٥٤
٢ – أبو جعفر عبد الله المنصور بن محمد	١٣٦ – ١٥٨	٧٥٤ - ٧٧٥
٣ – أبو عبدالله محمد المهدي بن المنصور	١٥٨ – ١٦٩	٧٧٥ – ٧٨٥
٤ – أبو محمد موسى الهادي بن المهدي	١٦٩ – ١٧٠	٧٨٥ – ٧٨٦
٥ – أبو جعفر هارون الرشيد بن المهدي	١٧٠ – ١٩٣	٧٨٦ – ٨٠٩
٦ – أبو موسى محمد الأمين بن الرشيد	١٩٣ – ١٩٨	٨٠٩ – ٨١٣
٧ – أبو جعفر عبد الله المأمون بن الرشيد	١٩٨ – ٢١٨	٨١٣ – ٨٣٣
٨ – أبو اسحق محمد المعتصم باللهبن الرشيد	٢١٨ – ٢٢٧	٨٣٣ – ٨٤٢
٩ – أبو جعفر هارون الواثق باللهبن المعتصم	٢٢٧ – ٢٣٢	٨٤٢ – ٨٤٧
١٠ – أبو الفضل جعفر المتوكل على اللهبن المعتصم	٢٣٢ – ٢٤٧	٨٤٧ – ٨٦١
١١ – أبو جعفر محمد المنتصر باللهبن المتوكل	٢٤٧ – ٢٤٨	٨٦١ – ٨٦٢
١٢ – أبو العباس احمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم	٢٤٨ – ٢٥٢	٨٦٢ – ٨٦٦
١٣ – أبو عبد الله محمد المعتز باللهبن المتوكل	٢٥٢ – ٢٥٥	٨٦٦ – ٨٦٩
١٤ – أبو اسحق محمد المهتدي باللهبن الواثق	٢٥٥ – ٢٥٦	٨٦٩ – ٨٧٠
١٥ – أبو العباس أحمد المعتمد على اللهبن المتوكل	٢٥٦ – ٢٧٩	٨٧٠ – ٨٩٢
١٦ – أبو العباس أحمد المعتضد باللهبن الموفق بن المتوكل	٢٧٩ – ٢٨٩	٨٩٢ – ٩٠٢

(تابع) الخلفاء العباسيون

	هجري	ميلادي
١٧ – أبو محمد علي المكتفي بالله بن المعتضد	٢٨٩ – ٢٩٥	٩٠٢ – ٩٠٨
١٨ – أبو الفضل جعفر المقتدر بالله بن المعتضد	٢٩٥ – ٣٢٠	٩٠٨ – ٩٣٢
١٩ – أبو منصور محمد القاهر بالله بن المعتضد	٣٢٠ – ٣٢٢	٩٣٢ – ٩٣٤
٢٠ – أبو العباس أحمد الراضي بالله بن المقتدر	٣٢٢ – ٣٢٩	٩٣٤ – ٩٤٠
٢١ – أبو اسحق ابراهيم المتقي لله بن المقتدر	٣٢٩ – ٣٣٣	٩٤٠ – ٩٤٤
٢٢ – أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله ابن المكتفي	٣٣٣ – ٣٣٤	٩٤٤ – ٩٤٦
٢٣ – أبو القاسم الفضل المطيع لله بن المقتدر	٣٣٤ – ٣٦٣	٩٤٦ – ٩٧٤
٢٤ – أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المطيع	٣٦٣ – ٣٨١	٩٧٤ – ٩٩١
٢٥ – أبو العباس أحمد القادر بالله بن اسحق بن المقتدر	٣٨١ – ٤٢٢	٩٩١ – ١٠٣١
٢٦ – أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله ابن القادر	٤٢٢ – ٤٦٧	١٠٣١ – ١٠٧٥
٢٧ – أبو القاسم عبد الله عدة الدين المقتدي بأمر الله	٤٦٧ – ٤٨٧	١٠٧٥ – ١٠٩٤
٢٨ – أبو العباس أحمد المستظهر بالله ابن المقتدي	٤٨٧ – ٥١٢	١٠٩٤ – ١١١٨
٢٩ – أبو منصور الفضل المسترشد بالله ابن المستظهر	٥١٢ – ٥٢٩	١١١٨ – ١١٣٥
٣٠ – أبو جعفر المنصور الراشد بن المسترشد	٥٢٩ – ٥٣٠	١١٣٥ – ١١٣٦

(تابع) الخلفاء العباسيون

	هجري	ميلادي
٣١ — أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله بن المستظهر	٥٣٠ — ٥٥٥	١١٣٦ — ١١٦٠
٣٢ — أبو المظفر يوسف المستنجد بالله ابن المقتفى	٥٥٥ — ٥٦٦	١١٦٠ — ١١٧٠
٣٣ — أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله بن المستنجد	٥٦٦ — ٥٧٥	١١٧٠ — ١١٨٠
٣٤ — أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء	٥٧٥ — ٦٢٢	١١٨٠ — ١٢٢٥
٣٥ — أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله ابن الناصر	٦٢٢ — ٦٢٣	١٢٢٥ — ١٢٢٦
٣٦ — أبو جعفر المنصور المستنصر بالله ابن الظاهر	٦٢٣ — ٦٤٠	١٢٢٦ — ١٢٤٢
٣٧ — أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله ابن المستنصر	٦٤٠ — ٦٥٦	١٢٤٢ — ١٢٥٨
	قتله هولاكو ١٤ صفر ٦٥٦ هـ	

الحمدانيون في حلب

٣٣٣ — ٣٩٤ هـ — ٩٤٤ — ١٠٠٣

	هجري	ميلادي
١ — أبو الحسن علي ، سيف الدولة الحمداني	٣٣٣ — ٣٥٦	٩٤٤ — ٩٦٧
٢ — سعد الدولة ، أبو المعلي شريف الحمداني	٣٥٦ — ٣٨١	٩٦٧ — ٩٩١
٣ — سعيد الدولة أبو الفضائل سعيد الحمداني	٣٨١ — ٣٩٢	٩٩١ — ١٠٠١
٤ — أبو الحسن علي أبو المعالي شريف الثاني	٣٩٢ — ٣٩٤	١٠٠١—١٠٠٣

٥ - الأكاسرة الساسانيون

٢٢٦ - ٦٥١ م

Ardshir I	٢٢٦ - ٢٤١ م	أردشير الأول
Shapur I	٢٤١ - ٢٧٢	شابور الأول
Harmizd I	٢٧٢ - ٢٧٣	هورمزد الأول
Bahram I	٢٧٣ - ٢٧٦	بهرام الأول
Bahram II	٢٧٦ - ٢٩٣	بهرام الثاني
Bahram III	٢٩٣	بهرام الثالث
Narssai	٢٩٢ - ٣٠٣	نرسه
Hormizd II	٣٠٣ - ٣١٠	هورمزد الثاني
Shapur II	٣١٠ - ٣٧٩	شابور الثاني ذو الأكتاف
Ardashir II	٣٧٩ - ٣٨٣	أردشير الثاني
Shapur III	٣٨٣ - ٣٨٨	شابور الثالث
Bahram IV	٣٨٨ - ٣٩٩	بهرام الرابع
Yazdigird I	٣٩٩ - ٤٢٠	يزدجرد الأول
Bahram V Ghar	٤٢٠ - ٤٣٨	بهرام الخامس جار
Yazdigird II	٤٣٨ - ٤٥٧	يزدجر الثاني
Harmizd III	٤٥٧ - ٤٥٩	هورمزد الثالث
Firuz	٤٥٩ - ٤٨٤	فيروز
Balash	٤٨٤ - ٤٨٨	بلاش
Kawadh	٤٨٨ - ٥٣١	قباذ الأول

كسرى الأول أنوشروان	٥٣١ - ٥٧٩ م	Kdusraw I
هورمزد الرابع	٥٧٩ - ٥٩٠	Harmizd IV
كسرى الثاني	٥٩٠ - ٦٢٨	Khusraw II
قباذ الثاني	٦٢٨	Kawadh II
أردشير الثالث وهورمزد الخامس	٦٢٨ - ٦٣٢	Ardashir III-Harmizd V
يزدجرد الثالث	٦٣٢ - ٦٥١	Vazdigird III

ثبـــت

للأباطرة البيزنطيين

اسرة قسطنطين

	ميلاديـة
قسطنطين الأول (الكبير)	٣٠٦ — ٣٣٧
قسطنطين الثاني	٣٣٧ — ٣٦١
جوليان (يوليان)	٣٦١ — ٣٦٣
جوفيـــان	٣٦٣ — ٣٦٤
فالـــنز	٣٦٤ — ٣٧٨

اسرة ثيودوسيوس

ثيودوسيوس الأول (الكبير)	٣٧٩ — ٣٩٥
أركاديوس	٣٩٥ — ٤٠٨
ثيو(وسيوس الثاني	٤٠٨ — ٤٥٠
مارسيـــان	٤٥٠ — ٤٥٧
ليو الأول	٤٥٧ — ٤٧٤
زينـــو	٤٧٤ — ٣٩١
أناستاس	٤٩١ — ٥١٨

(تابع) الاباطرة البيزنطيون

اسرة جستنيان

	ميلادية
جستن الأول	٥١٨ — ٥٢٧
جستنيان الأول	٥٢٧ — ٥٦٥
جستن الثاني	٥٦٥ — ٥٧٨
طيبريوس الأول	٥٧٨ — ٥٨٢
موريس	٥٨٢ — ٦٠٢
فوقاس (مغتصب)	٦٠٢ — ٦١٠

اسرة هرقل

هرقـــل	٦١٠ — ٦٤١
قسطنطين الثالث	٦٤١ — ٦٤٢
قنسطانز الثاني	٦٤٢ — ٦٦٨
قسطنطين الرابع (بوجوناتوس)	٦٦٨ — ٦٨٥
جستنيان الثاني	٦٨٥ — ٦٩٥
ليونتيوس (مغتصب)	٦٩٥ — ٦٩٨
طيبريوس الثاني	٦٩٨ — ٧٠٥
جستنيان الثاني (عودته)	٧٠٥ — ٧١١
فيليبكوس	٧١١ — ٧١٣
أناستاس الثاني	٧١٣ — ٧١٦
ثيودوسيوس الثالث	٧١٦ — ٧١٧

الأسرة الايسورية

ليو الثالث	٧١٧ — ٧٤١
قسطنطين الخامس	٧٤١ — ٧٧٥

	ميلادية
ليو الرابع	٧٧٥ — ٧٨٠
قسطنطين السادس	٧٨٠ — ٧٩٧
أيرين	٧٩٧ — ٨٠٢

خلفاء الأيسوريين

نقفور الأول (مغتصب)	٨٠٢ — ٨١١
ستوراكيوس	٨١١
ميخائيل الأول	٨١١ — ٨١٣
ليو الخامس الأرميني	٨١٣ — ٨٢٠

الأسرة العمورية

ميخائيل الثاني	٨٢٠ — ٨٢٩
ثيوفيلوس	٨٢٩ — ٨٤٢
ميخائيل الثالث (السكير)	٨٤٢ — ٨٦٧

الأسرة المقدونية

باسيل الأول	٨٦٧ — ٨٨٦
ليو السادس (الحكيم)	٨٨٦ — ٩١٢
الكسندر	٩١٢ — ٩١٣
قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس (اشترك معه روماثوس الأول ليكابينوس المغتصب من ٩١٩ — ٩٤٤)	٩١٣ — ٩٥٩
رومانوس الثاني	٩٥٩ — ٩٦٢
تقفور فوقاس	٩٦٣ — ٩٦٩

(تابع) الاباطرة البيزنطيون

	ميلاديـة
يوحنا الأول تزيمسكس	٩٦٩ — ٩٧٦
باسيل الثاني (سفاح البلغار)	٩٧٦ — ١٠٢٥
قسطنطين الثامن	١٠٢٥ — ١٠٢٨
زوى	١٠٢٨ — ١٠٥٠
اشترك معها في الحكم أزواجها وهم :	
رومانوس الثالث (أرجيروس)	١٠٢٨ — ١٠٣٤
ميخائيل الرابع (البلافلاجوني)	١٠٣٤ — ١٠٤١
ميخائيل الخامس (قلفات)	١٠٤١ — ١٠٤٢
قسطنطين التاسع مونوماخوس	١٠٤٢ — ١٠٥٤
ثيودورا	١٠٥٤ — ١٠٥٦
ميخائيل السادس (ستراتيوتيكوس)	١٠٥٦ — ١٠٥٧

اسرة دوكاس وآل كومنين

إسحق الأول كومنين	١٠٥٧ — ١٠٥٩
قسطنطين العاشر (دوكاس)	١٠٥٩ — ١٠٦٧
رومانوس الرابع (ديوجينس)	١٠٦٧ — ١٠٧١
ميخائيل السابع (دوكاس)	١٠٧١ — ١٠٧٨
نقفور الثالث (بوتانياتس) (مغتصب)	١٠٧٨ — ١٠٨١
الكسيوس الأول (كومنين)	١٠٨١ — ١١١٨
يوحنا الثاني (كومنين)	١١١٨ — ١١٤٣
مانويل الأول (كومنين)	١١٤٣ — ١١٨٠
الكسيوس الثاني (كومنين)	١١٨٠ — ١١٨٣
اندرونيقوس الأول (كومنين)	١١٨٣ — ١١٨٥

(تابع) الاباطرة البيزنطيون

اسرة انجيلي

	ميلاديـــة
اسحق الثاني	١١٨٥ — ١١٩٥
الكسيوس الثالث	١١٩٥ — ١٢٠٣
اسحق الثاني (عودته واشتراكه مع ابنه الكسيوس الرابع)	١٢٠٣ — ١٢٠٤
الكسيوس الرابع (مورتزفلوس)	١٢٠٤

الأباطرة اللاتين في القسطنطينية

بولدوين أمير الفلاندر	١٠٢٤ — ١٢٠٥
هنري أمير الفلاندر	١٠٢٦ — ١٢١٦
بطرس كورتناي	١٢١٧
يولند	١٢١٧ — ١٢١٩
روبرت الثاني (كورتناي)	١٢٢١ — ١٢٢٨
بولدوين الثاني	١٢٢٨ — ١٢٦١

(تحت وصاية يوحنا دى بيرين ١٢٢٩ — ١٢٣٧ ، ممارسة بولدوين للسلطة بمفرده ١٢٤٠ — ١٢٦١) .

اباطرة نيقية البيزنطيون

ثيودور الأول لاسكاريس	١٠٢٤ — ١٢٢٢
يوحنا الثالث فاتاتزيس	١٢٢٢ — ١٢٥٣
ثيودور الثاني لاسكاريس	١٢٥٤ — ١٢٥٨
يوحنا الرابع لاسكاريس	١٢٥٨ — ١٢٥٩
ميخائيل الثامن باليولوج (مغتصب)	١٢٥٩ — ١٢٦١

(تابع) الاباطرة البيزنطيون

اسرة آل باليولوج

	ميلادية
ميخائيل الثامن	١٢٦١ — ١٢٨٢
أندرونيقوس الثاني	١٢٨٢ — ١٣٢٨
(بالاشتراك مع ابنه ميخائيل التاسع ١٢٩٥ — ١٣٢٠)	
أندرونيقوس الثالث	١٣٢٨ — ١٣٤١
يوحنا الخامس	١٣٤١ — ١٣٧٦
يوحنا السادس كانتاكوزين (مغتصب)	١٣٤١ — ١٣٥٥
أندرونيقوس الرابع (ابن يوحنا الخامس)	١٣٧٦ — ١٣٧٩
يوحنا الخامس (عودته)	١٣٧٩ — ١٣٩١
يوحنا السابع (ابن اندرونيقوس الرابع ، مغتصب)	١٣٩١
مانويل الثاني	١٣٩١ — ١٤٢٥
يوحنا الثامن	١٤٢٥ — ١٤٤٨
قسطنطين الحادي عشر	١٤٤٨ — ١٤٥٣

حكام مسترا البيزنطيين

مانويل كانتاكوزين	١٣٤٨ — ١٣٨٠
ماثيو كانتاكوزين	١٣٨٠ - ١٣٨٣
ثيودور الأول باليولوج	١٣٨٣ — ١٤٠٧
ثيودور الثاني	١٤٠٧ — ١٤٤٣
قسطنطين دراجاسيس	١٤٢٨ — ١٤٤٨
توماس	١٤٣٢ — ١٤٦٠
ديمتريوس	١٤٤٩ — ١٤٦٠

المصادر والمراجع الأجنبية

- **Anna Comnena**: The Alexiad. Penguin. 1969.
- **Bach, E.**: "Les Lois agraires byzantines du Xe siècle". Classica et Mediaevalia. V (1942).
- **Barker**: Social and Political Thought in Byzantium. Oxford. 1957.
- **Baynes, N.H.**: The Byzantine Empire. London 1926.

  Byzantini Studies. London 1955.

  Constantine the Great and the Christian Church. (Proceedings of the British Aacdemy XV). London 1929.
- **Baynes and Moss** (Ed.): Byzantium .Oxford 1948.
- **Becker, C.**: "The Expansion of the Saracens. The East; The Cambridge Medieval History II (1913).
- **Blake, R.P.**: Note sur l'activité littéraire de Nicephore le patriarch de Constantinople". Byzantion XIV (1939).
- **Bon. A.**: Le Péloponèse byzantin jusqu'en 1204. Paris 1951.
- **Brâtinau, G.I.**: Etudes byzantines d'histoire économique et sociale. Paris 1938.
- **Bréhier, L.**: l'Eglise et L'Orient au moyen âge. Les Croisades. Paris 1928.

  The Greek Church. The Cambridge Medieval History IV.

  La Querelle des images VIII-IXe siècles. Paris 1904.

  La Schisme orientale du XIe siècle. Paris 1899.

  Le monde byzantine 3 vols. Paris 1947.1950.

  L'Origine des titres impériaux à Byzance. Byzantinische Zeitschcrift 15 (1906).

Attempts at Reunion of the Greek and Latin Churches. The Cambridge Medieval History Vol. IV.

"La Transformation de L'empire byzantine sous les Heraclides" Journal des Savants N.S. XV (1917).

Brooks, E.W.: "the Emperor Zenon and the Isaurians" The English Historical Review (1893).

"Arabic Lists of the Byzantine Themes". Journal of Hellenic Studies XXI (1901).

"The Brothers of the Emperor Constantine IV". The English Historical Review 30 (1915).

"The Campaign of 716-718 from Arabic Sources". Journal of Hellenic Studies XIX (1899).

"The Arab Occupation of Crete". The English Historical Review XXVIII (1913).

"Byzantines and Arabs in the Time of the Early Abbasids". English Historical Review XV (1900).

Who was Constantine Pogonatus? Byzantinische Zeitschrift XVII (1908).

Bury, J. B.: A History of the Eastern Roman Empire. London 1912.

The Imperial Administrative System in the Ninth Century. London 1911.

"The Notitia Dignitatum". Journal of the Roman Studies X (1920).

Roman Emperors from Basil II to Isaac Komnénos". The English Historical Review IV (1889).

Selected Essays. ed. Temperley. Cambridge 1930

"The Treatise De Administrando Imperio" Byzantinische Zeitschorift XV (1906)

History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene. 2 vols. London 1899.

Cahen, C.: La Syrie du Nord a l'époque des Croisades Paris.

1940.
La première pénétration turque en Asie Mineure. Myzantion XVIII (1948).
La Campagne de Mantzikert d'après les sources musulmanes. Byzantion IX (1934).
– **Canard, M.**: Histoire de la Dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie. T.I. Paris. 1953.
— "Les Expeditions des Arabes contre Constantinople Journal Asiatique CCVIII (1926).
— **Chabot, J.**: Chronique de Michel Le Syrien. Paris 1899-1910.
— **Chalandon, F.**: Les Comnénes.: Etude sur l'empire byzantin au XIe et au XIIe siècles. 2 vols. Paris 1900-1912.
— **Charanis, P.**: Church and State in the Later Roman Empire. Madison, Wisçonsin 1930.
The Slavic Element in Byzantine Asia Minor. Byzantion 18 (1948).
On the Social Structure of the Later Roman Empire. Byzantion XVII (1944-1945).
Economic Factores in the Decline of the Byzantine Empire Journal of Economic History XIII (1953).
— **Chronicle of John,** bishop of Nikiou. Trans. from the Ethiopian by Zotenberg. Paris 18883. English Translation by Charles. London 1916.
Cinnamos, John.: Historia. in C5HB. 1836.
— **Coleman, C. B.**: Constantine the Great and Christinity New York 1914.
— **Collinet, P.**: "Byzantine Legislation from the Death of Justinian (565) to 1453" Cambridge Medieval History IV. Etudes historiques sur le droit de Justinien .Vol. I Paris 1912.
— **Constantinus Porphyrogenitus:** De Administrando Imperio. Ed. Moravscic, and trans. by Jenkins. Budapest 1949.
— **Cross, D.H.**: The Russian Primary Chronicle. Cambridge 1930.

— **Diehl, Charles.:** L'Afrique Byzantine. Paris 1896.
Etudes Byzantines, Paris 1905.
Figures byzantines 2e sèrie. Paris. 1906-1908.
Justinien et la civilisation byzantine au VIe siècle-Paris 1901.
Leo III and the Isaurian Dynasty. Cambridge Medieval History IV.
"L'Origine du régime des thèmes dans l'empire byzantin: Etudes Byzantines. Paris 1905.
Manuel d'art byzantin Paris 1910.
et Marçais: Le monde oriental de 395 a 1081, Paris 1936.
"Le Senat et le peuple byzantin aux VII et VIII siècles. Byzantion I (1954).
Histoire de L'Empire Byzantin. Paris 1930.
Etude sur l'administration byzantine dans L'Exarchat de Ravenne. Paris 1907.
— **Dvornik, F.:** The Making of Central and Eastern Europe-London 1949.
The Photian Schism. Cambridge 1948.
Les Slaves, Byzance et Rome au IXe siècle. Paris 1926.
— **Every. G.:** The Byzantine Patriarchate. (451-1904). London 1948.
— **Finlay. G.:** History of Greece. VII Vols. Oxford 1877.
— **Gibbon:** The History of the Decline and the Fall of the Roman Empire.
— **Goubert:** Byzance avant L'Islam. Paris 1954.
— **Gregoire, H.:** Le peuple de Constantinople ou les Bleus et les Vèrts. Comptes rendus de l'Academia des Inscriptions et Belles Lettres 1946.
Un Edict de L'Empereur Justinien II daté de Septembre 688. Byzantion 17 (1944, 1945).
— **Grousset, R.:** Histoire de l'Arménie. Paris 1947.
— **Ggwatkin, H. M.:** Studies on Arianism. Cambridge 1900.

— **Heyd, W.**:Histoire du commerce du Levant au moyen age 2 vols. Leipzig 1885. Reprint 1923.
— **Higgins, M.J.**:The Persian War of the Emperor Maurice I. Washington 1939.
— **Hill, G.H.**:A History of Cyprus. 3 vols Cambridge 1948.
— **Holmes. W.G.**: The Age of Justinian and Theodora 2 vols London 1912.
— **Hussey, J.**:"Michael Psellus". Speculum X(1935).
"The Byzantine Empire in the Eleventh Century. Different interpretations" Transactions of the Royal Historical Society ser. 4, XXXII (1950).
Church and Larning in the Byzantine Empire. 867-1185. London 1937.
— **John of Ephesus:** Ecciesiastical History .Tr. Payn-Smith. Oxford 1860.
— **Justinian:** Corpus juris civilis. Institutiones. Trans. Abdy and Walker, Cambridge 1876.
— **Kadlec, C.**: The Empire and its Northern Neighbours. The Cambridge Medieval History IV.
— **Kantarowiez, E.**:"Feudalism in Byzantine Empire". Feudalism in History Ed. Coulborn- Princeton 1956.
— **Laurent, J.**: L'Armenie entre Byzance et L'Islam depuis la conquête arabe jusqu'en 886. Paris 1919.
"Byzance et l'Origine du Sultanat de Roum". Mélanges Charles Diehl. Etudes sur l'histoire et l'art de Byzance. Paris 1930.
— **Leib, Bernard.**:Rome, Kiev et Byzance à la fin du XIe siècle, Paris 1924.
— **Lewis, A.R.**: Naval Power and Trade in the Mediterranean A.D., 500-1100. Princetion 1954.
— **Loewe, H.M.**:"The Seljuks". The Cambridge Medieval History IV.
— **Lombard, A.**: Etudes d'histoire byzantine. Constantine V.,

empereur des Romains (740-775). Paris 1902.
— **Lapez, R.S.**: "Byzantine Law in the Eleventh Century and its reception by the Germans and the Arabs, Byzantion XVI (1944).
"Le probleme des relations Anglo-byzantines du septième au dixième siècle". BYZANTION XVIII (1948).
"Silk Industry in the Byzantine Empire". Speculum XX (1945).
— **Maurice, J.**: Constantin le Grand. L'Origine de la civilisation chrétienne. Paris 1925.
— **Nicolas Mysticus**: Epistulae Ed.Migne (Patrologia Graeca CXI). Paris 1863.
— **Oman,C.**: A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 vols London 1924.
— The Byzantine Empire.
— **Ostrogorosky, G.**: History of the Byzantine State. Trans. Joan Hussey. Oxford 1956.
: Pour l'Histoire de la Féodalité Byzantine. Brussels. 1954.
Agrarian Conditions in the Byzantine Empire in the Middle Ages. Cambridg Economic History Vol I (1941).
Les débuts de la querelle des Images. Melanges Charles Diehl.
— **Procopius**: De bello vandalico. English Translation by: Dewing.
- **Psellus, Michael**: Chronographia. Trans Sewter, London 1953.
- **Rambaud, A.**: L'Empire grec au dixième siècle. Constantin Porphyrogenète. Paris 1870.
Etudes sur l'histoire byzantine. Paris 1912.
- **Runciman S.**: Byzantine Civilisation. London 1933.
The Emperor Romanus Lecapenus and His Reign. Cambridge 1929.
A History of the First Bulgarian Empire. London 1930.
Byzantium and the Slavs. (Byzantium. ed. Baynes. Oxford. 1948.
The Eastern Schism. Oxford 1956.

— **Schlumberger, G.**: Un Empereur byzantin au dixième siècle. Nicephore Phocas. Paris 1890.

— L'Epopée byzantine à la fin du dixième siècle. 3 vols. Paris 1896-1905.

— **Setton, K.M.**: The Bulgars in the Balkans and hte Occupation of Corinth in the Seventh Century. Speculum 25 (1950).

— **Shepard, A.M.**: The Bzantine Reconquest of Crete A.D. 966. Annapolis 1944.

— **Theophanes**: Chronographia ed. Boor. 2 vols. Leipzig. 1883-1885.

— **Vasiliev, A.**: The Byzantine Empire. Madison 1952.

Byzantium and the Arabs. Trans into French.

"An Edict of the Emperor Justinian II. September 688" Speculum XVIII (1943).

"The Second Russian Attack on Constantinople. in 860-61 Cambridge. Magg 1946.

— **Vogt, A.**: Basile 1er empereur de Byzance (867-886) et la civilisation byzantine à la fin du IXe siècle. Paris 1908.

— **William of Tyre**, A History of Deeds Done Beyond The Sea. New York. 1943.

— **Wolff, R.L.**:"The Second Bulgarian Empire". Speculum XXIV (1949).

المصادر العربية

ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٤ م) أبو الحسن علي بن أبي الكرم الملقب عز الدين :

- الكامل في التاريخ - ١٣ جـ - بيروت، ١٩٦٥ - ١٩٦٧ م.
- التاريخ الباهر.

ابن إياس (ت ٩٣٠ هـ/ ١٥٣٣ م) أبو البركات محمد بن أحمد :

كتاب تاريخ مصر، المعروف ببدائع الزهور في وقائع الدهور ٤ جـ - الطبعة الأولى - القاهرة، ١٣١١ - ١٣١٤ هـ.

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد :

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - ٧ جـ - القاهرة ١٢٨٤ هـ.

ابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م) أبو يعلي حمزة بن أسد ابن علي بن محمد :

تاريخ أبو يعلي بن القلانسي، المعروف بذيل تاريخ دمشق - بيروت ١٩٠٨.

أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن إسماعيل ابن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين :

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ٢ جـ - القاهرة ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ.

أبو الفرج الملطي (ت ٦٨٥ ـ ١٢٨٦ م) غريغوريوس أبو الفرج ابن سرون :
تاريخ مختصر الدول ـ بيروت ١٨٩٠ م.
أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ ١٤ جـ دار الكتب المصرية ١٣٨٣ ـ ١٣٩١ هـ/ ١٩٦٣ ـ ١٩٧١ م.
سعيد بن البطريق : (ت ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م)
التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ـ بيروت ١٩٠٩ م.
الطبري (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م) محمد بن جديد :
تاريخ الرسل والملوك ـ ١٠ جـ ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩.
المقريزي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م) تقي الدين أبو العباس أحمد :
٤ حـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ دار الكتب المصرية ١٩٥٦ - ١٩٧٢ م.

مصادر أجنبية معربة

قسطنطين بورفيرو جنيتوس:

إدارة الأمبراطورية البيزنطية ـ عرض وتحليل وتعليق الدكتور محمود سعيد عمران ـ بيروت ـ دار النهضة ـ ١٩٨٠ .

كلاري (روبرت):

سقوط القسطنطينية ـ ترجمة الدكتور حسن حبش ـ القاهرة ١٩٦٤ .

المراجع العربية والمعربة

إبراهيم أحمد العدوي (دكتور):

- الأمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية - القاهرة ١٩٥١ .
- الأمويون والبيزنطيون - القاهرة ١٩٦٣ .

أسد رستم:

الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب - ٢ جـ - بيروت - دار الكشوف ١٩٥٥ .

السيد الباز العريني (دكتور):

الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١م) القاهرة ١٩٦٠ .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور):

العرب والروم واللاتين في الحملة الصليبية الأولى - دار المعارف بمصر - طبعة ثانية ١٩٦٧ .

رانسمان (ستيفن)

الحضارة البيزنطية - ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة زكي علي - القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١ .

عبد القادر أحمد اليوسف:

الامبراطورية البيزنطية - بيروت ١٩٦٦ .

عمر كمال توفيق (دكتور):

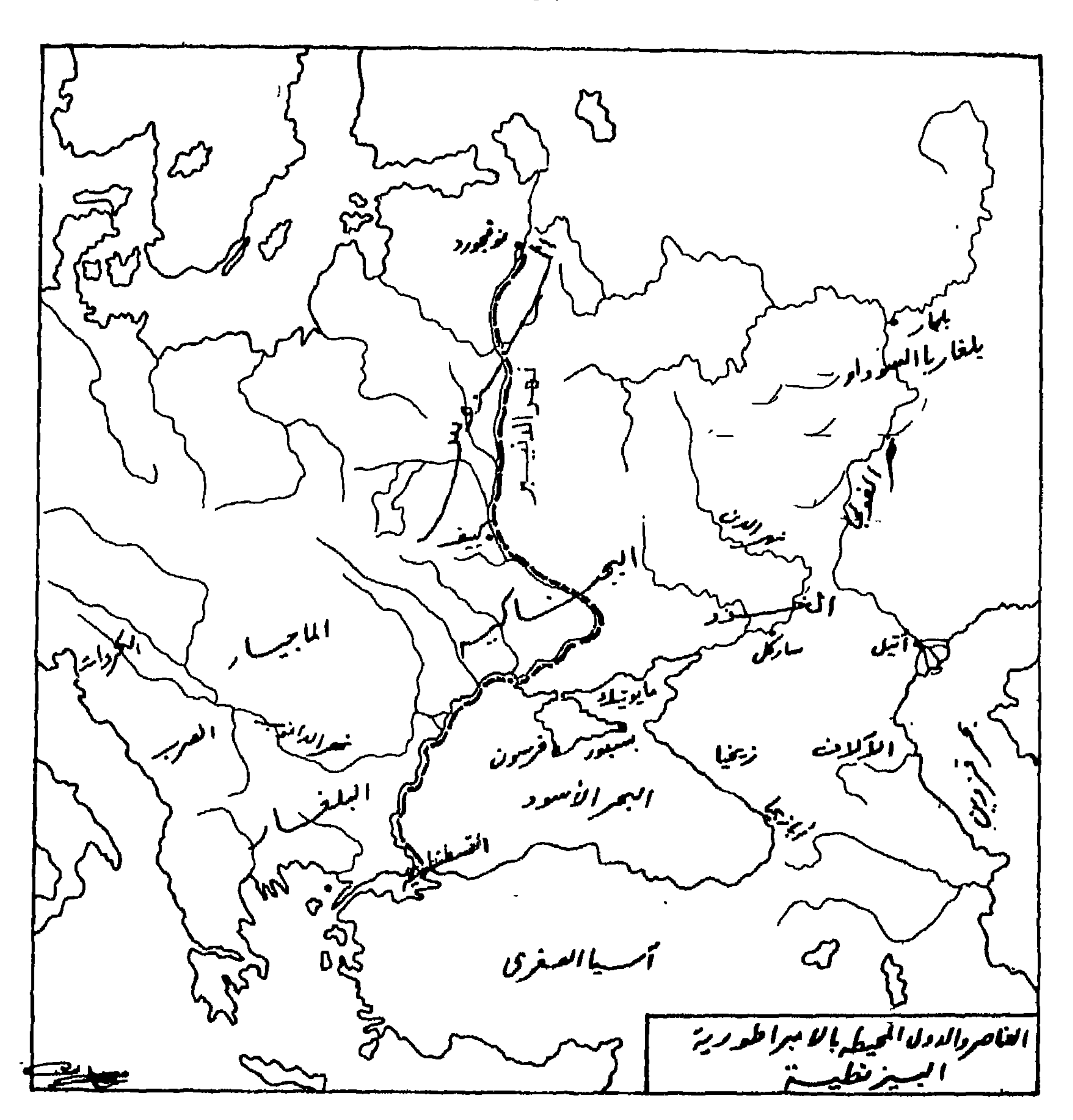
- الامــبراطور نقفور فوكــاس واسترجــاع الأراضي المقــدسة -

الاسكندرية ١٩٥٩ .
- مقدمات العدوان الصليبي : الأمبراطور يوحنا تزيمكس وسياسته الشرقية - الاسكندرية ١٩٦٦ .
- تاريخ الدولة البيزنطية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الاسكندرية ١٩٧٧ .

محمود سعيد عمران (دكتور) :
نيقولا مستيقوس وعلاقة الامبراطورية البيزنطية بالقوى الإسلامية من خلال مراسلاته - بيروت دار النهضة ١٩٨٠ .

نبيه عاقل (دكتور) :
الأمبراطورية البيزنطية (دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري - دمشق ١٩٦٩ .

(١)



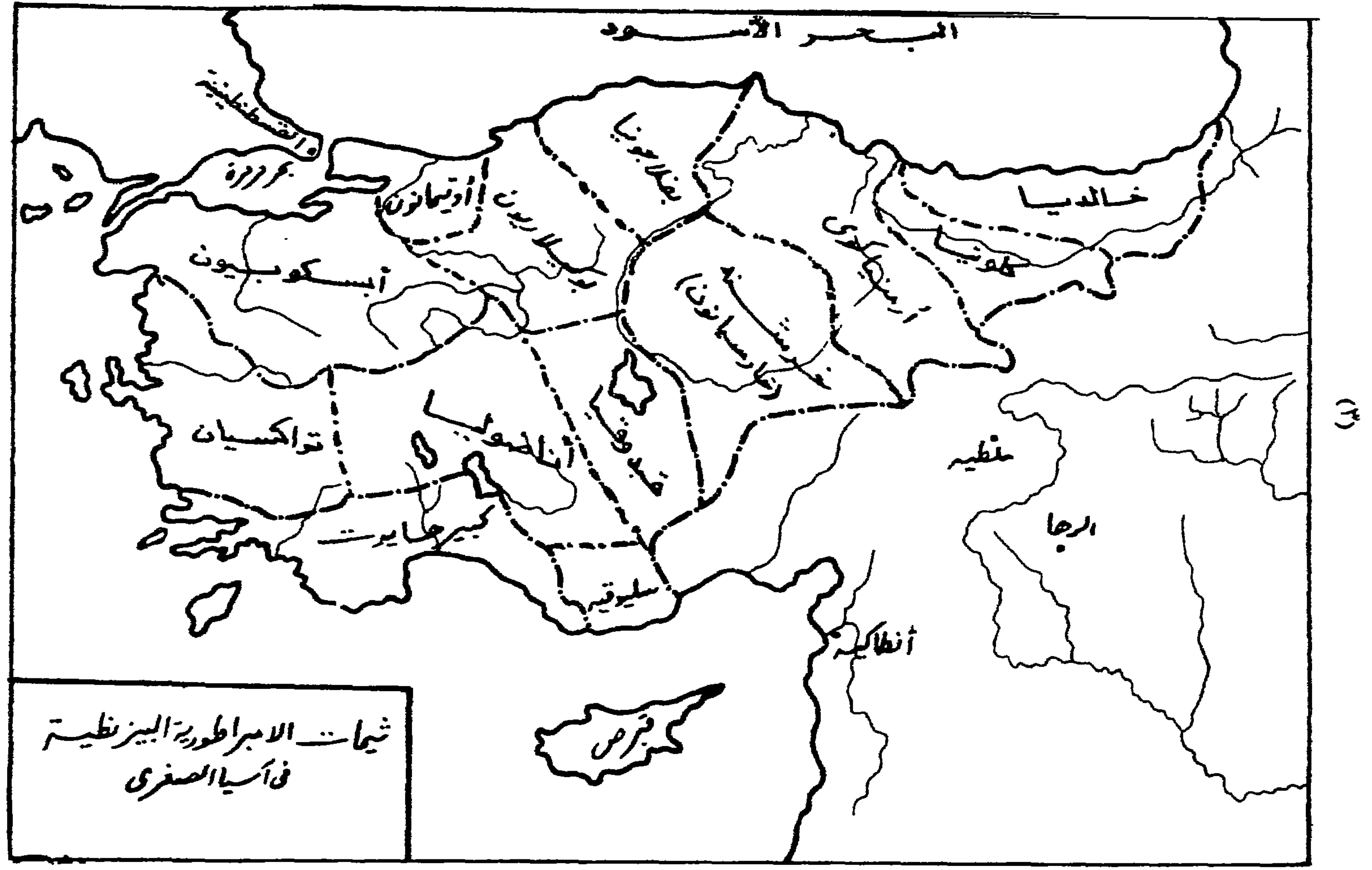
العناصر والدول المحيطة بالامبراطورية البيزنطية
نوفجورود
بلغاريا السوداء
نهر الدن
الخزر
ساركل
أتيل
مايوتيك
زيخيا
الآلان
بسبور
قرسون
البحر الأسود
الماجيار
نهر الدانوب
الصرب
البلغار
القسطنطينية
آسيا الصغرى

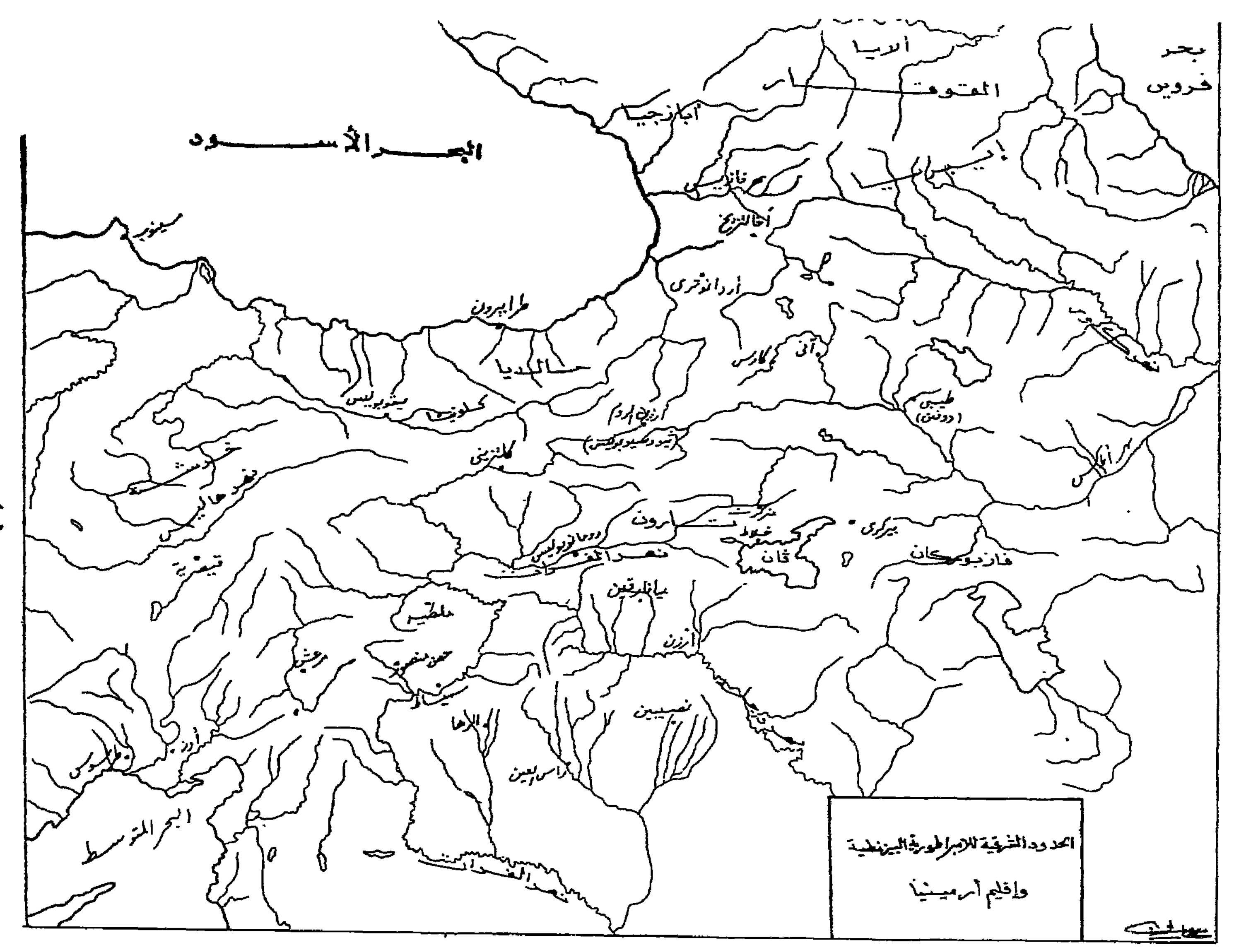
(٢)

شرق أوربا في عصر قسطنطين السابع

١- ثيم كفالونيا ٢- ثيم نيقوبوليس
٣- ثيم البلبونيز ٤- ثيم دراكيوم
٥- ثيم هيلاس ٦- ثيم سالونيك ٧- ثيم ستريمون
٨- ثيم مقدونيا ٩- ثيم تراقيه

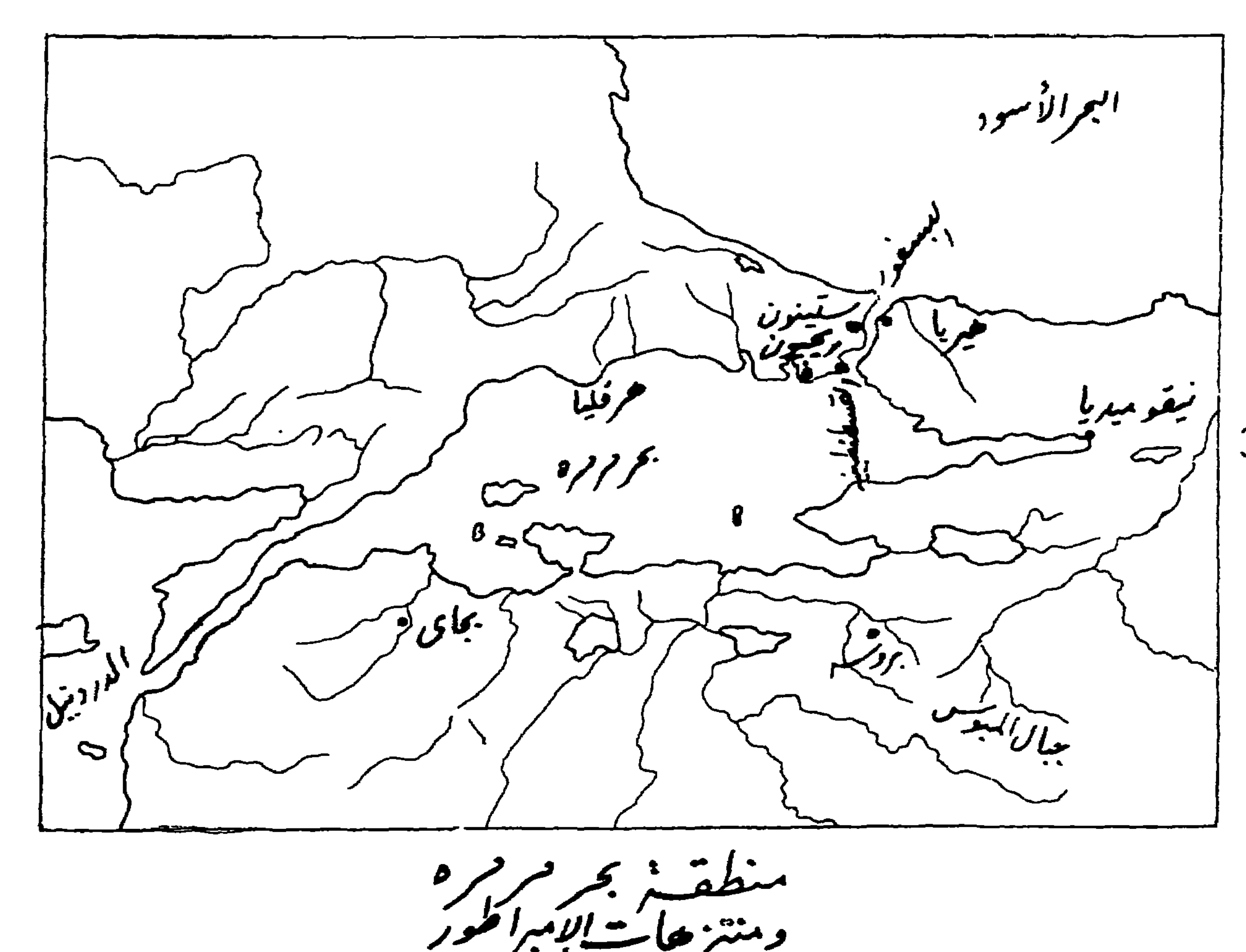
(٣)


البحر الأسود
القسطنطينية
خالديا
كلونيا
أرمنياكوى
خارشيانون (خارسيانون)
بفلاجونيا
بوكيلاريون
أوبتيماتون
أبسكوبيون
تراكسيان
أناتوليكا
قبدوقيا
كيبرهايوت
سليوقية
ملطية
الرها
أنطاكية
قبرص
ثيمات الامبراطورية البيزنطية
فى آسيا الصغرى

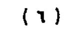


الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية
وإقليم أرمينيا

(٥)



منطقة بحر مرمرة
ومنتزهات الإمبراطور


(٦)

أدريانبول
القسطنطينية
خليج البسفور
سينوب
قسطموني
طرابزون
نيكسار
بنطس
نهر اليكوس
أماسيه
سيواس
آل دانشمند
نهر الهاليس
دولة سلاجقة الروم
جانغرى
أنقره
بفلاجونيا
نيقيه
بروسه
قيزيقوس
أبيدوس
سستوس
لوباديون
كوتاهيه
عموريه
بحيرة تاتا
فيلوميليون
لاوذكيا
قيصريه
ليكاندوس
ملطيه
الابلستين
سميساط
الرها
نهر سيحان
نهر جيحان
حلب
انطاكية
سلوقيه
لارندا
طوانه
قونيه
أضاليا
سوزوبوليس
خونيه
لاوذكيه
انطاكية
ترالس
نهر الميانذر
فيلادلفيا
ساردس
أزمير
افسوس

آسيا الصغرى

المحتوى

الفصل العاشر

الأسرة المقدونية

٤ ـ عصر بازيل الثاني ٩٧٦ ـ ١٠٢٥م

الفصل الحادي عشر

٥ ـ إنحلال النظام السياسي بعد بازيل الثاني ١٠٢٥ ـ ١٠٥٩م

ملاحق

إنتهى بحمد الله